روايات وسِيَر

محمد شكري

من أجل الخبز وحده

الأعمال الكاملة

السوق الداخلي

پول پولز - جان جينه - تنيسي وليامز



الكتاب

الأعمال الكاملة

الجزء الثاني

السوق الداخلي ـ جان جنيه ـ

بول بوولز ـ تينسي وليامز

تأليف

محمد شكري

الأعمال الكاملة

الطبعة الأولى، 2008

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-317-4

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01750507 ـ 01352826

فاكس: 01343701 ـ 961+

www.ccaedition.com

Email: cca@ccaedition.com

محمد شكري

الأعمال الكاملة

II

السوق الداخلي

جان جنيه في طنجة

بول بوولز وعزلة طنجة

تينسي وليامز في طنجة

رواية وسيرة

المركز الثقافي العربي

السوق الداخلي

محمد شكري

السوق الداخلي

روايـة

[1]

دفعني من الخلف. إستدرت. اصطدمت بشخص آخر. اعتذر لي الشخص الثاني، إعتذرت أنا للأول الذي كان يلاحق فتاة مرت قُدامه بلباس قصير، مؤخرتها ممتلئة، مشيتها راقصة. تركت الشخص الثاني يتخطاني. هو أيضاً تلتهم عيناه وجه ومؤخرة امرأة. أشم عَرَقي وعَرَقَ الزحام في كل مكان. غمرني هذا الإحساس: لا مكان لي، في هذه المدينة، أينما شئت أن أذهب. لا أستطيع أن أمتلك شيئاً فيها: الأشياء والناس. الحواجز الحديدية، التي وضعوها في هذا الشارع الكبير لتنظيم المرور، ضاعفت هذا الزحام الخانق.

حلقة جدٌ زاحمة. فسحت لنفسي مكاناً بالدفع كما أراهم يفعلون. شبان وأطفال يرفسون، ضاحكين، مؤخرة كلبٍ هزيلٍ بقسوة. الكلب يتنفس بضعف. عيناه دامعتان. أحياناً يبدو كما لو أنه يتنفس لآخر مرة. سمعت أحدهم يقول:

ـ مسكين! لا بد أن سيارة دهسته.

ـ علي!

التفت نحو مصدر الصوت: فتاة، في الرصيف الآخر المقابل، تلوح بيدها إلى شاب وسيم واقف بجانبي. لوّحَ لها هو أيضاً بيده وصاح بالفرنسية:

فاطي، إنتظريني هناك. لن تستطيعي العبور إلى هنا. سأحاول أنا العبور إلى هناك.

تَبَاوسا في الهواء. خيل لي أني رأيت وجهاً شبيهاً بوجه هذا الشاب في مكان ما. قد يكون هو نفسه. إن ذاكرتي البصرية قلما تخونني. حتى إذا لم أكن قد رأيته من قبل فإن ملامحه الجذابة تحببه إليّ. هناك وجوه تغضبني بلا سبب وأخرى تُفْرِحني.

ـ إلى الوراء، إلى الوراء أقول لكم. إبتعدوا عن الحاجز.

شاب يلتحم بمؤخرة فتاة سمينة، يداه على كتفيها العاريتين. قال للجندي:

ها نحن نرجع إلى الوراء، إنهم يدفعوننا من الخلف.

صرخ جنديٌ الحراسة بغضب:

ـ لا يهمني أن يدفعوكم. ما يهمني هو أن ترجعوا أنتم إلى الوراء.

إبتسم الشاب بسخرية. تراجع هو ورفيقته قليلاً إلى الوراء. فتاته منزعجة. أعادها الدفع إلى مكانهما. جنديٌ الحراسة ينظر إلى وضعهما الحميم بغضب. ترك الشاب يديه تنزلقان بملاطفة على كتفي رفيقته. أحاطها من خاصرتها بلذة. أصابعه تتجمع وترتخي جاذباً إياها إليه. من جديد صعّد بمهل لذيذ يديه متجمعة مرتخية أصابعه حتى لامس برفق منبت نهديها الضخمين. هبّط يديه على مهل على خصرها. ضمها إليه بعناد ولذة. وضعهما صار الآن في هياج شهواني. ضاعفت حركة خلف ـ أمام ثم أمام خلف، من لذتهما. عينا الحارس تستمنيان، تتناعسان، لم يعد يتكلم. يكاد يبتسم، تأملت أنا الفتاة المستسلمة لرفيقها. لا أحب مثل هذا الجسم الشحمي. إن شكل وجهها يشبه بطيخة حمراء. يوحي لي بالغباء مثل هذا الوجه. يعجبني الوجه الذي يشبه شكله بيضة أو قلباً. هذا الجسم المكتنز من تحت، الأسطواني من فوق، لا تروق لي شهوانيته أكثر من مرة. إنها مثل وجبة طعام تُؤْكل عن

جوع وليس عن شهية.

تحركات في كل الأرصفة حول الساحة. أعناق تتطاول من كل مكان. عجوز مغربية دامية الوجه يمسك بها أحد جنود الحراسة وأحد شرطة المرور. قدامي فتاة يلتحم بها من الخلف شاب. قالت غاضبة:

ـ إذا أنت لم تتركني فسأشكوك لهذا الجندي أو لذاك الشرطي. من الأفضل لك أن تبتعد من خلفي.

ـ إنهم يدفعونني من الوراء.

وجه الشاب مورد وعرقان، عيناه حالمتان، شفتاه لامعتان. اقتربت سيارة إسعاف من المرأة العجوز. تخبط بيديها ورجليها بين يدي الشرطي والجندي.

ـ ماذا يكون قد حدث لها؟

ـ ربما أرادت العبور إلى الرصيف الآخر فوقعت على وجهها مندهشة وخائفة من ألا يتركوها تعبر.

ـ ربما.

العجوز تقاوم الصعود إلى سيارة الإسعاف. رجال الإسعاف يمسكون بها وهي تبكي وتصرخ خابطة بيديها وترجوهم أن يتركوها تذهب. هناك من يشفق عليها ومن يضحك. رفعوها خابطة بأطرافها في الهواء. أكره هذا النوع من الشيخوخة. لا أتمنى اليوم الذي يكون لي فيه مثل هذا العجز والخوف المرعب والمضحك.

عادت لذة الإنتظار بين المتزاحمين الواقفين. إستندت إلى جدار قرب مقهى باريس. قبالتي القنصلية الفرنسية. داخل المقهى أرى أقداحاً أكثريتها فارغة، منافض ملأى بالأعقاب والأوراق المدعوكة. ملامح الجالسين فيها فقدت حيويتها، هيأتهم منهوكة، ينظرون إلى بعضهم البعض أو إلى المارة أكثر مما يتكلمون.

خيط من الدم يسيل من خطم الكلب العجوز. يغالب النعاس وعيناه تدمعان. خيط الدم يَرِقُّ ويرقّ، ينقطع ثم يتولد خيط آخر يتدلى ببطء من خطمه. تكونت شبكة دموية قاتمة رسمها تأرجح رأسه. إمرأة مغربية تنتحب. قال لها رجل:

ـ إذهبي إلى المستشفى المدني ليحقنوك ضد السعار.

التفت إلي الشخص الذي نصح المرأة:

ـ أليس كذلك؟ لتذهب إلى المستشفى.

هززت له رأسي موافقاً. أهو كلّمني أم كلم آخر ورائي؟ تكاد الوجوه يدخل بعضها في بعض. تتشابه علي الوجوه في هذه المدينة: قوس قزح. العيش فيها أخذ يبدو لي شبيهاً بأمل العيش في كوكب أزرق.

ـ إنه لا يعرف ما يقول. إن الكلب المسعور لا يكون هادئاً هكذا. إنه مريض فقط.

ـ لا بد أنها داست إحدى قوائمه فعضها.

خلع شاب فردة حذائه وضرب بها وجه الكلب. لم ينبح. يكشر عن أنيابه. حوّل وجهه بتألم، تدلت خيوط أخرى من الدم. قشعريرة باردة سَرَت في جسمي. صرخ شخص ضاحكاً:

ـ أعطه ضربة أخرى كي ينهض ويذهب من هنا أو اضربه حتى يموت.

غاضبة صاحت إمراة أجنبية بالإنجليزية:

ـ كفى! لماذا تضربه هكذا؟ ماذا فعل لك الحيوان المسكين؟

قال لها الشاب المغربي الذي يضرب الكلب بين لحظة وأخرى:

ـ إنه يعض يا مدام. ولد القحبة يعض.

لم تفهم شيئاً. احتذى الشاب فردته. قال لمن حوله:

ـ ولد القحبة حتى هو عنده من يحميه، إننا نعيش عصر الكلاب. خذيه معك وداويه يا مدام. إذا مات في الطريق فجريه إلى مقبرة الكلاب في «بوبانة».

لامه بعض الحاضرين فانصرف. سمح رجال الأمن لبعض المارة أن يعبروا إلى الرصيف الآخر. عبرت الفتاة فاطي راكضة. إرتمت مشتاقة على صدر زميلها. قبلته في فمه. ضمها بحب. التفتوا إليهما. تكلمت بلهجة فرنسية سليمة. قالت الفتاة السمينة المشدودة من خاصرتها إلى زميلها بصوت هامس:

ـ أبوها مغربي وأمها فرنسية. أعرفها، إنها تسكن في حي «مرشان».

تأملت جسمها الشحمي الذي لا يروق لي: إنك تغارين منها. أليس كذلك؟ إنها أجمل منك ورشيقة. أليس كذلك؟

التفتت إلي كما لو أني تكلمت جهراً معها. ربما أحست، من خلال نظراتي إليها، أنني أفكر فيها بسوء. حوّلتُ نظراتي عنها. بدأت أنظر إليها بحذر حتى لا أثير انتباهها. لا أريد مشاكل مع دبها الذي يخاصرها. رافعة صدرك أصغر من نهديك الضخمين، عرقك يكشف عن قذارة صدريتك البيضاء، شفتك السفلى ممتلئة أكثر من شفتك العليا، شاربك الوبري لا ينسجم مع وجهك المدور. إنك مثل تونة ضخمة.

قالت الفتاة الجميلة لرفيقها:

ـ علي، لماذا يتزاحمون هناك؟

ـ ينتظرون موت كلب عجوز، الكلب ما يزال يعض كل من يدوسه.

(ابتسم ثم أضاف): إذهبي لكي تري إذا شئت.

ـ أنت مجنون أم ماذا؟

تضاحكا بحب. ضمها إليه. التحما بلذة: فكرت: الرغبة الحقيقية، الشهوانية، لا تتم، أحياناً، إلا بمزيج هذه الأنوثة المفرطة تلطفها هذه الذكورة المعتدلة: ثلاثة أجسام عناقها واحد.

زعيق طويل يسمع من بعيد. تطلعت الرؤوس نحو مصدر الصفير الحاد. ظهر رجال الدرك ثم سيارات أمن. بعد ذلك مرَّ صف طويل من السيارات الفخمة. يخترقون الحواجز الحديدية بفوضى. يتدافعون. يتسابقون إلى العبور نحو الأرصفة الأخرى، يتشاتمون. يصرخون روائحهم الخبيثة تفوح منهم الآن أكثر مما عندما كانوا واقفين. الكلب ينهض. يسقط. يغالب ضعفه. يقوم بصعوبة. قوائمه تنكسح كما لو أنها من المطاط الرخو. فتيات يصرخن ويشتمن. المرأة الأجنبية لم تزل تحمي الكلب. المرأة المغربية المعضوضة ذهبت منتحبة. حَقْنها ضد السعار ضروري. هكذا أكدوا لها. الكلب القرقازي يمشي.

مرة أخرى وجدت نفسي يدفعونني من جميع الجهات. لم أعد أستطيع الاحتجاج على أي كان يدفعني. ما عدت أعرف المؤدب وغير المؤدب. الأمر أكثر إزعاجاً حين يطارد رجل إمرأة في هذا الزحام. قميصي يلتصق بجلدي. حككت بأصابعي صدري. تشكلت فتائل من الوسخ تحت أصابعي. أكره رائحة جسدي في هذا الزحام. الأشياء تبدو لي مقلوبة ضبابية، الفتيان يتدافعون عمداً لافظين كلمات جنسية. فتيات يشتمن الشبان الذين يقرصونهن من الخلف أو يضربونهن ضربات خفيفة على عانتهن. شاب يمشي خلف شابة. شعرها طويل أملس مثل حرير سنبلة ذرة خضراء. أخرج مقصاً وقص خصلة من أسفل شعرها ثم وضعها بهدوء في جيبه. لست أدري إن كان قد رآه غيري. فتاة أخرى تنتحب وإمرأة تدفعها أمامها بين خطوة وأخرى. تنورة الفتاة جد

قصيرة. فخذاها ممتلئتان وعجيزتها مكورة وبارزة.

ـ سأقتلك إذا طلبت مني الخروج مرة أخرى في مثل هذا اليوم.

سأل شاب آخر عما حدث للفتاة. قال:

ـ شاب محمي برفاقه عراها من الخلف أكثر من اللازم.

ـ أين؟

ـ في الزحام. كانت واقفة هي وأمها تنتظران مرور الموكب الرسمي. ظلت الفتاة ساكنة حتى فطنت الأم لما يحدث لابنتها من الخلف.

ها فخذاي جميلتان. مؤخرتي ممتلئة. سروالي القصير الشفاف، أبيض أو وردي، يكشف عن أسفلي الحليق أو غير الحليق. نهداي دون رافعتين. ميني أو ميكرو من جميع جهات الجسم. السيقان، الأفخاذ، المؤخرات، النهود والوجوه البهلوانية تتراقص بجنون وسخف في عيني. أصابتني عدوى هذا الجوع مثل الآخرين. أخذت آكل عري بعض هذه الأعضاء كما يقضم طفل حلواه، لكن هذا المضغ الخيالي أخذ يضاعف من تعب حواسي. عيناي تفترسان وعقلي يمضغ بتثاؤب رتيب مُنْهِك. سأُحْمِق إذا لم أكُفَّ عن هذا الهَوَى الخيالي. تكفيني حلوى واحدة حقيقية. كيف الحصول على هذه الحلوى البشرية؟ هذه هي الدوخة التي تُجَنِّن.

توقفتُ قدام مطعم «فلوريان». أثمان الأكلاْت على القائمة غالية في هذا المطعم.

استوقفني شاب أشعر. ملابسه وسخة، شريط من القماش الملون بعدة ألوان معقود على جبهته، حافي القدمين. قال بالإنجليزية:

من فضلك، أنا في ظروف صعبة، أعطني درهما إذا كان عندك.

قلت له بالإنجليزية:

درهم واحد فقط؟

استبشرت ملامحه وقال:

ـ ييس، أونْلي وانْ بليز!

ـ المعذرة. لا أملك أية نقود.

ـ اسمح لي.

ابتعد عني شابكاً يديه وراءه. ملامحي ليست خبيثة كما أظن. يرتاح الناس إليّ أكثر مما أرتاح إليهم. هذا ما يبدو لي. ها واحد يطلب مني درهماً. آخر كلمني في الزحام حول الكلب. فجأة أحسست بصفعة وهمية على وجهي. لماذا لم أعطه الدرهم؟ ما كان ينبغي لي أن أسأله بمثل هذه السخافة: «درهم واحد فقط»؟.

لقد تلاعبت بمشاعره. فكرت أن أركض وراءه لأعطيه الدرهم، لكن الفكرة بدت لي سخيفة. فات الأوان. سيكون زائفاً عطائي. قد يرفض درهمي. لن أستطيع أن أرغمه على أخذه مني. ربما سيطلبه من شخص آخر يعطيه إياه دون تردد. ترددي يفسد علي كثيراً من الأشياء التي تريحني.

قال الفندقي:

ـ عامر. أنظر إلى اللافتة. تَعَالَ غداً. ربما ستجد عندنا غرفة.

ـ أنا أقبل أي مكان أنام فيه هذه الليلة.

ـ أعتذر. حتى مطبخنا ينام فيه شخصان. إذهب إلى السوق الداخلي. هناك كثير من الفنادق العائلية في دروبه.

أعترف بأنه ينقصني التميز، سواء في هذه المدينة أو في سواها، ربما طفولتي الريفية ما زالت تُؤَثر علي. لا أعرف، أحياناً، أَهُمْ يتخاصمون أم يتصالحون؟ يَجِدّون أم يَهْزِلون؟ أذكر تلك المرة في شارع الملكة إليزابيت: كان الشخصان يتغالبان. لم يستطع أحدهما أن يطرح

الآخر على الأرض. سدد أحدهما لكمة قوية لغريمه. تدخلت بينهما لأَفِرِّقَهُما في لحظة عنيفة. أصابتني لكمة في وجهي. دُخْتُ. سال الدم من فمي. ترنحت وابتعدت عنهما. مرت على عيني غشاوة عَمَى الألوان وهما يضحكان. قال لي أحدهما ضاحكاً بجنون:

ـ هل أنت بخير؟

إنصرفت باصقاً دمي وتركتهما يستأنفان عراكهما ضاحكين، صارخين.

ها هي واحدة سمراء تمر إلى جانبي. نظرت إلي بإغراء، سروالها القصير الأبيض تكشف شفافيته عن استدارة «سليبها» المطرز بنجيمات مثقوبة. ذراعاها جميلتان وإبطاها يطل منهما الزغب الأسود. إبتسمت لي عيناها. إن مثل هذه الإبتسامة تمطط الشرايين. إبتسمت لها. ضحكت عيناها وانشرحت ملامحها. رأسها غلامي. لا تبدو عليها ميوعة الأنوثة.

ـ هل أصحبك؟

تطلعت إلي.

ـ إلى أين؟

ـ إلى حيثما تشائين. إنني حر.

نهداها صغيران. نوع من الوحشية الفتية تخفق في جسدها كله. رائحة عطرها توقظ حواسي. توقفت قدام متجر هنداوي.

ـ لحظة. أدخل معي، إذا شئت. سأصارحك: منذ أيام اشتريت ثوباً صيفياً بسبعين درهماً. دفعت أربعين منها لصاحب هذا المتجر. ينبغي لي أن أدفع له ثلاثين درهماً الباقية لآخذ هذا الثوب معي الآن. أكمل لي هذه الثلاثين درهماً.

وافقت. لَدَى دخولنا المتجر لامسني نهدها المتصلب في ذراعي.

تمشت اللذة مرعشة جسدي كله. إنها واثقة من نفسها. امتزجت رائحة عطرها برائحة عود الند الذي يفوح في المتجر. دفعت الأوراق الثلاث. تخدير طفيف يسري في جسمي. تأبطتْ ثوبها وشكرت التاجر الهندَاوي بالإسبانية. ردَّ عليها الرجل باحترام:

ـ الشكر لك أنت يا آنسة.

«وجدتها»! هل أشرع في رقصة عارية خيالية؟

توقفتْ «ميني أوستين» بيضاء قرب الرصيف. فتح الباب. نادى شاب أُنْثَوِيٌّ شَكْلِ رأسِهِ وصوتِه:

ـ فطيمة! أنا أفتش عنك، أين كنت؟

أهي لعبة بينهما؟ التفتت إلي قائلة باضطراب:

ـ أوه! أعتذر. انتظرني هنا عبر الشارع. سأعود إليك في لحظات.

صدقني. سأعود بعد قليل ونذهب حيثما تشاء.

قبلتني قبلة سريعة في فمي وأسرعت. قبل أن تدخل إلى السيارة لوحت لي بيدها باسمة وأنا أنظر إلى خلفيتها الجميلة. قبلة أخرى هوائية أرسلتها لي من داخل السيارة. قبلة أخرى مع إقلاع السيارة. تلويحة وقبلة والسيارة تبتعد. إنها خدعة مدبرة بينهما. لا شك في هذا. قبلة خفيفة كفقاعة من رغوة الصابون ثمنها ثلاثون درهماً. أخرجت منديلي ومسحت فمي: لَوْنٌ بُنِّيٌّ. قبلة بنية ثمنها ثلاثون. وفَرْجُها؟ فكرت: إن ما حدث لي لن يعيد التجربة من أولها. إنها مثل لعبة الفليبر: إذا وضع اللاعب القطعة النقدية في الشق فإنه لا يسترجعها.

ها أنا أنسى ما تعلمته في حياتي. ربما سأنسى أيضاً ما أتعلمه هنا. كثيرة هي المرات التي قلت فيها لنفسي: لن أنخدع بعد اليوم، لكني لا أكاد أتأمل فيما حدث لي حتى يفاجئني حدث جديد ينفي ما اختزنته من تجارب. هكذا يصعب علي أن أقبض على شيء أكون متأكداً من فهمه

وعدم الوقوع في خدعته. إنني أنخدع في نفس الشيء عدة مرات ولنفس الأسباب. لست أدري ما هي العلة الحقيقية؟ أهي كيمياء نفسي البطيئة تجاه كيمياء الأشياء الأسرع؟

قهوة سوداء في فنجان لكي أستعيد توازني. سوداء دون سكر مع قليل من الكونياك وشريحة ليمون. إنني أستعذب هذا المزيج قبل تناوله. ياللذة! لعل غفلتي سببها هذه الدوخة التي أفقدتني صفاء ذهني هذا المساء. ما ينقصني، أحياناً، هو الانسجام مع الأشياء والناس. عجباً: عرفت تلك الفتاة كيف تسلبني ثلاثين درهماً ولم يعرف ذلك الهيبي الشقي كيف يأخذ مني درهماً واحداً. أهذا معناه أن الرجال أغبياء مع بعضهم البعض والنساء كذلك مع بعضهن. . . ؟ إذا كان هذا صحيحاً فإن هذه الخدعة ربما يكون سببها ثقة الانجذاب الطبيعي بين رجل وإمرأة. من كثرة ما قد يعتقد إنسان أنه رجل مع إمرأة فقد تضيع منه رجولته معها. إن الجنس فخ!

مقهى «زالهورة» يعوم الآن في بحيرات من الأضواء. مصابيح مدفونة وزهور اصطناعية مغروسة في حواشي السقف. هيا، انتبهي يا خلايا مخي! تجددي. . !

دخلت. جلست قدام الباب. ظهر شيخ مغربي وراح يجمع المقاعد ويقلبها فوق الطاولات بحيوية. غير ممكن. هل هم أيضاً سيكنسونني من هنا؟ اقترب مني النادل القصير وقال:

ـ اسمح لنا، سنقفل.

ـ الآن؟

ـ نعم، الآن. إننا تأخرنا أكثر من اللازم.

ينظر إليّ وفي يده حفنة من النقود. لم أعرف أيَعُدُّها أم هو فقط يتسلى بنقلها من يد إلى أخرى! يبدو عليه التوتر. نحيف وشاحب. انسحب مُدَمْدِماً بكلمات لم أسمعها بوضوح. أخذ يكلم الحاني الذي

أسمعه يشغل الآلة الحاسبة بصخب. نظرت إلى الشارع. خطوات بعض المارة تكنسه في تعب وملل. خرجت.

في الماضي، حين كنت أعيا من الحديث مع الناس، أقول لنفسي: أسبوع. أسبوع كامل سأتحاشى خلاله أية علاقة بشرية. سأكلم الأشياء في صمت: الشمس، السماء، البحر والغابات. طبيعة الأشياء لا طبيعة الناس.

أعيش ليومي.
بلا حَسرةٍ لفَواتِ الأوَانِ.
إذا الغد جاءَ.
نسيتُ به كُلَّ ماضي زماني.

هذا ماقلته ذات يوم. هل أنا قادر اليوم على أن أعيش هذه الفكرة؟ يخيلُ إلي أن زماني يندفع إلى الأمام أكثر من اللازم. إنني أجد الناس في كل مكان أولا أجدهم في أيِّ مكان.

توقفت سيارة الأمن. نزل منها الشرطي وقال لي:

ـ إطلع.

قلت له:

ـ عندي البطاقة الشخصية.

ـ أقول لك إطلع.

لهجته يفهم منها: «اركل الهواء إن استطعت. عضَّ على الغُبار». الهواء لا يُرْكَل. الغبار لا يُعَضُّ. إذن سأصعد.

كان ثلاثة أشخاص داخل السيارة. قال الشخص السكران:

ـ لست أدري لماذا يقبضون عليّ! لست سكران، لم أتضارب مع أحد، مع ذلك.

زجره الشرطي السائق:

ـ هل ستغلق فمك أم لا؟

بعد كل شيء يكنسونني بهذا الشكل. في الصباح سيسرحونني. هذا ما يحدث غالباً في مثل هذه المناسبات الرسمية. إنهم يطلون الجدران، ينظفون الشوارع ويقبضون على المشبوهين. كل شيء يعود إلى قذارته حتى يقترب أوان زيارة رسمية أخرى. هذا ما يحدث في مدينتي: مدينة الدولار و «هللومان»!، «كمان ديس وي مان»! لا بد أن يحدث نفس الشيء في هذه المدينة التي بدأت تكشف عن نفسها. مدينة داعرة كما سمعت وقرأت عنها مثل مدينتي التي حبلها الأمريكيون ثم هجروها. هناك حكاية عن مدينتي تقول بأن جندياً أمريكياً نكح حمارة في حقل وعلق لها ورقة مائة دولار في أذنها.

توقفت السيارة. هبطنا ودخلنا إلى المركز. كان هناك أشخاص جالسين على مقعد خشبي طويل. فسحوا لنا مكاناً وجلسنا. السأم باد عليهم. بين حين وآخر ينادي شرطي على شخص أو شخصين أو أكثر للتحقيق. عاد الشرطي الأول الذي ركبنا معه. طلب مني أن أتبعه إلى ممر. قال لي:

هات هُوَيَّتَك.

أعطيته إيّاها. ألقى عليها نظرة ثم أعادها لي:

ـ يمكن لك أن تذهب الآن، لكن كفاك تسكعاً.

أردت أن أقول له شيئاً. لم تطاوعني الكلمات. مرة أخرى سحت في ليل المدينة. فكرت في أن أدخل إحدى الحانات لأشرب. كلا. لن أدخل. المحترفات يتصرفن دائماً بسخافة واستهتار. إنهن يطلبن مشروبات كحولية باهظة الثمن، لكنهن لا يشربن غير مشروب ملوّن. تطلب إحداهن كريم دومنت ماري بريزار فَيَصُبُّ لها الساقي محلول النعنع الطبيعي. تطلب جين طونيك بالليمون فتشرب طونيك دون جين. تطلب ويسكي فيعطونها محلول الشاي الأسود الخفيف. حين

يسكر الواحد وتنفد نقوده غالباً ما يقذفونه إلى الهواء الرطب في الشارع وجيوبه مقلوبة إلى الخارج. مثل هذا فعلوه لي ولغيري مرات في مدينتي. آخر مرة قذفوني من «حانة كيوبيد» حوالي الثالثة صباحاً. كنت قد أنفقت كثيراً على إحداهن ولم ترد، كما كنا قد اتفقنا، أن تصحبني في النهاية إلى منزلي. قد يطعنون الواحد إذا هو بالغ في الإحتجاج، وامتنع عن الانصراف. سأذهب لأفتش عن فندق. غداً سأتعرف على المدينة دون دفع ولا زحام. أتمنى ذلك لأن الموكب الرسمي قد مر. توقفت سيارة الأمن.

ـ إيه أنت! تعال هنا!

دَوْرِيَّةٌ أخرى. قال الشرطي الأول:

ـ إركب.

ـ قبضوني وسرحوني.

ـ سرحوك؟ متى سرحوك؟

ـ منذ لحظات. إنني قادم من المركز الرئيسي.

ـ معك بطاقة التعريف الشخصية؟

ـ نعم، ها هي.

وضعت يدي في جيبي لأريها له.

ـ اذهب إذن، لكن هذا ليس وقت التسكع.

ـ إنني أبحث عن فندق.

إنطلقت سيارتهم ببطء عبر الشارع. قرأت على لافتة الإعلان: «مطعم الشواء». دخلت. المطعم خال.

قال الشاب، قبل أن أسأله من وراء الحاجز الخشبي:

ـ أطفأنا النار. أنت ترى.

ثم أشار إلى مجمر الفحم الخامد. قالت فتاة تبدو سكرانة، جالسة في أقصى القاعة:

- سد الباب وآجي هنا. ما تصدع راسك.

خرجت. معها الحق. لماذا لا يقفل الباب؟ لقد تواجدا. أنا لم أتواجد بعد حتى مع نفسي في هذه الليلة. الفروج هي التي تحكم في الليل. السلطان في النهار للرجل وفي الليل للمرأة. أعصابي تتوتر، يداي ترتعشان. ساقاي تؤلمانني.

سألت رجلاً مر إلى جانبي:

- كم الساعة، من فضلك؟

- ليس عندي ساعة. آسف.

إنسان مهذب. يقال إن طيبة الإنسان تظهر على ملامح وجهه. بالذات في العينين. «عين المرء باطن قلبه». هكذا سمعت أو قرأت. لكن اليوم يبدل الناس قلوبهم كما يبدلون أسنانهم المنخورة. ماذا سيقال، مثلاً، عن إنسان زرعوا له قلباً من مادة لَدِنَةٍ أو قلب خنزير؟

ساعة المتجر تشير إلى الثالثة وخمس دقائق. من المحتمل أن تكون الساعة الآن الواحدة صباحاً أو أكثر قليلاً. أشتاق إلى أن أعرف ذلك الانبثاق الأول للتفكير. إنه شبيه بخروج فرخ من بيضة. الإنسان يوجد ثم يراقبونه ويفكرون من خلاله. يقولون عنه لبعضهم البعض: «أسمعته ماذا قال منذ لحظة؟ إنه رائع هذا الولد». بعد ذلك يبدأون معه تلقين مبادئ الأخلاق. يقولون له، مثلاً: هذه لك. هذه ليست لك، هذا قبيح. هذا جميل.. «حين يعي الأشياء بوعيه الخاص، يقول لنفسه: «ها أنذا أحس بهذا هكذا. ها أنا أفكر. هذه لي. هذه ليست لي.. هذا قبيح حقا. هذا ليس قبيحاً. هذا جميل وهذا لا». «حينئذٍ يكتشف أنه يوجد مرتين: مرة قبل وعيه الخاص ومرة بعد أن يعي وعيه

الخاص». أسرتي كانت تقول لي: «لقد كنت تصرخ كثيراً. كنت شرساً. كنت تحب هذا وتكره ذاك». حين بدأت أفكر بنفسي عجبت أن يكون قد حدث لي ما حدثوني عنه دون أن أذكر منه شيئاً اليوم.

الساعة ما زالت تشير إلى الثالثة وخمس دقائق. غداً، إذا لم يصلحوها، ستشير إلى نفس الوقت. أنا الآن مثل هذه الساعة. لم أجد لي مكاناً بعدُ. كما لو أن زمني فات أو لم يأت بعد. الأماكن محجوزة أو هي في إنتظار من يملك دفع ثمنها. أحياناً تتاح لي الفرصة لكي أوجد بعض العلاقات، لكن الشرور التي وقعت فيها تصرخ في ذهني: «لا، إحذر جيداً. لا تثق في هذا الشخص. إنه شرير. ألا تراه كيف ينظر إليك؟ هذا المكان مشبوه. حذار أن تدخله، تذكر تجربتك الماضية. إلزم حدودك».

تجارب الأمس لا تصلح لليوم. تجارب اليوم لن تصلح للغد. أعتقد أن هذا ليس صحيحاً بشكل مطلق. إن هناك مفارقة: إذ قد يحدث تغيير زمني ولا يحدث في التجارب المعيشة سوى تغيير طفيف. أحياناً، أعيش إحدى التجارب أكون قد عشت تجربة تماثلها منذ سنوات.

جلست على مقعد جرانيتي في الممشى العمومي. شاب يقترب مني. يتنغم بلحن. لوحة تتأرجح في يده. خطواته لا تتماسك. سكران. توقف أمامي. عرض علي لوحته الزيتية.

ـ إشرها مني.

تطلعت إليه.

هل رسمتها أنت؟

ـ نعم، أنا. سأسافر إلى هولانده لأتابع دراستي هناك في معهد الفنون الجميلة.

تأملت اللوحة: فتاة عارية. شكلها وحشي. لها عينان كبيرتان تتحديان من ينظر إليها.

ـ آسف. ليس عندي نقود.

ـ كم تعطيني؟

ـ ليس عندي نقود، ولا مكان لي أضعها فيه. أنا لست من هنا.

ـ أنا أيضاً لست من هنا. أنا من تطوان. هات ما عندك وأعطيها لك.

ـ أنا آسف. ليس عندي شيء.

ـ كم الساعة الآن؟

نظرت إلى ساعة المتجر.

ـ ليس عندي ساعة، وساعة المتجر تلك عاطلة.

التفت نحو الساعة وقال:

ـ هل عندك سيجارة؟

ـ آسف، نفدت سجائري.

هل تصحبني؟ سنبيع هذه اللوحة ونشرب معاً في حانة.

ـ شكراً. إنني متعب. أفتش عن مطعم وفندق.

نظر إلي بهزء للحظة. إنصرف. سمعته يردد: «لا مطعم لك، لا فندق ولا سجائر، ماذا عندك إذن»؟.

هبطت إلى السوق الداخلي. في مقهى «سنترال» استرخيت فوق كنبة. وجبة طاجين البطاطس باللحم التي أكلتها في أحد مطاعم هذا السوق تنعجن في معدتي الآن بشكل سيّئ. لم يكن الطعام جيداً. لم أحب أبداً الطعام كمتعة لذاته. أحب دائماً الطعام من أجل المتع الأخرى الممكنة من خلاله.

الفندق عامر. تعال غداً باكراً واحجز لنفسك غرفة. هذا ما يقوله

الفندقيون في هذا السوق الداخلي. لو كانت عندي نظارة لونها غامق لنعست قليلاً جالساً فوق هذه الكنبة. بعض الحيوانات تنام وعيونها مفتوحة. لماذا لا يستطيع الإنسان أن ينام مفتوح العينين؟ سمعت أن هناك ناساً يستطعيون النوم وعيونهم مفتوحة. قد يحتاج هذا إلى إرادة عالية. كل شيء ممكن. لكن كيف؟ إن كيمياء الأشياء والناس صعبة. هناك أنواع من الموسيقى أحب دائماً سماعها، لكن الغريب هو أن نفس الموسيقى تحزنني تارة وتفرحني تارة.

دخنت كثيراً. شربت قهوة بالحليب ثم ماءً معدنياً. لا أستطيع الآن حتى أن أنظف أسناني من الحموضة التي تضايقني دائماً، بعد الأكل، في فمي.

كان يجب علي أن أضع في جيبي فرشاة الأسنان والمعجون قبل أن أسلم حقيبتي إلى أمين مستودع القطار. لم يبق في القهوة سوى ثلاثة شبان منفوشي الشعر. إثنان أجنبيان يتكلمان بالإنجليزية والثالث مغربي يتكلم معهما بإنجليزية رديئة. كان الهيبيان يتلفظان ببعض الكلمات المغربية وهما يبتسمان أو يضحكان.

«مزيان بزاف». «الهمد للّه». «إن شا اللّه...».

حين سمعت النادل يقول لي: «إيه! سبحان اللّه! أفق من فضلك». كنت أنا الوحيد في المقهى.

[2]

الإقامة هنا، في فندق «لاكليريير» La Clairiere رائعة، لكنها فوق مستواي المادي. كل نزلاء الفندق مصحوبون إلا أنا. جلست في الشرفة المطلة على هاوية مشجرة. هواء هذا الصباح يهب محملاً بمزيج من روائح هذه الغابة. صاحبا الفندق فرنسيان. الرجل كهل. زوجته تبدو أكبر منه. هي مليئة بالحيوية، وهو يقضي معظم وقته يقرأ الجرائد أو ينظر إلى برامج التلفزة الإسبانية. الخادمة فتاة مغربية. تبدو محافظة في سلوكها. ها هي آتية بإفطاري. صباح الخير قالتها بصوت هامس. حييتها ناظراً إلى تورّد وجهها الشاحب. تكتفي بأنصاف النظرات. بشرتها بيضاء والزغب وافرٌ على ذراعيها. يداها موردتان لامعتان. ربما كانت تغسل شيئاً في ماء ساخن. مشيتها غريبة حين أدبرت. مشت جانبياً ساترة مؤخرتها بالصينية. بدأت أتناول فطوري وعيناي على القاعة منتظراً ظهورها لأطلب منها المنفضة. ناديتها، إقتربت مني أكثر خجلاً من السابق. شفتاها مزمومتان. نظرتها طفولية. وقفت شابكة يديها وراءها. ذكرني وجهها بوجه فتاة في لوحة قوطية.

ـ منفضة، من فضلك.

قالت إيماءة رأسها:

ـ نعم.

خطت خطوات إلى الوراء قبل أن تدبر في مشيتها الغريبة محاولة أن تستر بيدها اليسرى جانب ردفها. غريبة هذه الفتاة. مؤخرتها تبدو عادية. لماذا إذن تحاول سترها؟ أتكون قد حدثت لها مشكلة مؤلمة مع مؤخرتها؟ مشاكل المؤخرات لأصحابها وليست لي.

حيث وضعت لي المنفضة كانت يدها اليسرى خلفها. أنا أيضاً شكرتها بحركة من شفتي ورأسي حتى أعفيها من الرد بالكلام. لم أتابعها بنظراتي حتى لا أحرجها. كل شيء يمضي هنا بهدوء وبأقل ما يمكن من الكلام. الغابة عرس. شقشقات الطيور، شدوها وأنسام العبير. العالم الصاخب في غياب تام هنا. أمس، حين تمشيت في هذه الغابة، كنت أسمع انكسار أوراق الأشجار وانسحاقها تحت قدمي وعبير الأرض يضمخني. لم يسبق لي أبداً أن استنسمت مثل تلك الرائحة العتيقة التي ظلت مختزنة عشرات من فصول الخريف. ما رأيت من قبل مثل ذلك البساط البني من الأوراق. وحدتي تلك بدت لي مغرية بالحياة والموت.

إنتابني شعور بأن أكون وحيداً وألا أكون. أن أعود إلى المدينة ولا أعود. فكرت أن الإنسان، في مثل هذه العزلة، إما أن يسمو فيها إلى منتهى العقل أو يسقط في منتهى الجنون.

السماء صافية في هذا الصباح. حين تغيم تخيفني. إنها تبدو لي مثل صحراء ثلجية لامتناهية. هل أبدأ في قراءة «معنى القلق» لكيركجور KIERKEGARD أو «الزمان الوجودي» لعبد الرحمان بدوي؟ لقد تَخليتُ أمس عن الاستمرار في قراءة «شيطان في الفردوس» لهنري ميللر. إن حياتي هنا، على هذه الوتيرة، تجعلني أعيش في شبه ماض محض. الحاضر ينحسر كل يوم. المستقبل يكاد ألا يكون له أي معنى. كأنه مجرد أحلام يقظة. كنت أعتقد أن الملل يصدر عن الغباء وحده. إن هذه الوحدة ستكسبني عزاءً تافهاً. لو أني كنت عبقرياً لكان

لهذه الوحدة تبرير ومعنى. لكن، مع ذلك، أنا أحبها مع قليل من الكراهية لحياة يزداد كل يوم ضجرها. فن العيش أم نضاله؟ لا أدري بعد. الغباء هو أن يكون لكل سؤال جواب.

قرأت حوالي ساعة في «الزمان الوجودي». ثم ذهبت أتجول بعيداً عن هذه الفرجة. أزيز الصراصير في كل مكان. يتعاظم أكثر في العراء الذي لا ظلال له. الشمس اليوم تنشف الحلق وتدوخ. سلكت طريقاً منحرفة عن طريق «رأس سبارطيل» لم تكن هناك، في مدخل الطريق، أية علامة للدلالة. كانت طريقاً منحرفة معبدة بالزفت. منذ سنوات لم أتمش في مثل هذه الطريق الخالية من مرور السيارات والناس. الأشجار والطير وصرصرة الحشرات وهذه الشمس غير المخيفة. ما هو مخيف لي، في مثل هذه الوحشة، هو الإنسان الوحش.

إنتهيت إلى ساحة صغيرة. قبالتها مدرسة إبتدائية. المقاعد تبدو، من خلال النوافذ الزجاجية الغبراء، المكسور بعضها، تبدو مهجورة هذه المدرسة. بيوت صغيرة منثورة بعيداً بين الأشجار. ظهر طفل كأنه نهض من الغبار. يدنو مني على مهل. عيناه في عيني مسكينتان، جائعتان. مدّ لي يده كغصن جاف:

ـ أعطني «التحريرة» (صدقة العطلة).

لا شك أنه يدرس في هذه المدرسة. أعرف أن كلمة «التحريرة» لا يستعملها إلا أطفال الكتّاب. أعطيته خمسين فرنكاً. طفل آخر وآخرون فاجأوني كأنهم كانوا يلعبون معي الإستغماء. إقتربوا مني يطلبون التحريرة. وزعت عليهم نقودي الصغيرة. سألتهم عن إسم المكان. أجابوني صارخين كما لو أنني طلبت منهم جواباً جماعياً: «هذي مديونة». قرية مديونة إذن. طاردوا بعضهم بعضاً راقصين في الهواء صارخين. غريب هذا العالم. إما أن تجد الناس دفعة واحدة في ظروف غير منتظرة حتى تمل منهم أو لا تجد أحداً.

عدت من حيث جئت. طنين الحشرات يتعالى من كل مكان. زوج من الحجل طار على مقربة مني. السراب في عيني. في وسط الطريق كانت هناك، هذه المرة، سيارة واقفة. لم يكن داخلها أحد. دمدمات رجل وامرأة تصلني من بين الأشجار. صوت المرأة قال بإنزعاج:

ـ انتظر، انتظر حتى يمر.

أشجار الصنوبر الصغيرة كثيفة. إنهما يريانني ولا أراهما. في السماء طائران أسودان، يحومان وينسابان في هاوية السماء، يصعدان ويتقاطعان، يحلقان في اتجاه واحد، يتماسان ثم يتقاطعان.

ربما الآن، بعد أن ابتعدت عن مكانهما، سيلج لحم الرجل في لحم المرأة باطمئنان وحرارة. ستفوح رائحتهما في هذا الهواء الساكن الطري. الإنسان للإنسان والطير للطير.

في طريق عودتي إلى الفندق، رأيت أطفالاً واقفين على حاشية الطريق يرفعون في أيديهم أشياء للبيع ـ كلما ظهرت أمامهم سيارة: نوى شجر الصنوبر في أكياس بلاستيكية، تيناً، ثمرات التين الشوكي، نعنعاً، باقات زهور وحشية، ثمرات الدوم، الدقانيش مشدودة مناقيرها بريشها حتى لا تعض. كل واحد منهم، تفصله عن الآخر مسافة. واحد منهم كان جالساً على صخرة يدخن سيجارة بنشوة، أمامه باقات زهور. لم يكن يرفع باقة إلا عندما يرى في السيارة امرأة إلى جانب رجل. كانت هناك عجوز بائسة تستريح مستندة إلى صخرة حاملة على ظهرها رزمة حطب كبيرة. تأملتني بملامح مكدودة وأنا أمر أمامها. فكرت أن أشتريها منها وتتركها هناك لأريحها من تعب حملها، على الأقل في هذا اليوم، وبيعها في أحد الأفران في المدينة. غير ممكن. إن نقودي محدودة. العطاء بهذا الشكل لا نهاية له في هذا الوطن. قد تحملها حتى وإن دفعت لها ثمنها بعد أن أختفي.

السيارات تمر، الأطفال يرفعون بضائعهم الصغيرة، المرأة تستريح

إلى الصخرة وأنا ماض إلى الفندق ـ المحارة. تساءلت: فن العيش أم نضاله أم مزبلة العالم؟ إن الاختيار رهيب.

بعد الظهيرة وقفت فوق الصخرة العالية. أحسني الآن أسترد نفسي الضائعة. المدينة كلها أمامي. لم تعد مغرية. إنها تمثل قلعة مساجين. كنت أحسني فيها مجرد كائن بسيط. أشعرني مسروقاً أينما كنت. هنا موجود لنفسي. كل ما حولي الآن يؤكد لي وجودي: قبور سيدي عمار، الصخور والأكواخ، البحر والمدى الضبابي والسماء. لم أعد مثل نملة يهددها الزحام بالإنسحاق... إحساس غريب يباغتني. الآن. كيمياء نفسي تتغير. رأسي يتكهرب ويدوخ. خفقات قلبي تعنف. أكاد أفقد وعيي. أحسني أغرب مما كنت في المدينة. نفي مخيف يخترقني. نظرت إلى الهاوية. لم أستطع أن أصرخ لكي أطرد شعوراً طاغياً يلح عليّ بأن أقذف نفسي إلى هذه الهاوية. ارتسم أمامي ظل إنسان، تلفتّ ورائي بسرعة رافعاً يدي معا في دفاع. لم يكن سوى قميصي. ظل وهمي. ابتعدت عن حافة الهاوية مرتجفاً. مسحت وجهي بكم قميصي. نزلت لاهثاً من على الصخرة أتشبّث بنتوءاتها مثل حيوان يمشي على أربع. أحسستني خائراً، خائفاً. عدت إلى الفندق لأحمل حقيبتي وأعود إلى المدينة.

[3]

اشتريت ساعة. أحياناً أحس جسمي جديداً كساعتي هذه. استغرق مشيي من السوق الداخلي إلى شارع محمد الخامس عشرين دقيقة. تخطتني امرأة حُبْلى، قصيرة، تمشي جيدا. تخطاني رجل وامرأة يتكلمان بحدة. يسرعان في المشي. هي منفوخة مؤخرتها وهو منفوخة بطنه. مدّ عجوز يده اليمنى:

ـ صدقة للّه يا ولدي!

أعطيته قطعة نقدية. يمسك بيده اليسرى منديلاً أحمر مرقطاً بالأسود والأبيض. عيناه قرمزيتان، مريضتان. أحسست بانعكاس مرضه على عينيّ. وخزات وتدمّع يضبب رؤيتي. أفضل الموت على أن أكون في مثل حال هذا الإنسان. رجلان واحد يرتدي جلباباً والآخر سترة وبنطالاً، يمشيان متلاصقين ويداهما مشبكتان. تضامن؟ أُخوَّةٌ دينية؟ بدويان يخافان أن يضيع الواحد عن الآخر في المدينة؟ لست أدري. شابة وشاب يتباوسان. يمشيان متمايلين. تعانقه وتلاطفه يلتفتون إليهما. توقفا وتعانقا. يبتسمان. الفتاة تبدو أكثر إيجابية من الشاب في المغازلة.

دام سيري من الشارع الذي كنت فيه إلى حيث أنا عَشْرَ دقائق: سأحبس تنفسي لأحس بالزمن يختنق. أحس بصدري كطبل مشدود جيدا جلده والثواني تمر. تضيع في العدّ كذرات الغبار في شعاع

الشمس ينسرب من ثقب إلى غرفة عاتمة. يستحيل القبض على حركة الزمن بهذا الشكل الصبياني وحبسه مثلما يمكن، أحياناً، أن يفعل الإنسان مع نفاياته وأصواته المعوية. الزمن موجود. يخترقني، يمتص جسمي المليء بالأعضاء التي تقرفني قذارتها وتخيفني أشكالها. أن أحس الزمن أو لا أحسه، هذا لا يغير حركته. لا أذكر متى فكرت فيه لأول مرة. سمعت ذات يوم أخوين يتحدثان: الأول في الثالثة من عمره، الثاني في الخامسة. سأل الأصغر:

ـ متى سنذهب إلى طنجة؟

أجاب أخوه:

ـ حتى ننعس ونفيق. ننعس ونفيق ثم نذهب إلى طنجة.

ربما هكذا كنت أفهم الزمن في عمرهما. مرة واحدة أذكرها بصفاء ذهن.

سألت بخوف في الظلام:

ـ ماما، متى سينتهي هذا العواء والنباح؟

ـ نَمْ ويختفي العواء والنباح. نَمْ. لا تخف من شيء، إننا هنا معك.

فهمت من أمي أن النوم يقتل الخوف. الخوف لا يوجد إلاّ حين أفكر أنه موجود. مجرد صوتها يحميني من العواء والنباح في الظلام. صوتها أيضاً يسكت النباح والعواء. الظلام أخافه حتى بدون نباح وعواء، لكن الخوف يكون، أحياناً، أقوى من النوم، أقوى من صوت أمي في الظلام. صوتها كان يجعلني أحلم في تلك السن. أناديها من أجل لا شيء. أناديها فقط لكي أسمعها تتكلم. حين كثرت الأصوات من حولي ضاع صوتها كما ضعت في الزحام في اليوم الأول من وصولي إلى هذه المدينة. «جئت، رأيت، انتصرت» (يوليوز قيصر).

جئت ورأيت ولم أنتصر بعد. لم يعد في وسع أمي الحنان ولا العتاب. حتى الآن فكرة الزمن غامضة في ذهني. إحساسي به أقوى من فهمي له. أنا الذي أخلقه أم هو؟ أستهلكه أم يستهلكني؟ أم كلانا يخلق الآخر ويستهلكه؟ أذهب فيبقى أم يذهب فأبقى؟ كيف يمكن إبطاؤه أو إسراعه؟ أهو ممكن إيقافه بشكل ما؟ أدركه مثل الأشياء والأشخاص. إذا أنا لم أفكر فيها لا توجد. إذا أنا لم أفكر فيهم لا يوجدون. الثلج يطفئ النار والنار تذيب الثلج، لكن ما أنا بثلج ولا أنا بنار. هكذا يظل الزمن هو الأقوى.

تأملت فخذي فتاة ممتلئة من الخلف. كانت جالسة على مقعد قاس. الخطوط الوردية في فخذ واحدة كندوب. كانت تضع ساقاً على ساق. هذا ما تقوله الخطوط الأفقية في فخذها اليمنى.

طفلة تمسكها أمها قدام شجرة الرصيف قالت لها:

ـ بولي ولا تخافي.

انفجر شيئها وفار شلال صغير في حوض الشجرة. أمها تبتسم لها وطفلتها شبه خائفة تبول وتنظر إلى الناس الذين يرونها. جرح، جرح مفتوح يفور ويفور. فكرت في وردة دون أشواك. لا قيمة لوردة دون أشواك. فكرت في أشياء كثيرة لا وجود لها إلاّ في خيالي، وجودها في الواقع يوقفُ ديمومتها وجمالها الخيالي. هناك أشياء تولد دون جذور. من الأحسن ألا توجد الأشياء التي لا جذور لها. إن أيام العاصفة كثيرة. لكن من يقوى على قهر النمو؟

توقفتُ قرب واجهة خاصة بالآلات التصويرية والزمنية. ساعة المتجر ما تزال عاطلة. ذات يوم، ذات لحظة، سيحدث مثل هذا التوقف بشكل ما في جسمي الذي يقيئني كلما زاد جنوني به. يقيئني أكثر من الأشياء التي يبتعلها ويراها. إنه يحول ما هو طري إلى عفونة. أحياناً، أداعبه، يداعب نفسه، أحبه، يحب نفسه، أفركه، يفرك نفسه،

أعامله كما تعامل أم صغيرها في حوض الغسيل. لم أعد أذكر كيف كانت تعاملني أمي. لون الورد للورد والطفولة للطفولة. حنان أمي يشبه أحد أحلامي. لا أتعلق بالأحلام. الطفولة للطفولة والأحلام للأحلام.

كهل يتأمل السيقان الجميلة. فرحته تزداد عندما تمرُّ فتاة لابسة ميكرو ـ جيب. يُصعِّدُ نظراته ببطء حتى يقف عند الخصر. يُهَبِّطُ نظراته بنفس التباطؤ إلى منبت الساقين. بين حين وحين يدخل يده اليسرى في جيب سرواله المترهل، الوسخ. يشبك يديه وراءه للحظة ثم يعيد يده اليسرى إلى جيبه كلما مرت قدامه فتاة جميلة. انحنت فتاة سمراء ميكرو جيب على واجهة المتجر.

انحنيتُ: نصف تُبَّانِهَا (سليبها) مبتلع في شق استها. . . أم م م. . ! لم تعجبني هذه اللقطة. جمالها وحشي وما رأيته أكثر وحشية. اقترب شابان من الكهل، عدّاد الزمن والسيقان. أنا واقف قدام الواجهة قرب الكهل. سأله الأول بالإسبانية:

ـ كي أورا إيس. سنيور، بور فافور؟ Que hora es, senor por favor

ـ صون لاس أو شو إي طريس مينوتوس Son las ocho y tres minutos.

قال الشاب الثاني المغربي لزميله:

ـ ألم أقل لك إنه يستطيع أن يحدد لك حتى الثواني!

ـ هل أنت متأكد أنه لا يملك ساعة في جيبه يتحسسها مثل العميان؟

ـ أبداً. لقد فتشه بعض الشبان، مزاحا، فلم يجدوا عنده أية ساعة. هناك شيخ مغربي آخر يمارس نفس اللعبة الزمنية، لكنه يطلب مقدماً خمسة فرنكات.

شكراه وانصرفا، هزّ لهما الكهل رأسه بمودة. فكرت: أهذا

ممكن؟ نظرت إلى ساعتي الجديدة: الثامنة وست دقائق. دنوت منه. يتأمل الآن بلذة مجنونة ساقي فتاة ـ ميكرو جيب تمر قدامه على مهل. ردفاها يرقصان رقصة الرومبا. أدخل يده اليسرى في جيب سرواله. شاركته في اللعبة البصرية. باغته قبل أن يستأنف جولة أخرى. إن السيقان العارية لا تنتهي في هذا الشارع.

ـ بور فافور. سنيور، كي أورا إيس؟

يداه الآن وراءه. حك قليلاً مؤخرته وما بين فخذيه. قال بصوت هامس ودود.

ـ صون لاس أوشو إي أو شو مينو توس Son las ocho minutos y ocho.

ـ جراثياس Gracias

حياني بهزة من رأسه. هذا الإحساس الدقيق ممكن إذن، لكنه يتطلب التكريس لهذا التركيز الزمني. فكرت: أين يمكن لي أن أذهب الآن؟ الغرفة حجزتها. الطعام أعرف كيف الحصول عليه بثمن يلائم ما عندي من نقود. ما ينقصني، الآن، هو اللمس اللّذي لكي أنسى فيه نفسي هذه الليلة. لقد طارت دهشتي. الشارع يموج بالنمل البشري. أريد أن أفقد توازني في نشوة اللمس مع نهدين فتيين. شخصان يتخاصمان:

ـ إنه يلمس زوجتي على مرأى مني. أين هي الشرطة؟

يتخانقان.

ـ انظروا كيف يضربني.

الناس يتسابقون من كل مكان في الشارع نحو مكان الشخصين المتعاركين. بعض السيارات توقفت. صف طويل من السيارات تزعق. كثير من العابرين في الرصيف الآخر توقفوا ليتفرجوا عن بعد. فكرت:

الفروج للفروج ثم استأنفت سيري.

ـ Festival - BAR أتريد مشاهدة فيستفال ـ بار؟

ـ فيستفال ـ بار.

إنه في حوالي الرابعة أو الخامسة عشرة هذا الغلام، لكن ينبغي أن أحذر من جميع الأعمار.

ـ ماذا في فيستفال ـ بار؟

ـ كل شيء.

ـ كل شيء؟

ـ نعم، كل شيء.

ـ ما هو كل شيء؟

ـ فيه كل شيء. سيعجبك كثيراً. سترى بنفسك. إنه أحسن مرقص في طنجة.

أعطيته خمسين فرنكا.

ـ هاك، لا أريد أن أذهب إلى هذا المرقص.

ما يحدث، في هذه المدينة، يجعل الإنسان يؤمن بوجود الأشياء والأحداث كما هي أو لا يؤمن بوجود شيء. أخذ الغلام القطعة النقدية. فحصها. لم يلح على مصاحبتي. شكرني وابتعد. أوقفت سيارة أجرة.

ـ «فيستفال ـ بار»، من فضلك.

مع من؟ أمعي أنا؟ إن لعبة فتاة الثلاثين درهماً لن تُعادَ معي. نظر إليّ السائق بفضول. قلت له في خيالي:

ماذا يدور في رأسك أنت أيضاً يا وجه الفأر؟

ـ أهو بعيد هذا الحان؟

ـ ليس كثيراً.

أف! ها أنا قد انزلقت في قشرة موز. ما كان لي أن أسأله. إنه الآن قد يجعل المسافة أبعد. هذا ما يفعله معظم سائقي سيارات الأجرة مع الغرباء. مثل هذه التجارب ينبغي للإنسان أن يمارسها مع الناس كما يعقد رباطة عنقه. فتاة الثلاثين درهماً أكانت حقاً تنبيهاً كافياً لآخذ حذري؟

في المنحدر أحسست برعشات لذيذة ذكرتني بطفولتي: الركوب على حمار، التأرجح في الهواء الطلق على الأرجوحة، الجلوس فوق كرسي هزاز والانحناء إلى أمام على مهمل والتقرفص في الليالي الماطرة الباردة تحت ملحف.

شرطي يحرس قدام الباب. حان مأمون إذن. دفعت للسائق درهمين. لم يغشني كما ظننت. صفعني نور ملون قوي وهواء فاسد داخن. قال أحدهم لرفيقه:

ـ إنني أختنق هنا.

قال زميله بالإسبانية:

ـ كأننا هنا في حمام مغربي، رغم الهواء المكيف.

صاح النادل المغربي بفرنسية لا قواعد نَحْوٍ لها:

ـ تقدموا إلى الأمام من فضلكم. الوقوف لدى الباب ممنوع.

قال شخص بدين بصوت نسائي:

ـ لكن لا يمكن التقدم إلى الأمام أكثر من هذا. كيف يمكن؟

وقفت وراء شابين قدام المشرب. تحرك أحدهما قليلاً فاسحاً لي مكاناً إلى جانبه.

ـ يمكن لك أن تقف هنا.

تطلعت إليه وشكرته. أهو لطف منه أم هي دعوة؟ سألني الحاني:

ـ ماذا ستشرب؟

ـ أعطني «أمسطيل» باردة.

أوقف شخص، جسمه رياضي، جهاز الموسيقى. صاح في الميكروفون بهياج:

ـ استهلاك المشروبات إجباري هنا وإلاّ سنضطر أن نضع من لا يشرب خارج الباب. أُعيد عليكم بأن الاستهلاك إجباري هنا.

قال النادل لشاب مغربي:

ـ أسَمِعْتَ ما قاله صاحب الحانة أم لا؟

بصقت على صاحب الحانة في خيالي. بعض الأشخاص يتابعون الرقص دون إيقاع. موجات النغم لا تتوقف في أجسامهم. يُجامعون الفراغ بحركاتهم. عاد الايقاع. تنساب الأضواء التجريدية المائية هابطة صاعدة على الجدران والوجوه المخمورة. تتشكل، تَشعُّ قوية ثم تخفت وتقوى، تتحول، تتموج، تذوب كالأصباغ. أحياناً تستحيل الحركة من كثرة ما يزاحمون بعضهم بعضا. يحركون مؤخراتهم ويهزون أكتافهم حينما لا يستطيعون الحركة. تدور الألوان وتدور. يدورون في عناق حميم. وجوههم حمراء صفراء زرقاء.

LECHT! MEHR LICHT!

(نور! مزيد من النور!) تضيع في الوصف وجوههم مثل محاولة القبض على الزمن. امرأتان جالستان في أقصى القاعة. يتعانق الراقصون بحب. ينسابون على بعضهم بعض كالأضواء المائية على الجدران. إنهم مثل لون على لون يذوبان. كل جسد يحاول الغوص في مثيله. تارة بِرِفْقٍ يعنف شيئاً فشيئاً وأخرى بِعُنْفٍ يرفق شيئاً فشيئاً. بعنف لا يرفق وبرفق لا يعنف. الإيقاع والشراب والحب زوجاً زوجاً وسراويل لا جيوب لها مشدودة، شفافة كمشدات النساء الرشيقات. مغني الحانة مصبوب في ثوب سهرة نسوي أبيض ووردة حمراء تجمّلُ صدره. قال الشاب إلى جانبي للحاني:

ـ أعْطِ بيرة أخرى للسيد.

تلفت نحوه.

ـ شكراً.

صار اللطف دعوة. قال الشاب بالإسبانية:

ـ وحدك؟

ـ نعم، وحدي.

صوته مثل الحلاوة التي تُغْثِي. أخرج علبة سجائر ذهبية ومدها لي. سحبت واحدة. شربت بلذة. داخلي الحار يتدغدغ، يتلطف كنسيم أزرق، أخضر في يوم صيفي. قال الشاب:

ـ أترقص؟

ها أنا جاء دوري. ابتسمت له. مدّ ذراعه برفق على كتفي. خاصرته. «السلو». داخلي يهدأ أكثر فأكثر. وضع يدي برفق على مؤخرته. قال:

ـ إنك رائع.

ابتسمت له. يجعلني أخاصره، أضمه إليّ. يَقْشَعِرُّ داخلي لَذَاذَة. يباسمني وأُباسمه. لأول مرة أرقص بهذه الحميمية. كل شيء هنا:

EL PODER ALEGERE LEFE IN LOVE

وضع طبيعي في وضع غير طبيعي. حركاته أكثر من امرأة غنوج. باسني على خدي برفق. مدّ لي خده. تدغدغ فمي على بشرته الملساء وأنفي تعطر. تباسم بعذوبة. الكرة الضوئية التجريدية اللون في السقف تدور وتدور وتدور. شعاعها يدور في العيون، يُجَمِّلُ الوجه.

LICHT! MEHR LICHT!

أبهذه السرعة يتم هذا الشكل من العناق الإنساني هنا؟ الأخضر يجمّل العيون أكثر. فراشات الأضواء تَرِفُّ على الوجوه والجدران.

الشرارات الضوئية تتطاير على الوجوه مثل الحرائق. تصفعها مثل البرق.

LICHT! MEHR LICHT!

أشكال الأشياء على أشكال الأشخاص تدور لامعة. كل شيء هو وليس هو ولا معنى للقبض على شيء. زحام شوارع المدينة أعدمني. عَمَّقَ غربتي الزحام. هنا يخترقني أكثر من الزمن حين أفكر فيه. تتلوى الأشياء، تتحربأ في اهتزازات الضوء البرقي. أعدم هذه الأشياء ونفسي معها، من خلال الزمن اللامجدي، أثور عليه، لكن مسالمة طبيعية أقوى توقفني. لا شيء يهم الآن. عمق الحياة لا عمق الموت. ليس لي الآن إلا هذا الترفق بحياتي من أجل نضج طبيعي، لكنه ينفلت. في كل لحظة أنعدم. لا أستطيع أن أمنع لحظة من لحظة العدم. زمني ينخرني كالسوس في الخشب. لا بد من وسيط بين الزمن والمطلق كما هو بَدهَيٌّ قتل الحمار ليعيش الحيوان الضاري. التصلب الآن في ذهني يسترخي. أنا الذي أخلق ألمي. أنا من أعدمه. حُرٌّ أن أحسه أو لا أحسه قلقي هذا. نجوم الأضواء تصفعني الآن، تُدْمعُ عيني والوجوه قبيحها وجميلها. نور! مزيد من النور لكل الوجوه! أحسني مثل ريشة. هيا! شيئاً من الحمق من أجل إيقاظ شيء من العقل يانفسي. يا عليّ، عليّ، عليّ!

تركت وعيي ينفلت قصداً مني كيما أستجيب للنقلات برشاقة مع هذا المخنث. فمي يمتلئ بالعسل الإنساني. يشدني الشاب الرقيق إليه أكثر فأكثر. يدي على كتفه والأخرى تحس خفقات ربوته. أنزهها على ربوته الدافئة. العسل الإنساني يسيل في فمي. الخد على الخد والفم يلامس شحمة الأذن ترعشها ذبذبات الأنفاس. النفخات الراعشة تدفئ صلبي أكثر فأكثر. داخلي مربعات من السكر تنهار ذائبة في فنجان قهوة سوداء ساخنة معطرة بماء الزهر والقرفة. عسل فمي يسيل ويسيل. قال:

ـ هل أروقك؟

ـ أنت أكثر من رائع.

إذا لم أبتلع سيفيض فمي. أخاف ألا أعود إلى نفسي. أهو يحس نفس ما أحسه؟ عيناه حالمتان. كل نفخة في أذني تملأ فمي بلزوجة اللذة المبتغاة. توقظ صلبي أكثر فأكثر. تبدل الإيقاع دون أن يتوقف. انضممنا إلى حلقة. انسحب بعضهم. الأغنية ألمانية. تماسكوا يداً في يد. يرفعون الأرجل على طريقة «الكان الكان». فكرت: إننا عائلة. لم أعد أفكر إلا في هذه الحلقة العائلية. مع كل حركة أتيقظ أكثر فأكثر. يتمهل الإيقاع. عشرات العيون ترمش. انبثق «الجيرك». انفرطت الحلقة مثل عقد ينقطع خيطه. قال الشاب:

ـ هيا! سنشرب.

LICHT! MEHR LICHT

ـ انسحب الشيوخ من حلبة الرقص. عادوا إلى أماكنهم. يبدو أن انعكاسات حركاتهم لا تقوى على قوى هذا الإيقاع الشاب. ذات يوم لن أستجيب أنا أيضاً لانعكاسات هذا العالم.. ها أنا في فيستفال ـ بار. كان على حق ذلك الغلام. «سيعجبك. سترى بنفسك. سيعجبك كثيراً». فاتني أن أعطيه أكثر من تلك القطعة النقدية. هذا لا يمكن الآن. ما يحدث لا يسترجع بنفس الشكل والرغبة إلا في الذكرى. لا أومن بمثل هذه الذكرى. أشرب، أدخن، أتدغدغ حتى العظام بلمسات هذا الأنثوي الرائع. إنه نموذج الجنسيين المثليين. «السلو». من جديد هذا الإيقاع يدعو إلى العناق الدافئ. قال لي شيخ:

ـ أتريد أن ترقص؟

قبل أن أجيبه أمسكني الشاب من يدي وسحبني إلى حلبة الرقص. يده متدبقة في يدي. فكرت: يغار. بسمت عيوننا. تعانقت. ضحكة هيستيرية تفجر الأفراح. كرة الضوء اللازوردية تدور في السقف تدور ونحن تحتها ندور. ذهني يدور في الرغبة والنجوم اللازوردية تحمم

عينيّ. إنني وعي دون كثافة. نور! نور! نور يولد جنوناً لا يستريح من القبض على نور لا يغمره الظلام.

تنبثق الأشياء كفقاعات. الأشخاص يظهرون ويختفون هنا. إنني لا أكثر من إحساس في هذه اللحظة. لا أستطيع التفكير في الشيء وفكرته في آن. كل ما أراه وأحسه أشياء تطفو. الأوضاع الآن أكثر حميمية. تنسحق الشفاه. الضوء يخفت. تشد الأيادي بقوة على ما تمسكه من الجسد. شَدٌّ أمام ـ شد وراء. دخلت امرأة قزمة صحبة شابين. بْلاقْ! زجاجة شامبانيا. الرغوة المتدفقة تسيح على الزجاجة والطاولة. الأصابع تنغمس في السائل وتبارك الجباه. حواء وآدم يقسمان التفاحة. شجرة المعرفة من أجل عالم آخر. دخلت فتاتان وشاب. صرخات وقهقهات وصخب يتولد وينتهي بنفس السرعة التي يتولد بها. قال الشاب بصوت راعش حالم وراغب:

ـ أنصعد الآن إلى فوق؟

اندهشت: قلت له:

ـ فوق؟

ـ نعم، فوق.

ـ أين؟

ـ إلى فوق.

ـ أي فوق؟

ـ فندق الحانة. فندق دانتي هو فندق الحانة. بعد ذلك سنعود لنشاهد عرض تعرية الليلة.

ضحكت عيوننا. يزم شفتيه بلذة متراخية. ينوم عينيه برقة بالغة. ركز نظراته الناعسة على عينّي. أهدابه لا ترمش. لسانه يطل من خلال شفتيه المزمومتين. يطل ويختفي لسانه. لسان أفعى. يتحكم في

عضلاته ووجهه وجسمه بدقة مغرية. سأعشقه إذا هو استمر يغازلني. سأهرب من هذا اللطف المنوم حتى لا أسقط في هذه الإرادة المرحة. قلت:

ـ انتظرني. سأدخل المرحاض.

عبرت القاعة مزحوماً. نقلات الراقصين تدفعني دون اعتذار. قال صاحب الفتاتين لشاب:

ـ أرجوك، لا تلمسهما.

قال الشاب السكران:

ـ لكن هذا لا يمكن، إنك تراقص فتاتين وحدك. أترك واحدة لسواك.

ـ إنهما معي، وسأراقصهما وحدي.

خاصرهما معاً. ضحك كثيرون وزجاجة شامبانيا أخرى تفتح. الصخب يعلو وينخفض.

ـ هذا لا يمكن. رجل يرقص مع اثنتين.

ظل الشاب يراقصهما بعناد. دفعت باب المرحاض. وجدت هناك ثلاثة يمشطون بحركات أنثوية أمام مرآة صغيرة. يسوون ملابسهم الضيقة الشفافة. يمشطون بالتناوب. أحسست بلذة الإفراغ الساخن. تفور البيرة حارة من جسمي. شخص إلى جانبي يطل على شيئي بلهفة باسمة. قطرت شيئي بعناية. لذة التقطير أرعشتني. ظل هناك المشاطون أنفسهم. إنها لعبة التمشيط. جعلت يدي قريبة من شيئي حتى تحميه. خفت أن تنتاب أحدهم هستيرية القبض على شيئي بعنف. الشاب يرقص مع شاب مغربي سرواله لا جيوب له. فكرت: ها هي فرصتي لأهرب. سألت عما ينبغي لي أن أدفعه.

ـ كل شيء على حساب الشاب الذي معك.

هذا رائع. هو لي وأنا له. هذا ما صرناه الآن. غيبوبة العري في فندق الحانة لا تروق لي. عرض التعرية قد أعود لمشاهدته في أمسية أخرى. لن أضيع فرصتي هذه للهرب. أمسك وجهي شاب بحركات أنثوية بكلتا يديه كأنه يمسك فرخاً عاجزاً عن الطيران. قال لي بالإسبانية:

ـ إنك وحدك، أليس كذلك؟ إنك وحدك.

تطاولت شفتاه نحو شفتي كشرج ديك يتفل. أبعدته عني بلطف.

ـ معذرة، إني مصحوب.

ـ أووه! مصحوب. لحظة. تعال لتشرب معي شيئاً يا عزيزي. مجرد لحظة وكفى.

ـ أرجوك، لا أستطيع.

نظر إليّ بشهوة كمراهقة أهينت كبرياؤها. خرجت. صفعني هواء بارد. أستعدتُ إحساسي بعدمي الذي أفلت مني في زحام الحانة. ها هو يعود إليّ أقوى مما حاولت أن أهرب منه. إنني في حاجة إلى نور أقوى.

LICHT! MEHR LICHT!

الحارس يشخر. قرب الفندق شجار بين سكيرين من أجل امرأة. قالت صاحبة الفندق:

ـ الخصومات لا تنتهي في هذا الحي بين السكارى من أجل العاهرات العجائز.

فكرت فيها: وأنت، أليس لك أيضاً وجه عاهرة قديمة؟ التفتت إلي وقالت:

ـ اسمع يا سنيور، لا بد أن أصارحك، إنه لم يكن في وسعي أن أفعل غير ما فعلته. المرأة التي أخذت غرفتك حامل. إنها وحيدة، ولا

أظن أنك تريد لها أن تنام في الشارع.

ـ أبداً. لا أتمنى لها ذلك. لكني حجزت غرفتي ودفعت لك ثمن أسبوع.

ـ أنا أفهم جيداً ما تقوله يا سنيور. لكن ينبغي لك أن تتفهم الظروف التي أرغمتني على كراء غرفتك لتلك السيدة. إنها ليلة واحدة فقط. لا أعتقد أنك ترضى لها أن تنام المسكينة في المطبخ. أنت رجل وهي امرأة حامل. السرير نظيف. أنا أضمن لك هذا. ستنام فيه هذه الليلة فقط. غداً ستنام في غرفتك أو في غرفة أخرى أفضل منها. إني أعدك.

إن لها وجهاً متهدماً ذكرني بوجه العجوز التي رسمها جويا Goya ناظرة إلى نفسها في مرآة تمسكها خادمتها. هززت لها رأسي مستسلماً. أشارت إلى حقيبتي داخل المطبخ وشكرتني ثم صَعِدتْ إلى غرفتها. هذه المرأة أيضاً رائعة. تعرف كيف تتكلم بإنسانية. ماهرة في جعل الناس يتفاهمون كما يحدث في فيستفال ـ بار. كل شيء رائع: المرأة الحامل التي لا أعرفها، النوم في المطبخ، الحارس الشاخر وضوضاء الخصومات التي لا تنتهي بسبب العاهرات المستهلكات حتى النخاع. من لا يبارك هذا العالم؟

دخلتُ المطبخ. تأملت وجهي في مرآة فوق المغسلة. ينبغي لي أن أنسجم مع جميع الظروف. إنني الآن في العالم وينبغي لي أن أتلوث بخرائه. لقد قتل زمني الكبير زمني الصغير. إن الزمن قادر على أن يلاشي الحقيقة ويحييها في أسطورة. خلعت ثيابي ووضعتها فوق مقعد. غسلت وجهي. دقات على الباب. الحارس في سبات وشخير. ذهبت وفتحت. فتاة شقراء. تطلعتْ إلى عريي وحيتني بحركة مبهمة. فاحت منها رائحة خمر. دخلتْ المطبخ. دخلت وراءها وراقبت حركاتها. راحت تتصرف كما لو أنني لم أكن موجوداً أمامها. فتحت

حقيبتها وأخرجت فرشاة أسنان ومعجوناً. تنظف أسنانها وأنا واقف أراقبها. مسحت فمها بفوطة مستعملة معلقة على مشجب المغسلة. خلعت ثيابها أمامي ناظرة إليّ كما لو كنت تمثالاً. إمّا أن تكون جد حمقاء أو جدَّ عاقلة هذه الهيبية. وضعت ملابسها فوق خزانة أدوات المطبخ. بقيت في قميص أبيض قصير وسليب سماوي اللون. دخلت في الفراش وجذبت فوقها الملاءة إلى نصف جسدها.

سألتها بالإنجليزية:

ـ ستنامين هنا؟

ـ نعم.

ـ أنا أيضاً سأنام هنا.

ـ حسناً. يمكنك أن تنام.

ـ أين؟

نظرت إليّ ولم تجبني. فكرت أن أضحك بجنون. سألتني باسمة:

ـ عندك سيجارة.

ـ نعم.

أخرجت من جيب سترتي علبة كرافن ومددتها لها.

ـ أعطني حقيبتي، من فضلك.

مددتها لها. أخرجت منها علبة صغيرة. أفرغت نصف السيجارة من التبغ ثم فتحت العلبة وبدأت تحشو السيجارة بالكيف. جلست على المقعد الذي وضعت فوقه ثيابي. مدتها لي محشوة ثم أخذت تُعِدُّ أخرى لنفسها. الروعة مستمرة. الشخير يملأ حيزا من الصمت. أشعلت لها ولنفسي.

ـ هل تنامين هنا كل ليلة؟

ـ نعم، منذ ثلاثة أيام.

ـ في هذا السرير بالذات.

ـ نعم، أنا وصديقة لي. محتمل أن تنام هذه الليلة مع بعض الأصدقاء. إننا ننتظر إفراغ غرفة.

ـ لا أفهم.

لم تجبني. تدخن سيجارتها بلذة. أحسست مذاقاً مراً في فمي وأنا أدخن سجارتي. حلقي ناشف. نهضت وشربت من الصنبور. لم يبق من سيجارتها سوى مصفاتها. رمتها على الأرض وتدلى نصفها الأعلى من على الفراش وسحقتها بفردة حذائها. فعلت نفس الشيء بِعَقبي. تأملتُ حجم حذائها. قدماها صغيرتان. قدما فتاة يابانية. لم أضاجع بعد فتاة يابانية. هناك رجال لم يضاجعوا إلا امرأة واحدة: من الاستمناء إلى زواج أبدي. هناك آخرون لم يضاجعوا إلا أنفسهم. يعلو الشخير وينخفض، يقوى ويضعف. نغم يأتي من بعيد. النغم الحزين والجميل يدنو من الفندق. تذكرت بوليرو رافيل. تأملت ركبتي العاريتين. موزار يَعْبُرُ الدرب فأحلم. النغم يمر الآن قرب الفندق. قافلة بوليرو رافل تمر في ذهني. نظرت إليها. عيناها مغمضتان. ساكنة مثل مومياء. نظرتُ إلى فردتها وإليها. كنا أنا وأنيسة على الفراش نلهو بعريينا سكرانين. أضع مربى الفراولة على جسدها وألحسه. أصب الخمرة بين نهديها المضمومتين بيديها. أشرب ثم أتبع مسار الساقية. تأملت حذاءها. كسرتُ كأسيْنا وجعلنا من فردة حذائها كأسنا الواحدة. في ذلك اليوم الصيفي تمنيت لو أني آكل من طراوة لحمها وأشرب النبيذ في جمجمتها.

قالت جرترود شتاين لصديقتها أليس طوكلاس:

ـ ما هو السؤال؟ ما هو السؤال؟

قالت طوكلاس.

ـ لا أدري.

ـ إذا لم يكن هناك سؤال فليس هناك جواب.

ثم أغمضت عينيها إلى الأبد.

قال جوته:

ـ نور! مزيد من النور!

ثم جحظت عيناه وغمره النور.

قال ألدوس هكسلي:

ـ أقفل النافذة، فهذا أجمل.

ثم غمره الظلام.

[4]

دخلت مقهى سنترال. سألت النادل:

ـ لماذا يقفلون اليوم؟

ـ لا أدري.

ـ هل كل المتاجر تُقْفِل؟

ـ هكذا سمعت.

ـ حتى المطاعم؟

قال زبون:

ـ عصير برتقال.

قلت للنادل:

ـ ألا يوجد مكان لي؟

ـ أنت ترى. كل المقاعد محجوزة الآن. انتظر حتى ينهض أحد.

رأيت أشخاصاً يبحثون بنظراتهم عن أماكن مثلي. غمرني إحساس بنفاد الأشياء. ربما تنفد المشروبات والحلويات والفطائر من المقهى ومن كل المدينة. أشار لي بيده شاب جالس على مقربة مني. دنوت منه.

قال:

ـ هل تريد أن تجلس؟

ـ نعم.

انحنيت عليه كي أسمع ما سيهمس لي به:

ـ أريد أن أنصرف من هنا، لكن اعذرني على ما سأقوله لك: لقد طلبت قهوة بالحليب على حساب صديق ذهب إلى مكان ما ولم يعد.

قلت دون تفكير فيما قاله.

ـ طيب. سأدفع ثمن قهوتك.

وقف. طلب سيجارة. أعطيته إيّاها وقلت للنادل:

ـ إن ثمن قهوته على حسابي.

ابتسم لي الشاب وانصرف. طلبت قهوة بالحليب ورغيفاً بالزَّبَدِ والمربى. أكثر من مائتي شخص جالسين في المقهى. العابرون في الساحة. يدخل بعضهم المقهى. لا أحد يغادره من الجالسين. لكأنهم مصابون بمرض الجلوس. يكفي أن ينهض أحد ليتسابق الواقفون على مكانه. أصوات جنائزية تُسمع من بعيد. الرؤوس تلتفت نحو مصدر الصوت. يتحركون في مقاعدهم ولا أحد ينهض. ظهرت مقدمة موكب الجنازة. يقفون تباعاً. أماميو الموكب ينشدون: سبحان الذي لا يموت! سبحان الذي لا يموت! سبوح! قدوس! رب الملائكة والروح!

بعض الشبان ظلوا جالسين. لم يخرج أحد. مرت الجنازة فعادوا إلى الجلوس دون أن يخرج أحد. من جديد عادت الهمسات والقهقهات والابتسامات. هذا من أجل أن يقفوا، أما أن يغادروا المقهى فلا بد من هزة أرضية ليفروا كالأرانب.

النادل ينتقل بحركات عصبية بين المقاعد. جبينه عرقان، صوته سريع ومهتاج... ينفعل لأي صوت، يكرر طلبات الرواد للعاملين وراء المشرب. قال للصبي وراء الحاجز:

ـ أين الرغيف بالمربى الذي طلبت؟

العرق يسيل على وجه الصبي البدين. شفتاه غليظتان، متعبتان.

قال الصبي بعصبية:

ـ ألا ترى؟ إنني أشتغل. أشتغل أكثر من اللازم. أشتغل أكثر منك.

نظرا إلى بعضهما بانزعاج. صاح النادل:

ـ كفى، أنا لم أقل بأنك لا تشتغل ولا أنا قلت لك أشتغل أكثر منك.

دخل ثلاثة شبان مصحوبين بثلاث فتيات. تقدم أطولهم نحو النادل الواقف لدى الحاجز الخشبي:

ـ ألا يمكن لك أن تجد مكاناً لنا؟

دخل اثنان آخران. قال النادل:

ـ المعذرة. أنتم ترون، لا أحد يريد أن يغادر.

قال الطويل:

ـ أوْجِدْ لنا مكاناً كيفما كان.

ـ لا يمكن، لا يمكن. أنتم ترون بأنفسكم.

تركهم وحمل صينيته المملوءة بالأكواب والأرغفة المدهونة بالزبدة والمربى وبدأ يوزع طلبات الرواد. إنني أدرك خيبتهم التي توترهم. تلح عليّ حاجة البول. نهضت لأدخل المرحاض. تصادمت مع رجل خارج من المرحاض. نظر إليّ بعبوس. فكرت: مزاجه سيئ. حين خرجت وجدت شيخاً جالساً في مكاني. قال لي النادل:

ـ أنت ترى. الشيخ جِدُّ متعب. يصاب بنوبة أعصاب إذا أغضبه أحد. إن قلبه مريض.

قال الشيخ بصوت متهيج:

ـ أين قهوتي؟ ألم أطلب قهوة سوداء؟

قال النادل:

ـ أنت ترى بنفسك كيف هو عصبي.

قال الصبيّ للنادل:

ـ هاك الرغيف المشوي.

أوشكت أن أحتج، لكني رأيت أكثر من أربعمائة عين، شبيهة بعيون البوم، حاضرة في المقهى والعيون الأخرى العابرة في الساحة. قال لي النادل:

ـ تناول فطورك على الحاجز إذا شئت.

جلست على المقعد الطويل. أخذت أتناول فطوري. حطت ذبابة على حاشية الصحن الصغير ثم حكّت خرطومها مع طرفيها الأماميين. تقفز فوق المربى وتمص الزَبَدَ والمربى. تُرى ماذا كانت تمص قبل أن تأتي إلى هنا؟ إنها لا تميز بين الزبد والقيح وبين المربى والدم الفاسد المتخثر. لا تعاف أي شيء. أهي أيضاً تمرض وتبرأ من مرضها أم أنها تعيش معافاة حتى تموت دون أن تشيخ؟ سمعت أن فأراً انهزم في معركة فئرانية فأكل خصيتيه ومات. أيمكنها أيضاً هذه الذبابة أن تلقي بنفسها عمداً في الشراب إذا انهزمت؟ لقد رأيت ذبابتين ملتصقتين، لكني لم أرهما تتناطحان أو تتلاكمان. كارين أراها تبحث عني خارج المقهى. بانت خلفها صديقتها إيفا. رأتاني.

أمس نمت مع كارين واليوم ربما سأنام مع إيفا أو معهما معاً. «عندما تنطفئ الشموع فكل الفروج تتشابه». لا أومِن بهذا. إن الفروج لا تتشابه. دخلتا باسمتين.

[5]

أحلم. مُسالِمٌ نفسي وسواي. في بيت فالري. رحلتي بدأت. إدراكٌ آخر يغزوني. وجه كارين هادئ كوجه امرأة ميتة في قاع البحر. جميل وجه امرأة في قاع البحر. وجهها محارة كبيرة بيضاء. شعرها شُجَيْرَةٌ نابتة في قاع البحر. نظري يخترق جلدها. تتدفق الدماء في شرايين وجهها. فكرت في السرخَس ناظرا إلى شرايينها. بصري يخترق كل الوجوه: كارين، إيفا، تاتيانا، أجوستين، فالري، شتاين، والقطة سامي. أجوستين يفتل شعيرات رأسه وصدره وذراعيه ناتفا إياها أحياناً قائلاً لها: «لا أحد سينتفك إلا أنا يا صديقات جلدي». تتأمله فالري بحب. تاتيانا تضحك وتضحك ووردة حمراء «مركوزة» (مغروزة) في شعرها فقدت طراوتها مثل جلد وجهها. كارين هادئة تبسم لي أو لنفسها. أيضاً ناظرة إلى السقف نصف حالمة. شتاين يلعب مع ظل أصابعه على ضوء الشموع التي تضيئنا، حركات شتاين تتراقص على الحائط. ظله يكبر ويصغر. سامي جاثمة عند قدمي إيفا. هي أيضاً أرحلناها معنا بالحشيش في طعامها: الأنغام أمواج تتكسر. باب ديلن يغني للزنوج. الألوان فراشات ترفرف في سماء أبريل. إنه الشهر الذي يستمني فيه كل نرجسي على صورته في الغدير. قوة سالبة تفقدني وزني وتوازني. أتحرك بوداعة. إنني مُسالم. أفقد جاذبيتي. زمان لا مكان

قال لي إيكاروس: إيّاك أن تغازل الشمس. أمسكت قمر كارين بين يدي. تمدّ لي فمها كثمرة أثقلت غصنها وغنت جون بايز بلغة آرية لا أفهمها. الفراشات تطير في عينيّ كارين وزانفير يهلل بقداسة للسلام. عسل فمها الحلو ـ المرُّ يملأ فمي المُرَّ ـ الحلو. دغدغات تسري في دماغي. زغيباتها الشقراء تَرِفُّ في مسام جلدها. قبضت برفق على حشيش إبطيها وشممت رائحة عنزة في يوم ماطر فهاجت رغبتي فيها. وردة حمراء لها عينان كبيرتان. أرى وجهي في عينيها نسراً. كلما نعست عيناها يسيل فمها في فمي. في عينيّ أو في عينيها ضباب يخرقه شعاع ضوء. قطرات تتساقط في داخلي كالمطر الخفيف على الأوراق التي هجرها الخريف وفي السماء بقايا من نور ذلك المساء حيث أحب دائماً أن أكون. الانكسارات الهشة أسمعها كالثلج المسحوق يُداسُ وأنا مثل فقاعة في الهواء أحسني والثلج بعضه أدوسه وبعض من أندافه ترشق وجهي. شعر كارين يتموج تحت أصابعي كَوْمَةً من الطحلب أُلامِسُها في مياه دافئة، ساكنة. ألمسها كأني لا ألمسها. أقبلها كأني لا أقبلها. لا الحلو ولا المر. أتأملها ولا أتأملها الأشياء صغيرها كبيرها. الأنباض أنغام. أنباضي وأنباض كارين أنباضنا. ظاهر الأشياء يغوص في باطنها مثل وجوه فقدت براءتها أنوار فيستفال ـ بار في ذهني بدون ضجيج. شرارات تصفع ولا تُحْرِقُ العينين. أي صوت سأُسْكِتُه. أية حركة سأُوقفها. كل الحركات تنشلُّ إذا فكرت في إيقافها. سينهار هذا الجدار أمامي إذ شئت.

دخلت تانيا. عيناها وحشيتان. تحية من عينيها لنا. السلام في العالم. جوبتر يُبارك العالم. أبناء الغالبين يعانقون أبناء المغلوبين. أبوللون يكتب قصيدة السلم ونيرون يغنيها وأمه تصفق له ومختاروها العائدون من الحرب ينتظرون نكاحها.

غنت تانيا:

ـ ماما، هل تأتين؟

ضحكت تاتيانا بعذوبة:

ـ أرسلني أبي إليك.

ضحكت تاتيانا بعذوبة ومرارة. تتعدد الأشياء دون نهاية. العيون الوديعة تلاطف وجه تانيا. نهض شتاين وركع عند قدمي تانيا ضارعاً إليها:

ـ تانيا، حبيبتي تانيا، أرجوك، لا تعصريني.

تنظر إليه كأخت في زمان نفرتيتي.

ـ لماذا تفكر هكذا؟ كيف تريدني أن أعصرك؟

يداه ممدودتان إليها في ضراعة.

ـ أرجوك، أعبدك، أنت مولاتي. المحبة. المحبة يا تانيا.

جلست تانيا. مدَّ لها أجوستين سيجارة. أخذتها. بسمت له بالمحبة التي يطلبها شتاين. ضحكت أمها بنشوة. أشعلت تانيا سيجارتها. جفناها فراشتان ترفان من خلال شعلة الوقيدة. أهدابها لُسينات زهرة سوداء. أجوستين وجهه ليس وجهه. يفتل شعيرات ذراعه وخصلات شعره المدلاة على جبهته وبسمته ذكرتني بالموناليزا. شتاين يقوم ويركع أمام الكنبة العتيقة. يركع للكنبة أو لما يراه ولا أراه أمام الكنبة، يقف ويخرج. أمسك وجه إيفا بين يديه برخاوة ولطافة. اليوم إيفا وأمس كارين وغداً هما أو غيرهما أو ربما لا شيء. أستغرق متأملاً وجهها. إذا لم أسند رأسها فقد يسقط أمام أو خلف. كارين، شتاين، تانيا، فالري وأجوستين تستمني أفواههم بالسجائر المحشوة أحلاماً خضراء. أنا أحلم بوجه إيفا. وجهها هو حلمي الوحيد الآن. كارين تبتسم كَحُلْمِنا. تانيا تصور الوجوه بعينيها الوحشيتين.

ـ ماما، هل نذهب؟ أبي وأختي ينتظراننا.

ضحكت أمها. ضحكت كارين. فالري تبتسم برخاوة. رأسها

صغير جميل مثل رأس حية صغيرة. أمسك أجوستين وجهها. يبتسمان. حلماهما في عيونهما. يَتَدانَى وجهاهما حالمين. يلتحمان. يبتلع أجوستين فمها. فم إيفا بيسكويتٌ في فمي. تضحك تاتيانا. أبلع فم إيفا. تضحك كارين. يدخل شتاين عارياً يقطر ماء. عانته كثيفة. شيئه متقلص يقطر ماء. قال:

ـ فالري، أريد فوطة.

فالري فمها مبتلع في فم أجوستين. نهضت تانيا وقالت لشتاين:

ـ تعال.

ـ تانيا، أرجوك أَلاَّ تعصريني.

ـ إنك تخافني كأني مِعْصَرَةٌ وأنت ليمونة أو برتقالة.

ـ أرجوك، لا تعصريني.

ـ لا أنا عصارة ولا أنت ليمونة أو برتقالة.

مشى خلفها كطفل بال في ثيابه. يرتجف، يقطر. تاتيانا تضحك. كارين تتأمل السقف. ظلالنا وظلال الأشياء تتراقص في السقف. ظلالنا عملاقة ونحن أقزامها. تتراخى إيفا على صدري متأوهة بلذة. أجوستين وفالري يذوبان في نشوتهما. دخلت تانيا.

ـ ماما، هل تذهبين أم تبقين؟

ضحكت تاتيانا. أسنانها الذهبية لمعت. فكرت في رمانة شُطرت. فالري تتسلق كتفي أجوستين. جلست تانيا. دخل شتاين لابساً. ركع أمام تانيا.

ـ أعبدك، أرجوك لا تعصري قلبي المسكين.

ـ ماما، ألا تنهضين؟

ضحكت أمها. أجوستين وفالري يَعْصِرانَ بعضهما. يذوبان في نشوتهما.

ـ لا تعصريني يا تانيا.

ـ شتاين، قلت لكل أنا لست عصارة.

نهضت تاتيانا. ركع شتاين أمامها. ضحكت له تاتيانا. تعثرت. تلقفتها تانيا. خرجنا أختين حميمتين. ضحكات تاتيانا تبتعد. زحف شتاين نحو إيفا. نهضت كارين. خرجت. زحفت فالري إليّ. أجوستين يفتل شعيراته. شتاين راكع بخشوع عند قدمي إيفا. أُلاطِفُ وجه فالري. تتلوى مثل حية صغيرة جميلة. تلين لي كما تلين الحية للحاوي. وجهها أملس مزوق كسمكة سلمون. أجوستين يتأمل سماء الحجرة الغائمة بالدخان. إيفا تُلامس شعر شتاين كأنه طفلها. تفتح له ذراعيها. يسقط رأسه على صدرها كطفل محموم. تضمه إليها. تحنو عليه. عادت كارين عارية. تطاولت فالري إلى وجهي. نامت كارين على صدر أجوستين. يداه تتنزهان فوق عريها. وضع شتاين رأسه على حجر إيفا. عانقت كارين أجوستين بحب حميم متأوهة. ينهض شتاين ويخرج. يتعرى أجوستين. إيفا تتأوه وحدها. يغوص عري أجوستين في عري كارين. تتعرى إيفا، أتعرى، تتعرى فالري. نتعرى. نصفي لإيفا ونصفي لفالري. يتلوى عريٌ فوق عريٍ في عريٍ يمتص عريٌ عريين يمتص عريان عرياً يدخل شتاين عارياً تتشابك الثعابين يتمزق عنكبوت الجحور القديم، الثعابين تسعى من جحر إلى جحر تحتويها الجحور.

[6]

كارين منزعجة بسبب ما حدث لشتاين. قال أجوستين:

ـ سيضعونه خارج حدود المغرب. هذا هو العقاب.

ـ لم يُؤذ أحداً. أليس كذلك؟

ـ أعرف أنه لا يؤذي ذبابة على أشفار عينيه. أخذ يركع أمام بعض النساء، ويطلب منهم ألا يعصرنه. هذا ما قاله لي شاب مغربي حاول أن يعيده إلى المنزل فلم يستطع.

ـ وبسبب هذا سيخرجونه من المغرب.

ـ أعتقد أنهم سيدينونه بتهمة التعري الإباحي في الشارع.

ـ لكنه كان فاقداً وعيه.

سألتْ إيفا:

ـ أين يمكن أن يكون الآن محبوساً؟

قال فالري:

ـ أعتقد أنهم سيسرحونه بعد أن يحذروه من تعاطي المخدرات.

قال أجوستين:

ـ سيكون محظوظاً إذا لم يطردوه من المغرب.

مقهى سنترال والمقاهي الأُخرى في السوق الداخلي ليست

مزدحمة كأمس. في سطيحة المقهى بعض الهيبيين يسترخون في كسل وحلم. ابتسمت لكارين. ابتسمت لي. أستعجل ولا أستعجل آخر الشهر كارها عودتي إلى عملي. ربما لن أعود. العمل صار عندي لعنة. كارين، فالري، أجوستين وشتاين لا يقلقون مثلي على المال. إنهم يستلمون المال بين فترة وأخرى من عائلاتهم. تاتيانا لها ثروة تكفيها للعيش حتى الموت. فالري تتجشأ. قال أجوسيتن:

ـ سنذهب إلى المنزل.

حركات فالري لا إرادية. تقول كلمة عوض أخرى. دخلت تاتيانا ضاحكة. أجوستين وفالري ينصرفان. لا أعرف بعد أهي هامة أم لا هذه الأحداث التي أعيشها في هذه المدينة. مع ذلك فتفاهة الحياة عندي أفضل من تفاهة الموت. هناك موت أعمق، لكن للبطولة ظروفها.

أستطيع ألا أكون هنا، لكنني أبقى مشدوداً إلى الأشياء أو إلى الناس أينما شئت أن أذهب. وحده الخيال يمكن أن ينقذني. يمكن لي، مثلاً، أن أتخيل شكل طاولة أخرى إذا لم يعجبني شكل هذه التي أمامي. كذلك هذه المرأة التي أمامي قارئة صحيفتها. إنها الآن تقرأ وتدخن، قُرطاها حَلَقَتَانِ كبيرتان، نظارتها غامقة، سلسلتها اليدوية ذهبية، لابسة سروالاً أبيض، هذه الأشياء وأخرى تروقها هي ولا تروقني. في إمكاني أن أجردها منها في خيالي وأُلْبِسها غيرها. يمكن لي أيضاً أن أتخيلها أكثر شباباً أو شيخوخة. إنها هي وليست هي بالنسبة لي. الأشياء إذن موجودة وغير موجودة. كذلك هو انزعاجي الآن. كثيراً ما تراودني فكرة الاعتداء على نفسي وعلى غيري، على عُضْوٍ من جسمي بالذات. يحدث لي هذا أحياناً حتى في أحسن حالات انسجامي مع نفسي وسواي. أن أَفْقَأَ عيني هذا، أن أضرب ذاك، لكن سرعان ما ألوم نفسي. وشيئاً فشيئاً تهدأ خواطري العدوانية عندما أفكر فيها رادعاً إياها. هكذا أدرك أن للفرح والحزن علاقةً قويةً بالجريمة.

[7]

قدمني إليه أجوستين:

ـ علي.

مددت يدي:

ـ مرحباً.

مدّ يده بخفة وقال:

ـ روبيرتو موراليس، مرحباً.

حركاته سريعة، يتكلم بعصبية، لكن شخصيته جذابة. أهو إحساسي السريع بالأشياء والأشخاص سببه ضآلة جسمي وقامتي المتوسطة؟ أحياناً أتكلم بسرعة وصوت مرتفع. هذا لا يحدث لي إلا مع ذوي القامات الطويلة مثل (أجوستين) أو المتوسطة البدينة. الأمر يختلف مع ذوي القامات القصيرة المعتدلة مثل روبيرتو موراليس أو المتوسطة النحيلة. حين أظل أياماً طويلة لا أتكلم خلالها إلا قليلاً يحدث لي أن أستجيب للكلام بانفعال سريع جداً في مناقشة طويلة. إن داخلي يكون قد فقد التوازن مع التأثيرات الخارجية. هذا الاضطراب الذهني ينعكس أيضاً على حركاتي. إنني لا أستجيب جيداً لانعكاسات الأشياء والناس حين أريد أن أعبر من رصيف إلى آخر، أو أجدني فجأة

أحيي شخصاً لا أعرفه أو أمدّ يدي للمصافحة في لحظة وحركة غير مناسبتين.

أخرج روبيرتو علبة صغيرة فضية. أفرغ على ظهر يده قليلاً من مسحوق أبيض: ـ إنها الكوكايين. استنشق المسحوق بعمق ثم سأل أجوستين بنكي باشا:

ـ هل كتبت شيئاً هذه الأيام؟

تطلع بنكي باشا نحو السقف وقال:

ـ قصيدة بلاستيكية، طويلة، مليئة ببخور الشرق. فيها وُلْدانٌ وحوريات وموسيقى «الراجا».

ضحكت تاتيانا. روبيرتو يتمشى بتوتر في القاعة من ركن إلى آخر. يتوقف في الوسط ثم يخطو ويعيد. لا كلمات. كارين، إيفا وفالري مسترخيات مثل قطط فارسيات. تاتيانا تظل أكثرنا يقظة وحيوية. ثانية سأرحل. سأتجاوز من جديد هذا الحاضر عبر الحدود الزمانية. سأكون هنا ولن. في هذا الزمن والفراغ وغيرهما ربما. الانفصال يتولد لحظة تلو أخرى أكثر فأكثر. قال روبيرتو:

ـ أمس، فكرت في أصدقائي الذين ماتوا، وفي الذين تربطني بهم صداقة منسية أو تكاد. أيضاً لم أنسَ من تمنيت أن أقتلهم أو يقتلوني ولو في الخيال. القتل قلما يأتي في الأوان. . .

ضحكت تاتيانا. إنها لا تنتظر من يتضاحك معها. الضحك: إنه عدو المثاليين. نصفها الأعلى يغريني فَرَحاً وأسفلها تُفاحةٌ مشتهاة لا تملك ثمنها. ساقاها تذكراني بالجميلة التي دغدغت زغيباتها لساني. تركتني نائماً وسرقت محتوى مطبخي. شبابها الأسفل يمتنع أن يشيخ. لا أتذكر منهن إلا سيقانهن حين يشرسن. وفي منتهى السكر لا أتذكر سوى نضال نبضينا.

رفع روبيرتو كتاباً في فوق الطاولة. تصفح بعضه. وضعه. قال:

ـ التفكير في الماضي، أحياناً، هو خوف من مستقبل مُريب. الإنسانية، الحياة، المصير، إن الإنسان لا يبتهج عندما يغزوه بعمق معنى هذه الكلمات.

ضحكت تاتيانا. تثاءبت كارين. ربما فرجها أيضاً يتثاءب. بنكي باش هادئ مثل ماء آسن. فالري تحلم كعاهرة تنتظر زبوناً رسمياً يدفع ثمن ديونها الصغيرة. أنا ألج في رؤى هذه الليلة اللا زمنية. إني أرى امرأة نصفها الأعلى حية تفقأ بيضة أنا ساكنها أمدُّ لها فمي طالباً لسانها لساني أعطيهاه يصير لي نصفها الأعلى متعانقين نتباكى أصلنا غير آسفين على الدفء الذي أنضجنا.

[8]

قررت اليوم ألا أرى رؤى. روبيرتو يروقني أكثر من الرفاق الآخرين. توقفنا في بولفار باستور. يستعرض مرورهن: «هذه هكذا وصفها لي طبيبي». «لو كان في إمكاني لأحببتك إلى الأبد». «تنتظرين عشر سنوات لكي تكوني لي».

ينظرن إليه ويضحكن أو يعبسن.

ها أنا في طنجة. زرتها مع أبويَّ طفلاً. في الصباح نذهب إلى الشاطئ. كانت هناك دائماً حفلة الشمس والبحر. في المساء نصعد إلى القصبة لنشرب الشاي الأخضر ونطرب لنغمات العود في مقهى شعبي.

مرت فتاة رشيقة فاستيقظت فيه حماقة الرجال. في مشيتها إيقاع القيثارة، وفي ردفيها رقص الفلامنكو.

قال لها روبيرتو:

ـ ومع ذلك يزعم بعضهم أن الأسبانية لا تعرف كيف تمشي.

تبسمت معه. رقص ردفاها وهاجا. صورها روبيرتو بعينيه من جميع الجهات. الإنسانية تمر بوقار وحماقة إذا النظر هيجها. الأشياء، الناس، الفضاء، الليل، وكل الفروج تستعد للدلك الليلي. سألته:

ـ كيف عرفتها إسبانية؟

نظر إليّ ببسمة عينيه الصغيرتين، المتعبتين:

ـ إن موسيقى إشبيلةَ ورقْصَها لا يخفيان عليّ.

مرت أخرى جميلة. مدّ لها وجهه الجميل:

ـ أنت أجمل من أراها حتى الآن.

لم تعبأ به. التفت إلي:

ـ أتعرف يا علي؟

ـ ماذا؟

ـ إنني ألعن الإنسان الأول الذي أعطاني أول كتاب شعر.

ـ لماذا؟

ـ ليس هو الشعر الذي ينبغي أن يوجد. إذا كان حقيقة يوجد إلاه طيب فينبغي له أن يعطيني فردوسه دون شرط. الجحيم أعيشه هنا.

ـ فكرت: إنه عدمي.

ـ روبيرتو.

ـ نعم.

ـ إنك تحلم.

ـ العالم من صنع أعظم الحالمين. إذا مات إنسان وفي رأسه أحلام جميلة فإن موته سعيد.

قاطعته:

ـ أنا أكره من يجعل من لحظاته الأخيرة تمثيلية حزينة. إن أغلب المُحْتَضرين يفتشون عن أجمل التعابير الكئيبة ليختموا بها آخر مشهد من تمثيليتهم. الإنسان، مهما يكن قد عاش سعيداً، لا يموت وفي رأسه أحلام جميلة. إن معظم المُحتضرين الممثلين كذابون.

قهقه. لم يكن يبالي بالتفاتات العابرين. كنا نمثل مثلهم. تذكرتُ

جماجم بودلير تسير في أحياء باريس، وإدجار آلان يرقص نشوان في المقابر.

ـ تعلم يا علي كيف تحب أحلامك. الحلم كالنار يطهر. نيرون كان مجنوناً عظيماً. إنه أعظم حالم. النار هي التي طهرت روماه الموبوءة وأعادت بناءها. الإنسان في حاجة دائماً إلى نار أو زلزال.

وصلنا إلى نهاية الشارع. يتوقف. يُشير إلى الأشياء والناس. يلتفت إليّ ضاحكاً. يتكلم عن الأشياء كأنه صانعها، وعن الناس كأنه معلمهم.

في غرفته. يدخن سيجارة محشوة بالكيف. يتمشى. يداعب سكينه الجميلة. حركاته تخيفني الآن. قد تسيطر عليه وَساوِسُ قَتلي. التفت إلي بحركة تمثيلية سريعة والسكين لامعة في يده.

ـ حادث. وجودي حادث. هل تكون للإنسان فكرة عن الحادث؟ لا أنا فكرت في وجودي ولا أحد فكر من قبلي على أية صورة سأكونها. (أخرج رزمة صُوَر).

ماضي هنا. (أشار إلى الرزمة). هذا هو منزلي هناك. (أراني الصورة). كلبي وبندقيتي. أحياناً لكي أصطاد الحيوان وأحياناً لكي أصطاد الإنسان. هذه فتاتي. ستة عشر أبريلات. كنت أُجلسها على ركبتيَّ وأعلمها أ. ب. ت. الحب. (صورة أخرى) هذا جسر سان فرانسيسكو. (صورة أخرى). هذه ثلوج آلاسكا. انظر إلى هذين الطفلين الأسكيموين (صورة). وهذه صورة الباحثين عن الذهب في الكولورادو. (صورة) هذه لوحة الرسام الكولومبي المجنون بدرو. انظر، انظر، لقد حشر في هذه اللوحة جميع أصدقائه الذين فقد صداقتهم. حتى الذين يكرههم ولم يتكلم معهم قط. (اللوحة تمثل شواهد قبور مرسومة عليها وجوه وأسماء أصحابها وامرأة جميلة طافية خارج القبر مثل أوفيليا الغريقة). لقد ضاجعتُها له. كان يحبها عفيفة

مثل بياتريس دانتي وأوفيليا هملت. أما أنا فقد عاملتها كإحدى المنتظرات على رصيف بيكاديللي أو سان دوني أو الباريو تشينو. إن ذلك ما كانت تريده منه أو مني. مسكين بدرو! لم يكن يؤمن أن أية امرأة في العالم لا بد وأن يكون فيها قليل أو كثير من القحب. كان أبي يقول لي: الشقاء يُعَلِّمُ كل شيء عن الناس والأشياء قبل الأوان. أمي كانت تقول لي: إن لم تتزوج باكراً فستشقى. اليوم لم ينفعني شيء مما كانا يقولانه لي. ما كانا يعرفانه عن الناس والأشياء لم يعد إلا في الذكرى. ماتا هما، ومات الناس، والأشياء من زمانهما صدئت.

تأمل ما كتبه وسط الصورة: «جحيم بدرو». هاهاها... إنها مزيج من أفكار أقتَبَسَها عن مهزلة دانتي ومآسي شكسبير ورعب بو. (إن موت امرأة جميلة هو أكثر المواضيع شاعرية). هذا ما يريد قولهُ من خلال بو.

ضحك. مسح وجهه براحته.. انفعل. باس الصورة بصوت مسموع قبل أن يمدها لي:

ـ لينا. حبيبتي لينا. ليناي. سبعة عشر أبريلات لم تبلغها بعد. سأجعل منها امرأة المستقبل. سأقتل فيها ما تبقَّى من البدائية. يا إلهي! ها هو ذا الحظ الوحيد المتبقي لي من ماضي المراد منك بكل إلحاح. لا ملائكتك، لا شياطينك. لا تُفرحُني. لا تُحزني. إلا هي! لك كل النهاية مفروشة بالأوركيديا ياليناي.

ابتسم. أحب طموحه المجنون. تخيلتُهُ يُجَنُّ. آ... آ... آززز! هكذا تخيلتني أصرخ طاعنا إياي في قلبي ثم يستل سكينة ضاحكاً ويتأملها لاحساً إياها. الدم يسيح على الأرض: خريطة دموية لعالم غير موجود. دمي يسيل وروبيرتو يضحك بهستيرية وأنا أضحك مثله بقوة. دمي يتدفق مثل شلال من فمي كلما أصابتني عدوى ضحكه.

يدور. يتوقف. يرفع رأسه إلى السماء. يغمض عينيه. يقطب

ملامح وجهه الجميل. فكرت: كيف لمن يحمل مثل هذا الوجه الوسيم أن يفكر في جريمة؟

تنهد:

ـ علي. كفى. (رمى رزمة الصور فوق الفراش. تبعثرت الصور وجوهاً وأنصافاً وسيقاناً ومثلها وأقلها وما ليس بوجه أو ساق أو غيرهما). هذه ليست إلا صوراً. إن عيشي الآن أقوى من الصور. سنخرج لنفكر في الإنسانية متباطئة أو مسرعة في الشوارع. إنها أكثر حياة مهما تكن غبية. لم تَصِرْ بعد صوراً. ما زال عندي صور أخرى، لكنها ليست سوى صور لأفخاذ لوَّثها باللزوجة مَرَقُ الليالي الأبيض.

عدنا إلى السوق الداخلي. مقهى فوينتيس. اقترب منا شيخ متوسل. مدّ يده لروبيرتو:

ـ أعطني شيئاً.

ـ أعطه قطعة إذا كانت عندك.

أعطيته خمسين فرنكا. أدناها المتسول من عينيه. قال رجل جالس إلى جانبنا لزميله:

ـ في الليل قلما يقترب منك، في هذا السوق الداخلي، متسول سوي العقل. المتسول في الليل إما أحمقُ أو سكران.

قال روبيرتو:

ـ إنه سيسقط هذا الإنسان.

أضاف بعد لحظة:

ـ عندما كنت في الهند بصقت في خيالي على شحاذين مقروحين كانوا يمدون لي أيديهم بإلحاح وذل وعلى مقربة منهم بقرة تتجول بكل حرية ملتهمة في طريقها الخضر والفواكه التي لا تستطيع أن تمتد إليها يد إنسان يموت جوعاً. هناك حكاية تقول: كان غاندي يتمشى مع

إنجليزي في أحياء الهند. تفلت بقرة روثها، غمس غاندي أصبعه في الروث ثم وشَمَ به جبينه. قال له الإنجليزي:

ـ إن هذا ليس معقولاً.

قال غاندي:

ـ إن هذا فوق المعقول.

تعالت قهقهات من جميع المقاهي. الشيخ السكران يرقص في وسط الساحة على إيقاع نغم في التلفزة.

ـ إنه بشع هذا الضعف الإنساني.

سقط الشيخ بين مقاعد مقهى فونتيس. كفت القهقهات. لم يقترب منه أحد لإسعافه. يتحرك. يبذل مجهوداً ليجلس. رأسه مائل إلى أمام. يداه متدليتان على الأرض. وقف بصعوبة. سقط من جديد على قفاه. قال روبيرتو:

ـ لنذهب من هنا.

فكرت: التجربة. من المهم اكتشافها، لكن أن أعيشها هو الأهم. لا يهمني شرها أو خيرها. هل هي الحرية وحدها الكاشفة عن قناع الوجود؟ لم أُضَحِّ بعد بتجربتي من أجل حرية الآخرين. أدور. أدور وأدور. حول ماذا؟ إلى أين؟ من أجل من؟ لقد ابتعدتُ عن أشخاص كنت أبتسم لهم في وداعة زائفة. كنت أدور في حلقتهم سبع ساعات في اليوم. خمسة أيام في الأسبوع. تسع سنوات ونحن نشم روائحنا مثل الكلاب: الأعراس، الحفلات العامة، الزيارات العائلية، السهرات الليلية، ألعاب المقاهي، الخصومات والمصالحات والأحزان الغرامية. (كتبت لها سبعا وسبعين رسالة في أقل من شهر). هكذا قال لي أحدهم. أنا اليوم أنمو أيضاً في أَفيون آخر، لكنه أَفيون تخلو فيه العلاقات الزائفة. ما يُريحني اليوم هو أني خلفتُ حياة لست آسفاً

عليها. إنني أولد من جديد مثل شجرة في غابة موحشة. حقيقة أخرى عن هذا العالم تولد معي في هذه الولادة الجديدة. زمني في اللازمان. بلا سماء ولا أرض. أحسني بينهما دون أن أتماسَّ مع أحدهما. زمني في زمن اللازمان.

[9]

مرة أخرى ها أنا في مقهى سنترال. أدور وأدور. أجدني هنا أو في مكان يشبهه. النادل واقف ينظر نحو الباب. زبون يقرأ صحيفته. يتناول كأسه ويرشف منها وعيناه تتحركان من اليمين إلى اليسار. يزم شفتيه ثم يرخيهما. غارق في أحداث العالم. ينتقل إلى الصفحة الثانية ثم يعود إلى الأولى. شخص آخر يلتهم فطورة بلهفة. ثيابه ملطخة بالطلاء. يسعل. السابعة وسبع دقائق. يقولون بأن رقم 7 هو أهم الأرقام في العالم. اللّه خلق العالم في سبعة أيام. أيام الأسبوع سبعة. عجائب الدنيا سبع. السموات سبع. درجات الجحيم سبع، ألوان الطيف سبعة. درجات السلم الموسيقي سبع، رؤيا يوسف عن القحط سبعة أعوام. أرواح القط سبع. الفنون سبعة. العالم سبعة أو سبع أو سبعة وسبع معاً. هائل هذا الركام من السبعاوات.

وضع لي النادل القهوة:

ـ هل تريدها هكذا؟

تأملت كأسي المنصفة وقلت له:

ـ أُتركها كما هي.

صبَّ الحليب فانبثق لون بُني غامق ثم تَقَشَّدَ اللون وأرغى السطح.

تطلعتُ إلى الساحة. بنكي باشا آت.

دخل متوتراً. جلس. يدخن سيجارته بشراهة. تأمل الكأس. قال للنادل:

ـ ماء من فضلك.

سألته:

ـ ألا تريد قهوة.

ـ أنا عطشان.

وضع النادل كوب الماء. شرب بلهفة. تأمله النادل بدهشة. قال لي:

ـ لقد زاد جنونه هذه المرّة. جنونه يزداد كل سنة. من الأفضل أن يبقى في بلاده قرب عائلته.

سألني أجوستين:

ـ ماذا يقول؟

ابتعد النادل مبتسماً.

ـ يبدو عليك أنك لم تنم، هذا ما قاله.

ـ إنه دائماً يسألني عن أشياء لا تهمه: «من أي بلد جئت هذه المرة؟ يبدو عليك التعب أكثر من المرة السابقة التي كانت فيها هنا. من أين جاءت هذه الفتاة التي معك؟ إنها لطيفة. اعتن بنفسك جيداً. لقد ألقوا القبض أمس على بعض الهيبيز. من حسن الحظ أنك لم تكن هنا. هل معك عملة أجنبية للصرف؟ صَرِّفْها قبل أن ينخفض سوقها». أُفْ! كم أكره هذا النادل وأمثاله!

أشعل سيجارة أخرى بارتجاف.

ـ عليّ.

ـ نعم.

ـ هل هو معقول ما تراه؟

ـ لا أدري ماذا تقصد.

ـ لا أعني شيئاً بالذات.

السيجارة ترتجف في شفتيه. ينفث الدخان من منخريه بقوة. عيناه تدمعان. يغير وضع ساقيه باستمرار. سألته:

ـ ماذا تناولت اليوم؟

ـ ماكْسيتونْ.

ـ والرفاق؟

ـ في القصر.

ـ في القصر؟

ـ ألا تعرف قصري؟ أليس لي قصر؟ إنني بنكي باشا. لا بُدَّ أن يكون لبنكي باشا قصر.

ـ صحيح. إنه قصر. نائمون؟

ـ لا أدري. وأنت، أين قضيت ليلتك؟

ـ سهرت مع روبيرتو.

ـ ماذا تعاطيتُما؟

ـ شربنا الويسكي ودخَّنَّا الكيف فقط.

ـ علي.

ـ نعم.

ـ أتعرف؟

ـ ماذا؟

ـ ماذا أقول؟ ماذا كنت أريد أن أقول؟ (وضع يده على جبهته ثم أخذ يفتل خصلات شعره). آه! تذكرت. سأتلفن لأمي هذا اليوم. سأطلب منها أن ترسل لي مبلغاً آخر من المال. إذا لم تفعل فسأمضغ أوراق الكيف وآكل الخبز مغموساً في الماء أو في بَوْلي. فالري أيضاً تنتظر من يوم لآخر حوالتها من أمها. قل لي، وأنت؟

ـ أنتظر آخر الشهر لأقبض آخر حوالة. بعد ذلك سأعيش على ما يأتي به تسكعي.

ـ لماذا؟

ـ لأني لن أعود إلى العمل. لقد صار العمل لعنة بالنسبة لي.

ـ تفاهة.

ـ ماذا؟

ـ من يقبض ومن لا يقبض راتبه في التفاهة. سأتلفن لأمي هذا المساء.

ـ كم ستكلفك المكالمة إلى شيكاغو؟

ـ سأحيلها على حسابها. لا تقلق عليّ. أبي مات وأمي تملك أسْهُما في بنك. أمي من أغنى النساء في شيكاغو.

فكرت: أمي من أفقر النساء في القنيطرة.

امرأة سكرانة تحاول أن تشعل سيجارة. تترنح فتنطفئ الوقيدة ثم تشعل أخرى. بِنْكي باشا يدخن بشراهة. يحبس الدخان في رئتيه. يفتل شعيرات رأسه. أجراس الكنيسة تدق. قال أجوستين:

ـ صوت المسيح.

قلت:

ـ بل صوت بُولس الذي ينادي.

ـ عندك الحق. إن صوت الكنيسة هو صوت بولس. بطرس ينكر المسيح للمرة الثالثة والديكُ يصيح للمرة الأولى. كم أود لو أني ولدتُ في زمن الدعارة المقدسة. بابل، مصر، الجليل، روما. (لحظة صمت) في الإغريق كان هناك يوم خاص للحب المباح. كانت المرأة تنتعل في اليوم المقدس مشَّاءة مكتوب في أخمصها: «اتبعني»! زمن كيلوباترة كان آخر هذه الأزمنة المقدسة.

رجل عار يعبر الساحة ببطء واطمئنان. يلوح بعصاه الجميلة في رشاقة. لا يلتفت إلى أحد. أسمر، نحيل، متوسط القامة. تهامس رُواد المقهى:

ـ محشش.

ـ مجنون.

ـ من يدري!

ـ غرابة!

نشطت حركة في المقاهي. ذهب بعضهم إلى بعض متسائلين. لم يتبع أحد الرجل العاري. ضحكت في خيالي. سألني أجوستين.

ـ ماذا يحدث؟

ـ ألم تر ما حدث؟

ـ كلا، ماذا حدث؟

ـ الرجل العاري، ألم تره؟

ـ نعم، رأيته.

ـ ذلك ما حدث. كان يحمل فقط عصا.

ـ هل ضرب بها أحداً؟

ـ كلا، كان يلوح بها في الهواء.

ـ الهواء لا يحس بشيء. ربما كان يهش بها على قطيع من الغنم أو البشر في خياله.

نهض أجوستين.

ـ سأرجع.

تساءلت: حتى الآن تخلصتُ فقط مما هو عادي. أستطيع اليوم أن أرفض وأقبل العلاقات بلا وداعة زائفة، لكني، حتى الآن، لا أعرف ما أريده. ما يحدث لي هنا، كل يوم، شبيه بحادث مرور الرجل العريان الذي أوقف مضغ الفطور في الأفواه للحظة. من كان ينتظر مروره؟

هكذا هو ما حدث لي في هذه المدينة. أجوستين أقل دهشة مني نحو الأشياء. ربما كان يفكر في شيء آخر سلبه وعي الرؤية الكاملة. إنه مجرد شبح مَرّ بالنسبة إليه. كان يرى ولا يعي ما يرى. رؤياه كانت في تلك اللحظة أقوى من رؤيته. هل سأكون أفضل مما كنت أو أني أندفع فقط نحو ما لم أكنه أمس وربما نحو الأسود؟ ها هو يعود. قال للنادل:

ـ كوب ماء آخر، من فضلك.

ـ سلما. SELMA

ألتفت إليه:

ـ من هي؟

ـ لم أحدثك عنها بعد. إنها زوجتي السويدية السابقة. طلقتها منذ سنوات.

ـ أين هي الآن؟

ـ في الجحيم أو في الفردوس. لا يهم أين تكون. ليست هنا، هذا هو المحزن. محتمل أنها مع رجل آخر. لا يهم. إنها تحب الأسفار إلى الشرق الأقصى.

ـ أما زلت تحبها؟

وضع النادل كوب الماء على الطاولة وقال:

ـ هل صديقك مريض؟

ابتسمت له ولم أجب. لم يسألني أجوستين هذه المرة عما قاله النادل.

ـ كانت تفهمني أفضل مما كنت أفهمها أو أفهم نفسي.

فكرت: أنا نسيتهن كلهن. كرهت الحب الذي يأتي بالقوة أو الضعف. الحب لعبة خاسرة. لم تعد تسليني. كل أصدقائي الذين أحبوا وتزوجوا عاشوا في النحس. لقد رأيتهم يبكون مثل أطفالهم في الحانات بعد أن طلقوا. إنهم يتقيأون المرار في الصباح.

ظهر شرطيان. نهض رجل من قهوة طنجيس. تكلم معهما وأشار بيده اليمنى إلى زقاق «قلايين الحوت».

هزا للرجل رأسيهما. نعم، لم أعد أذكر حتى ملامحهن. أجوستين معه الحق. إن الغياب موت.

ـ علي.

ـ نعم.

ـ أتعرف!

ـ ماذا؟

ـ عندي ابنة عمة غنية.

ـ وبعد.

ـ عندما أعود إلى شيكاغو سأتزوجها.

ـ وبعد.

ـ سنقضي شهر العسل في معسكر الهيبيز.

ـ أنت محظوظ.

ـ فكرت: أقارب أسرتي من بين أفقر فقراء العالم.

ـ بعد ذلك سأهجرها إذا هي رفضت.

ـ سترفض ماذا؟

ـ إذا هي رفضت أن تصير هيبية.

ـ أنت محظوظ.

ـ ينبغي للأغنياء أن يصيروا هيبيين إذا أرادوا أن يكونوا إنسانيين.

ظهر الشرطيان من جديد في الساحة. تركزت نظراتهما على المقهى. تكلما مع بعضهما. تقدم أحدهما نحو المقهى ودخل وبقي الآخر عن الباب ويداه وراءه.

ـ أوراقك.

ـ أنا؟

ـ نعم أنت. مع من تحسبني أتكلم؟

التفت إلي أجوستين كأن السؤال لا يعنيه. تأملته كأني أستغرب مثله هذا الطلب. اقترب الثاني مني.

ـ أوراقك.

الأول لأجوستين.

ـ ألا تسمع ما أقول لك؟

ـ مددت هويتي للثاني. قال أجوستين:

ـ ليست معي.

ـ لا أوراق عندك إذن.

ـ عندي، لكنها في قصري.

ـ قصرك!

ـ نعم، إنني أسكن في قصر.

صرخ أحدهم في مقهى طنجيس:

ـ ها هو يَمُرُّ. ها هو العريان.

نهض الرواد من جميع المقاهي. ضحكت في خيالي. حين لا يعثرون على العراة يقصدون اللابسين. إذا فَشِلُوا مع الهاربين يُزعجون الجالسين.

خَلَتِ الساحة. نهض أجوستين.

ـ سأعود.

ظهرت المرأة السكرانة في الساحة. توقفت لحظة. تتجه نحو المقهى. أوقفها النادل عند العتبة.

ـ الدخول ممنوع.

ـ لماذا؟

ـ من الأحسن أن تذهبي لتنامي.

ـ لا أريد أن أنام الآن.

ـ إذهبي إذن إلى مكان آخر.

ـ وهنا؟

ـ ممنوع.

دخل أجوستين. انصرفت المرأة باصقة نحو المقهى. تتمايل تتوقف. تلتفت إلى النادل وتبصق على الأرض. شتمته. بصقت على الأرض وداستها غاضبة.

ـ تْفُو على مقهاكم.

تذكرت مزاجهم الغريب: «تعال ـ اذهب ـ لكن...»

ـ أجوستين.

ـ نعم.

ـ لنذهب.

ـ لماذا؟

ـ سيعودان. وقد يأتي معهما آخرون.

ـ لقد تذكرت أني أحمل معي جوازي. ها هو ذا.

ـ سيسألانِنا عن أشياء أخرى لا تهمهما.

ـ بل هم يهمهم كل ما يفعله الآخرون. إن لديهم دائماً أسئلة كثيرة باطلة. إن شغلهم هو أن يحرسوا حرية الآخرين.

ـ إلى القصر إذن.

ـ إلى أيّ مكان ما عدا البقاء هنا.

[10]

قال بخشونة:

ـ تعال معي.

تطلعت إليه. شخص آخر يتبعنا.

ـ تعال من هنا.

ـ انعطفنا في زقاق «وحيد».

ـ قف هنا. أرفع يديك. (يتحسسني من أعلى إلى أسفل) أين صديقك؟

ـ من؟

وصل الشخص الثاني.

ـ الهيبي الذي كان معك في الصباح في المقهى.

ـ لا أدري أين هو الآن.

الثاني:

ـ كيف لا تدري؟

ـ لا أدري أين ذهب.

ـ لكنك تعرف أين يسكن.

ـ نعم.

ـ ماذا عنده في منزله؟

ـ أصدقاؤه الهيبيون.

ـ الأول:

ـ ما هي الأشياء الأخرى غير الأصدقاء؟

ـ عنده أسطوانات موسيقى البوب، حاك، كتب شعر، مضاجع مغربية، شموع، قيثارة ونايّ.

انتهى الأول من تفتيشي. تأملاني للحظة. قال الثاني:

ـ ليس هذا ما نريده.

ـ لا أعرف سوى ما قلتُ.

ـ وأنت، ألا تتناول المخدرات معهم؟

ـ كلا.

ـ معك أوراقك؟

ـ نعم. (أعطيته جواز سفري. فحصه ثم قال):

ـ معلم إذن.

ـ نعم.

ـ معلم يعاشر الهيبيين. (صَمْت) ماذا تعمل هنا في طنجة؟

ـ في عطلة.

ـ معلم في عطلة يتناول المخدرات. (صمت).

قال الأول:

ـ ماذا تفكر؟ ألست مسروراً؟ (صمت).

تأملاني للحظة. انصرفا. ظَلِلْتُ مبهوراً. إلتفتا إليّ قبل أن ينعطفا ويختفيا. ضحكت ضحكة كبيرة في خيالي. فكرت: إن قليلاً من الجنون والصمت يكفيان للتخلص منهم.

قالت تانيا:

ـ علي، ماذا تفعل هنا؟ أتحلم أم ماذا؟ إنك تبدو نائماً وأنت واقف.

أفقت من ذهولي.

ـ آ، تانيا، أنت هي.

ابتسمنا.

ـ تعال معي إلى منزلنا.

ـ كنت ذاهباً عندكم.

تبعتها.

ـ كارين وإيفا تركتا لك كلمة.

ـ أين ذهبتا؟

ـ إلى مراكش. ثم ستقصدان الصويرة.

ـ متى ذهبتا؟

ـ هذا الصباح. (توقفت أمام باب قديم لون طلائه أزرق مُقَشَّر).

ـ هنا.

ـ أعرف. لقد نعتتُه لي أمك.

دقتْ على الباب. أطلت تاتيانا من النافذة الصغيرة ثم ضحكت.

ـ ماما، افتحي. (اختفت تاتيانا ضاحكة). كارين وإيفا، بحثتا عنك ولم تجداك. أين كنت؟ (أطلت تاتيانا) ماما، افتحي. (اختفت ضاحكة).

ـ كنت عند بنكي باشا.

أطل رجل.

ـ أبي، افتح.

ـ تاتيانا نازلة.

تأملتُ عينيّ تانيا الجميلتين الحالمتين. تَبَسَّمنا. سمعت ضحكة

تاتيانا تقترب. انفتح الباب. ضحكت لنا. صعدنا تتقدمانني. صعدنا دُرُجا ضيقة.

تاتيانا تضحك. استقبلني أبو تانيا بترحاب منحنيا على الطريقة الصينية. صافحني:

ـ جورج.

ـ علي.

ضحكت تاتيانا. قدمتني تانيا إلى أختها روز. توقفت روز عن الرسم وحيتني بوجه مشرق. أحذية كثيرة معلقة على الجدران. ضحكت لي تاتيانا. تبسمت لها. الأحذية المعلقة جديدة وبالية. سألني جورج.

ـ كيف تركت «الثوكوتشيكو» الآن؟

ـ رجال الأمن السريون يفتشون الغرباء في كل مكان بحثاً عن المخدرات.

ـ ضحكت تاتيانا. طَرَقات على الباب. قال جورج:

ـ تانيا، انظري من يكون!

أطلت من النافذة. انحسر الثوب البالي عن فخذيها الطريتين، الجميلتين الممتلئتين.

ـ أجوستين، أنت هو، انتظر.

قال أبوها:

ـ افتحي له.

ضحكت تاتيانا. مدّت لي سيجارة محشوة. من جديد استعرضتُ الأحذية. قلتُ:

ـ رائعة هذه الأحذية.

قال جورج:

ـ تاتيانا هي التي تقتنيها.

دخل أجوستين. قال جورج:

ـ هِلُّلو أجوستين!

ضحكت تاتيانا. أجوستين متوتر. جلس دون أن يفوه بشيء. سألتُ تانيا:

ـ أين الرسالة؟

ـ نسيت. أووه، اسمح لي.

سألت بنكي باشا:

ـ أين كنت؟

ـ في القصر.

ـ كارين وإيفا سافرتا.

ـ أعرف.

ـ وفالري؟

ـ في القصر.

ـ كيف هي؟

ـ تمثل دور أوفيليا بين الجدران والشموع. لا تنقصها إلا الزهور.

ـ إنها بدأت تمرض. وروبيرتو؟

ـ لا أدري. ربما هو أيضاً يمثل دور هملت في الشوارع التي لا يعرفها. لا تنقصه سوى جمجمة «يورك».

ـ وشتاين، أهناك جديد عنه؟

ـ لا أدري.

ـ ربما نفوه إلى الخارج.

ضحكت تاتيانا. أجوستين يدخن بشراهة. روز ترسم لوحتها وتعض شطيرتها المدهونة بالزبدة والمربى. تانيا تتأمل سيجارتها بحلم.

جورج يقرأ في صحيفة. قال بنكي باشا:

ـ جروفي مانْ GROOVY MAN.

سألته:

ـ ماذا هناك.

ـ نادا. NADA

هززت كتفي بلا مبالاة. ابتسم جورج. ضحكت تاتيانا. قال بنكي باشا:

ـ هيفي مان HAVY MAN. توماتش مان TOOMUCH MAN.

ـ فار أوت. FAR OUT

طلبت روز سيجارة. مدتها لها أمها ضاحكة.

ـ تانيا، أين الرسالة؟

ـ آ، علي، نسيت، اسمح لي.

ضحكت تاتيانا. قالت روز:

ـ ماما، سيجارتي ليست محشوة جيداً.

أخذتها منها تاتيانا وحَشتْها جيداً بالتبغ الأخضر. تانيا تبحث في الأحذية عن الرسالة. قال بنكي باشا:

ـ ذاتس كوول THA'S COOL.

ـ آ، ها هي.

أخرجت الرسالة من حذاء يلتمع.

ـ هاكَها.

قال بنكي باشا:

ـ آيم أوب. I'ME OP

قرأت: عزيزنا علي، فكرة السفر فاجأتنا. قررنا الذهاب إلى مراكش. إذا لم تعجبنا فسنذهب إلى الصويرة... قيل لنا أن هناك

أجمل قُراها وهي «الذباباتْ». إن الهيبيز أسسوا هناك عيشاً جماعياً. الحياة في مراكش أو في الصويرة أفضلُ من طنجة الخيانةِ كما قال عنها جان جنيه. الحق بنا حين تستطيع.

نحبك: كارين وإيفا.

قال بنكي:

ـ بايبي مان BABY MAN. كاط مان CAT MAN. مراكش شيك MARRAKECH CHIC.

وضعت الرسالة في جيبي. تانيا تحلم في عينيّ. نهض أجوستين وخرج دون أن يودعنا. ضحكت تاتيانا. جورج مستغرق في قراءة جريدة. روز ترسم لوحتها التجريدية بحلم. تأملت تانيا. هدوؤها شهواني. لم أعد أقدر أن أقول: لا لما هو لا، ونعم لما هو نعم. كما يقول الإنسان، أحياناً، الجحيم أو الجنة. حتى الأبله يعرف أن السماء فوقنا.

نظرت إلى تانيا بشهوة. ضحكت تاتيانا. أتخيل نصف وجه تانيا ونصف وجه روز ينبثقان من وجه تاتيانا. جورج يبدو طيباً. أنا دائخ بين ما أعيه وما لا أعيه. بين ما حدث وما يحدث أو لم يحدث بعد، وساق روز ووجه تاتيانا نصفا وَجْهَيّ ابنتيها. إن للفرج طعم الصودا. قليل من الملح في ماء الصودا. للفرج طعم لحس الجلد في الصيف تحت ظل شجرة. طعم الفرج ما زال في فمي. ضحكت تاتيانا ضحكتها الوردية الرُّمانية تبعث طعم الصودا في فمي. قالت روز:

ـ بابا، انظر، هل يعجبك هذا اللون؟

قال بإعجاب:

ـ أوه، نعم. رائع. استمري.

كنت أهوى صنع تماثيل الحيوانات من الطين. دخل أبي. كنت

أصنع تمثالاً لطائر. حطَّمَ تماثيلي وقال صافعاً إيَّاي:

ـ أخرج. «بَرّا» أيها الملعون. هذا ما يبقى لك أن تصنع. أخرج وابحث عن شيء آخر تفعله.

تبسمت روز لأبيها. عبست في وجه أبي وخرجتُ إلى الحي لأتضارب مع أول طفل يمازحني. ضحكت تاتيانا. بكت أمي. تانيا تحلم وتاتيانا تضحك. أختي «عالية» تحمل سطلين من الماء ماشية في الوَحْلِ حافية والأمطار تسقيها. ماذا سيقول الذين عملت معهم حين يعلمون أني طلبت استقالتي من عملي؟ ذكريات قذرة ما زالت عفونتها في ذهني. قال لي أحد رفاق العمل: «تزوج. الاستقرار، هذا هو المهم في الحياة. هل هناك أفضل من الحياة الزوجية؟ إذا شئت سنبحث لك عن فتاة طيبة، بنت عائلة محترمة... ليس أفضل من الزواج». ثم أضاف بنفس الطيبة الكريهة: «فكر. فكر قبل فوات الأوان. الإنسان يعيش ثم يموت ولا بُدَّ له من أن يخلف ذرية صالحة تخلد ذكره بين الناس». بصقت على وجهه وركلته وصفعته في خيالي. كتبت لي أمي أيضاً رسالة في هذا الموضوع الكريه: «ولدي العزيز... تعال في أقرب وقت. عندنا مفاجأة سارة لك». وحين سافرت وذهبت عندها على عجل قالت لي: «لقد وجدنا لك فتاة جميلة جداً في الرابعة عشرة من عمرها. إنها يتيمة، ليس لها سوى جدة فقيرة ومريضة. سلوك الفتاة حسن، خجولة ومسكينة. هذه فرصة العمر يا ولدي».

رفضت بلطف وعدت إلى الدار البيضاء. بعد سنوات قالت لي: «هل تذكر تلك الفتاة التي كنا قد اخترناها لك للزواج بها فرفضت؟».

ـ نعم، أذكر جيداً.

ـ إن لها اليوم طفلة وهي الآن حبلى.

ـ وبعد، ماذا في ذلك؟

ـ لكي تدرك أنها فتاة كانت صالحة لك لو أنك تزوجتها.

ـ لكن يا أمي حتى الكلاب تلد.

الأصوات الكريهة لم تكن تتعب. «أَسْلِمْ نفسك لما هو طبيعي ومقدور. كن مثل الناس: مثل هذا أو ذاك من العقلاء. افعل هذا. اترك هذا. هذا لا يليق بك». لكني، في كل مرة كنت أحاول فيها أن أكون مثل الناس، أبدأ في كراهية نفسي وكراهية من أوصاني أن أكون مثل هذا أو ذاك. إن أفواه الناس، في أغلب الأحيان، تفوه بما يشبه رائحة المراحيض.

[11]

الشارع الرئيسي يبدو اليوم أكثر اتساعاً. شذبوا الأشجار. رؤوسها مقصوصة. لمست رأسي: سالفايَ يتدليان. أينبغي، أنا أيضاً، أن أقص شعري؟ ساعة المتجر ما زالت عاطلة. إنها في عطلة صدِئَة. المدينة في عطلة، أنا في عطلة، لكن عطلتي قد تطول أكثر من الساعة والوافدين على المدينة. الرفاق الذين عرفتهم هنا لهم أيضاً عطلهم البوهيمية. اللّه هو أول من أخذ عطلة بعد أن انتهى من خلق العالم. هذا ما قرأته في الكتاب المقدس. خلقه وتركه يفيض ويتم على هواه أتمنى ألا يكون هناك ندم. خلقه في فصل الربيع. هذا ما قرأته. يا حسرة على شباب العالم! يا بكارة مريم التي لم تُفْتَضّ! وتلك المجدلية التي عانقت قدميّ المعلم وغسلتهما بدموع استغفارها. من نظر إلى امرأة واشتهاها في نفسه فقد زَنَى معها سبعين مرة. كيف لا نكون زناة؟ لا تشته زوجة صديقك. النبي لوط ينجو بجلده مع ابنتيه وأمهما المولّهة برئيس الهيكل تلتفتُ خلفها فإذا بها عمود من ملح ناري. أهو فضول النساء أم هو العشق القاتل؟ حتى الملائكة في إهاب البشر نجوا من الاغتصاب. الأم العاقر تلد ابن العالم مكتوب عليه ألا يقرب النساء. موسى يقتل رجلاً ويطلب من أخيه هارون الفصيح أن يدافع عنه أمام فرعون. محظوظات هن أرامل شهداء الحرب في زمان المعجزات. الماء ينبع من الصخر.

طوبى للظامئين! الرغيف الواحد يتوزعه الجميع فيكفي. بورك للجائعين في زمن الوحيّ! العصا تشق البحر فتصل الشمس لأول مرة في تاريخها إلى أرض البحر. العميان والأبرصون يُشْفَوْنَ باللمس. الميت يقوم بالصوت. يوسف يفسر رؤيا السنابل السبع اليابسات والخضر. يا شباب عالم الأنبياء الطاهرين والكهان. لقد استوت اليوم رفاتكم في أعين الناس.

بدأت انسجم مع هذه المدينة. أنوار الشارع تلمع. باخرة تصفر ثلاث مرات. لا أعرف معنى الثلاث. لم أسافر في باخرة ولا في طائرة. حين انتقل من مدينة إلى أخرى فكأني أنتقل من زنزانة إلى أخرى. إنني مثل هذا القميص الذي ألبسه، فعندما يتسخ سأغسله لألبسه من جديد. الصداع الآن في رأسي يقول لي: إنك لم تعد تنام جيداً. تنام مثل أرنب أو فأر. خلاياك تفسد أكثر من اللازم. أنت لست أرنباً ولا فأراً. كن إنسانك.

تطلعتُ إلى نافذة غرفة روبيرتو المطلة على سور الكسالى والبحر والميناء. إنه هناك، شخص يتظاهر أنه ينظر إلى واجهة متجر ولكنه يفحصني بنظراته الجانبية. فكرت: ماذا، هل سيطلب مني أيضاً النَّمس أوراقي؟ نظر إليِّ هذه المرة شزراً. لا بد أنه أحدهم. إنهم مبثوثون في كل مكان. رغم المزعجات التي تحدث لي في هذه المدينة فإني بدأت أحبها مثلما أحب امرأة تخون محبها ثم تعود إليه تائبة. سمعت خرافة «طنجوية» تقول بأن النبيَّ نوح هو أول من اكتشف هذه المدينة بعد الطوفان. عادت الحمامة حاملة في منقارها غصن زيتون وفي أرجلها عينة من طين فصاح نوح: ـ طين ـ جا.

تعال هنا، تمشَّ إلى جانبي. ارفع يديك: تكلم. ماذا تعمل؟ هل أنت مسرور؟ ما يبقى لهم أن يسألوا عنه هو: ماذا فكرت أمس؟ ماذا حلمت؟ ما معنى هذا الحلم في رأيك؟ فيم فكرت هذا الصباح؟ والآن

فيم تفكر؟ ماذا أنت فاعل غداً؟ هل تعبد اللّه؟ متزوج؟ من هذه التي معك؟ أرِنا عقد زواجكما. أرنا تواصيل الضرائب. أعطنا أسماء الذين قابلتهم هذا اليوم. اذكر لنا أسماء الذين تفكر أن تقابلهم. هل هناك أشخاص تحبهم؟ ماذا يعملون؟ هيا، اذكر لنا كل ما في رأسك. . . اذكر لنا ما تعرفه وما تحاول أن تعرفه.

المرأة تنتظر المصعد. فحصتني بريبة وخوف. نظرت إليها بجنون. خفضت رأسها واستدارت لتصعد الدرج. قلت لها:

ـ يا سيدة، ها هو المصعد يهبط.

التفتت بريبة عدائية وصعدت الدرج بخفة: أهي خائفة من أن أغتصبها أو أخنقها داخل المصعد؟ دخلتُ المصعد وضغطتُ على زرِّ الطابق الرابع. نظرتُ إلى مرآة المصعد الصغيرة. هل صرت مخيفاً إلى هذا الحد؟ من خلال زجاج باب المصعد رأيت امرأة وطفلها ينتظران في الطابق الثاني. رفع الطفل أصبعه مشيراً إلى المصعد. فتحتُ الباب. نبح كلب صغير في وجهي. قالت صاحبته بالفرنسية:

ـ أسكت، جاستون!

قبل أن تدخل المرأة المصعد ألقت عليَّ نظرة فاحصة. ضغطتُ على الجرس. ماذا يكون فاعلاً الآن؟ بعد لحظة اعتم ضابط الرؤية. ها هو. إنه يرى وجهي الذي تضببه عين السمكة الصغيرة الميتة الكاشفة. انفتح الباب:

ـ أووه! أنت هو. كنت أنتظرك. ادخل. ستشاركني في هذه الليلة الديونيسية ـ الباخوسية. محظوظتان عينا من يراك.

ـ ماذا هناك؟

ـ ش. . . ش. . . ش. . . عندي ثلاث غزالات مغربيات.

تأملتُ هيأته المرحة.

ـ ثلاث؟

ـ نعم، ثلاث. أجمل منهن لم أر من قبل في طنجة.

ـ في نفس الغرفة؟

ـ وماذا في ذلك. إنهن مسرورات.

ثم ضحك بصخب. أتأمله بدهشة. ابتسم لي. ضربني على كتفي.

ـ تعال. سأقدمك إليهن. يمكن لك أن تختار مَنْ تعجبك. خذها إلى الغرفة الأخرى إذا كنت تحشم أن تفعل الحب أمامنا.

الأولى مستلقية على السرير تدخن وتشرب. على الطاولة زجاجة ويسكي. الثانية تتصفح مجلة «البلاي بوي». الثالثة تدخن وتشرب قهوة سوداء. حييتهن. ملأ لي روبيرتو كأساً. قال:

ـ إنه صديقي المغربي الوحيد. (التفت إليَّ). أليس كذلك يا علي؟

ابتسمت له.

ـ صحيح. (أضفتُ له). لقد بعثت بطلب الاستقالة من عملي.

ـ أترك هذا إلى الغد. احتفل معنا الآن. إننا نحتفل.

ضحكت الأولى. دخنتْ. شربت ثم قالت ضاحكة:

ـ روبيرتو، مزيداً من الويسكي من فضلك.

صَبَّ لها ثم جلس على حافة الفراش. قال لها:

ـ أحب شعرك وعينيك.

فكرت: يحب دراهمه في شعرها وعينيها. شربت من كأسي. أما أنا فعليّ أن أحب حياتي الجديدة وإلاّ انسحقتُ. قال روبيرتو:

ـ للاّ الصافية في يومها السابع. هذا ما لم أحلم به من قبل في طنجة. عليّ: سنصير غنيين. صدقني. سترى حينما أحدثك عن اكتشافي الجديد. في طنجة كنوز لم تُكْتَشَفْ بعد.

فكرت: عماذا يتحدث؟ قالت الأولى:

ـ روبيرتو، املأ لي كأسي.

نظرتُ إليها. بدأتْ تثمل. ملأ لها روبيرتو وللثانية والثالثة راشفة قهوتها السوداء مدخنة سيجارتها بيدها الأخرى. شربت ما تبقى في كأسي. ملأها روبيرتو. فكرت. إن البشر مخلوقات مسكينة. إن عدم الرضا ينخر عظام العالم.

ـ اشرب. فكرت فيك. قلت لنفسي: الأفكار المزعجة تمتصه الآن في مكان كنت تحتمل الجلوس فيه.

ـ كنت في منزل تاتيانا.

ـ آه! تلك المرأة الحمقاء. بنتاها روز وتانيا تشبقانني بجنون.

ـ ابدأ بالدجاجة ثم التهم كتاكيتَها.

ـ إنك على حق. هي الضريبة.

باس الأُولى. بستُ أنا الثالثة في خيالي. نظرتُ في اتجاهها دون أن أنظر إليها فالتفتت إليَّ وبَسِمَت عيوننا. قالت لي الفتاة يوماً: وجهك يشبه وجه أخي. قلت لها: وجهك يشبه وجه أختي. ومثلما يضاجع روبيرتو دراهمه بسخاء متناوبات عليه ضاجعت أنا تلك الفتاة وكلانا يتخيل ما لا يُقال، ولكننا نفعله بهوس. قالت لي بعد الصحو من اللازمان: ـ وجهك يشبه وجه أخي. فكرت: وجهي يشبه وجه أختي. أضفتُ لنفسي: وجهك يشبه وجه أخيك ووجه أخيك يشبه وجه أبيك. قلت لها: وجهك يشبه وجه أختي ووجه أختي يشبه وجه أمي.

قال روبيرتو:

ـ علي.

ـ نعم.

ـ فيم تفكر؟

ـ في لا شيء. إنني أشرب وأحلم بوجوه.

ـ تفكر في شيء. لا بد أنك تفكر في شيء ما.

ـ صحيح.

ـ ما هو؟

ـ في ميدوزا التي التوت على رأسها الأفاعي والدماء التي تسيل منها، وصراخِها المُرْعِبْ وعينيها الجاحظتين.

ـ كفى من هذا التشاؤم. تعال معي.

قال لهن:

ـ لحظة، لحظة قصيرة.

تبعته خارج الغرفة إلى الممر.

ـ أيَّهُنَّ تريد؟ (تأملتُهُ باسماً). السمراء؟ الشقراء؟ الأخرى التي تستلقي على الفراش؟

ـ لكن... أنا... ليس عندي...

ـ أعرف. أعرف كل شيء. اسمع، لا تفكر في شيء. لقد استلمت هذا المساء خمسمائة دولار. خذ أي واحدة تروقك. هناك غرفة الزنجي آندي شاغرة. لقد سافر إلى مراكش صحبة فتاة أمريكية. ترك لي المفتاح لأفعل في غرفته ما أشاء. هيا، من تختار؟

ـ شاربة القهوة.

ـ آ، السمراء (ضحك) حسناً. رائعة. إنها رزينة. أعجبتني، لا تتكلم ونحن نفعل الحب.

دخل غرفة الفتيات واتجهت أنا إلى غرفة الزنجي المسافر. كان بابها مفتوحاً. كل أثاثها فراش وطاولة وكرسيان. على الجدران صور المناظر الطبيعية المصورة على الأصل، وصورة فتاة عارية شبيهة بالصور العارية التي تنشرها مجلة «بلاي بوي». ضحكات في الغرفة. فكرت في تاتيانا. أنا تضاحكت. دخل روبيرتو ماسكاً السمراء من يدها. ابتسمت

الفتاة بحزن حلو. فكرت: الحب مع فتاة كئيبة يشبه اغتصاباً. ذهب روبيرتو. جلسنا على السرير صامتين. مددتُ لها علبة سجائر فرجينيا. سحبتْ واحدة ويدها راعشة. أناملها رقيقة وطويلة وأظافرها جدُّ مقَلَّمة. ترشف من سيجارتها وتعض على أظافرها. الواحد تلو الآخر بعصبية. قلت لها:

ـ هل يروق لك أن نبقى هنا أو نعود إلى الغرفة الأخرى.

قال بصوت هامس:

ـ سنعود حينما ننتهي.

عاد روبيرتو بكأسين من الويسكي. وضعهما فوق الطاولة ولامس بأطراف أصابعه خَدَّ الفتاة كأنها ابنته.

ـ تمتعا جيداً.

ثم انسحب باسماً لنا. ضحكات صاخبة في الغرفة. ناولتها كأسها. تبسمت عيوننا. أفاقت قليلاً من شرودها. بدأت تستحضر نفسها وتصحو. ألقت نظرة على جدران الغرفة. بدأت تَشِفُّ. لم تعد ضبابية في عينيَّ.

[12]

أجوستين يتأمل السقف. فاليري تَتَمَشّى. تتألم. تطل على البحر من النافذة. وجهها يتقلص. تغني كلمات. حركات يديها متوترة. تعض شفتيها باستمرار. تلوي خصلات شعرها على أصابعها كما يفعل أجوستين حين يكون سيئ المزاج. تدير خصلاتها على سبابتها وتشدُّ بعنف. نظراتها المتباسمة، المهووسة، تُهَدهدُ آلامها. تلتفت فجأة إلى جانبيها أو خلفها. تتأملنا ضاحكة ثم تعبس. حركاتها لا إرادية. تتجشأ. تمشي إلى الغرفة الأخرى، تعود ثم تذهب وتعود. سألتُ بنكي باشا بهمس:

ـ وإذا لم تحقن نفسها اليوم؟

ـ لا أدري ماذا ستفعل. قد تحاول أن تقفز من النافذة، ولكني لن أمنعها. لا بد أن نعثر على مخدر كيفما كان نوعه. أنا أيضاً أعصابي ثائرة.

همست له:

ـ أنظر إليها. ماذا تريد أن تفعل الآن؟

ـ دعها تتصرف. لا تكلمها حتى لا تثور علينا.

أخرجتْ المحقن من علبته. مدت ذراعها. صرخ أجوستين:

ـ فالري، لا تكوني مجنونة.

قفز إليها ولوى معصمها. سقط المحقن من يدها. أطلق معصمها فصفعته وبصقتْ على وجهه.

ـ اتركني أَفْعَلْ ما أريد. أخرج من حياتي.

مسح بصاقها من على وجهه وقال:

ـ جُنِّي كما تشائين، ولكن ليس هنا في قصري.

قهقهت بصخبٍ ثم قالت:

ـ ألا تخجل من أن تدعو هذه «الخربة» قصراً.

ـ إنه مكاني، وأنا حُرٌّ بأن أدعوه بما أشاء.

ـ جبان.

ضحكت بهزء. تذهب وتجيء بقلق متزايد. التقط أجوستين المحقن. تعض على شفتيها. تُقَلِّمُ أظافرها بأسنانها. ردّ أجوستين المحقن إلى علبته ووضعها إلى جانبه. سألته:

ـ ماذا تريد أن تفعل؟.

ـ ألا تعرف هذا؟ تريد أن تحقن نفسها بالهواء في الشريان. فلتقتل نفسها بعيداً عنا.

قلت بعد لحظة:

ـ سافرت أيضاً أسرة تاتيانا إلى مراكش إذن.

ـ كل الذين يخشون على شَعرِهِم سيسافرون إلى مراكش أو الصويرة أو يغادرون المغرب إلى عالم آخر.

ـ هل حَلَقُوا لبعضهم؟.

ـ ليس بعد. أُعطيت لهم أربعاً وعشرين ساعة لكي يقصوا خلالها شعرهم. إذا لم يقصوه، كالناس العاديين، فسيحلقون لهم بالمُوسَى. هذا ما قيل لهم.

ـ إنها حملة لتهجيرهم من هنا.

ـ ربما.

فالري هدأت قليلاً. تنظر من النافذة إلى السماء والبحر. لمستُ شعري. سأقصه غداً. قلت له:

ـ روبيرتو بدأ يقتني الأشياء الأثرية: لوحات، تماثيل صغيرة، أصداف، نقود...

ـ هل رأيت بعضها عنده؟

ـ أراني ثلاث لوحات: واحدة تمثل المسيح مصلوباً، أخرى لمريم العذراء تبتهل ولوحة كبيرة لامرأة نصف عارية رسامها من القرن الثامن عشر كما يعتقد هو. سيحصل أيضاً على لوحات لرسامين معاصرين من بينهم بيكاسو ودالي. لكن جنونه يتضاعف لاقتناء لوحة تُمثل امرأة مغربية في الزيِّ المغربي القديم: للاَّ الصافية في يومها السابع.

ـ حتى بيكاسو ودالي.

ـ هكذا قال.

ـ لكن من أين سيحصل على هذه التحف؟

في حيّ «السقاية الجديدة» يوجد يهودي عجوز عنده ما يشبه متحف في منزله. بعض اللوحات بدأت تشوهها الرطوبة. إنه يُقَضِّي آخر أيامه في تأمله والحديث عنها مع بعض الأغنياء الذين يزورونه. لقد ألّفَ كتاباً يروي فيه قصة هوايته الفنية، مع صور أُخِذَت له مع بعض مشاهير الرسم في بداية هذا القرن. لقد عاش هذا اليهودي العجوز في باريس عندما كان بيكاسو يرسم لوحات زرقاءَ ووردية ودالي يُحاضر عن السُّريالية واضعاً إحدى قدميه في إناء مليءٍ بالحليب. ضحك وقال:

ـ لقد سبق لرامبو أن خرأ في إناءٍ من الحليب وجده قُدام الباب عندما خرج مرة غاضباً من منزل فرلين.

ـ صحيح؟ لم أكن أعرف هذه الحكاية. أعرف فقط أنه يريد أن يكون جيروم بوشْ القرن العشرين. (أضفتُ): طلب روبيرتو من اليهودي أن يصور بعض اللوحات فوافق العجوز.

ـ إنه أيضاً يسمح له بتصوير لوحاته.

ـ اليهودي مُصِرٌّ على رؤيتها أمامه حتى الموت. لا يريد بيع إحداها بأي ثمن. إنها روحه. لا يسمح بأدنى إصلاحٍ فيها.

فالري تتمشى من ركن إلى آخر حالمة. سأل:

ـ من قدم روبيرتو إلى هذا اليهودي؟

ـ يهودي آخر. إن روبيرتو مع الكل وليس مع أحد: لليهود يقول لهم يهودي، للنصارى مسيحي وللمغاربة مُوَحِّدي مُسلم. لا فرق عنده بين أول الأنبياء وآخرهم: «هذه هي أحسن وسيلة للعيش هنا يا عليّ». «هكذا قال لي. إن جنونه الكبير يتضاعفُ للحصول على هذه اللوحة. هكذا قال لي».

ـ وبعد ذلك.

ـ سيذهب إلى مدريد أو باريس أو إلى أيّ مكان في أوروبا لبيع كنزه.

[13]

بدأ يثمل. يدخن سجائر أمريكية بشراهة. يحبس الدخان في رئتيه مثل بنكي باشا. ليل هادئ، قمري. أشجار النخيل ساكنة. يشرب أكثر مني. كنا نشرب كونياك فوندادور. وضع يده على جنبه الأيمن:

ـ كبدي معلقة وصفرائي تكاد تنفجر. بدأت أفقد مناعتي هنا. في بوليفيا، سان فرانسيسكو وألاسكا كنت أشرب الكحول أكثر من هنا. كنت أتمنى أن أثمل فلا أثمل. صديقي سلفادور كان يقول لي:

«روبيرتو، إذا متُّ قبلك فلا تنسى أن تسقي قبري بزجاجة من الكونياك الجيد». كان يحب زهور الأوركيديا. كنت أقول له: «كن مطمئناً. سأضع على قبرك زهورك وأسقيها بزجاجات من كونياك نابوليون. إن الأموات مثلك يستحقون أغلى وأجود ما في الحياة. إن أمكن أيضاً فسأصحب معي فتاة جميلة لتنطرح على قبرك تارة على بطنها وتارة على ظهرها». قبل أن ينتحر بثلاثة أيام اصطحبنا إلى منزله فتاتين. كان يحب دائماً أن يفاجئ الفتاة الجديدة التي تكون صحبته. حين تعرت فتاته أمامه أخذ ثيابها ورماها من النافذة إلى الشارع. فتح لها خزانة مليئة بثياب النساء الفاخرة لتختار ما يلائمها من الأثواب. كان يمتلك جميع أقيسة الملابس النسوية. أحياناً يحتفظ بثوب الفتاة الجديدة إذا أعجبته رائحتها. رأيته مرة يخرج «سليبا» من جيبه ويمسح به فمه. قال لفتاته

في تلك الليلة: «أتمنى لك نهاية مملوءة بزهور الأوركيديا. إن زهرة الأوركيديا أخت المرأة الجميلة. المرأة الجميلة ينبغي أن تكون لها روح قاتلة وإلا ذَبُلَ جمالها في عين الرجال». وجدناه ميتاً مُمدداً على فراش من زهور الأوركيديا. كان يتمنى مثل هذه الميتة الأوركيدية لنفسه ولكل من يحبه. ماذا تقول أنت عن إنسان يقتل نفسه بأحب الزهور إليه؟

ـ مات ميتة يضحك لها الأغبياء ويحتفل بها الأذكياء.

قال ضاحكاً:

ـ برافو! من أجل هذا سنحتفل بقدحين آخرين ذكرى صديقي وصديقك أيضاً سلفادور. يجب أن يكون لك أيضاً أصدقاء من الأموات حتى ولو سمعت بهم لأول مرة.

نادى على الساقي:

ـ قدحان آخران. (أضاف لي): أتعتقد أن مثل هذا الساقي سيموت سعيداً؟ إن خريطة الشقاء مرسومة على ملامحه. أرِني وَجْهَ إنسان أقُلْ لك بداية حياته ونهايتَها.

أما أنا ففكرت في المثل: «نصف قلبي عامر بالحب والنصف الآخر عامر بالصداقة».

وإذا لم أسكر فماذا ينتظرني؟ ما هي الزهور التي أحبها أنا؟ أم أن لا زهور لي! لم أهتم أبداً بأسماء الزهور إلاّ بروائحها. فحين أقرأ أسماءها في الأشعار والروايات والقصص أقول لنفسي كأني سليل الذين لا يعرفون أسماء الأشياء، وإن رَعَوها، كيف هي ألوانها؟ أشكالها؟ روائحها المختلفة؟ لا شك أنها زهور رائعة وإلا لماذا الحديث عنها بمثل هذا الوَلَهِ المهووس؟ ربما لاسبب شفيفٌ وأنا المُعْتَمّ. أوليس أن معرفة الزهور هي تربية أو حالة مُستْثناة؟ لا أذكر أبداً أن أُسرتي الشقية بعسرها اشترت يوماً باقة زهور. كان لنا الريحان للأموات والزهور والورود بِدْعةٌ للأحياء والأموات. كان كل فقير مُسلماً، وكل ثري

نصرانياً. غَرْسُ الزهور والورود أغلى من الخبز. الآن ربما يحق لي أن أسأل: كيف هي زهور الأوركيديا؟ شكلها؟ رائحتها؟ أهي في المغرب؟ تبقى إذن زهوراً في ذهني بلا أسماء وأسماء بدون زهور.

لأول مرة فهمت أن الورد أثمن من الخبز. لا مصالحة مع الذين سرقوا لي خبزي ووردي. المحاكمة ليست دعواي.

أخرج روبيرتو حافظة نقوده:

ـ في هذه الليلة سأقص عليك أكثر الأشياء كتماناً لك. سأطعنك هنا (وضع قبضة يده على مكان قلبي). إذا أنت بُحْتَ بها.

قلت لنفسي: أما أنا فلا أخاف أن يعرف الناس ما أكتمه ثم ابتسمتُ له. أراني صورة منزله الخشبي في ألاسكا.

ـ حول هذا المنزل يوجد إنسان مدفون. محفوظ في الثلج كسمكة كبيرة. إن حكاية قتل رجل من أجل امرأة لم تنته بعد في هذا العالم الذي خلقته مأساة الفروج التي لا تنتهي. وداعاً يا ألاسكا! هكذا قلت لنفسي بعد يومين في طريقي إلى كولومبيا. وداعاً يا لينا! قتلتُ رجلاً من أجلك. من أجل أن تقولي بأنني كنت رجلاً. ربما لن أراك قط. قد يقتل رجل آخر من أجلك. كنت أوشكُ أن أقتلها هي أيضاً لأحقق لأوسكار وايلد حلمه في سجنه: «الإنسان يقتل أكثر الذي يحب». كلمات. كلمات. ما ينقصني هي الكلمات. لننهض. هذا المكان لم يعد يوحي بالكلمات والأفكار.

نادى على النادل. خطواتُ خطوات إلى الأمام. الكلمات الناقصة في مكان لم يعد يوحي بشيء. هذا أيضاً مثل زهور الأوركيديا. إنني في حاجة إلى مزيد من الخيال. إلى قوة التخيل لأفكر في الانتحار بالأوركيديا وقتل رجل من أجل امرأة قد لا أراها مرة أخرى.

قال:

ـ لنعبر إلى الرصيف الآخر إذا شئت. الظلام الخفيف يريح عينيّ.

فرك عينيه المتعبتين، الرامشتين باستمرار. خيال روبيرتو رائع، لكنه خيال مخيف.

[14]

مثل هذه الأسئلة، التي يسألونَنيها، بدأت تقلقني وتخنقني. ماذا تعمل؟

كم عمرك؟ من أين أنت؟ متزوج؟ أبواك ما زالا حيين؟ ماذا تفكر أن تعمل في طنجة أو في مكان آخر؟ إنك تبدو أقل من سنك. ماذا يعمل الشخص الذي رأيناه معك في مقهى سنترال يوم كذا، في ساعة كذا؟ من أين جاء؟ هل يتعاطى المخدرات؟ أيّ نوع يتعاطى؟ من يمدهم بالنقود هؤلاء الهيبيون حتى يعيشوا حياة بلا عمل؟ وأنت، هل تتناول معهم المخدرات؟ كيف هو تأثيرهم عليك؟ قل لنا: أهي أيضاً تحشش تلك الفتاة التي تكون دائماً معك أو مع الشخص الذي يتكلم الأسبانية والإنجليزية والفرنسية الذي يكون معك أحياناً؟ هل ضاجعتها؟ يبدو عليها أنها شهوانية جداً. لا بُدَّ أن تكون شاذة في علاقتها الجنسية. إن فتاة تعيش حياتها بهذا الشكل الإباحي لا يمكن أن تكون سوية. لم نعد نرى الشخص الذي يكون معك أو معها. لا يكاد الواحد هنا يعرف شيئاً عن هؤلاء الهيبيين حتى يختفوا. اسمح لي. إنني أسألك فقط.

طرقتُ الباب. تراجعتُ قليلاً إلى الوراء. تطلعتُ إلى النافذة. طفل يضرب كرته على الحائط ثم يتلقفها بيديه. طرقتُ الباب ثانية. قال الطفل:

ـ الفتاة التي تسكن هنا كانت أمس ترمي الأثاث من النافذة. كانت تصرخ وتبكي قاذفة الأشياء من النافذة.

ـ وماذا حدث لها؟

ـ لا شيء. جاء رجل فتحتْ له الباب وأعاد الأثاث إلى المنزل.

ـ وبعد ذلك؟

ـ لم تعد تقذف الأشياء من النافذة.

ـ ألم يأت البوليس؟

ـ لا.

ـ شكراً.

انفتح الباب. تأملتني بكآبة. كم هي حزينة وشاحبة!

ـ هل أدخل؟

لم تجبني. استدارت وتركت الباب مفتوحاً. أمسكتها برفق من كتفها:

ـ فالري، ماذا حدث؟

غمغمت بعياء وتعاسة ونحن صاعدين الدرج:

ـ أووه، أنا فقط متعبة.

ـ وأجوستين؟

ـ سافر مع تاجر حشيش إلى البادية.

ـ لماذ؟

توقفت. ضَحِكَت ضحكةً خفيفة بهزء. كلماتها متمزقة. صوتها واه. قالت:

ـ ليكتب الشعر ويعبد الطبيعة. لقد صار أرواحيا. (لا تكاد تتماسك. أوشكت أن تسقط. أسندتها).

«تعبت من الجدران والشوارع. إنني في حاجة إلى منارة. أشتاق

إلى القمم». هذا ما كان يردده قبل أن يسافر. أنشد بعض قصائد لبيرون وكيتس وشلل. أنشدنا معاً قصيدة أدونايس لشللي. كان يرثي نفسه من خلال رثاء شللي لصديقه كيتس.

دخلنا غرفة الجلوس. الأثاث مبعثر. صحون وأقداح وزجاجات مكسورة وشموع على الأرض واقفة وطائحة. جلسنا. قلنا لها:

ـ لقد حدثني في آخر مرة كثيراً عن رهان باسكال، الشاعر ألكسندر بوب، عن ملتون والأوبانيشاد.

ـ هل معك سجائر؟

ـ نعم، لكن ماذا حدث لكِ أمس؟

هزت كتفيها وقالت:

ـ أووه، لا شيء! كنت متوترة.

سحبتْ السيجارة بيد راعشة، شاحبة.

ـ وأنت، هل ستبقين هنا؟

ـ أمي لم ترسل لي النقود بعد. حين أكون إلى جانبها تعطيني كل ما أريد وأعيش كما تريد، لكن حين أكون بعيدة عنها تدير حياتي كما تريد هي. إذا لم أذهب إلى مراكش أو الصويرة فسأعود إلى باريس. (تنهدت بضيق). كم أكره أن أقضي الشتاء في باريس! (أشعلت لها السيجارة). وأنت؟

ـ لست نادماً على استقالتي من وظيفتي، لكنني أيضاً لست مسروراً في وضعي الجديد. إن أصدقاءنا رحلوا. أفكر أن أهاجر إلى أوروبا: هولاندا، فرنسا أو الاسكندنافية. لست أدري بعد إلى أين سأذهب. ما رأيك أنت؟

ـ أنا أيضاً لا أدري. لا أعرف بالضبط الحياة الجديدة التي تريدها لي أمي.

بدأت أحس بنفس وحدة اليوم الأول الذي جئت فيه إلى هذه المدينة القحبة. فكرت: إنها مثل فندق كبير هذه المدينة: محجوز في الصيف وكاسد في الشتاء. هذا ما يقوله أهلها. من قبل كنت أقول لنفسي. ها أنا موظف. اليوم أقول لنفسي. ها أنا عاطل. إن هذا يشبه حساب الأطفال: أعطاك أبوك تفاحة وأعطتك أمك تفاحة، كم عندك من تفاحات؟ إذا أكلت واحدة وأعطيت الأخرى لأختك، كم يبقى معك؟ إنني الآن مثل هذا الكم يبقى معك. لقد أكلت تفاحة أبي وتفاحة أمي ببزرهما وقشرهما دون أن أعطي الأخرى لأختي. (عينا فالري مغمضتان) سأتركها ترى نفسها. تطل على أعماقها. تفكر أو تحلم. تفكر في حلم أو تحلم لتفكر. ربما تحلم وتفكر معاً. أو هي مجرد شاردة. قد تكون مثلي: لا أحلم إلاّ لأفكر. لا أفكر قط كيف ينبغي لي أن أحلم. الإنسان عند روبيرتو إمّا يفكر أو يحلم. أما أنا فأحلامي هي التي تختارني. أجدني منزلقاً في حلم مثلما يغلبني النوم جالساً على مقعد وثير أو في حديقة أو مطالعاً في كتاب يذكرني بتجربة عشتها فأتخلى عن قراءة الكتاب لأستعيد تجربتي. إن هذا الانزلاق من اليقظة إلى الغفوة يشبه الوطأ على قشرة موز. كيف يستطيع الإنسان اختيار سقوطه إذا هو وطأ قشرة موز في غفلة؟ ما يحدث هو أنني حين أسقط في حلم أجدني واقعاً في حلم تلو حلم. هل أستطيع أن أقول لفترة من حياتي:

لا. أبداً لم أعشك. مثل هذا الإنكار يشبه كذبة الأطفال في قسم: «لا. لست أنا الذي فعل هذا يا أستاذ». ثم يشير خفية إلى أحد زملائه إذا خاف من العقاب.

نظرت إلى فالري. أغمضتُ عينيّ. بدأت أرى نفسي في الظلام. فكرت: هل أستطيع أن أفكر أنني لا أفكر؟ محتمل. لكن، أيعني هذا شيئاً؟

[15]

كشف روبيرتو الغطاء القماشي عن اللوحة:

ـ أُنْظُرْ هنا يا عليّ، إنها روعة. (ضحك). للاّ الصافية في يومها السابع. هي العروس الحقيقية عندكم هنا منذ أكثر من نصف قرن. عروس أُعِدَّت للحريم. لا يمكن أن تتزي بمثل هذه الثياب الفاخرة وتتحلى بهذه الجواهر إلاَّ عروس خلقت للحريم وتموت في الحريم. عروس لم يكن ممكناً أن يرى وجهها إلاَّ زوجها، أقاربها، العبيد المخصيون والنصراني الذي سمح له أن يرسمها. هكذا قرأت أو سمعت.

فكرت: كيف استطاع الحصول عليها؟. قلت بدعابة:

ـ هل قتلت اليهودي؟

ضحك بصخب ثم قال:

ـ كلا. الأمر سهل. لقد تعرفت على حفيده. وجدته في حاجة إلى المال. في العام الماضي رسب هو وزميلته اليهودية البولونية الأصل في البكالوريا. وهذه السنة لا يطيق رسوبه ثانية فبدأ يفكر في الهجرة إلى كندا. إنه يذهب كل مساء مع زميلته إلى مرقص غاسبل GOSPEL.

ـ كم كلفتك؟

ـ مائة دولار. وعدته بمائة أخرى عندما أستلم المال من نيويورك. إن جزءاً من روح جده قد باعه بمائة دولار. الأجزاء الأُخرى الموزعة على اللوحات الأخرى هي أيضاً ستباع الواحدة تلو الأخرى. إن أرواح الأجداد اليوم رخيصة.

ـ ألن يفتقد جده اللوحة؟

ـ لا بد أن يكون قد افتقدها هذا الصباح. إنه يتناول وجبات طعامه ناظراً إليها. اليد إلى الفم والعينان على اللوحات، هذا ما قاله لي حفيده.

ـ وماذا تفكر أن يحدث؟

ـ قبل أن يحدث أي شيء سنكون أنا وأنت خارج طنجة. (أضاف): هناك مغامرة أخرى.

ـ لوحات أخرى.

ـ أربع لوحات أو خمس ثم خمسة كيلوات من الهاش وعشرة كيلوات من الكيف المسحوق.

ـ هل تعرف المصير إذا. . . ؟

ـ أعرف، أعرف. لكن ما الفرق بين بضع سنوات في السجن وهذا الوضع البائس؟

فكرت: إنه يعطيني درساً. يريد أن يمحو كل ما تبقى عندي من الاحتراس. معه الحق. متى أنقذني احتراسي؟ رب ما أفكر فيه أنا مرة أو مرتين يفكر فيه غيري عشرات المرات. لحظة صمت. سألني:

ـ قل لي، هل ما زلت تفكر في فالري؟

اتجهت نحو النافذة. قلت مديراً له ظهري:

أنا؟ كلا. (استدرت إليه): لم أكن متعلقاً بها أكثر من اللازم. إن علاقتي بها كانت عابرة.

ـ إنها فتاة حمقاء. إن حقن الشرايين بالهواء أو تمزيقها بشفرة الحلاقة ليس هو الخلاص. من الأفضل لها أن تقوم بمغامرة أكبر من محاولة حقن الشرايين بالهواء.

ـ مثلما سنفعل نحن.

ـ ولماذا لا؟

ـ إذا شئت سنزورها معاً قبل أن نسافر.

ـ ليس لدينا الوقت. ينبغي لنا أن نغادر المدينة غداً. لقد اتفقت مع شاب يسوق سيارة أجرة كبيرة. سنقلع من هنا في الثامنة مساء. حوالي العاشرة ليلاً سنكون في سبتة. رتبت معه كل شيء.

ـ هل يعلم شيئاً عن الهاش والكيف؟

ـ كلا. اترك لي ذلك. إنني أعرف كيف أتصرف في هذا الأمر.

أشار إلى اللوحات:

ـ هذه ستقول لرجال الجمارك: لا شيء هناك خطير. (أخرج حزمة أوراق مالية) وبضع أوراق من هذه ستؤكد لهم «لا شيء خطير هناك».

فكرت في كلماته: ما الفرق بين بضع سنوات في السجن وهذا الوضع البائس الذي نحياه؟ إمّا وضع أفضل أو بضع سنوات في السجن. طالب، موظف، مستقيل ثم، إما ما هو أفضل أو ما هو أسوأ.

ضغط على زّر المسجلة. صوت ميراي ماثيو: لوبال ألي بيانتو سوترميني.

LE BAL ALLAIT BIANTOT SE TERMINER

[16]

الثامنة إلاّ ربعاً. السيارة واقفة في منحدر طريق ثرفانتس. قال لي:

ـ سأعود بعد خمس عشرة دقيقة.

لم أفهم. غمزني مازحاً. خرج من السيارة. جريت وراءه:

ـ إلى أين؟ ربما وقوفنا هنا سيثير شكوك رجال الأمن الليليين.

قال بصوت حازم:

ـ ارجع إلى مكانك. سأرجع بعد لحظة. (أخرج مطرقة صغيرة). هل تذكر علاقتي بتلك اليهودية العجوز صاحبة متجر المجوهرات؟

ـ نعم.

ـ ضربة واحدة بهذه على رأسها تُغْميها وأحصل على حفنة من مجوهراتها.

تأملته باندهاش. قال:

ـ ارجع إلى السيارة. لا تؤخرني. إنها تقفل في الثامنة. قل للسائق إني نسيت بعض الأوراق الشخصية في محل إقامتي. حاول أن تلهيه بحكايات طريفة.

رجعت إلى السيارة. سألني السائق:

ـ إلى أين ذهب صديقك؟

ـ لقد نسي بعض الحاجيات في محل إقامته.

فتح راديو السيارة. ضبط الموجة على أغنية جزائرية حزينة. تذكرت ليلتي الأولى مع كارين وإيفا في مطبخ الفندق. شخير الحارس يعلو وينخفض. نغم كان يأتي من بعيد. تأملت يدي فوق ركبتي العاريتين. كان النغم الحلو يقترب من الفندق وأنا أدخل في حلم جديد. قال المذيع:

ـ إليكم الآن الشيخ العنقا في أغنية «الحمام اللي والفتو».

روبيرتو قادم والشيخ العنقا يغني الحمام اللي والفتو مشى علي. ما بقى لي في الدنيا ما ندير أمان.

فَتَحَ الباب وجلس جنب السائق وقال له:

ـ عفوا. هيا بنا الآن.

استرخى إلى الوراء. قال لي بالأسبانية:

ـ الآن كل شيء جيّد.

فهمت منه أنه دقّ رأس اليهودية واستولى على حفنة من مجوهراتها.

[17]

قال روبيرتو للسائق:

ـ قف هنا من فضلك.

ـ ماذا يحدث؟

قال روبيرتو مازحاً:

ـ لا تَخْشَ من شيء. إننا لن نقتلك. فقط سنتوقف هنا للحظات لكي نصلي لهذا الليل. لا شيء خطير.

ضحك السائق ضحكة خفيفة. خرجنا من السيارة. قال السائق.

ـ لست أخاف من شيء.

قال لي روبيرتو:

ـ هات الزجاجة:

أخرجتها من الكيس البلاستيكي. هواء بارد يصفع. تَنَفَّسَ روبيرتو بعمق. فكرت: إنه يهيئ نفسه لنتخطى خطر المغامرة. أخذ مني الزجاجة وفتحها. فكرت: كم هي موحشة هذه الليلة! مسح روبيرتو عنق الزجاجة براحته وقبلها. الأصوات الليلية تتجاوب. نَقَّ ضفدع وضفادعُ أخرى. قال السائق:

ـ إن توقفنا هنا، بهذا الشكل، سيبعث الشك في أية دورية دركية.

تنهد روبيرتو ماسحاً فمه بظهر يده. مَدَّ الزجاجة للسائق:

ـ ويسكي جيد. اشرب نوبتك. أنا كفيل برجال الدرك. ليس ما هو أفضل من الويسكي لطرد التعب والقلق.

تبسم السائق متأملاً الزجاجة. قال روبيرتو:

ـ كم أحب مثل هذا الصمت الوحشي!

تسلمتُ نوبتي. شربت ومسحت فمي. مددتُ الزجاجة لروبيرتو. احتفظ بها في يده للحظة. تراءى شعاع سيارة من بعيد. التفتَ نحونا أنا والسائق. روبيرتو يتأمل الليل اللا إنساني ويتنفس بعمق بين لحظة وأخرى. سحب سيجارة. مددت العلبة للسائق. اقترب شعاع السيارة. تباطأت سرعتها. التفتنا نحوها. تضاعفت سرعتها ومرت كالبرق. قال السائق:

ـ إنها سرعة الخوف من كمين.

مدّ روبيرتو الزجاجة للسائق:

ـ اشرب. سنقلع عندما تفرغ الزجاجة، عندما تنتهي صلاتنا لهذا الليل ولأنفسنا.

ثم قال لي:

ـ كيف تشعر بنفسك الآن؟

ـ آه، إن فكرة هذه الزجاجة رائعة (أضفتُ): ما نأمله هو ألا يزعجونا كثيراً في الجمرك.

قال السائق:

ـ لا يشددون كثيراً إذا عرف الواحد كيف يتفاهم معهم.

ـ أنا الذي سأتكلف بالمتاع. اهتم أنت فقط بتسوية مرور السيارة. (هكذا قال له روبرتو ثم رَبَّتَ على كتفه).

تسلمت الزجاجة من السائق. مددت الزجاجة إلى فمي وفكرت: إما بضع سنوات في السجن أو وضع أفضل. شربت حتى شعرت بالاختناق. قال لي روبيرتو:

ـ بدأت تشرب الويسكي كما لو أنك تشرب الماء.

قال السائق:

ـ يعجبني الويسكي، لكنه يثقب المعدة.

قال روبيرتو بمزاح:

ـ ويسدها إذا كانت مثقوبة.

أعطيتُ الزجاجة لروبيرتو. شرب بقوة. تأمل بقية ما في الزجاجة وقال:

ـ تَبْقَى لنا هنا نوبة واحدة لكل واحد. نوبة واحدة وتبدأ رحلة كل شيء أو لا شيء.

صَوَّتَ قربنا ضفدع. سألني روبيرتو:

ـ هل سبق لك أن أكلت وجبة ضفادع؟

ـ كلا، لكن سمعت أن أفخاذها لذيذة.

قال:

ـ أفخاذ العالم كلها لذيذة.

تسلم السائق نوبته وقال:

ـ كان في طنجة مطعم خاص بوجبات الضفادع. اليوم لم يعد يحمل سوى اسم «ضفدعة». هذا ما بقي منه.

سأل روبيرتو:

ـ لماذا لم يعد يقدم اليوم وجبات الضفادع؟

ـ كان ذلك في عهد طنجة الدولية. أيَّامَ كان بعض الأجانب لا يصدقون أن طنجة تقع في المغرب.

سأل روبيرتو:

ـ واليوم ماذا يقولون عنها؟

ـ مدينة الذكريات القديمة: «هونغ كونغ» شمال أفريقيا. هذا ما كانوا يقولونه عنها أيام عزِّها.

شربنا النوبة الأخيرة بسرعة. قال روبيرتو للسائق ماسكاً الزجاجة في يده:

ـ ما تقوله عن طنجة حق. هكذا أنا أيضاً سمعت من أهل السوق الداخلي.

تأمل الزجاجة. وضع يده على جانبه الأيمن وقال بسخرية:

ـ الويسكي يسد المعدة ويشد الكبد ويمطط الشرايين.

باس الزجاجة ورماها في المنحدر. مرت سيارة أخرى تخطتنا. دخل السائق وركبت أنا إلى الوراء. ألقى روبيرتو آخر نظرة على المرج المظلم. دخل وقال للسائق:

ـ والآن، هل ما زلت تخاف؟

ضحك السائق. نَقَّ ضفدع وضفادع وَصرَصْرَتَ حشرات. شغَّلَ المحرك وأقلعنا. قال:

ـ قلتُ لك بأنني لم أخف، إنما أنا أحتاط في مثل هذه الظروف.

واجهتنا سيارة بشعاع قويٍّ أبيض. اضطرب المقود. شتم السائق:

ـ ولد الزنا. لم يغير الضوء. إنهم يشربون كثيراً في سبتة ثم يقودون سيارتهم. معظم حوادث السيارات التي تقع في طريق سبتة يكون أصحابها سكارى.

تراءت سيارة. قال روبيرتو:

ـ كن هادئاً. (أضاف): هل تريد أن أقود أنا حتى نقترب من الجمرك؟

التفت السائق نحو روبيرتو:

ـ كلا. إنني...

صرختُ في السائق:

ـ احذر... انظر أمامك...!

[18]

الألم في جسمي كله. يشتد كلما حركت عنقي، رجلي اليمنى، يدي اليسرى. إنني كركاز تمزقت بعض خيوطه. يمرون باستمرار دون أن يلتفت تجاهي أحدهم. مرّ ممرض وممرضة. ناديتُ بصوت متعب:

ـ آنسة.

سمعت الشاب الممرض يقول:

ـ انتظر. اصبر قليلاً. سنجد لك مكاناً عما قريب.

انقلبت سيارتنا مرتين. انقذفت من الباب في المرة الأولى. اشتعلت فيها النار ثم انفجرت. إما بضع سنوات في السجن أو وضع أفضل. لا شيء من ذلك. مررت يدي على العصابة حول وجهي ورأسي. قالت الممرضة:

ـ هل تشعر بتحسن الآن؟

مينة القصري. لم أرها منذ عشر سنوات.

ـ قولي لي، من فضلك، ماذا حدث لصديقي روبيرتو وللسائق؟

ألقت علي نظرة للحظة ثم قالت:

ـ ينبغي لك ألا تجهد نفسك الآن.

ـ أريد أن أعرف فقط. ماذا حدث لهما؟

قرأت على لوح سريري:

ـ علي التمسماني! أهو أنت هنا؟

ـ أنت ترين. هل ماتا؟

ـ هزت رأسها بأسف.

إمَّا كل شيء أو لا شيء. هذا ما كان يريده روبيرتو. قالت:

ـ الحجرات فيها أكثر من اللازم من المرضى، لكنني سأحاول أن أجد لك مكاناً أفضل من هذا الممر.

ـ شكراً. إن حركة مرور العاملين هنا تثير أعصابي.

تأملتها بهدوء، انصرفت. ها هي إذن هنا. آخر مرة جلست إلى جانبي في السينما مع صديقتها بدرية. عشر سنوات مرت على رائحة البول في أصابعي والقبلات الخفيفة في الظلام: ظلام النفس وظلام المكان. كنت أكتب لها بعض الفروض الإنشائية وتحل لي هي تمارين المعادلات ذات المجهولين. أحياناً تنجز لي رسوم الخرائط الجغرافية. نالت علامة ممتازة عن موضوع «زلزال أكادير» الذي كتبته لها. أهدت لي علبة سجائر شقراء وثمن تذكرة للسينما.

أعتذر. كان الشخص الأول يتأمل الميني ـ جيب. يضحكون ويرفسون الكلب الهزيل العجوز. شورْطُها الشفاف يدغدغ مخي. يرعشني.

ـ هل أصحبك؟

ـ إلى أين؟

ـ إلى حيثما تشائين.

اللعينة. اشتريتُ ساعة ومشيت في الشوارع بتوقيت جديد. جبين النادل عرقان. قطرة من عرقه تدحرجت وتلاشت على خده. دمي يسيل في خيالي وروبيرتو يضحك كوحش أسطوري. صرخت: احذر...!

اللوحة تتأرجح في يد طالب الرسم. الكرة الضوئية تدور في السقف وترسم أشكالاً تنساب على الوجوه والجدران. نظري يخترق وجه كارين. روبيرتو يُجَنُّ في خيالي. أضحك مثله بقوة كي لا أخاف منه. قالت تانيا:

ـ ماذا تفعل هنا؟

تبعتها كأني أتبع نفسي. شهوتي يوقظها وجه امرأة حزين. عينا تانيا شهوانيتان مثل عيني أفعى. أشتهيها هي وأمها صاعدين الدرج. الوجه الحزين يوحي لي بالاغتصاب. الوجه الضاحك أيضاً يوحي لي بالاغتصاب. الوجه الساكن كسطح الماء في سطل يوحي لي بالسفر إلى مكان بعيد مفكراً ألا أعود.

ـ لم أعد أذكر ما حدث بالضبط يا سعادة الرئيس. كنا ذاهبين في نزهة إلى سبتة.

ـ هل تعرف ما كان يفعله صديقك روبيرتو في طنجة؟

ـ كان يحب قراءة الكتب خاصة الأشعار.

ـ فقط؟

ـ نعم.

ـ ألم تكن تعرف أنه كان يبعث برسائل مكتوبة بالعبرية إلى الخارج؟

ـ كلا.

ـ هل أنت متأكد؟

ـ نعم.

ـ وإذا أردنا أن نجعل «نعم» مكان «لا»!

ـ لا يمكن.

ـ كيف لا يمكن. كل شيء ممكن. اسمع: (صوت الرئيس مسجلاً):

ـ هل تعرف ما كان يفعله صديقك روبيرتو في طنجة؟

(صوتي):

ـ نعم.

ـ ألم تكن تعرف أنه كان يبعث برسائل مكتوبة بالعبرية إلى الخارج؟

ـ نعم.

ـ أليس هذا صوتك؟ هل سمعت نفسك تقول نعم؟

ـ نعم.

ـ سعادة الرئيس، إنني. . .

ـ كفى. أنت لا تعرف كيف تدافع عن نفسك.

نقيق الضفادع ونباح الكلاب يأتي من بعيد. فتاة عارية وشكل حيواني أسطوري. تذكرت وحشية الجمال في حلم: كانت الفتاة العارية تجري في الغابة. الوحش المفترس يوشك أن يدركها. وصلت إلى حافة النهر. لم يكن الوحش يعرف السباحة، لكن تمساحاً راقداً كان يشاهد ما يحدث. التفتتْ خلفها دون أن ترى التمساح. ألقت بنفسها في الماء قبل أن يدركها الوحش. الكهل الزمني يتأمل السيقان من منبت الساقين حتى نهاية الخصر. لم يكن ينظر إلى وجهها كأن مؤخرة المرأة نسخة من وجهها. عيوننا تضحك. الشفاه تنسحق. أحياناً أتخيلها كشروج تلك الشفاه. وجه كارين بين يديّ كوردة لم تضحك بعد. أنطح الجدار في خيالي. الدم يسيل على عينيّ. الأشياء تبدو لي من خلال الستارة الدامية شعلة من النار في الغسق. في الدرج، وأنا خلفهما، اشتهيت أمها من خلال ابنتها تانيا: نصفي الأسفل لتاتينا

ونصفي الأعلى لتانيا. الأحذية في بيت تاتيانا تبدو لي مثل فروج مفغورة تنتظر ما تمتصه.

ـ ألم تكن تعرف أن صديقك روبيرتو كان جاسوساً هنا في طنجة؟

ـ أبداً لا، يا سعادة الرئيس.

ـ لا تعرف عنه أي نشاط سري كان يقوم به ضد بلادنا إذن.

ـ كان يحلم كثيراً، ويقرأ كثيراً، ويؤمن بمذهب لا شيء. كان يحب الشعر ويكرهه.

ـ يحب الشعر ويكرهه، ماذا تقول؟ وضح كلامك.

ـ كان يقول بأن حبه للشعر هو سبب ضياعه: «إذا أردت أن تكره شيئاً، اهتم به كثيراً. أحببه بجنون». هكذا قال لي.

ـ هذا غريب.

ـ صحيح. لقد كان روبيرتو شخصاً غريباً، لكنه كان إنساناً طيباً مع الفقراء.

ـ دعنا من محبته للفقراء. إننا نريد أن نعرف ما كان يفعله ضد بلادنا.

ـ ذات يوم ألقى بكتاب شعر من النافذة ثم ندم. وعندما هبط ليسترجعه كان الكتاب قد اختفى. إن إنساناً آخر سيشقى إذا عثر عليه وقرأه. هكذا قال لي. كان دائماً في حاجة إلى الكلمات الجديدة، لكنه كان يكره قواميس اللغة. كان يفضل العلم على الشعر، لكنه أيضاً يكره آينشتاين وفرويد. يشرب الويسكي ويقول بأن الماء ليس صالحاً إلاّ للاغتسال. الماء للضفادع والجمال والأسماك. إنه... إنه... إنه...

ـ تكلم.

ـ الأشياء التي كان يقولها كثيرة.

ـ أعرف ذلك. لهذا سنساعدك على أن تقول لنا عنه كل ما كان يقوله. أنت تقول: «كان يحلم كثيراً».

ـ نعم.

ـ إن من يحب الحلم، مثلاً، لا يمكن أن يكره الشعر.

ـ كان شخصاً غريباً يا سعادة الرئيس. من أغرب الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي. كان أيضاً يكره أكل الفواكه لأنها ليست صالحة إلاّ للقرود.

ـ هل تعرف أشخاصاً آخرين غرباء يشبهون قليلاً أو كثيراً صديقك روبيرتو؟

ـ نعم.

ـ هذا مهم. إن كلامك بدأ يتحسن. بدأ يهمنا ما تقوله. بدأت تفكر جيداً. أذكر لنا إذن أسماءهم ومهامهم قبل أن تضيع في فراغ ذاكرتك. أقصد لا ذاكرتك.

ـ لم أعد أذكرهم يا سعادة الرئيس.

ـ ها أنت بدأت تسوء. حاول أن تذكر القليل مما تعرفه عنهم. أدلك ذاكرتك حتى تستعيد حيوتها. ليس من المهم أن تتذكر كل شيء. سنساعدك. هاك (اقتربت من المنصة وأعطاني ملبساً). تناوله. اتركه في فمك. سيذوب. لا تخف. إنها كبسولة تحتوي على مادة تنشط الذاكرة المتعبة.

ضرب الشاب الفتاة عند أسفل بطنها. شتمته الفتاة. ضحك في وجهها بوقاحة. لطمها بلطف على نهديها. صفعته. تَلافَى الصفعة وأصابت صديقه. أمسكها من معصمها وضحك بوقاحة في وجهها. العودة إلى مدينة والدوار في رأسي وزحام المدينة ينتظرني. حمار يركب حمارة. يعضها في قفاها. فتاة تتأمل الإيلام اللذيذ من النافذة

بانشراح. شعرها مقصوص وثيابها شفافة، يدها اليمنى ترقص على صدرها والأخرى مختفية. رأتني. . اختفت باسمة في غرفة فيلاَّها الجميلة.

ـ لكن روبيرتو مات، مات.

ـ إننا نحاكم الأموات والأحياء. ألا تعرف هذا؟

ـ كلا.

ـ قل لي، هل أنت متأكد من أن روبيرتو لم يمت؟

ـ هكذا قالوا لي.

ـ من قال لك أنه قد مات؟

ـ لم أعد أذكر. شخص ما أخبرني أو أشخاص.

ـ وإذا برهنا لك بأن صديقك روبيرتو لم يمت.

ـ روبيرتو مات. هذا ما قيل لي.

ـ كذبوا عليك. من السهل أن يكذبوا على شخص مثلك.

أشار الرئيس إلى شخص واقف على يساره. انفتح باب على اليمين ظهر شخص ولا وجه له. أمره الرئيس:

ـ تكلم، كلم صديقك عليّ. إنه يدينك بالموت ولا يصدقنا. اِنْفِ عنك هذه التهمة.

قال روبيرتو:

ـ علي، كيف أنت؟ أنا روبيرتو.

إنه صوته. لا أكاد أصدق. إنه هادئ مثل ميت. أهو مخدر؟ ولكن أين وجهه؟ قال الرئيس:

ـ ها أنت ترى بأن روبيرتو ما زال حياً.

أشار الرئيس بيده. مشى روبيرتو ببطء مثل روبوط واختفى خلف الباب. إنه روبوط حقيقي.

ـ ولكنه لا وجه له. أين وجهه يا سعادة الرئيس؟

ـ لا يهم إن كان له وجه أم لا. المهم هو صوته. الوجوه بدأت تختفي. قليل من الوجوه هي التي ما زالت تظهر بين حين وآخر. ستختفي هي أيضاً. كل الوجوه الخطيرة ستختفي. ألم تسمع بهذا؟

ـ كلا.

ـ ها أنت تعلم اليوم. الوجوه تتشابه ولا تتشابه. لو أردنا خداعك لوضعنا لصديقك روبيرتو قناعاً مطابقاً تماماً لوجهه الذي كان له. لكننا لا نريد أن نخدع إنساناً مثلك، ضعيف الذاكرة والمنطق. لقد أصبح صديقك دون وجه.

أجمع الزهور في أحد الحقول. تخاورت الأبقار والثيران. حمار ينهق. حمير تنهق. الأغنام تثغو. نهضت امرأة من وراء دفلى قرب الوادي: «ألا تحشم أيها الطفل»؟ تَشُدُّ سروالها التحتاني باضطراب. لم أفهم ماذا تعنيه، «حول وجهك عني». رميتها بالطوب وهربت. «انتظرني، أعتقد أنني أعرف ابن من تكون. سترى فيما بعد. سأخبر أمك يا قليل الحياء».

قالت النساء لأمي في قاعة الاستراحة:

ـ ابنك أكبر من أن يدخل حمام النساء.

ـ هذا عيب.

ـ صحيح. إنه يعرف كل شيء.

قالت أمي لهن:

ـ لا يعرف بعد شيئاً. إنه ما زال صغيراً.

ـ يعرف. يعرف كل شيء. كل من هو في سنه اليوم يعرف كل شيء. ألا ترينه كيف ينظر إلينا!

قالت أمي:

ـ هو خائف منكن. إنكن تخفنه.

قالت امرأة بدينة:

ـ اتركنه. إنكن حقاً تخفنه.

بدأت أبكي. قالت المرأة البدينة:

ـ لا تبك. تعالى معي يا عزيزي الصغير. أنا التي سأدخلك معي إلى الحمام. لن تجرؤ إحداهن أن تمسك بسوء.

مَسَّدَتَ شعري. باستني على خدي. أمسكتني من يدي. تمسكتُ بها. كانت أمي تخلع ثيابها لتدخل إلى الحمام عندما قالت امرأة بخبث:

ـ سنرى ماذا سيفعل عندما يرانا عاريات تماماً في الداخل.

قالت المرأة التي تحميني:

ـ لن يفعل شيئاً. ماذا تعتقدين، هل سيجيء عندك ويطلب منك أن يحك لك ظهرك وفخذيك؟

ضحكت النساء. قالت لي حاميتي:

ـ لا تخف. إنك الآن معي. سأدق عنق من تمسَّك بسوء.

تذكرت أمي عندما تقول لي في الظلام: «نم. لا تخف من شيء. إنني هنا معك». كانت النساء ظلاماً وحاميتي صَوْتَ أمي في الظلام. كففت عن البكاء ويداي شابثتان بيدها العرقانة. مشيت إلى جانبها إلى الحمام وحول نطاقي فوطة صغيرة.

لأول مرة، أنا ومينة، ننظر إلى بعضنا بجد وغموض. نظرنا إلى المدى البحري. بواخر تبدو كما لو أنها لا تتحرك. الأفق يبعث فيّ دائماً شوقاً إلى المجهول. المجهول الذي يُشَوِّقُني إلى مجاهيل لا تنتهي. قال لي فمها. «ها أنا. قبلني». تذكرت نافضة سجائر مكتوب عليها: «اسرقني». ازدادت غربتنا. الأفق يضاعف الحنين إلى عالم مجهول.

قلت لها:

ـ مينة.

تطلعت إليّ وقالت:

ـ لا شيء.

ابتسمنا. ضممتها بقوة وبستها. وجهها كما لو أنها تستيقظ من النوم. قَطَفْت لها زهرة من الحديقة العمومية. تأملتها بحلم. تدير الزهرة بين أصابعها. حطمت القبلة غرابتنا. كشفت لنا القبلة عن جدية مفاجئة: أنا رجل وهي امرأة. كأن صفة كلانا غائبة عن كل واحد منا. إعلان. القبلة إعلان.

ـ أتمنى لو أننا الآن في إحدى جزر هاواي نقطف زهور الأوشيد ونتناول طعامنا فوق شجرة أو تحتها.

ـ يمكن أن نفعل هذا هنا.

قلت لها.

ـ البعد. ما أريده هو البعد.

ـ من فضلك، إنني في ظروف صعبة. هل تعطيني درهماً؟

مضى بحيوية دون أن يلح أو يتذمر. ندمت. أشعر دائماً بنوع من الغباء يلازمني في مثل هذه الظروف. الأشياء إما تفوتني أو لم تأت بعد. أو تكون قد جاءت ومضت دون أن أشعر بعبورها. تدهشني العلاقات البشرية. أحياناً قبل أن أفكر في أمرٍ ما يكون كل شيء قد تقرر تلقائياً. المفاجأة لا تترك لي مجال الاختيار. إنها دوار. بطن كارين يخفق تحت رأسي. أصابعي تغوص في شعرها الأملس برفق وأصابعي الأخرى تغوص في فرجها مثل الفْلانْ. يا لرياضة الحب التي أنستني خيبتي في طنجة.

لوحة اللاّ الصافية في يومها السابع. أسبوع مضى على افتضاضها.

هذا ما تقوله تقاليد الزواج هنا. جرحها لم يزل طرياً والرسام النصراني يرسمها. قال روبيرتو:

ـ يا للعالم الذي ما يزال يحتفل بالافتضاض.

دهشت في الحمام لعري المرأة القوية التي أدخلتني معها. بدت لي النساء العاريات مثل أسماك واقفة وجالسة ومنبطحة. بعضهن يحلقن عانتهن وإبطيهن. دهشت كثيراً. قالت لي أمي وهي تحك ظهر المرأة السمينة التي أدخلتني معها:

ـ لا تنظر إليهن كثيراً.

بعضهن لم يكنّ عاريات تماماً. رأيت امرأة تحلق إبطيها ثم انفرجت ساقاها وأخذت تحلق أسفلها وسطل الماء أمامها. الحرارة والعري ورائحة العرق تُغْثيني وثرثرة النساء التي لا أفهمها. ضحكات وشتائم. فرقعة اصطدام الأسطال وشجارهن حول سقي الماء الساخن من سقاية الحمام.

أحسست بعربتي تُقادُ إلى اليمين. فتحت عينيّ: ممرض شاب إلى جانبه مينة تنظر إليّ باسمة. كل شيء يحدث من أجل ما هو أفضل. المدينة كلها أمامي. واقف فوق قمة الصخرة في سيدي عمار. إيوريكا! EUREKA أوربي إي أوربي URBI ET ORBI.

محمد شكري

طنجة 20 أبريل 1976

جان جنيه في طنجة

محمد شكري

جان جنيه في طنجة

سيرة روائية

قصة متكاملة عن جنيه

إحساسي هو أن كتاب شكري عن جنيه في طنجة لا يحتاج إلى مقدمة. إنها صورة متكاملة عن جان جنيه. ومن يقرأ هذه المذكرات سيرى جنيه بنفس الوضوح الذي رأيته به في شيكاغو.

«ليست هناك (لا) مطلقة، ولا (نعم) مطلقة. ها أنا جالس معك الآن، ولكن يسهل جداً ألاَّ أكون معك».

كانت مسألة حظ خالص أن يكون جنيه في شيكاغو سنة 1968 عندما جاء ليغطي انتخابات الحزب الديمقراطي لمجلة «إسكواير» ESQUIRE.

«لا أنا بالوجودي، ولا بالعبثي. أنا لا أؤمن بتصنيفات من هذا النوع. لست إلا كاتباً، سواء كنت جيّدا أو سيئا».

أنا بدوري غالباً ما أفقد صبري تلقاء هذه التصنيفات. هل أنا كاتب ينتمي إلى البتنكس؟ أو كاتب سوداوي أو ما أشبه.

هناك كتابة جيدة أو كتابة سيئة، أما إطلاق التسميات فينقصه المعنى.

«كنت دائماً أكتب حتى قبل أن أحاول كتابة أيّ شيء». إن سيرة كاتب ما لا تبدأ لحظة شروعه في الكتابة، فالسيرة والكتابة قد تَحدثان قبل أو بعد تلك اللحظة». «لم أبدأ الكتابة حتى بلغت الخامسة والثلاثين».

في مقال كتبته عن كِرْوَاكْ قبل أن أرى مذكرات شكري، قلت نفس الشيء بالضبط: «قبل أن أكتب شيئا على الورق كنت قد كتبت دائما».

هذا الاقتناع المُشْتَرَكُ هو الذي مكّننا، جان جنيه وأنا من التخاطب، في شيكاغو، بالرغم من فرنسيتي الفظيعة وإنجليزيته التي لا وجود لها. ولو أنه اعتبر نفسه وجوديا أو عبثيا لكان هذا التخاطب شبه مستحيل.

عندما قرأت مذكرات شكري رأيت جان جنيه وسمعته بوضوح كما لو أنني كنت أشاهده في فيلم.

من أجل أن يحقق الواحد دقة من هذا النوع عن طريق سرد الأحداث وتسجيل ما قيل فيها، على المرء أن يمتلك صفاء نادراً في الرؤية. إن شكري كاتب.

وليام بُرُوز

WILLIAM BURROUGHS

جان جنيه في طنجة

18 ـ 11 ـ 1968

كنت في مقهى سنترال مع جيرار بيتي GERARD BEATTY فجأة قال:

ـ انظر! ها هو ذا جان جنيه.

يمشي ببطء، يداه في جيبيّ سرواله، ملابسه مهملة، وسخة، ينظر باستمرار نحو سطيحة مقهى سنترال.

توقف. التفت إلى مقهى فوينتس FUENTES ثم اتجه إلى مقهى طنجة. قلت لجيرار:

ـ أريد أن أعرفه.

قال بانفعال:

ـ من الأحسن ألا تفعل.

ـ لماذا؟

ـ إنه يتضايق من معرفة الناس بسهولة. الانسجام معه صعب.

هكذا سمعت عنه.

أنا نفسي كنت قد سمعت عنه أشياء كثيرة. كان قد قال لي مسؤول في المركز الثقافي الفرنسي:

ـ إن من يقترب من جنيه عليه أن يتوقع إمّا صفعة أو قبلة على وجهه. قررت أن أتحدى جيرار وما سمعته عن جنيه.

يجلس في مقهى طنجة إلى جانب شاب مغربي. تحدثنا. جيرار وأنا، حوالي ساعة عن الكُتّاب والفنانين الذين زاروا طنجة. عيني على النمل البشري في الساحة وعيني على صلعة جنيه اللامعة في الشمس. رأيته ينهض. الثالثة مساء. قلت لجيرار:

ـ راقب ما سيحدث.

ثم نهضت واتجهت نحو جنيه. سمعت جيرار يقول لي بانزعاج:

ـ إنك أحمق. ارجع إلى مكانك.

التفت إليه باسما. أضاف:

ـ إنك سترتكب حماقة.

تقدمت إليه. توقف. يداه في جيبيه كما من قبل. مُنْحَنٍ قليلاً على نفسه. انتفض بِحَذَرٍ ناظراً إليَّ بإحداد. سأعرف فيما بعد أن هذه هي حركته أمام شخص لا يعرفه. قلت له:

ـ أنت مُسيو جنيه، أليس كذلك؟

تردد قليلا ثم سألني:

ـ من أنت؟

ـ كاتب مغربي. (لم أكن قد نشرت آنذاك غير قصتين في مجلة الآداب البيروتية) مدّ لي يده.

ـ مرحبا.

رأيت جيرار بيتي ينظر إليّ من خلال نافذة المقهى بدهشة وابتسام. سِرنْا. بدأنا نتحدث عن الكتّاب المغاربة وبعض المشاكل التي يلاقونها في الكتابة وصعوبة النشر. في طريق الصَّياغين سألته:

ـ هل تعجبك طنجة؟

ـ لا بأس بها.

لم أكن قرأت بعد كتابه «مذكرات اللص» وما قاله عنها: «طنجة الخيانة» REPAIRE DE TRAITRES.

ـ أليست من بين أجمل مدن العالم؟

ـ بالتأكيد لا. من قال لك هذا؟

ـ هكذا سمعت.

ـ ليس صحيحا. هناك مدن في آسيا أجمل بكثير.

أمام فندق المنزه، مدّ لي يده قائلا:

ـ أنا متعود على القيلولة. غدا، إذا شئت، يمكن لنا أن نلتقي في السوق الداخلي حوالي الثانية بعد الزوال. مع السلامة.

ـ مع السلامة.

كانت أول كلمة عربية أسمعها منه.

19 ـ 11 ـ 1968

لم أجد مكانا فارغا في رحبة مقهى طنجة فجلست في مقهى المنارة.

أيجيء أم لن يجيء؟ إن البارحة أحسّها تسيل في الحاضر المنتظر.

ها هو قادم. يمشي على مهل كعادته، يداه في جيبيّ سرواله. أشرت إليه. برقت عيناه، ابتسم، وقفت، تصافحنا، نظراته تبدو أكثر مودَّة من أمس. طلب شايا بالنعنع، وطلب آخر لي.

ـ لا أعرف لماذا لم يترجموا بعض كتبك إلى العربية.

ـ ماذا تقصد، العربية القرآنية؟

ـ نعم.

أوضحت له أن «لاراب كلاسيك»، هو نفسه «لاراب كورانيك».

ـ لا أدري. لم يطلب مني بعد أحد ترجمتها. ربما سيفعلون ذلك في المستقبل. أعتقد أن العرب لا تهمهم أعمالي في هذه المرحلة. أنا أعرف أن العرب عندهم حساسية أخلاقية مفرطة.

كان معي «الأحمر والأسود»، تصفح الكتاب.

ـ أتعجبك هذه الرواية؟

ـ نعم. قرأتها أولا بالعربية، واليوم أحاول قراءتها للمرة الثانية بالفرنسية (أضفت): إن حياة جوليان العائلية تمسّ جانبا من حياتي. هناك حادث متشابه: فقد باع سُورالْ ابنه جوليان لعمدة المدينة دورينال بثلاثمائة فرنك سنويا، وباعني أبي في تطوان بثلاثين بسيطة في الشهر لقهوجي حشّاش في الحيّ الذي كنا نسكن فيه.

ـ هذا هو الخطأ، ولست أنت الوحيد. إنك لن تدرك أبدا جمال عمل أدبي بهذا الشكل. ينبغي لك ألا تقرأ عملا أدبيا متمثلاً أن حياة بطل ما تشبه حياتك. عليك أن تتجرد. إن حياة إنسان آخر ليست هي حياتك.

انبثقت في ذهني شخصية باسيليو (في صورة دوريان جراي)[1] يتحدث مع اللورد هنري عن الفن وعلاقته بالحياة الشخصية للفنان.

قلت له:

ـ أنا لا أقصد أنني عندما أقرأ «الأحمر والأسود» أَتَمَثَّلُ أن حياة جوليان العائلية لها نفس شروط حياتي مع أسرتي. لقد حدث ذلك صدفة. إنني حينما أعيد قراءة الأحمر والأسود للمرة الثانية أو العاشرة فأنا إنما أعيد قراء حياة جوليان لا حياتي. ما يحدث هو أن جوليان يعطيني إحساسا جديداً بحياتي الماضية، عزاءً يُهَدِئُ حياتي الحاضرة.

(1) رواية لأوسكار وايلد.

ـ إنني أفهم.

أضفت:

ـ حياة جوليان كانت رائعة.

ـ صحيح. (أضاف): ستندال كان من أعظم كتاب عصره.

ـ إن رفض مرسولْ الدفاع عن نفسه في «الغريب» يذكرني أيضا برفض جوليان الاسترحام أو الفِرارَ من سجنه. لقد كان موقفهما من العدالة سقراطيا.

ـ الأمر يختلف.

وتكلم طويلا عن الفترة التي كتب فيها ستندال روايته ثم قال:

ـ أمَّا كامو فقد كان أكثر حظا. كتب الغريب في الوقت الذي كانت فيه فرنسا قد تحررت من الإرهاب العسكري والسيطرة الدينية. إن بطل اليوم في الرواية الحديثة أكثُر حرية في الرفض. إنه قلَّما يموت من أجل امرأة يحبها. محتمل أن تطلق عليه النار، لكن لن يستعذب حبها في زنزانة أو يردد إسمها وهو يقترب من المشنقة. يمكن أن يعتبر كافكا أول من كتب عن الرفض الغامض. خذ، مثلا، السيد ك. K في القضية. إن هناك حكما قاسيا ضده، أو هي مؤامرة لاغتياله على الأرجح، لكن ليست هناك أية قضية: ففي الوقت الذي كانت فيه حياته معرضة للخطر كان هو يمثل دوراً غرامياً هَزْلِياً مع امرأة.

بعد لحظة سألته عن صديقه سارتر. قال:

ـ لم أره منذ سنتين.

ـ لقد قرأت معظم كتبه. أتمنى أن أقابله ذات يوم.

ـ ممكن أن تقابله إذا شئت. (أضاف): إن سارتر قبل الحرب ليس هو سارتر بعد الحرب. لقد خرج من سجن الألمان بجلد جديد. لو لم

يغير جلده لما صِرْنا صديقين. كان، من قبل، يرفض أن يتعرف على أشخاص من أمثالي.

صحبته إلى فندقه. في الطريق سألته:

ـ هل تتكلم الإسبانية؟

ـ لا. (أضاف): كنت في شيكاغو في شهر غشت. تعلمت فقط بعض الكلمات الجديدة بالإضافة إلى كلمات أخرى أعرفها منذ زمان.

ـ والإنجليزية؟

ـ أيضا لا.

فكرت في كتابه: «يوميات اللص» وذكريات شبابه في بَرشلونه.

أهو يَكْذِبُ عليّ أم ماذا؟

ودعته أمام المنزه دون أن نتَّفق على موعد.

1968 ـ 11 ـ 20

كان صحبة براين جيسن BRION GYSIN آتيين من حومة بنشرقي.

بادرني جنيه قائلا عن معنى الأحمر في رواية ستندال:

ـ اسمع، الأحمر لا يرمز إلى الجيش كما قلت لك البارحة، إنه يرمز إلى النّواب الذين كانوا يلبسون البرانس الحمراء. الأحمر يرمز إلى النُّواب والأسود يرمز إلى الرهبان.

1968 ـ 11 ـ 21

التقيت به في السوق الداخلي حوالي الثانية عشرة زوالا. تحدثنا زهاء ساعة. ألقى عليّ بعض الأسئلة عن الوضع الاقتصادي والثقافي في المغرب.

ـ هل يختلط الأساتذة عندكم هنا بتلاميذهم أثناء الاستراحة أو خارج المؤسسة؟

ـ كلا. لا الأساتذة المغاربة ولا الفرنسيون. هناك حاجز كبير يفصل الأستاذ عن التلميذ هنا.

ـ لكن لماذا؟

ـ لا أدري.

ارتسمت على ملامحه خيبة كبيرة. ثم تحدثنا عن الدين الإسلامي، والمسيحي، وعن الذين كتبوا الأناجيل الأربعة ونزول القرآن. قال:

ـ أنا، شخصيا، أعتقد أن القرآن أكثر أمانة من متى، ومرقس، ولوقا ويوحنا.

كنّا نصمتُ لحظة ثم نبدأ حديثا جديدا. سألته:

ـ هل قرأت شيئا لكتّاب عرب؟

ـ كلا، للأسف، فَقَط قرأت بعض الأعمال لكاتب ياسين. إنه صديق لي.

لكي أتأكد أضفتُ له:

ـ حتى طه حسين وتوفيق الحكيم لم تقرأ لهما؟

ـ من هما؟

ـ كاتبان مصريان. لقد ترجمت بعض أعمالهما إلى الفرنسية ولغات أخرى.

ـ للأسف لا أعرفهما. أتمنى أن أقرأ لهما شيئا ذات يوم.

24 ـ 9 ـ 1969

أخبرني جيرار بيتي، هذا الصباح، أنه رأى جنيه في السوق الداخلي ZOCO CHICO في المساء، قابلت برايْن جيسن في مقهى زاكورة ZAGORA كان كَسْرُ رِجْلِهِ لا يسمح له بعد أن يَتَمشى كثيرا.

طلب مني أن أذهب عند جنيه في المنزه لكي أنقل له دعوته للغداء في منزله غدا حوالي الثانية عشرة.

كلمته من صندوق الاستقبال. قَبِلَ دعوة براين دون تردد. سألني بمرح:

ـ هل قرأت راهبة بارمْ؟

ـ ارتبكت قبل أن أجيبه:

ـ ليس بعد، لكني سأقرأها بالتأكيد في هذه الأيام.

ـ لقد نصحتك بقراءتها في العام الماضي. (أضاف): أعتذر عن عدم استطاعتي النزول. لقد تناولت أقراص نيمبوطال. إلى اللقاء غداً عند الأمريكي.

في الطريق إلى منزله أخذ يتذمر من كَسر رجله ويشكو من بعض الأصدقاء الذين لا يتركونه يعمل في كتابه الجديد.

دخلنا حانة باراذْ PARADE. طلب براين ويسكي وأنا بيرة. قلت له:

ـ ها هو جنيه يعود من جديد إلى طنجة.

شرب محتوى كأسه وطلب آخر.

ـ في هذه الأيام كنت أعيد قراءة بعض كتبه. إنني لا أصدق ألا يكون قد تلقى تعليما جدياً في تربيته. لا بدَّ أن يكون هناك سرٌّ في تكوينه الأدبي يُخفيه. إن حياته هي إحدى أساطير هذا القرن في الأدب. سألته:

ـ كيف تعتقد أنه قد تلقى تعليمه؟

ـ كنت قد سألته عن ذلك، لكنه اكتفى قائلاً: «إنني كونت نفسي أديباً وسط اللصوص والبوهيميين في فترة خاصة. لقد كانوا يتكلمون فرنسية سليمة، وكانوا يقرأون كتباً جيدة».

قلت له:

ـ أنا لا أصدقك. لا بد أن تكون قد تلقيت تعليمك مع الرهبان في أحد الأديرة. إننا لا نتعلم لغة راسين في الشارع. من المحتمل أنك أيضا تعرف الإغريقية واللاتينية.

ـ وماذا قال؟

ـ لا شيء. شحب لونه. نظر إليّ مندهشا كأني اكتشفت سره ثم استرخى وضحك قائلاً

ـ لا شيء صحيح مما تقول. أؤكد لك أنني تلقيت تعليمي مع الملاعين في فترة خاصة لم تسبق من قبل ولم تستمرَّ طويلا.

صمت براين لحظة ثم قال بعد أن شرب من كأسه:

ـ إنني أُصِرُّ على أن هناك جنيه الثالث. الناس يعرفون جنيه اللص، جنيه العبقري. لكنهم لا يعرفون جنيه الثالث:

جنيه السري.

كان بول بوولز PAUL BOWLES قد قال لي إنه عندما يقرأ عملاً لجنيه لا يتعلم منه شيئا كثيرا، لكن أسلوبه يبقى أروع أسلوب لكاتب فرنسي ما زال حيا. إنه مثل فرانسوا أنييون في زمانه.

سألت بول:

ـ عندما اكتشفت أعمال جنيه لأول مرة ماذا كان إحساسك؟

ـ اعتقدت أنه كاتب خليع، لكن فيما بعد غيرت رأيي.

ثم قال باتريك أوهيجينز Patrick O'Hliggins الذي كان حاضرا في منزل بول:

ـ أعتقد أن جنيه هو أول من فتح الأبواب على جمال وحزن الشذوذ الجنسي.

25 ـ 9 ـ 1969

أكلنا الطاجين بأيدينا. لم يأكل جنيه إلا قليلا كعادته. بعد الغداء سأل (ح) جنيه:

ـ لماذا تقيم في فندق المنزه مع أنك تفضل صحبة المغاربة الفقراء وتهتم بهم؟

ضحك جنيه ضحكة خفيفة.

ـ أتعرف لماذا؟

ـ لا.

ـ لأنني كلب قذر. أنا أنزل في المنزه أو في الهلتون لأني أحب أن أرى هؤلاء الأنيقين يخدمون كلبا قذرا مثلي.

ضحكنا جميعا. قال (ح):

ـ ولماذا تكون أنت كلبا قذرا؟

ـ لأنهم هكذا يفكرون فيّ.

بْراينْ منزعج باستمرار بسبب كَسْرِ رجله. كنت أحمل معي الوجود والعدم (ترجمه إلى العربية عبد الرحمن بدوي)، وناسكة بارم والشرفة بالفرنسية. تَرَكَ الوجود والعدم فوق الطاولة بعد أن ترجمت له العنوان ثم أمسك كتاب ستندال.

ـ سارتر صديقي، لكن راهبة بارم أفضل عندي من الوجود والعدم.

قلت له:

ـ إنه كتاب معقد. منذ أكثر من سنتين لم أستطع أن أقرأ منه سوى مائة وثلاثين صفحة. أحياناً تضْطَرُّنِي جملةٌ واحدة إلى قراءة كتاب آخر.

ـ أنا نفسي وجدت صعوبة كبيرة لأفهمه في أول مرة. ذات يوم حملت معي الكتاب وذهبت عنده وقلت له:

ـ كتابك هذا صعب الفهم.

أخذ مني الكتاب وفهرس لي قراءته بشكل آخر. قال لي:

ـ أظنك الآن ستفهمه دون صعوبة كبيرة.

كان على حق. استطعت أن أفهم معظم الكتاب بالطريقة التي بَوَّبَهُ لي.

سألته:

ـ ولماذا لم يكتبه كما بوبه لك؟

ـ لأنه ـ حسب قوله ـ كتبه للاختصاصيين.

سأل (ح) جنيه:

ـ هل تعتقد أن اللّه موجود؟

قال جنيه ضاحكا:

ـ لا أدري. كل ما أعلمه هو أن العالم موجود. (ثم أضاف): أنت كافر إذن!

قال طباخ براين:

ـ إن (ح) دائماً هكذا، لكنه لا يستطيع أن يشرح لماذا هو كافر. هو يتكلم هكذا فقط عندما يكون مع الأجانب أما مع المسلمين فهو جبان ومنافق. لا تَثِقْ في ما يقوله يا مُسيو جنيه، إنه يعرف أن اللّه موجود.

قال (ح) للطباخ:

ـ وأنت، هل تستطيع أن تشرح إيمانك؟

قال الطباخ:

ـ اللّه موجود. هذا يكفي ومن يناقش وجوده فهو كافر.

طلبت من جنيه أن يكتب لي إهداءه، على مسرحيته الشرفة. حاول كتابة الإهداء بالدارجة المغربية، وعندما لم تُسْعفه كل الحروف التي يريدها، كتبه بالفرنسية.

خرجنا حوالي الخامسة والنصف مساء. ودعنا جنيه في ساحة فرنسا. التقينا (ح) وأنا فتاتين. (ح) يعرف إحداهما. ذهبنا إلى شقته.

في حوالي الثانية صباحا ضجت في الغرفة الأخرى مشاجرة. جاءت إلى غرفتنا فتاة (ح) وهي تبكي. جلست قربي نصف عارية لاعنةً وحشية الرجال. لقد عضَّ شفتها السُفْلى. أعادها (ح) بلطف بالغ إلى غرفتهما. الفتاة النائمة إلى جانبي هي أيضا تنتحب. لم أرد أن أسألها عَمَّا يُحْزِنُهَا. من بعيد تُسْمَعُ حفلةُ عرس:

العيطة، والطبل، والزغاريد والدعاء بالخير. أصوات الابتهاج البعيدة دائما تُحزِنني. فكرت: إن الإنسان جِدُّ هَشّ.

26 ـ 9 ـ 1969

وجدته في مقهى المنارة. أحمل معي الأبله لدوستويفسكي ومجلات عربية: الآداب البيروتية، مواقف والمعرفة السورية. قال لي إنه من خلال قراءته لبعض الأبحاث لِكتّاب غربيين عن الأدب العربي أدرك أن الأدب العربي لا يمسُّ القضايا العالمية. الأدب العربي قاصر على الشعور العربي.

قلت له:

ـ إن بعض الكتاب العرب يعدونك وجوديا وآخرين عَبَثِيّاً.

نظر إليّ بدهشة.

ـ من كتب عني هذا؟

ـ بعض النقاد العرب.

ـ مخطئون هؤلاء الذي يكتبون عني هذا. أنا لست وجوديا ولا عبثيا. أنا لا أؤمن بمثل هذه التصنيفات. أنا إمّا كاتب جيّد أو كاتب سيئ.

اقترب منّا غلام. صافحه جنيه بحرارة. التفت إليّ.

ـ إنه صديق لي. أعرفه من السنة الماضية.

تبادلا للحظة نظرات باسمة دون كلام. كلّمه جنيه بالدارجة المغربية مَشُوبة باللهجة التونسية. الغلام يبتسم بمرح وجنيه يشير إلى حذائه الممزق. قال للغلام:

ـ كم ثمن شراء حذاءٍ جديدٍ لك؟

قال الغلام بصوت هامس:

ـ ألفُ فرنك.

قال جنيه باسما:

ـ ألفُ فرنكٍ فقط؟

هزّ الغلام رأسه مؤكدا ما قاله. أعطاه ألفاً وخمسمائةِ فرنك مؤكّداً له بمرح:

ـ إذا لم تشتر حذاء لك فلن تكون صديقي بعد اليوم. لن أكلمك مرة أخرى.

ابتسم الغلام وانصرف. قال لي:

ـ إنه غلام ذكي. لماذا لا يكون في المدرسة؟

بعد لحظة سألته عما إذا كان يوافق سارتر على الكتاب الذي كتبه عنه.

ـ سارتر قرأ عليّ الثلاثمائة صفحة الأولى من الكتاب زسأل: «هل توافقني على المضيّ في كتابته أولا؟»

وبالطبع وافقت.

ـ بعض النقاد لاحظوا أن سارتر اهتم بتحليل أفكاره في الكتاب أكثر مما اهتم بأعمالك الأدبية كما فعل في كتابه عن بودلير.

ـ لست متفقا. لو لم يكن سارتر قد اهتم بأعمالي لما كَتَبَ عني

ذلك الكتاب. إن كتبي وحياتي، التي يعرفها جيدا، هما اللتان أوحتا له بأفكاره عني.

ـ سمعت من براين أن ابن الشاعر بو كلوديل سيدعوك لحضور حفلة رسمية في القنصلية الفرنسية.

ـ لن أقبل دعوته. من عادتي ألاّ أقبل الدعوات الرسمية. لقد عرض عليّ قنصل كوبا في باريس أن أزور كوبا رسميا فرفضت. إن فيديل كاسترو صديقي، لكني لا أقبل منه أية دعوة رسمية. إن الرئيس الوحيد الذي قبلت دعوته وجلست معه على مائدته هو بومبيدو لأنه أعاد إلى باريس أحد أصدقائي الذي كان منفياً. إنني أكره دائما الرؤساء والمسؤولين. إنهم يمنعونني، مثلا، من الدخول إلى الولايات المتحدة بسبب شذوذي الجنسي ولأنني أيضا لص سابق. (أضاف بسخرية): كأن ليس في الولايات المتحدة جنسيون مثليون ولصوص قدماء مثلي. أيضا لا أستطيع دخول روسيا لأن جدانوف ZHDANOV صادر كتبي في عهد ستالين.

أمسك كتاب الأبله بالعربية وسألني:

ـ لمن هذا؟

ـ الأبله لدوستويفسكي.

ـ إني أحب الأخوة كرامازوف أكثر.

ـ براين BRION يعتقد أن الأبله أفضل.

في المساء، رأيته في السوق الكبير مع شاب مغربي أسمر، طويل ورياضي. كنت صاعداً من السوق الداخلي إلى البولفار. كانا يتجهان إلى طريق سيدي بوعبيد. فكرت: كذلك كان يمشي إلى جانب صديقه ستيليتانو STILITANO في أحياء برشيلونة أيام قال عن نفسه في كتابه «يوميات اللص»: ثيابي كانت وسخة وباعثة على الاشفاق، كنت جائعا

وبردان. ها هي ذي الفترة الأكثر بؤسا في حياتي.

Mes Vetements etaient sales et pitoyables. J'avais fain et froid.

Voici l'epoque de ma vie la plus misérable.

بعد شهور التقيت بذلك الشاب الأسمر في السوق الداخلي وسألته إن كان جنيه يكاتبه فقال لي: أوه، ذلك الكاتب الفرنسي الغني. كان قد قال لي إنه سيرسل لي بعض المال، لكنه لم يرسل شيئا. إن مثل هؤلاء الناس إذا ذهبوا لا يتذكرونك.

27 ـ 9 ـ 1969

كنا نقترب من فندقه. سألته:

ـ هل قرأت شيئا لتينسي وليامز؟

ـ كلا. ولا أريد أن أقرأ له أيّ شيء.

ـ لماذا؟

ـ من خلال بعض المقالات النقدية التي قرأتها عن بعض أعماله تبين لي أنه ليس مهما بالنسبة لي.

ـ ألا تعرفه شخصيا؟

ـ في باريس كلمني ذات يوم هاتفيا. كنت مريضا قليلا. اتفقنا على أن نتقابل في اليوم التالي. لكن مرضي حال دون لقائنا.

ـ وكتاب «الفراشة» لهنري شاريير ما رأيك فيه؟

ـ أهداه لي كاتبه، لكني لم أستطع أن أنهي قراءته. إنه كتاب مُمِلّ. ليس أدبا. مجرد مغامراتُ مُبالغٌ في سردها.

رأيت جيرار بيتي مُقْبِلاً نحونا، قدمتُه لجنيه. أبدى جيرار إعجابه بيوميات اللّص ثم تحدث قليلاً عن طنجة وأهلها. فجأة قال:

ـ حتى رجال الأمن هنا إنسانيون. لقد ساقوني أمس إلى

الكوميساريا لأنني لم أكن أحمل معي جواز سفري، لكن بعد بضع دقائق سرحوني. إنهم إنسانيون.

وهنا قال له جنيه وقد بلغ منتهى غضبه:

ـ اسمع، من فضلك: إنك تهينني. أنت تعرف، إذا كنت قد قرأت كتبي، أنني لا أحب البوليس، ومع ذلك تقول لي أنت مثل هذا الكلام. إن رجال البوليس لم يكونوا قطُّ إنسانيين، ويوم يصيرون إنسانيين فلن يعودوا رجال أمن.

ودَّعني جنيه بسرعة ودخل الفندق.

28 ـ 9 ـ 1969

كنا جالسين في مقهى براسوري دوفرانس عندما جاء أحمد صديق أدوار روديتي. سلم علينا وجلس. همس لي في أذني.

ـ سمعت أن هذا الرجل الذي معك كاتب فرنسي عظيم.

قلت له:

ـ هذا صحيح. وبعد!

ـ أطلب منك أن تترجم ما سأقوله له.

خشيت أن يكون طلبه يتعلق بالمال. سيأخذ جنيه فكرة سيئة ما دام هذا الشاب قد جلس معي. قلت لأحمد بانزعاج:

ـ لكن ماذا تريد أن تقول لي؟

ـ سترى، عندي مشروع مهم وعظيم. أريد أن يساعدني على إتمامه.

ها هي ذي رائحة التسول تفوح من كلماته. أحرجني، سيرتكب حماقة مع جنيه وسأكون أنا المسؤول. قلت له:

ـ إنه يفهم قليلاً الدارجة المغربية. تكلم معه وحدك واعرض عليه

مشروعك، لكن حاول أن يكون معقولا ما ستقوله له.

قال:

ـ لا تخف.

ثم قال لجنيه:

ـ كيف أنت يا مسيو؟

قال له جنيه مبتسما:

ـ لا بأس.

ثم التفت إليّ يستفسرني بنظراته. قلت له بالفرنسية:

ـ أعرفه.

قال له أحمد:

ـ هل أعجبتك طنجة؟

فكرت: ها هي حماقته قد بدأت. قال له جنيه:

ـ شويا.

قال لي أحمد:

ـ أرجوك أن تترجم له ما سأقوله له حتى يفهم جيدا. أنت تفهمني وتعرف كيف تجعله يفهم.

قلت له:

ـ طيب، تكلم واعرض مشروعك.

ـ عندي كتاب مهم. أريد من صديقك هذا أن يكتب لي قصيدة طويلة أضعها في مقدمة الكتاب لكي تكون له قيمة كبيرة.

ترجمت لجنيه ما قاله أحمد. جاء النادل وسأل أحمد عمّا يريد أن يتناوله.

ـ لا أريد أي شيء. أنا فقطّ جالس معهما. سأنصرف بعد لحظات.

لم أكن أملك ولو درهماً واحداً لأدعوه إلى تناول فنجان قهوة على الأقل. فهم جنيه الموقف. قال للنادل:

ـ أعطه شيئا يشربه.

كنا نشرب أنا وجنيه الويسكي. نظر أحمد إلى مشروبينا وقال للنادل:

ـ أعطني أنا أيضا ويسكي.

قال لي جنيه:

ـ أسأل صديقك عمّا يريد أن أكتب له قصيدة طويلة.

ترجمت لجنيه فابتسم. قال:

ـ قل له إن دار غاليمار بعثتني إلى هنا لأكتب كتابا عن طنجة. وبما أني وقعت عقدا تقاضيت عنه تسبيقا من المال لأكتب ذلك الكتاب فلا يمكن لي أن أكتب له الآن قصيدة طويلة ولا قصيرة.

شجعتني جدية جنيه على ألا أضحك. كان جنيه يتكلم جادا. أعرف أن أحمد لا يكاد يكتب صحيحا أكثر من اسمه بالعربية. ربما سمع من صديقه روديتي أن ما يكتبه الكتاب المشاهير يباع بثمن باهظ. لا شك أنه يريد الحصول على شيء يكتبه جنيه ليبيعه لصديقه روديتي أو لغيره. ترجمت لأحمد باذلا جهدي حتى لا أضحك.

قال:

ـ قل له إذا لم يستطع أن يكتب لي القصيدة في هذه المرة فسأنتظره حتى يعود إلى طنجة في مرة قادمة أو يبعث لي بها من باريس.

ترجمت لجنيه فقال:

ـ قل له ربما، لكني لا أعده بشيء سواء عدت إلى طنجة أو بقيت في باريس أو في مكان آخر.

قال له أحمد بالدارجة بعد أن ترجمت له:

ـ بارك اللّه فيك آمسيو.

وضع له النادل كأس الويسكي. أشعل سيجارة ورشف من كأسه ثم قال لي:

ـ إن صديقك هذا رجل كبير. يظهر عليه أنه يساعد الناس.

دخل شخص مغربي يتأبط محفظة جلدية. حياه أحمد بإشارة من يده ودعاه أن يجلس معنا. كنت قد رأيته في منزل إدوار روديتي الذي يعرفه في باريس. كان قد قضى هناك حوالي عشرين سنة. قال لي روديتي عنه إنهم نفوه من باريس بسبب حماقاته. سلم علينا وجلس.

قال له أحمد:

ـ هذا الرجل الذي معنا كاتب فرنسي كبير. تحدثت معه عن باريس.

سأل الشخص جنيه إن كان من باريس فقال لا. ثم راح يتحدث عن شوارعها ومقاهيها وضواحيها دون أن يعلق جنيه بشيء. فكرت: لقد اكتملت الآن الجلسة.

كان الشخص يتكلم باستمرار وجنيه ينصت له من دون أن يقول أي شيء. أحمد، الذي لم يكن يعرف من الفرنسية إلاّ بعض الكلمات، لا شك أنه يعتقد أن ما يقوله صديقه لجنيه مهم جدا. كان أحمد فاغراً فاه ويهزّ رأسه بين حين وآخر عندما يتكلم صديقه بحسرة عن ذكرياته في باريس. ردد مرارا:

ـ إيه نعم. أنا أيضا كانت لي هناك حياة جميلة.

دخل طفل كسيح يتوكأ على عكازين. اقترب منا. أخرج جنيه ورقة ألف فرنك ومدها له. مدّ الطفل يده اليمنى محتفظا بالعكاز تحت إبطه. لمعت عينا أحمد وصديقه. عينا أحمد كانتا أكثر بريقا. دخل المختار القزم الذي كان ينتظر رفيقه الكسيح خارج المقهى. اقترب منا

بسرعة. جسمه قصير جدا ممتلئ ورأسه كبير يثقل على جسمه. بدا لي أسفل جسمه مثل بطيخة صفراء ورأسه مثل بطيخة حمراء. كانت حدبته الصغيرة تُقَوِّسُ ظهره. مد يده. لم يعثر جنيه على الصرف في جيبه. قال له جنيه بالدارجة:

ـ مشي مع صاحبك باش يقسم معك.

كان الكسيح قد بدأ ينسحب. لحق به القزم المختار داخل المقهى. بدأ يحاول أن ينزع منه الورقة المالية التي شد عليها قبضته. يدفعه الكسيح بقوة. القزم يتراجع إلى الوراء ثم يعود هاجماً على قبضته. طلب جنيه من النادل خمسة دراهم ومدها لي كي أعطيها للقزم. نهض صديق أحمد وصرخ في الطفلين:

ـ اخرجا من هنا. كفى من هذا التسول.

حينما عدت إلى مكاني وجدت جنيه ينتظر من النادل صرف ورقة خمسين درهما. قبض الصرف وخرجت معه.

سألني:

ـ من هما ذانك الشخصان؟

ـ الشاب كان مظليا في الجيش المغربي، لكنه يبدو أنه الآن هارب أو مطرود.

ـ وماذا يعمل هنا في طنجة؟

فكرت أن أقول له إنه يحترف الدعارة والتسول مع الأجانب، لكني تذكرت أن جنيه نفسه كان يحترف نفس المهنة أيام فقره.

ـ لا يعمل شيئا. إنه صديق لكاتب فرنسي اسمه إدوار روديتي يرسل له من الخارج مبلغا من المال كل شهر.

أَمِثلُ هذا الشخص هو الذي سيحمي بلادكم في حالة حرب؟ إنه لا يصلح حتى لغسل الصحون. والشخص الآخر؟

ـ لا أعرف عنه أكثر من أنه عاش في باريس حوالي عشرين سنة ثم نفوه منها إلى المغرب.

ـ هل هو من طنجة؟

ـ كلا، إنه من الجنوب.

ـ وماذا يعمل هنا هو أيضا؟

ـ يقول إنه يعمل مراسلا لصحيفة مغربية تصدر بالفرنسية.

ـ لا بد أن تكون صحيفة رديئة حتى يعمل معها مراسلا مثلُ هذا الشخص. إن فرنسيته فظيعة. (أضاف):

ـ أَرَأَيت كيف كان يصرخ في الطفلين! لم يكن له حق في أن يخاطب ذَيْنَكَ الطِفلين بذلك الشكل.

29 ـ 9 ـ 1969

رأيته مقبلا نحونا. قلت لأختي مليكة:

ـ إن ذلك الرجل الآتي سيجلس معنا.

من هو؟

ـ بابا. لقد قَبِلَ أن يصير أبي الروحي عندما أخبرته أن أبي يكرهني. ابتسمت ثم قالت بإشفاق:

ـ مسكين، كم هو وسخ!

ـ إنه مشهور وغنيّ.

ـ تكذب. إنه أفقر منك.

ـ قفي وصافحيه.

اقترب. ألقى نظرة فاحصة على أختي وابتسم لها. قلت له وهي تنهض لتصافحه:

ـ أختي مليكة.

ـ اسمي أنا جان. كم عمرك؟

ـ أربعة عشر عاما.

قال بمرح:

ـ أليس أقل؟

أجابت كأنها أهينت:

ـ كلا، كلا، أنا في الرابعة عشرة.

كانا يتكلمان بالدارجة. حين لا تسعف جنيه كلمة ما كنت أترجم لها. لم تكن تعرف إلا قليلا من الإسبانية وبعض الكلمات بالفرنسية. طلب جنيه ويسكي. قال لها ناظرا بمرح إلى الكوكاكولا أمامها.

ـ وأنت، لماذا لا تشربين الويسكي؟

ـ أنا لا أشرب الخمر.

ـ لماذا؟

ـ لأني مسلمة.

ـ لكن هناك مسلمين يشربون الخمر.

ـ إنهم يعصون اللّه وأنا لست منهم.

قاطعنا محمد الزراد، صديق جنيه، الذي وصل. تحدثنا طويلا عن الأوراق اللازمة للحصول على جواز سفره. وقفت أختي مودعة. وقف جنيه ليودعها. قلت له:

ـ إنها عائدة إلى تطوان.

تبتسم له. لم تعرف كيف تسحب يدها من يده. قال لها بالدارجة المغربية:

ـ غادي نشوفك في تطوان إن شاء اللّه.

هنا أيضا في طنجة لم أكن أرى فيه نظيفا سوى قميصه ويديه ووجهه. مكانه الذي ينام فيه اليوم لم يعد ضيقا ولا قذرا. لم يعد أيضا

في حاجة إلى صديق مثل ستيليتانو Stilitano يضاجع مرة في الأسبوع صاحبة الفندق لتسوية ثمن النوم في غرفة قذرة وضيقة.

كان جنيه قد أبدى إعجابه مرارا بلثام وجلاّبات الفتيات المغربيات. «إن المرأة كانت دائما سرّاً مُبهما للرجل La femme a toujours été un mystère pour l'homme. حجابها هو الذي يترك الرجل يهتم بسرّ جمالها. إن النساء المغربيات بالحجاب يبدين أجمل».

مساء.

ـ وجدته ينتظرني قدام باب فندق المنزه. قلت له ونحن ندخل.

ـ في السنة الماضية لم يسمحوا لي بالدخول رغم أني كنت مدعوا عند زميل إنجليزي.

ـ لماذا؟

ـ ربما لأني لم أكن لابساً جيدا. هذا ما خمنته.

ـ هل تريد الآن أن نذهب إلى مكان آخر؟

ـ بالعكس، يسرني أن أدخل معك لأول مرة إلى هذا المكان الذي أهانوني فيه.

جلسنا في الحديقة. نظر حوله. تحت المقاعد وفوقنا. لم يقل شيئا. لكني فكرت أنه يحتاط من أنهم ربما يكونون قد وضعوا لنا جهاز تسجيل في مكان ما. طلبنا كأسي ويسكي. كانت هناك شابة تسبح في المسبح رغم البرد. قال:

ـ طيب، لنتحدث عن مشكلتك في الكتابة والنشر. إنني لن أنصحك. لأن نصائحي ليست هي التي ستقرر مستقبلك. ما سأقوله لك هو أنك إذا كتبت شيئا جميلا عن المغرب، مثلا، فإن ما تكتبه هو الذي سيبقى. ليس لديك إلاّ أن تختار: أن تبقى هنا في وضعك أو تهاجر

لتكتب ما لا تستطيع أن تكتبه هنا. أعتقد أن المسلمين قد تجاوزوا الأخلاق، والتقاليد والأحكام الموجودة في القرآن، لكن، مع ذلك، فما زال القرآن أعظم كتاب يقرأه المسلمون وغير المسلمين. إن الناس ما زالوا يقرأون أشعار بودلير ومالارميه ورامبو بإعجاب كبير. لماذا؟ لأن أسلوبهم ما يزال رائعا.

بعد لحظة قال:

ـ الوضع هنا جد متأزم. كل شيء يوحي بالبؤس عندكم هنا. الأجانب هم الذين يعيشون كما ينبغي للإنسان أن يعيش.

30 ـ 9 ـ 1969

جلسنا في سطيحة مقهى باريس. كنت أحمل معي الطاعون لكامو. سألني:

ـ هل تعجبك هذه الرواية؟

ـ نعم، أقرأها للمرة الثانية.

ـ هل يعجبك كثيرا ما يكتبه؟

ـ نعم، قرأت له كثيرا.

ـ ما رأيك أنت فيه؟

ـ إنه يكتب مثل ثور.

ضحكت. أضاف:

ـ لم يعجبني ما كتبه ولا شخصيته. لم أستطع قطُّ أن أنسجم معه.

ـ أنت تؤيد سارتر إذن في الخلاف الذي حدث بينهما؟

ـ بالطبع أنا متفق مع سارتر. كامو كان ينفعل أكثر مما يفكر.

وفي السنة الماضية كان قد قال عن فيكتور هوجو إنه كاتب ديماغوجي.

اقترب منا هيبي. قال لجنيه بالإنجليزية:

ـ أنا معجب بك. مسرور برؤيتك هنا في طنجة.

نظر إليّ جنيه. ترجمت له ما قاله الشاب. تصافحا بحرارة ثم مضى الشاب مُلوّحاً بيده ورأسه بينما جنيه يبتسم له. التفت إليّ قائلا:

ـ الهيبيون الأمريكيون رائعون، لكن آباءهم، الذين يعتقدون أنهم عاقلون، لا يطاقون.

جاء أحمد المظلي الهارب. جلس هذه المرة إلى جانب جنيه. أخذ يكلمه بالدارجة المغربية وجنيه يرد عليه باقتضاب. قال لي:

ـ إن له أصابع جميلة. قل له هذا.

اندهشت.

ـ ماذا تقول؟ أصابعه؟

ـ نعم، أصابعه. قل له إن يديه جميلتان.

ـ قل له هذا أنت بنفسك إذا شئت. تكلم معه ببطء بالدارجة وسيفهمك.

سألني جنيه:

ـ ماذا يقول؟

ـ يقول إنّ لك أصابع جميلة.

نظر جنيه إلى يديه مندهشا وضاحكا ثم نظر إلى المظلي بعينين ضاحكتين. فكرت: ربما جنيه كان في حاجة إلى المزحة. لمس أحمد يد جنيه بحركة لطيفة مؤكداً له جمال يديه. قال لي جنيه:

ـ أسأله أيضا عن رأيه في صلعتي. ماذا تشبه؟

ترجمت لأحمد. قال له بالدارجة:

ـ صلعتك حتى هي جميلة.

قال لي جنيه:

ـ قل له ليس صحيحا ما يقوله. إن صلعتي تشبه مؤخرة قرد.

ضحكنا جميعا. جاء النادل، ودعا جنيه أحمد لأن يتناول معنا شيئا. كنا نتناول أنا وجنيه القهوة بالحليب. نظر أحمد إلى كأسينا وطلب مثلنا.

1 ـ 10 ـ 1969

كنا في سطيحة مقهى باريس. قلت له:

ـ جان، يبدو لي أنك اليوم حزين.

ـ أنا دوماً حزين. (أضاف): وأعرف جيداً لماذا ينبغي لي أن أكون دائماً حزيناً.

احترمتُ حزنه. أنا أيضا كان لي حزني.

3 ـ 10 ـ 1969

كنا في مقهى زاغورة. سألته:

ـ هل لقيت صعوبة كبيرة في كتابة روايتك الأولى؟

ـ ليس كثيرا. الصفحات الخمسون الأولى من «سيدتنا ذات الزهور» Notre dame des fleur كتبتها في السجن، وحين نقلوني إلى مكان آخر نسيتها في مكاني الأول. بذلت محاولة للعثور عليها، لكن دون جدوى. ومن جديد التحفت ببطانيتي وأَعدتُ كتابة الخمسين صفحة من الرواية دون توقف.

تذكرت مالكوم لوري الذي أضاع مخطوطة روايته «من تحت البركان» في إحدى الحانات المكسيكية فأعاد كتابتها هو أيضا من الذاكرة مرتين عندما احترق منزله وفيه احترقت المخطوطة الثانية.

ـ أعرف أنك بدأت تكتب بعد الثلاثين، في الثانية أو الثالثة والثلاثين من عمرك.

ـ هذا صحيح.

ـ ألم تكن تفكر من قبل في الكتابة؟

ـ لقد كنت دائما أكتب حتى قبل أن أكتب شيئا. إن حياة الكاتب الأدبية لا تبدأ من الوقت الذي يبدأ فيه الكتابة. ما يحدث هو أن الصدفة إما أن تأتي مُتَقَدِّمَةً أو مُتأخّرة.

قَصّ علي حكاية رسام فرنسي نسيتُ اسمه. كان قد قضى حوالي أربعين عاماً وهو يرسم. ذات يوم دخل المطعم الذي اعتاد أن يتردد عليه. كان صاحب المطعم يعرف أنه مشهور. طلب منه أن يرسم له باقة ورد في مزهرية ليزين بها مطعمه. رسمَها حسب طلبه. حين ذكر له المبلغ الذي ينبغي له أن يدفعه ثمناً لباقة الورد المرسومة اندهش صاحب المطعم قائلا:

ـ كيف تطلب مني هذا المبلغ وأنت قد رسمتها في دقائق؟

ـ صحيح. لقد رسمتها في دقائق، لكنها تمثل تجربة أربعين سنة في الرسم. (ثم أضاف): أتدفع هذا الثمن أم لا؟

رفض المطعمي أن يدفع فمزق الرسّام رسمه.

ـ أنت منذ سنوات لم تكتب شيئا. هل تعتبر صمتك الأدبي ومواقفك السياسية نوعاً آخر من الخلق لا ينفصل عن كتاباتك؟

ـ أدبيا، قلت ما كنت أريد أن أقوله. ثم حتى لو كان عندي ما أضيفه فسأحتفظ به لنفسي. أيام محنتي في السجن كانت عند القضاة، الذي أطلقوا سراحي، أسبابٌ لتركي في السجن، مع ذلك سرحوني. أكانت لحظة خوفهم أم لحظة فرحهم عندما سرحوني؟ ما حدث هو أنه كان لا بدَّ من تسريحي، لكن هذا لا يعني عدم احتمال بقائي في السجن حتى اليوم لولا أصدقائي مثل سارتر وكوكتو ومالرو وبيكاسو.

ـ هل تعني أن هناك لحظات تكون فيها الصدفة أقوى حتى من القانون نفسه؟

ـ محتمل. إذ ليس هناك «لا» مطلقة و«نعم» مطلقة. إنني جالس معك الآن هنا، لكن من المحتمل أيضا ألا أكون معك الآن هنا.

8 ـ 10 ـ 1969

كنا جالسين في مقهى براسوري دوفرانس. أخذ جنيه يتحدث مع صديقه محمد الزراد عن صعوبة العيش في أوروبا، خاصة بالنسبة لإنسان لا يعرف إلاّ لغة بلده. كان الزراد يوافق على تحمل كل الصعوبات بينما جنيه يبتسم له باستمرار. كان يؤكد لجنيه أنه يستطيع أن يضحي بكل ما عنده هنا لكي يخرج إلى الخارج. إن مهنة الحلاقة، التي يعمل فيها مُساعداً، لم تكن تُدرّ عليه أكثر من خمسة أو ستة دراهم في اليوم. كان متزوجا وامرأته حاملا. قال لي جنيه:

ـ سأحاول أن أُنقذ هذا الشاب من هذه الوضعية المزرية بأي ثمن. في باريس سَأُدبّر له وسيلة ليدرس الفرنسية. ينبغي له فقط ألا يملَّ من الحياة هناك. أعرف أنه سيواجه حضارة لم يعش تقاليدها ولم يقرأ عنها شيئا. يجب أن تكون له عزيمة قوية لكي يعتاد على العيش هناك.

10 ـ 10 ـ 1969

في الخامسة مساء تقابلنا في مقهى زاغورة ZAGORA. سألني عمّا إذا كنت أحدس أنهم سيعطون جواز السفر لصديقه محمد الزراد الذي سيصحبه إلى باريس. أفهمته أن الوسيلة السهلة للحصول على الجواز لمن ليس مُوظفاً مع الحكومة وليس لديه عقد للعمل في الخارج أو تجارة هي الرشوة.

ـ جواز السفر يباع عندكم هنا إذن. وكم ثمنه؟

ـ حسب الظروف والعلاقات الشخصية: من خمسمائة درهم إلى ثلاثة آلاف درهم.

ـ هذا لا يحدث في أية دولة أخرى إلاّ إذا كان الشخص هارباً أو جاسوسا. لقد جددوا لي جواز سفري في لندن في مدى ثلاث ساعات دون أن أستعمل اسمي الأدبي.

ـ إن هذا لا يحدث بعد هنا.

في الخامسة والربع استقللنا سيارة أجرة وذهبنا إلى العمالة. كان هناك صفّ طويل من ذوي السحنات المهمومة. ظهر شخص نحيل، متوتر، لهجته عصبية قاسية. قال لي جنيه:

ـ ذلك هو الشخص الذي وعدني أن أعود إليه حوالي الخامسة والنصف.

ـ يغلقون هنا في السادسة.

كان الموظف المكلف بتسليم الجوازات يخرج بين الحين والآخر ليدفع أحد هؤلاء البائسين المنتظرين إلى الخارج أو يسبّه ثم يرجع إلى مكتبه. كان جنيه متوترا، يخطو خطوة أو خطوتين ثم يقف ويتمتم: إنه وحش ذلك الشخص الذي يسبّ هؤلاء الناس ويدفعهم بذلك الشكل الخشن.

ظللنا ننتظر حتى خرج جميع الموظفين إلاّ موظفي القسم الخاص بتسليم الجوازات. لم يكفّ الشخص النحيل، العصبي، عن إهانة شخص بين لحظة وأخرى. كان جنيه يستفسرني عمّا يفوتُه فهمه عندما يزعق ذلك الشخص في وجوه هؤلاء الأشقياء. أحيانا كان يخاطبهم جميعاً بلهجة من يُوَزّعُ الحظوظ. ذات لحظة أخذ يدفع شخصاً بِعُنْفِ ساباً إيّاه. استفسرني جنيه. قلت له:

ـ يقول الشخص الوحش لذلك البائس إنه لن يسلمه الجواز ما دام هو يعمل رئيسا لقسم الجوازات.

ـ لماذا؟

ـ ربما لم يكن مبلغ الرشوة كافيا. أحياناً إذا حدث أن تحداه أحد هؤلاء البائسين يقوده إلى حيث تكبر له أظافر وحشية ولحية طويلة قبل أن يُقَدّمَ إلى المُحاكمة.

اقترحت على جنيه أن يقابل عامل الإقليم رأسا، لكنه رفض.

ـ إنني أكره هؤلاء البيروقراطيين الرؤساء.

وابن بول كلوديل؟ إنه قنصل!

ـ كلاّ. الأمر أفظع.

في آخر لحظة، قبل الإغلاق تكلم الشخص النحيل مع جنيه. قال له إنه يمكن أن يتساهل في تسليم الجواز للشاب إذا كان مِلفه مُتوفراً على جميع الوثائق اللازمة.

في الطريق، تحت الرّذاذ وريحٌ قويةٌ تصفعنا ونحن نقاومها من مكان إلى آخر، قال لي:

ـ إن ما يريده مني، ذلك الوحش، هو حفنة من الأوراق المالية، أليس كذلك؟

ـ تماما. أنت الآن بدأت تفهم جيداً ما يريده منك.

لم تمرّ أية سيارة أجرة فارغة. لم يرد أن نحتمي تحت أية سُتْرةِ متجرٍ أو مدخل عمارة. أمطرت السماء شرايينها النازفة. كنا قد تبللنا عندما جلسنا في مقهى باريس. طلبنا قدحي ويسكي. كان يدخن سيجارات بانتير PANTERA بتوتر. كان مستاء جداً من استغلال المغلوبين على أمرهم بالنفوذ والمال. صمتنا لحظة ثم قلت له:

ـ هل تعتقد أن الذين يقدرونك اليوم لشهرتك كانوا سيقدرونك لو أنك ظللت جنيه الذي كان يعيش في برشيلونة أو في أيّ مكان آخر؟

يبدو أني باغتته. تأملني ثم قال:

ـ أنت مدعو ـ إذا شئت ـ للعشاء معي في المنزه MINZAH.

القاعة تغص بالسياح الأمريكيين. الخدم المغاربة يخدموننا بمرح. يعاملون جنيه كصديق وليس كزبون.

جنيه لا يكف عن التنكيت معهم بدارجته المتلعثمة. السياح الأمريكيون يأكلون ولا يتوقفون عن الكلام إلاّ عند البلع. قال لي جنيه بلهجة ساخرة:

ـ انتبه! (تطلعت إليه باسما) أتسمع؟ إنهم يمضغون محركات طائراتهم أينما كانوا: في الفيتنام أو في الشرق الأوسط أو في المطاعم. عازف البيانو ينتقل من لحن إلى آخر. قال جنيه:

ـ لم أسمع عازفاً أبداً أسوأ منه. إن عزفه يشبه مضغ هؤلاء لطعامهم وكلامهم.

جنيه مرح، لكنه لا يأكل بشهية. لم تعد له سوى قابلية التدخين وتناول أقراص نيمبوطال Nembutal.

بعد العشاء تجولنا حوالي نصف ساعة في البولفار. اشترى بعض الصحف والمجلات وعاد إلى الفندق. سألته.

ـ ماذا تقرأ هذه الأيام بعد الصحف؟

ـ لا أقرأ شيئا.

حين اقتربنا من الفندق قلت له:

ـ يبدو أن الإقامة تروق لك في هذا الفندق.

ـ مدير الفندق يعرفني. لقد قرأ كتبي. يناقشني أحياناً في بعضها. على الأقل أحسني ضيفاً في فندقه وليس مجرد زبون.

كان خادم مغربي يعمل في الفندق قد حدثني عن بعض تصرفات جنيه: ينزل، أحيانا، من غرفته إلى بهو الاستقبال في منامته حافيا ليطلب علبة وقيد. وقد ينزل أكثر من مرة لطلب شيء آخر دون أن يستعمل هاتف غرفته مع جهاز الاستقبال.

12 ـ 10 ـ 1969

قابلته في الحادية عشرة والنصف صباحا في مقهى باريس. كان معه صديقه محمد الزراد. دعانا إلى مطعم الميرادور للغداء معه. ما يزال يعاني ألما خفيفا في إحدى كليتيه. خلال أربع وعشرين ساعة استدعى ثلاثة أطباء مغاربة لتشخيص حالته. حقنه ثلاثتهم بِمُسَكناتٍ مختلفة. ودّعناه حوالي الرابعة بعد الظهر. كان لطيفا معنا. صعد إلى فندقه ليستريح دون أن أُحدّدَ مَوْعداً.

13 ـ 10 ـ 1969

قابلته في الفندق حوالي السادسة مساء. كان مريضا. يمشي ببطء شديد. ذهبنا إلى مقهى براسوري دو فرانس. حينما جلسنا قال لي:

ـ آمل ألاّ يأتي شخص آخر مثل المِظلّي الهارب ليُزعجنا. لم يعد يروق لي مقهى باريس. يتردد عليه كثير من الرواد الفضوليين. الجلوس هنا أكثر هدوءاً.

14 ـ 10 ـ 1969

قابلته في فندق المنزه. تحسنت صحته. أهداني كتاب القرآن المترجم إلى الفرنسية. قال لي:

ـ لم أفهمه بوضوح. كثير من التعليقات في الهوامش تحتاج إلي معرفة جيدة للتاريخ العربي. هل قرأته أنت؟

ـ نعم.

ـ لا شك أنه رائع بالعربية.

ـ إنه معجزة اللغة العربية.

ثم راح يتحدث عن الإبداع الأدبي. معجب كثيرا بمالارمي. Mallarmé أستشهد ببعض الأبيات من قصيدته «نسيم بحري». Brise

Marine طلبت منه أن يكتب لي بيتاً أعجبني. لم تكن عندي أية ورقة. كتبه في الصفحة الثانية البيضاء من كتاب القرآن[1]. لم يكن مُتأكداً من صحة البيت، ولذلك وضع علامة استفهام. سألته عن معنى اسم مالارمي Mallarmé فقال مُبتسما:

إن اسمه يشير إلى ضعفه الجنسي: Mal-Arme. سيئ التّسلح جنسيا. لكن عقله كان جيّدَ التسلّح.

(1) Sur le vide papier que la blancheur defond
لم يتذكر هذا البيت جيدا رغم أنه كتبه مرتين.

Ni le vide papier que sa blancheur défend

dans le poème : "Le Don du Poème"

Je t'apporte l'enfant d'une nuit d'Idumée

Pâle, à l'aile tremblante et toute déplumée

خط جان جنيه

Stéphane être — J. Genet

mal — armé

بيتذكر ويشرح لي

قصيدة مالارميه

في مقهى الرينو Paris . طنجة

Et le vide papier que sa

blancheur défend

Mallarmé

١

ـ هل نشر مقالك كله الذي كتبته عن الديموقراطية في شيكاغو ونشرته مجلة اسكوير؟ Esquire.

ـ كلا. نشر نصفه فقط. لكني وجدتُها فرصة لأبيع النصف الآخر لمجلة أخرى. أنا أعرف أنهم يشترون توقيعي وليس ما أكتبه عن الديموقراطية في أمريكا.

15 ـ 10 ـ 1969

سافر محمد الزراد إلى مسقط رأسه في إحدى نواحي تطوان ليحصل على بعض الأوراق التي تنقص في ملف طلب جواز سفره. سألني جنيه:

ـ أتظن أنهم سيمنحونه تلك الأوراق في مسقط رأسه أم أنه سيواجه نفس الصعوبات التي يواجهها هنا في الدوائر المسؤولة؟

ـ كما قلت لك من قبل فإن كان كل شيء مرتبط بعلاقته الشخصية مع المسؤولين هناك مباشرة أو مع الذين لهم صلة مع هؤلاء المسؤولين. وفي حالة عدم وجود أية علاقة تتدخل حفنة من المال لتسهيل تلك الصعوبات.

جاء حسن واكريم وجلس إلى جانبي. تحدثت معه عن إمكانية مساعدته لنا في الحصول على جواز سفر محمد الزراد. أبدى استعداده. إنه يعرف بعض الموظفين في العمالة. كان يدير فرقة إِينُوزيسْ للرقص المسرحي الشعبي. قدمته لجنيه كصديق يمكن أن يساعدنا في الحصول على جواز سفر محمد الزراد. انشرح. أكّد واكريم لجنيه أنه يستطيع أن يساعدنا جديا. أبدى جنيه اهتماما أكثر بواكريم حين قلت له إنه يدير فرقة مسرحية مغربية. تحدث جنيه عن الكيفية التي يجب بها على الفنان أن يقاوم ضدّ ما يؤثّر على حريته في التعبير والتطور حتى لا ينقاد إلى ظاهرة قارة للتحضر. ينبغي له أن

يحافظ على أصالة رقصات بلده وموسيقاه. وكمثالٍ تكلم جنيه عن مسرح «نو» الياباني الذي تمكن من خلق فنّ شعبي عريق في أصالته وصفائه.

16 ـ 10 ـ 1969

كنت في براسوري ذو فرانس. عاد محمد الزراد من تطوان حاملاً معه الأوراق الرسمية التي طُلِبَتْ منه في العمالة. كلفته بعض المال للحصول عليها بهذه السرعة. كنا ننتظر حسن واكريم. سألني جنيه:

ـ هل تعتقد أن واكريم يستطيع أن يساعدنا؟

ـ أعتقد.

دخل واكريم. طلب من الزراد أن يصحبه وحده إلى العمالة. وقف أمامنا نادل المقهى الأسود قال:

ـ سمعت أن هذا الرجل كاتب عظيم.

ـ هذا صحيح.

ـ وأيضا سَخِيّ.

هذا أيضا صحيح.

تبادل معه جنيه ابتسامة ودّية. صافحه قائلا:

ـ أنت رجل طيب.

قال له جنيه بالدارجة.

ـ حتى أنت رجل مزيان.

ناداه زبون فانصرف. قلت له:

ـ ألا تفكر أن تستعين بمساعدة القنصل ابن بول كلوديل للحصول على الجواز إذا لم تستطع أن تفعل شيئا بالوسائل المشروعة؟

ـ أبدا. أفضل أن أعطي حفنة من المال على أن أستعين بأحد في القنصلية الفرنسية.

17 ـ 10 ـ 1969

كنت أحمل معي «الطاعون» لأنهي قراءته. جلسنا في سطيحة مقهى باريس. سألني:

ـ أما زلت تقرأ هذا الطاعون؟

ـ لقد أوشكت أن أنهيه.

ـ و«الشرفة» هل قرأتها؟

ـ ليس بعد.

ـ لماذا؟

ـ أنتظر نهاية الشهر لأشتري نسخة أخرى.

ـ لكن لماذا؟

ـ لأن النسخة التي عندي مكتوب عليها اهداؤك.

ـ وبعد؟

ـ أنا متعود على القراءة في المقاهي ولا أريد أن تتسخ أو تضيع مني.

أحتفظ بها كتذكار.

أخذ مني كتاب الطاعون وفتحه على الصفحة الأولى ونزعها قائلا:

ـ خذ كتابي وانزع هكذا الصفحة المكتوب عليها الإهداء.

اقرأ المسرحية ثم ألْصق الصفحة في مكانها. إن قراءة الكتاب أفضل من تركه خوفاً على ضياع الإهداء المكتوب عليه.

ابتسمت ثم قلت له:

ـ إن أثمان كتبك غالية.

قال باسما:

ـ هكذا يمكن لي أن أربح أكثر.

ـ لماذا لم تطبع كتبك في طبعة الجيب؟

ـ لا أدري. ليست غلطتي. ناشري يتكلف بذلك.

لكي أغير الحديث قلت له:

ـ في السنة الماضية قلت لي إنك لم تر سارتر منذ سنتين.

ـ نعم، ولم أره بعد. ذات يوم في السنة الماضية كان يحاضر في السربون عندما ذهبت لأراه. أوقفتني طالبة عند الباب وقالت لي إنه لا يوجد أي مكان لأحد في الداخل. كان هناك أشخاص آخرون يريدون الدخول.

ـ لا شك أنها لم تعرفك.

ـ كانت طالبة ولم أرد أن أستعمل اسمي لأدخل.

نهضنا ورحنا نتجول في البولفار. قرب مقهى كلاريدج Claridge سألني عمّا إذا كانت هناك في طنجة مكتبة تُمَثّل دار غاليمار. نقوده نفدت. لم أكن متأكداً من أن مكتبة دو كولون Librairie des colonnes تُمثّل غاليمار.

ـ محتمل أن تكون هذه المكتبة تُمَثِّلُها.

استقبلتنا مدام جيروفي ببالغ اللّياقة. تكلم معها على انفراد. صعد معها إلى مكتبها في الطابق الأول. راحا يتحدثان. كان براين جيسن قد قال لي إن جنيه لا يودع قطّ نقوده في أي بنك. دار غاليمار هي بنكه الرئيسي وفروعه كُلُّ المكتبات في العالم التي تَتَعَامَلُ مع غاليمار. عندما يكون في باريس وينفد ماله يدخل دار غاليمار ثم يخرج منها حاملا معه كيساً صغيراً محشواً بالأوراق المالية يخفيه تحت كبوته كما لو أنه سرقه.

حينما خرجنا من المكتبة قال لي:

ـ أعتقد أن السيد روبر جيروفي زوجها يمكن أن يساعدنا في الحصول على الجواز. سننتظره في هذا المقهى. تكلمت معه زوجته وسيأتي بعد لحظات.

دخلنا مقهى كلاريدج. طلب هو قهوة بالحليب وطلبت أنا ويسكي. مرة أخرى غرقنا في الحديث عن الشعر. تكلمنا عن بودلير، فرلين، رامبو واسترحنا في معبد مالارمي. قال لي:

ـ سيكون بودي أن أقرأ لك قصيدة «نسيم بحري» لمالارْمي Mallarmé.

ـ سأطلب ديوانه من السيدة جيروفي Gerofi.

ـ فكرة حسنة.

أعطتني إيّاه قائلة:

ـ أرجو أن تقول للسيد جنيه إن زوجي سيأتي بين لحظة وأخرى.

شكرتها وخرجت. رأيت واكريم آتياً نحو المقهى. كان يبحث عنا في المقاهي الأخرى. دخلنا معا.

قال لجنيه:

ـ أعتقد أنه يوجد أمل في الحصول على الجواز.

تحدث جنيه عن إمكانية المساعدة التي يمكن أن يقدمها لنا السيد روبر جيروفي في الحصول على جواز السفر.

قال واكريم:

ـ إن له اتصالات كثيرة في العمالة لأنه معماري.

كانت حوالي الخامسة مساء عندما وصل السيد جيروفي. سلم علينا وجلس. قال لجنيه:

لقد تكلمتُ معي زوجتي. سأعمل كلّ ما في وسْعي لمساعدتك. غدا صباحاً سأتصل بموظف صديق لي في العمالة.

قال واكريم إن له أيضا موعداً هذا المساء مع موظف في العمالة يمكن أن يساعدنا. ركبنا في سيارة السيد جيروفي. كان جنيه ما زال يحتفظ بديوان مالارمي. لدى وصولنا دخل واكريم إلى العمالة وبقينا نحن ننتظره في السيارة. بحث جنيه عن القصيدة ورجا السيد جيروفي أن يقرأ قصيدة بريز مارين بصوته الحاد، الرقيق. وافقناه على روعتها. جاء واكريم وقال إن الموظف الذي يعرفه لم يكن موجودا. توتر جنيه وازداد عناداً للحصول على الجواز.

19 ـ 10 ـ 1969

قابلت جنيه حوالي الحادية عشرة صباحا. ذهبنا إلى نهج إسبانيا. جلسنا في مقهى بويرتا ديل الصول Puerta del sol فاجأنا صديقه جورج لاباساد. كان لاباساد جِدّ قلق. يتحدث بتوتر. لم تعجبني شخصيته.

في المساء، التقيت جنيه مع لاباساد في مقهى براسوري دوفرانس.

قال لي جنيه:

ـ نحن مدعوون لتناول الشاي في منزل آل جيرُوفي. أنت أيضا مدعوٌّ معنا.

كدت أرفض لنفوري من جورج لاباساد George Lapassade. جاء السيد جيروفي Gerofi وحَمَلَنا في سيارته. وجدنا في منزله ايميليو سانث Emilio Sanz. كنت قد التقيتُ به في منزل إدوار روديتي Edouard Roditi. لم أكن أيضا أطيقه. إنه من هؤلاء الأشخاص الذي يُؤَرْجحُون وردةً في يدهم وهم يتكلمون ويشُمونها قبل أن يَرُدُّوا على سُؤال ما أو يُبْدُوا رأيهم حول موضوع. الأثاثُ مُريح. أُغالبُ بعضَ التعب. طلبتُ من السيدة جيروفي كأس ويسكي. بدأ الحديث عن الأدباء الذين يزورون طنجة. ذكرت السيدة جيروفي تينسي وليامز

الذي لم يعد إلى طنجة منذ عام 64. الويسكي الذي أشربه على مهل ساعدني على الاسترخاء. كنت قد انزلقت في النُّعاس عندما أَيْقَظنِي صوتُ جنيه الذي قال:

ـ لقد وَضَعتُ نفسي الآن في مقبرة الأدب.

كانوا يتحدثون عن المسرح. سمعت جنيه يقول إن شكل المسرح لم يعد مُجْديا. قلت له:

ـ وماذا تَراه مُجْدياً كشكلٍ للكتابة في هذا الوقت؟

قال:

ـ شكل آخر غير موجود بعد. أشكال الكتابة الموجودة حتى الآن استُهلِكت بما فيه الكفاية.

فكرت: يَحقُّ أن يقولَ هذا ما دام قد ظهرت أعمالُه في طبعات جيدة. لو كان يفكر هكذا في الأربعينيات لما كتب أعماله. لَظَلَّ جنيه الُمتَسَوِّل واللص، جنيه المحكوم عليه بالمُؤَبّد.

عندما نهضنا وتهيأنا لنخرج، رأيت ايميليو سانث يسحب كتابا من فوق رفٍّ ويُقدمه لجنيه طالباً منه أن يكتب عليه إهداءه. نظر إليّ جنيه مُستشيرا بعينيه. هززتُ له كتفيَّ قائلاً له في خيالي: «إيّاك أن تفعل. تَذكَّر تقززك من الأغنياء المُتعجرفين». قال له جنيه:

ـ أعتذر، لستُ مُستعداً الآن لكي أكتب أيّ إهداء على أيّ من كُتبي.

قلت لجنيه في خيالي: برافو. Bravo.

في المصعد سألني:

ـ من هو ذلك الشخص؟

ـ من عائلة غنية جدا، بَنْكيَّة، حسبما قيل لي.

ـ لم يُعجبني في شيء.

ـ أنا كَذَلك.

20 ـ 10 ـ 1969

كنت مع براين في براسوري دوفرانس. جاء جنيه حوالي السادسة والنصف مساء مع صديقه محمد الزراد. ذهب براين. تحدثنا حتى الثامنة والنصف. انصرف صديقه الزراد. ذهبت مع جنيه لنبحث عن صديقه جورج لاباساد في السوق الداخلي. وجدناه مع بعض الشبان المغاربة في مقهى سنترال يتحدث معهم عن غناوة، وحْماتْشة، وجيلالة وهداوة. كان مهتّماً بطقوسها وأُصولها. ذهبنا إلى حانة ـ مطعم ماريا. طلبنا زجاجة نبيذ. شرب جنيه كأسا واحدا. لم يرد أن يتعشى معنا. صحبناه لاباساد وأنا إلى الفندق. صحبت لاباساد لأقدمه لبراين. غفوت تعبا وتركتهما يتحدثان عن طنجة أيام المافيا وتصفية الحسابات بالمُسدسات في السوق الداخلي. أفقت حوالي الثانية صباحا. كانا ما يزالان يتحدثان. انصرفت تاركاً هناك لاباساد مُعْجباً بحديث براين عن يهود طنجة والأجانب الذين اشتروا أجمل أراضيها بِأبْخَسِ الأثمان.

21 ـ 10 ـ 1969

جنيه، براين، لاباساد وأنا ذهبنا نَتَجول في أزقة السوق الداخلي. قصدنا منزل[1] مانولو في حيّ بنشرقي. وجدنا هناك العجوز الإيطالي ألبرتو جالساً في انتظار من يَجيء. قَدَّم لنا مقاعد قديمةً اهتزت عندما جَلسْنا عليها. القاعة باردة مِثْلُ ثلاَّجة. الرطوبة على الجدران، الأثاث وَسِخٌ فقد لونه. أخذ براين يتحدث عن شهرة المنزل أيام كانت طنجة دولية. قال لاباساد:

ـ إن هذه المدينة اليوم ميتة. لم يبق شيء من عظمتها.

تذكرت حلم جنيه بطنجة في إسبانيا وهو مُقَرْفصٌ نَائِمٌ إلى حائطِ

---

(1) ماخور للوطيين

مُحْتمياً به من الريح كانت طنجة تبدو له مَلْجَأً لِلْخَوَنَة والمجرمين.

عرض علينا العجوز الإيطالي نصف زجاجة نبيذ. فكرت: قد تكون هذه البقية احْمضَّت هي أيضاً وفقدت طعْمَها. شكرناه. قال لنا:

ـ أنتم ترون. لم يبقَ هنا شيء. الجوُّ ميّت. منذ عشرين سنةَ كان دائما خمسة أو ستة أشخاص ينتظرون نوبتهم للدخول. أما اليوم فلا يكاد يدخل أكثر من ثلاثة أو أربعة أشخاص في اليوم. أحياناً يمضي اليوم كله دون أن نستقبل زبوناً واحدا.

وافقناه على ذلك الزمن الضائع الذي يتحدث عنه، لكن من المستحيل العثورُ عليه اليوم واسترجاعُه.

22 ـ 10 ـ 1969

صَحِبنا واكريم إلى العمالة حوالي الخامسة والنصف. كان واكريم قد هَيّأَ مقابلة لجنيه مع كاتب العامل الخاص. دخلنا مكتبه. استقبلنا بتِرْحاب. جنيه يبدو عليه نوع من الارتياح اليوم في العمالة. سأله كاتب العامل عن العمل الذي سيشغله رفيقه محمد الزراد معه. قال له جنيه إنه سيشغله بستانيا في منزله في باريس. ضحكت في سري: جنيه يملك منزلا بحديقته في باريس. قال له كاتب العامل بالفرنسية:

II va, donc, agir avec vous comme un Domestique.

تأمل جنيه لحظة ثم قال له:

ـ اسمحوا لي أن أقول لكم إني لن أسمح أبداً أن أشغله معي. سيتكلف فقط بحديقة منزلي. سأحاول أن أبحث له عمن يعطيه دروسا خاصة في الفرنسية.

ابتسم كاتب العامل. يبدو أنه أدرك أن جنيه لا يوافق على إطلاق صفة Domestique على إنسانٍ لأنّ الكلمة تعني الاستعبادَ والتدجين ضِمْنَ معانيها. قال لجنيه:

ـ ينبغي لكم أن تُحرروا رسالة التزام في هذا الشأن. سنَحتفظُ بها في مِلفّهِ كَضَمانةِ لمسؤوليتكم عنه في الخارج.

وافق جنيه على كتابة الالتزام غدا. ثم حدثه عن الظروف التي تُرْغمُهُ على السفر عاجلاً إلى باريس. وعده كاتب العامل أنه سيعمل كلّ ما في وِسْعِهِ لِتسليم الجواز لِمحمدٍ غداً أو بعدَ غَد. خرجنا مسرورين من العمالة. قال لنا جنيه:

ـ يبدو هذا الرجل طيباً ومؤدباً.

التقيتُ بـ«لاباساد» في السوق الداخلي. كان جنيه قد دخل لينام. صحبني لاباساد إلى حان مطعم ماريا. أثناء العشاء قال لي لاباساد:

ـ إن جنيه قد انتهى. أين جنيه المغامر؟ جنيه في برشيلونة؟ في الجزائر، في تونس أو في اليونان؟

كان لاباساد على حق. لم تبق لجنيه سوى صيغة الماضي. كنت حين أسأله عن أحد كتبه يجيبني دائما هكذا.

ـ آه! لقد كتبته منذ زمن بعيد.

ذات مساء قلت له:

ـ إنك تبدو اليوم على غير ما يرام.

نظر إليّ بنظرة خابية:

ـ هذه هي حقيقتي. إني دائما جدّ حزين.

فكرت: أهو يتحدث مع الآخرين بهذه الصيغة؟

ودعت لاباساد في السوق الداخلي. له ليله ولي ليلي. أهواؤنا تختلف. هو يبحث عن مثيله وأنا أبحث عن نَقيضي. ما يروقني فيه هي بوهيميتُه رغم مكانته الفكرية. مِثْلَهُ كان يفعل هنا رولان بارت. لكن لاباساد يبحث عن طريدة مُتْعَتِهِ في كلّ الدروب والمقاهي، أما رولان

بارت فيجلس في مقهى سنترالْ وينتظر طريدته أن تُبَصْبِصَ له وترتميَ على حِضنه وسيجارتُه في فَمِهِ يتساقط رمادُها على ستْرته.

23 ـ 10 ـ 1969

اليوم حصل محمد الزراد على جواز سفره، اتفقنا مع العربي اليعقوبي على إقامة حفلة «غناوة» في منزله. حوالي الثامنة مساء بدأ الحفل. حضر مغاربة، فرنسيون، إنجليزيون وأمريكيون. رئيس جوق غناوة أسود كالفحم. من أول لحظة انسجم معه جنيه. راحا يتحدثان أثناء فترات الاستراحة. كانا كما لو أنهما يتعارفان من زمان. الغناء بالسودانية حزين والرقصات تشخيصية. إلى جانبي شاب يتناوب مع شاب آخر في الرقص. بين حين وآخر يترجم لي من السودانية إلى الدارجة بعض المقاطع فأترجمها بالفرنسية لجنيه. سأل رئيس الجوق عن سنه فأجابه الشيخ باسما:

ـ لا أدري بالضبط، لكن عندما زار القيصر الثاني طنجة عام 1905 كنت قد بدأت أمشي.

التفت إليّ جنيه:

ـ إنه جميل. جميل جدا هذا الرجل. (أضاف): أنظر، إنه يدخن الكيف كما لو كان له عشرون عاما.

نهض مصور من بين المدعوين وأخذ لنا صُوّراً عديدة. كان جنيه يبدو مَرِحاً عندما تُؤْخَذُ له صورة مع جوق غناوة، ومُتضايقاً عندما يُصورونه مع الأجانب. لاباساد لا يَكُفُّ عن تدخين الكيف وهزّ رأسه مع إيقاع بامبارا الحزين. استمرت الحفلة حتى حوالي الثانية والنصف صباحا. لاحظت أن جنيه كان منزعجا من حضور الأجانب. كان بغير مكانه باستمرار.

لدى خروجنا رأيت جنيه يُخْرِجُ حفنة من الأوراق المالية المدعوكة

ويدسها في يد رئيس الجوق. كان ثمن الجوق قد دُفِعَ مُقدّماً. تبادل جنيه نظراتٍ باسمةً مع رئيس الجوق. قال له جنيه باسما:

ـ مع السلامة.

أجابه الشيخ بِمَرح:

ـ تصحبك السلامة.

24 ـ 10 ـ 1969

مساء.

كنا في مقهى براسوري دوفرانس عندما سألني جنيه بصوت خفيض عَمَا إذا كان واكريم يريد أن يتقاضى مَبْلغاً من المال عن مساعدته في الحصول على الجواز. كان واكريم جالساً إلى جانبي ينظر إلى الشارع بنظرات شاردة. طلب مني جنيه أن أسأله عن ذلك. أخبرت واكريم فقال:

ـ شكراً يا سيد جنيه. إننا الآن صديقان. فقط سأطلب منك ـ إذا كان في إمكانك ـ أن تساعدني في شيء مهم جداً بالنسبة لي.

ـ أنا مستعد. فِيمَ تريد أن أساعدك؟

قال واكريم:

ـ أن تكتب لي رسالة توصيةٍ لأحدِ أصدقائك في أمريكا كي يساعدني هناك في الالتحاق بمعهدٍ لدراسة الباليه.

وافق جنيه على كتابة التوصية له. ذهبنا إلى المنزه. جلسنا في قاعة الفندق. عندما صعد جنيه إلى غرفته ليجلب أوراقاً قال لي واكريم:

ـ إن التوصية التي سيكتبها لي أفضل عندي من مليون فرنك.

ـ معك الحق، لو أنك وافقت على المكافأة المالية التي أراد أن يمنحها لك لحطمت كل ما فعلنا لمساعدته في الحصول على الجواز.

جاء جنيه وكتب لـه رسالتين: واحدة لصديقه بارني روسيث Barney Rossets مُمثّل دار نشر غروف بريس Grove Press وأخرى لريتشارد سيفر Richard Seaver صاحب الدار السابق. لاحظت أنه خَتَمَ رسالته لبارْني بهذه الجملة:

أحب كثيراً الدولارات الأمريكية!

J'aime tellement les dollars américains!

25 ـ 10 ـ 1969

ودعت جنيه في نهج إسبانيا، كان مصحوبا بجورج لاباساد وأساتذة فرنسيين جاءوا من الرباط لقضاء يوم عطلة مع لاباساد. جنيه سيسافر في الظهر صحبة صديقه محمد الزراد إلى إسبانيا ثم إلى باريس. أخبرت جنيه أنني تركت له في الفندق بعض الصور التي أخذت لنا في منزل العربي اليعقوبي مع غناوة. شكرني وانصرف.

21 ـ 12 ـ 1969

لقيت محمد الزراد في السوق الكبير. ضحكنا قبل أن نتكلم. كان مسرورا. سألته:

ـ ماذا حدث. أين هو جنيه؟

ـ لا أدري أين هو الآن. إنني أعمل اليوم في جبل طارق منذ شهر. في سفرنا إلى فرنسا مررنا بمدريد. استقبلنا في المطار إسبانيون. كان بينهم صحافيون. بعضهم تكلم معه كصديق قديم. ألقوا عليه بعض الأسئلة وراحوا يكتبون. أخذوا لنا صورا.

ـ وأنت، ألم يلقوا عليك بعض الأسئلة؟

ـ نعم، أنا أيضا سألوني. قلت لهم بالكلمات القليلة الإسبانية التي أعرفها: إني صديق لجنيه مسافر معه إلى باريس. ذهبنا مع بعضهم إلى

محل إقامة خاص. رحبوا بنا كثيرا خلال الأيام التي مكثناها هناك. حينما وصلنا إلى باريس تعجبت كونهم لم يستقبلوه بنفس الاهتمام الذي استقبل به في إسبانيا. ذهبنا إلى دار كبيرة مليئة بالكتب. (غاليمار) قال لي جنيه مازحا:

ـ أنا أسكن هنا.

لقد أدركت أنها دار نشر. قدمني جنيه إلى بعض أصدقائه ثم طلب من فتاة أن تأخذني معها في سيارتها لتطلعني على جمال المدينة. كانت المدينة رائعة، لكن الإنسان يضيع فيها كما تضيع الإبرة في كومة من التبن، تجولنا حوالي ساعة في السيارة الجميلة. كانت تسير بنا مثل حمامة. الفتاة أيضا كانت حمامة. (ضحك) حمامة تقود حمامة.

ـ وكيف كنت تتفاهم معها أثناء الجولة.

ـ كنا نبتسم لا غير. أحيانا نتبادل إشارات وحركات. كانت فتاة مؤدبة جدا. عدنا إلى دار الكتب وصحبني معه جنيه إلى فندق صغير. حجز لي غرفة صغيرة، بحث عن طالب فرنسي وقدمني إليه. كان جنيه ينفق عليه.

بدأت أخرج مع الشاب حينما يكون جنيه مشغولا. كان الشاب يقيم معي في نفس الفندق وجنيه يسكن وحده في مكان آخر. بعد أيام أعطاني بعض المال وقال لي إنه سيسافر إلى بلد بعيد ليحضر هناك عرض إحدى مسرحياته ويسوي بعض الأمور المعلقة بكتبه. حينما سافر لنقل الشاب الذي تركه معي إلى غرفتي لكي ننام معا في نفس الفراش. بصعوبة فهمت منه أننا هكذا يمكن لنا أن نقتصد بعض المال حتى يعود جنيه. كان يأخذني معه إلى أماكن كثيرة. كنت أخاف كلما خرجت معه من أن يتركني ضائعا في مكان ما حيث يمكن أن تحدث لي مصيبة في تلك المدينة الغريبة الهائلة. في الأيام الثلاثة الأولى كان عاقلا نوعاً ما ثم فجأة تغيرت شخصيته تماماً معي. أكان يريد أن يبعدني عن جنيه؟

غيرة؟ بدا كما لو أنه أصيب بمس من الجنون: أخذ يدخل إلى محلات تجارية ويشتري أشياء لا تعنيني في شيء، لكنه يدفعني إلى أداء ثمنها من النقود التي تركها لي جنيه. كنت أرى فلوسي تطير من جيوبي. فكرت أن أنقذ نفسي وأفوز بالمال الذي بقي معي قبل أن أصير متسولاً ضائعا في شوارع باريس. هكذا عدت إلى طنجة لأترك لزوجتي ما تبقى معي من المال ثم سافرت إلى جبل طارق حيث عثرت على عمل في نفس الأسبوع الذي وصلت فيه.

ـ ما رأيك في جنيه خارج طنجة؟

ـ هو نفسه كما كان هنا. طيب جدا، ولولاه لكنت ما زلت أربح خمسة أو ستة دراهم في اليوم أو عاطلا. من يعرف!.

9 ـ 8 ـ 1974

مساء. السادسة والربع.

كنت جالسا مع صديقي مجيدو في مقهى ايسكيما. رأيته يمرّ. حملت كتبي ودفاتري ولحقت به. ضربت على كتفه. التفت بسرعة. تعانقنا بحرارة. اضطرب للمفاجأة. مشينا وسألني:

ـ ماذا فعلت في حياتك؟

ـ قلت له باعتزاز:

ـ ألفت كتبا جديدة. بعضها ترجم إلى الإنجليزية ونشر، وبعضها لم ينشر بعد.

لم يقل شيئا. ينظر إليّ باستمرار. ثيابه نظيفة هذه المرة: كبوت من الدان، بنطال وقميص أبيضان وحذاء قماشي رياضي أزرق. لا يضع يديه في جيبيه كما في السابق. يبدو في صحة جيدة. وجهه مشرق. قامته أكثر استقامة. فكرت: ربما لم يعد يتناول أقراص نيمبوطال.

ـ لقد كتبت عنك كتابا صغيرا. ترجم إلى الإنجليزية ونشر في نيويورك.

لم يقل شيئا. ينظر إليّ باستمرار. استغربت لصمته. أهو لم يعد يروقه الكلام عن الكتب؟ لماذا سألني إذن عما فعلته؟ (أضفت): نشرت بعض الصور في الكتيب.

ـ صور من؟ صوري أنا؟ كيف ذلك؟

ـ بعض الصور التي أخذت لنا مع غناوة في دار العربي اليعقوبي.

ـ أتذكر الآن.

وصلنا قدام مقهى براسوري دوفرانس. عرض عليّ أن أتناول معه شيئا. قلت له ونحن ندخل:

ـ لقد مضت خمس سنوات على آخر مرة كنت فيها هنا.

ـ صحيح.

جلسنا في أول طاولة عند مدخل المقهى. سألني مباشرة:

ـ ماذا تفكر في قضية الصحراء المغربية؟

ـ كل مغربي مستعد أن يدافع عن استقلالها.

ـ هل تعني استقلالها الذاتي الكامل أو أنها ستكون جزءا من التراب المغربي إذا استقلت؟

ـ المغرب يدافع عن الصحراء كجزء من ترابه.

ـ هذا شيء آخر. (صمت) إن تلك المنطلقة غنية بالمعادن خاصة البترول. ينبغي ألاّ تبقى تحت الاحتلال الأجنبي. هذا هو المهم. إنها ستصير كويت أخرى إذا استخدمت فيها التكنولوجيا الحديثة.

قلت:

ـ هذا يقتضي تدخل دولة متقدمة تكنولوجيًا في اقتصاد تلك المنطقة.

ـ هذا طبيعي. المهم هو ألاّ تستغل كليا من من طرف دولة مستعمرة. (صمت) هل هناك أغلبية من المغاربة يهتمون بتحريرها؟

ـ طبعا. (صمت) لقد تحققت نبوءة نيتشه.

ـ حول ماذا؟

ـ حول سيطرة القوة العسكرية.

ـ هذا خطأ في الفهم. نيتشه قال إن الفيلسوف هو الذي ينبغي أن يحكم العالم.

ـ ولكن، واقعيا، الرجل العسكري هو الذي يحكم العالم.

ـ اسمع، إنني أفهم جيداً نيتشه. لست في حاجة إلى أن تتحدث لي عن فلسفته. تحدث لي عن الصحراء إن كنت تعرف عنها شيئا مهما.

قلت:

ـ الناس هناك ما زالوا يعيشون بوسائل بدائية. إذا لم يدخلوا في الحضارة المعاصرة سينتهون مثل إحدى قبائل الهنود في أمريكا أو البرازيل حيث يبادون بالجملة.

ـ ماذا تقصد بالبدائية والحضارة المعاصرة؟

ـ أقصد أن يعيش الإنسان عصره بالوسائل التي تسود العالم من اختراعات في سائر العلوم الإنسانية. ناس الصحراء لا يهتمون إلا بالدين. إنهم يعيشون في حصار عن تقدم العالم.

ـ لقد قابلت هناك ناسا مثقفين. إنهم يتكلمون الفرنسية بطلاقة.

ـ لكن ربما فقط قابلت رؤساء الصحراويين.

(صمت) سألني إن كنت أعرف شخصيا الطاهر بنجلون. قلت نعم. ثم سألني عن الخطيبي والعروي. ذكر لي أنه بدأ يقرأ لهؤلاء. فكرت في سنة 69 حين كان هنا. لم يكن يعرف إلا كاتب ياسين.

سألته:

ـ ما رأيك في استقالة نيكسون؟

ـ لم يكن له حل آخر لينقذ جلده. إنه لص كبير.

سألته إن كان يرى أن السياسة الأمريكية الخارجية ستتغير بعد استقالته.

ـ لا أعتقد. ستبقى كما هي (صمت). لقد أخطأ العرب عندما استقبلوا نيكسون بذلك الترحاب البالغ. الصينيون أخطأوا هم أيضا في استقباله بتلك الحفاوة.

ـ كان العرب مجبرين على استقباله أكثر من الصينيين. كانوا في حرب وما زالوا.

ـ الصين أيضا كانت معرضة للخطر السوفياتي. لكن، مهما يكن، فإن العرب والصينيين احتفوا بلص سياسي خطير. (صمت) الدعارة تتفَشّى بسرعة مذهلة في طنجة.

ـ تقصد الدعارة اللوطية.

ـ نعم.

ـ لكن طنجة كانت دائما فردوسا للجنسيين المثليين. أعتقد أن الاستعمار هو الذي أورثنا الحرية الجنسية التجارية.

ـ أريد أن أسألك: هل هناك شبان مغاربة يعترفون أنهم مخنثون؟

ـ طبعا يوجدون.

بعد لحظة قال:

ـ أعتقد أن السود متحررون أكثر من البيض تجاه المحرمات. ما رأيك أنت؟

ـ ربما لأنهم ما زالوا يحتفظون بطبيعتهم البدائية. إذا اعتبرنا عري الجسد حراما في الدين أو في العرف، فإن نسبة عراة الجسد في العالم

بين السود أكثر منها بين البيض والأجناس الأخرى.

(صمت) قال:

ـ كنت أَتَمَشَّى ليلاً في باماكو عبر مكان مُشَجَّر. التقيت بشاب أسود. اقترب مني وقال:

ـ إن الأشجار في حاجة إلى رجال.

قلت له:

ـ والرجال في حاجة إلى أشجار.

ـ إني أفهم تعبيرك ورغبتك أيها السيد.

ابتسمنا ثم أضاف:

ـ أنا أرواحي Animiste.

ـ وهكذا زالت الحواجز بيننا لنتعارف.

بعد لحظة نظر إلى كتبي وقال:

ـ أرى أنك ما زلت تحمل معك دائما كتبك.

ـ إنها عادتي منذ أن تعلمت القراءة والكتابة في مدينة العرائش. 18 عاما وأنا أحمل معي كتبا ودفاتر أينما ذهبت. لقد اكتسبت عادة القراءة والكتابة في المقاهي. إن صمت المسكن وخلوه من الحركة يبلّدان وعيي.

(صمت)

ـ ألم تر محمد الزراد بعد أن عاد من باريس؟

ـ رأيته مرة واحدة فقط بعد عودته. التقينا في السوق البراني. روى لي رحلته معك إلى باريس عبر مروركما من إسبانيا.

ـ كنت أعرف مسبقا أنه لن يستطيع العيش في أوروبا. لم أكن أريد منع رغبته في الذهاب معي إلى باريس. بدأ ملله من الرحلة ونحن ما زلنا في مدريد. استضافنا أفراد فرقة مسرحية شيوعية كانت تريد تمثيل

مسرحيتي «الخادمات». كنت أراه وحيدا بينما الصحفيون يستجوبونني ويأخذون لي صورا. أفهمته أني لا أملك منزلا خاصا بي في باريس. لا أعتقد أنه صدق أني أقيم في الفنادق. كان يظن أني أخفي عليه منزلي. بعد ايام في باريس اضطررت أن أذهب إلى طوكيو لزيارة بعض الأصدقاء الذين استدعوني. كان جد متدين. لم يستطع أن يأكل اللحم في المطاعم لأنه كان يعتقد أن كل لحم خارج بلاده فيه رائحة الخنزير.

ـ هل أنت نادم لأنك اصطحبته معك؟

ـ أبداً لا. كانت تجربة لنا معا. ثم كنت أريد أن أساعده لأنه طلب مني ذلك.

كنت أحمل معي البارك الشابة لبول فالري وسجوني لبول فرلين. طلبت منه أن يشرح لي بيت فالري «Je me voyais me voir».

ـ إنه تأمّل التأمّل. كنت في وضعية الإله مع نفسي. إنني أخترق نفسي. ما هو جميل في البيت هو الأنا المتحركة، الأنا التي تكبر حتى تصير علامة على القلق: من أنا؟

أمسك كتاب فرلين ولم يقل عنه شيئا. كانت صورة فرلين بارزة على وجه الكتاب. خيل لي أن بينهما تشابها فسيولوجياً في الرأس والوجه.

10 ـ 8 ـ 1974

التقيته قدام مقهى باريس. كان ذاهبا إلى فندقه. تبادلنا كلمات حول الصحف التي اشتراها. لم يبد لي وديا هذا اليوم. شيء ما في رأسه عني. ربما هو منزعج بسبب الكتيب الذي كتبته عنه، لكنه أمس لم يقل لي شيئا. ودعته أنا أيضا ببرود.

مساء. الساعة 5

قابلته في شارع محمد الخامس. توقفنا قدام مقهى باريس. مدّ لي يده قائلا:

ـ عندي موعد مع أحد...

ما زال كما قابلته في الصباح. فكرت: ربما هو لم يعد يرغب في أن يقابلني أكثر.

11 ـ 8 ـ 1974

(من 11.45 إلى 2 بعد الزوال)

رأيته جالسا في مقهى باريس يقرأ جريدة الرأي المغربية. كنت ذاهبا إلى السوق الداخلي. فكرت: هذه آخر مرة أكلمه فيها إذا عاملني بنفس برودة البارحة. رآني أدخل. ابتسم. طَوَى الجريدة. صافحني. نظر إلي من فوق نظارته. بقيت واقفا. عرض عليّ أن أجلس. قال:

ـ ما هي الأخبار الجديدة عن الصحراء؟

ـ لا أعرف أشياء جديدة كثيرة. سمعت أن المفاوضات ستجري يوم 20 من هذا الشهر بين المغرب وإسبانيا.

لم يقل شيئا. كنت أريد أن أقول له إني لا أهتمّ بالسياسة. قلت له:

ـ أراك هذه المرة تهتم فقط بالسياسة. أتعتقد أن الأدب لم يعد يؤثر على الإنسان؟ هل انتهى دور الأدب تماما بالنسبة لك؟

ـ لم أهتم قط بالأدب. لقد كتبت أشعاراً وروايات عندما كنت في السجن. كتبتها فقط لأخرج من السجن.

ابتسمتُ وقلتُ له في خيالي:

ـ جنيه، هل هي عظمتك في تواضعك عندما تتكلم هكذا؟

ـ لكنك كتبتَ كتباً بعد خروجك من السجن.

ـ نعم، كتبتُ خمس مسرحيات، المسرح شيء آخر. (صمت) المسرح ليس أدبا.

ـ وكتابك يومية اللص.

ـ أيضا كتبته في السجن.

ـ هل ترى إذن أن بعض الكتاب لا يكتبون أدبا جيدا إلا إذا كانوا في حالة حصار، في سجن حقيقي أو في سجن وهمي.

ركّز عليّ عينيه وقال:

ـ اسمع، أنت تسألني عن نفسي أشياء كثيرة. إني أخاف الآن أن أتحدث معك عن نفسي وعن آرائي الخاصة. أنت كتبت عني دون أن تستأذنني. كل ما قلته لك في المرتين السابقتين كان خاصا بيننا.

ـ لقد كتبت عنك بحسن نية.

ـ وإن يكن. كان ينبغي لك أن تطلب مني الإذن. أيضا نشرت صورا لأشخاص قد لا يرغبون في أن تنشر صورهم. هل استأذنتهم؟

ـ لا. لكنني أعتقد أنهم لا يمانعون في نشر صورهم والكلام عنهم.

ـ لا يمكن لك أن تعرف. (صمت) إن كاتبا اسمه موريس ويست كنت قد كتبت له رسائل شكر فطلب مني منذ مدة نشر تلك الوسائل فلم ينشرها عندما رفضت.

فكرت: هذا هو سبب بروده معي إذن. إنه يحاكمني. لا بد من الدفاع وإن كنت سأخسر.

ـ لم أكن أعرف عنوانك. ما كتبته عنك لا يمسك بسوء في شيء.

انشرحت ملامحه.

ـ لا يهم. لننس الأمر.

ـ هل تريد أن أعطي لك نسخة من الكتاب؟

ـ أنت تعرف أنني لا أقرأ الإنجليزية.

ـ يمكنك أن تعطيه لأحد أصدقائك ليقرأه ويقول لك رأيه فيما كتبته عنك.

ـ لا يهم. دع الأمر يسقط.

جاء التركي وجلس معنا. سأله جنيه عن براين جيسن وعما يفعله. قال:

ـ إنه ينتقل بين لندن وباريس.

سأله جنيه عن بلال صديق براين. ضحك التركي.

ـ لقد فعلها كبيرة هذه المرة.

ـ ماذا فعل؟

ـ سرق صديقا لنا. ذهبا معا إلى الشاطئ. أكتريا كابينة خاصة بهما. كان المفتاح مع بلال. ترك الأمريكي حتى ذهب إلى البحر ليسبح ودخل الكابينة وأخذ آلة تسجيل وألف درهم وهرب.

قال جنيه بمرح:

ـ حسنا فعل بلال. إنه يعرف جيدا ما يفعل.

قال التركي:

ـ هل تعتبر هذا العمل جيدا؟

قال جنيه ضاحكا:

ـ طبعا أعتبره عملا جيدا جدا. من الآن فصاعدا سأتخذ بلال صديقا لي.

قال التركي بخيبة:

ـ لكن الأمريكي صديق لنا: براين وأنا وبلال.

قال جنيه:

ـ حتى وإن يكن صديقا، خصوصا وأنه أمريكي. ينبغي لكل إنسان ليس أمريكيا أن يسرق الأمريكي أينما كان.

قال التركي:

ـ أنا لا أوافقك.

ـ سواء وافقتني أم لا فإني أؤيد بلال فيما فعله. إن بلال رجل ذكي وعظيم. هو يعرف كيف يعيش. إن رجلا مثله لا يموت جوعا بين الأغنياء. إن بلال رائع.

فكرت: إن جنيه يقوم بعملية تفريج عما لم يعد يستطيع أن يفعله.

قال التركي:

ـ أنا لا أسرق أحدا. لقد اشتغلت مع براين وأعرف بول بوولز ووليام بروز وكثيرين من أصدقاء براين، لكني لم أسرق قط أحدا منهم. إنهم يعطونني هدايا، لكن لا أسرقهم.

سأله جنيه:

ـ من هو بول بوولز هذا؟

ـ إنه مثلك يكتب كتبا. (أشار إليّ بأصبعه) اسأل عنه شكري. إنه يترجم له ما يكتبه بالعربية.

سأل جنيه:

ـ هل هو أمريكي؟

ـ نعم.

قال جنيه:

ـ هو أيضا ينبغي أن يُسرق إذا كان أمريكيا غنيا.

قال التركي:

ـ لكنه إنسان طيب لا يستحق أن يُسرق.

قال جنيه:

ـ الإنسان الأمريكي الطيب هو الذي ليس غنيا. أنا أعرف جيدا الأمريكيين. أنا أؤيد كل لصوص العالم ضد الأمريكيين الأغنياء.

قال التركي:

ـ بلال كان يسرق أيضا صديقه براين. ذات يوم كان براين يستحم في منزله. أخذ بلال مفتاح الصندوق حيث يخبئ براين ماله وسرق له عشرين ألف فرنك.

قال جنيه ضاحكا:

ـ عشرون ألف فقط. كان ينبغي له أن يأخذ أكثر من ذلك. من الأفضل لو أنه سرق له كل ما يملك.

ـ لكن براين ليس غنيا.

ـ وإن يكن. ينبغي للإنسان أن يسرق دائما من يملك أكثر منه. إن بلال لص ظريف ورائع.

سألت جنيه:

ـ وإذا سرقك بلال أو غيره، فماذا سيكون رد فعلك؟

ـ من الصعب أن يسرقني أحد.

قلت:

ـ وإذا عرف كيف يسرقك.

ـ سأتسلى بذلك. إذا سرقني أحد ولم يكن قد خسر بعد كل ما سرقني إياه فسأحاول أن أسترجع منه ما تبقى بنفس المهارة التي يكون قد سرقني بها أو أكثر.

قال التركي:

ـ الإنسان السارق ليس شريفا.

سأله جنيه:

ـ لماذا؟

ـ لأنه لا يكون محترما بين الناس.

ـ أنت إذن تعتبر نفسك محترما بين الناس لأنك لا تسرق.

ـ نعم.

ـ وبلال؟

ـ ليس محترما.

ـ لكنه يريد ألا يكون محترما. إذن فهو حر. أنا، مثلا، معروف بين الناس كلصّ سابق، ومع ذلك فعندما أمرّ في الشارع أو أكون معهم فلا يهمني أن يحترموني. أنا أحب الإنسان السارق. إننا كلنا سارقون: براين جين سرق موسيقى جهجوكة وباعها للأجانب، نيكسون سرق واستقال، بلال سرق الأمريكي وهرب. أنت ترى، أننا كلنا سراق. إنما هناك اللص الشريف وهو الذي يسرق الأغنياء ويعطي شيئا للفقراء، وهناك اللص الخائن، المجرم، الذي يسرق الفقراء ويقسم ما سرقه مع أمثاله.

قال التركي:

ـ ما أريد أن أقوله عن بلال هو أنه متزوج وله طفل. من سيعول زوجته وطفله إذا هو سرق ودخل السجن؟

قال جنيه:

ـ لا تخف على بلال. إن يعرف كيف يسرق بحيث لا يدخل السجن. إنه يخاطر. العيش مخاطرة. إذا هو لم يسرق فلن يجد ما يعول به طفله وزوجته ونفسه.

بعد لحظة سأل جنيه التركي:

ـ قل لي، هل نمت مع رجل عندما كنت غلاما؟

قال التركي ضاحكا:

ـ أبدا. لقد كنت دائما رجلا في حياتي الجنسية. لم أترك قط أحداً

يركب على ظهري.

قال له جنيه ضاحكا بالدارجة:

ـ أنت كذاب. باين عليك كذاب. لازم أنت عشت في صغرك تنعس مع الرجال. عندك وجه زامل (أمرد داعر).

ـ أبدا، أنا ديما عشت رجل حتى في صغري.

بعد لحظة قال جنيه للتركي.

ـ ما رأيك في اليهود؟

نحنح التركي وقال:

ـ اليهود مثل كل الناس: فيهم الطيبون وفيهم الخبيثون. لكن اليهودي الحقيقي إذا وعدك يفي بوعده.

ـ كيف تشرح لي ذلك؟

اشعل التركي سيجارة وقال:

ـ سأقص عليك ما وقع لي. منذ سنوات لم يكن قد بقي للعيد الكبير سوى ثلاثة أيام. كنت في حاجة إلى أربعين أو خمسين ألف فرنك لشراء الكبش. كنت جالسا في رحبة هذا المقهى بالذات. كان إلى يميني صديق مغربي أعرفه وإلى يساري كان جالسا يهودي أعرفه بالرؤية فقط. طلبت من الصديق المغربي أن يسلّف لي ذلك المبلغ. اعتذر لي أنه هو أيضا كان يعاني خصاصا في المال لشراء حاجيات العيد. أنا كنت أعرف أنه يكذب. بعد انصرافه قال لي اليهودي إنه يمكن له أن يسلف لي الخمسين ألف فرنك. كان قد سمع حديثي مع ذلك الصديق. لم أكن أصدق أنه سيأتي في المساء، لكنه جاء وأعطاني الدراهم. أنت ترى، لم يخلف وعده.

قال له جنيه بتهكم:

ـ لكن وفاء ذلك اليهودي متعلق بك وحدك وليس معي أو مع

سواي. إن تصرف اليهودي معك لا يمثل أغلبية اليهود. أنا طلبت منك أن تقول لي رأيك في اليهود عموما.

قال التركي:

ـ أعتقد أن كل يهودي يحترم ديانته فلا بد أن يفي بكلمته، وكذلك كل إنسان متدين.

قال جنيه:

ـ أنا لا دين لي، ومع ذلك فيمكن لي أن أحترم كلمتي إذا شئت. لا علاقة للدين بالوفاء، الإنسان قد يكون وفيا بدون دين وخائنا وله دين.

وقف أمامنا شاب مغربي وصافحنا. قال:

ـ سآخذ مكاني معكم.

لم يتكلم أحدنا. قال التركي:

ـ أنا أحافظ على إيماني.

قال له جنيه:

ـ وأنا أحافظ على لا ايماني.

تدخل الشاب:

ـ لا بد للإنسان أن يؤمن بشيء في هذا العالم. العالم أقوى من ألا يؤمن الإنسان فيه بدين ما.

قال له جنيه:

ـ ماذا تقول؟

قال الشاب:

ـ أقول ما دام الإنسان يحب ويأمل ويفشل فلا بد له من أن يؤمن بشيء ما ليجد خلاصه.

خرجنا. كان «ح» جالسا في رحبة المقهى. رمى عليه جنيه عقب

سيجار بانتير الذي كان يدخنه. نهض «ح» وارتمى على جنيه، شده بعنف وقال له:

ـ اسمع يا جنيه، سآتي إلى المنزه وأرميك في المسبح. إنك وقح، كلب.

تضاحكا وقال له جنيه:

ـ تعال إلى هناك وسنرى من سيرمي الآخر. تعال وسترى.

مساء من 6.30 إلى 8.25 (مقهى براسوري دوفرانس)

رأيته، من خلال الزجاج، جالسا مع شاب. أشار لي بيده أن أدخل.

قدمني إلى الشاب:

ـ محمد القطراني. صديق.

سألني إن كان قد جدّ شيء حول الصحراء. قلت له:

ـ هناك مشروع مفاوضات بين الحكومة المغربية والإسبانية. هذا ما سمعت.

قال القطراني:

ـ لاحظت أنك تهتم بالإسلام وتعرف عنه الكثير.

قال جنيه:

ـ صحيح. لقد قابلت بعض المسلمين العرب وتحدثوا لي عن تاريخهم وديانتهم.

طلب مني القلم ورسم تخطيطا للكعبة. وضع حرفا لكل اتجاه.

سأل الشاب:

ـ أين يوجد الحجر الأسود؟

تأمل الشاب الرسم وقال:

ـ لا أدري.

قال جنيه، واضعا رأس القلم جهة الشرق:

ـ الحجر الأسود يوجد هنا، قبلة المشرق.

ثم أشار بسهمين إلى جهة اليمين وقال:

ـ اليمن سميت بهذا الإسم لأنها توجد يمين الكعبة، (وبالسهم الثاني أشار إلى الشام). الكعبة كانت قبل الإسلام طاولة للاتجاهات الأربعة (مِزْولة).

سأل جنيه الشاب:

ـ وقبل الإسلام كيف كان العرب يطوفون بالكعبة؟

قال القطراني:

ـ من اليمين إلى اليسار.

قال جنيه:

ـ كلا، من اليسار إلى اليمين، ثم جاء محمد وجعلهم يطوفون من اليمين إلى اليسار.

سأل القطراني:

ـ لماذا؟

قال جنيه:

ـ لأنه أراد أن يغير لهم عادات عبادتهم.

قال القطراني:

ـ تعرف كل هذا عن الإسلام ولا تسلم. ضع اللّه في قلبك.

قال جنيه:

ـ سأضع نفسي في قلب اللّه.

وتأمل الشاب رسم الكعبة وقال:

حَمورابي أراد هدم الكعبة، لكن اللّه أرسل طيرا وأخذ يرجم جيشه بالحجارة فلم يستطع أن يقترب منها. (أضاف مؤكدا على جنيه): هل تعرف حمورابي؟

قال جنيه؟

ـ كل من درس التاريخ القديم يعرف من هو حمورابي. طبعا أعرف من هو حمورابي.

قال جنيه بعد لحظة:

ـ إن الناس هنا لم يعودوا متعصبين للدين. حتى الشيوخ منهم. عندما كنت هنا سنة 69. ذهبت إلى تطوان.

جلست في أحد مقاهي «الفدان». كان يجلس قربي شيخ يلبس الجلباب. نظرنا إلى بعضنا البعض وتبادلنا تحية صامتة. كنا في نفس السن تقريبا. كلمته بالدارجة المغربية. سرّه ذلك. تحدثنا عن المدينة وأشياء أخرى.

ذات لحظة سألني:

ـ هل أنت مؤمن باللّه؟

ـ كلا. أنا كافر. إنني أؤمن بكفري. أعتذر لك إن كنت أعترف بكفري وأنا جالس قربك.

قال:

ـ ولماذا لا. أنت حرّ. نحن بشر. كل واحد منا يحق له أن يؤمن بما يشاء أو لا يؤمن بشيء على الإطلاق.

(صمت). في شنغيط دعاني حفيد ماء العينين إلى جلسة خاصة في زاويتهم. كانوا خمسة أو ستة. خلعوا أحذيتهم. حينما أردت أن أفعل مثلهم رجاني مضيفي ألاّ أفعل إذا أنا شئت. بقيت بحذائي. تحدثنا عن أشياء كثيرة.

من جملة المواضيع التي تحدثنا عنها الإيمان والإلحاد. احتدّ النقاش بيني وبين شقيق حفيد ماء العينين حول الخلافات الموجودة بين الإسلام والمسيحية. قلت لهم:

ـ لقد مرّ عشرون قرنا على وجود الديانة المسيحية وأربعة عشر قرنا على تأسيس الديانة الإسلامية. أريقت خلالها دماء وما زالت الخلافات قائمة إلى اليوم. إذا كان الأمر هكذا، فكيف تريدون أيها السادة أن نجد حلا لهذه الخلافات، في هذه الساعة التي نجتمع فيها هنا. إنني لا أمثل أية ديانة حتى أدافع عنها.

قال حفيد ماء العينين:

ـ صحيح. معك الحق. كان لطيفا ومثقفا. يتكلم بطلاقة الفرنسية هو وأخوه. الحاضرون الآخرون كانوا يتكلمون أيضا فرنسية جيدة.

بعد لحظة سألته:

ـ والفلسطينيون كم بقيت معهم؟

ـ في المرة الأولى بقيت ستة أشهر، وفي المرة الثانية ثلاثة أشهر.

سألته:

ـ كيف كنت تشعر وأنت بينهم؟

ـ كنت أشعر أني واحد منهم. كان ياسر عرفات يقبلني ثلاث مرات على خديّ، وكنت أفعل مثله. كنت آكل ما يأكلون وأنام في خيمة مثلهم.

ـ ألم تشارك في أحد الهجومات؟

كلا. كنت الأكبر سناً بينهم. أعطوني سلاحا. كنت ابتهج بطلقاته في الهواء، لكن هذا لا يعني أنني لم أكن معرضا للخطر في حالة الهجوم عليهم.

قال له القطراني:

ـ ماذا ذهبت تفعل معهم هناك إن كنت لم تهاجم بسلاحك ضد العدو؟

قال:

ـ الحقيقة أنني كذبت. لقد قتلت كثيرا من العرب.

قال القطراني بانفعال:

ـ صحيح ما تقول؟ قتلت عربا وكنت معهم؟

ـ نعم. كنت مع العرب ضد العرب.

ـ كيف ذلك؟

ـ كنت أقتل الجنود الأردنيين.

ضحكنا ثم استعاد القطراني هدوءه.

بعد لحظة سأله القطراني:

ـ هل تعرف سيدنا عيسى؟

ـ لا أعرفه.

قال القطراني بدهشة.

ـ كيف لا تعرفه.

ـ سمعت عنه فقط، لكني لا أعرفه شخصياً.

ـ وموسى؟

ـ أيضا سمعت عنه.

ـ أقصد من منهما أفضل في رأيك.

ـ لا هذا ولا ذاك.

ـ لا يمكن.

ـ كيف لا يمكن؟

ـ لا بد أنك تفضل ديانة أحدهما دون الأخرى.

ـ لقد قلت لك إنني كافر. وإذا كنت أنت تقدس ديانتك الإسلامية

فأنا أيضا أقدس إلحادي. إن هذا لا يمنعنا نحن الثلاثة الآن من أن نعيش كبشر، مؤمنين أو ملحدين.

قال القطراني:

ـ إن من لا يؤمن لا يعيش إلا على هذه الأرض.

ـ وهل هناك مكان آخر للعيش؟

ـ نعم، الجنة.

ـ لا أريد أن أذهب إليها.

ـ إن اللّه سيعاقبك.

ـ ليفعل بي ما يشاء إذا كان موجودا.

بعد لحظة سأله القطراني:

ـ لماذا لم تتزوج؟

ـ ولماذا أتزوج؟

ـ لكي تجد من يهتم بك.

ـ إنني أهتمّ بنفسي.

ـ ليس الأمر سواء.

ـ اسمع، كنت ذات يوم في ميدلتْ. تعرفت إلى شاب كان متزوجا منذ شهرين. ألقى عليّ نفس السؤال عن الزواج. حين أجبته أنني لم أكن في حاجة إلى زواج قال:

ـ ومن يغسل لك ملابسك؟

أجبته:

ـ آلة الغسيل.

أفهمته أن الإنسان لا يتزوج من أجل غسل ثيابه، وطبخ الأكل وفعل الجنس. اعترف لي أنه لم يتزوج إلا من أجل هذه الأشياء. قلت

له إني لست في حاجة إلى الزواج من آلة غسيل ومطبخ وفراش. كان أيضا ميالاً إلى اللواط رغم أنه كان يتحدث لي عن جمال النساء.

قلت لجنيه:

ـ يوجد هنا في طنجة مجنون يحتك من الأمام بمؤخرة إحدى السيارات ثم يستحم في تلك النافورة. إنه لا يشقي نفسه كثيرا. يبيع الورد متجولاً في المطاعم منذ ربع قرن. يأكل الورد مع الخمر اعتقادا منه أن الورد يطهره.

12 ـ 8 ـ 1974

قابلته في البولفار حوالي الخامسة مساء مع القطراني. كانا يتجولان ببطء.

حوالي التاسعة ليلا دخلا قاعة شاي مدام بورت. كنت جالسا مع قحبة مغربية. مكثا حوالي ربع ساعة ثم خرجا دون أن يشربا شيئا. أعتقد أن النادلة تأخرت في خدمتهما. كانت القاعة غاصة بالزبائن والحرارة خانقة. ثياب جنيه متسخة ولحيته غير حليقة، لكنه يبدو مسرورا مع القطراني.

13 ـ 8 ـ 1974

(في مقهى براسوري دوفرانس، من 8 مساء إلى 9.30)

كان صحبة القطراني. قلت له:

ـ لقد كان هنا صمويل بيكيت صحبة سيدة عجوز.

ـ أهي زوجته سوزان؟

ـ لا أدري.

ـ ربما هي.

وصديقك سارتر، هل رأيته مؤخرا؟

ـ لم يعد سارتر صديقي بسبب موقفه المعادي للفلسطينيين وكل العرب بلا استثناء.

ـ هل تنوي أن تنشر قريبا مذكراتك عن الفلسطينيين؟

ـ الكتاب جاهز تقريبا، لكن يلزمني تنقيح مسودته جيدا. سأشتغل فيه عندما أعود إلى فرنسا.

سيسافر غدا إلى الرباط ليتابع عن قرب أخبار مؤتمر القمة العربية السابع.

14 ـ 8 ـ 1974

(في مقهى براسوري دوفرانس من 30. 6 إلى حوالي 30. 9 ليلا).

تبادلنا إشارة تحية عبر الزجاج. دخلت. عرض عليّ أن أجلس.

سألته:

ـ ألم تسافر إلى الرباط؟

ـ لم أجد مكانا لي في الطائرة. غداً سأسافر بالتأكيد.

بعد لحظة سألني:

ـ قل لي، كيف يذكر المغاربة اليوم المارشال ليوطي؟

ـ يذكرونه استعماريا خدم بلاده في المغرب رغم أنه حاول أن يلطف الاستعمار الفرنسي للمغرب حين قال في هذا المعنى: «إن حماية دولة لدولة أخرى لا يعني أن يكون حكم الدولة الحامية مباشرا».

ـ هل هو معروف بين عامة الناس في المغرب؟

ـ طبعا. حتى الأميون يعرفونه ويروون بعض القصص التي يقال إنها حدثت له مع المواطنين المغاربة. في وجدة، مثلا، يحكى أنه كان هناك مواطن مغربي معروف بوطنيته وشخصيته المرموقة في الإدارة المغربية. وعندما دخلت الحماية الفرنسية إلى المغرب رفض أن يتعامل

معها فاستقال من وظيفته. نفوه لفترة من مدينته ثم سمحوا له أن يعود إليها. كان من عادته أن يجلس قدام منزله. وحين زار ليوطي وجدة علم أنه سيمر من نفس الطريق الذي يوجد فيه منزله. قرر أن يظل جالسا حتى مرور ليوطي أمامه. وعندما وصل الموكب قدام منزله وأجبروه على الوقوف نهض غاضبا ودخل منزله مصفقا الباب وراءه. يقال إن ليوطي رآه فأمر أن يمثل أمامه. ولدى مثوله قال له ليوطي:

ـ إني أقدر الرجال أمثالك.

بعد لحظة قال:

في عام 1928 ذهبت إلى سوريا للخدمة العسكرية. كان أول شيء لاحظته هو حديث الناس هناك عن عظمة الجنرال غورو (بذل مجهودا ليتذكر اسمه) ذي الذراع المبتورة. كان هذا الجنرال هو الذي قنبل دمشق. حين رأيت الخرائب في كل مكان امّحت صورة عظمته من ذهني.

ـ كم دامت خدمتك العسكرية؟

ـ أحد عشر شهرا، المدة كانت اثني عشر شهرا. لكني أخذت رخصا متقطعة كانت مدتها شهرا.

ـ أين تعلمت بعض مبادئ القراءة والكتابة بالعربية؟

ـ في سوريا. ذات يوم نودي في ثكنتنا عمن يرغب في تعلم اللغة العربية. كنت الوحيد الذي تقدم من ثكنتنا. كانت الدروس تعطى في الخامسة صباحا. كان علينا أن نخرج من الثكنة في السادسة صباحا للقيام بالتدريبات العسكرية. كنت أنهض من النوم في الرابعة صباحا. كانت مدة الدرس تستغرق ساعة. هكذا اكتسبت كثيرا من الأصدقاء السوريين.

ـ هل زرت سوريا حديثا؟

ـ عدة مرات. إن لي هناك أصدقاء. من بينهم الجنرال الغازي الذي يستضيفني كلما ذهبت إلى هناك.

سأله القطراني:

ـ ماذا تشتغل الآن؟

ـ من قبل كنت أسرق واليوم أكتب الكتب.

ـ تؤلف الكتب؟

ـ نعم.

ضحك القطراني ناظرا إليّ ثم سألني بالدارجة:

ـ هل ما يقوله صحيح؟

ـ نعم. له عدة كتب.

ـ لا يبدو عليه أنه يؤلف الكتب.

ثم قال لجنيه:

ـ لم أكن أعرف أنك كاتب. كان ينبغي لك أن تقول لي هذا من قبل.

التفت إليه جنيه باسما:

ـ ولماذا كان يجب علي أن أقول لك أنني كاتب.

ـ لأنه ينبغي أن أعرف أنك كاتب.

ـ لكن هذا لا يقال هكذا. لا بدّ من سبب لأقول لك أني كاتب.

ـ أنت تقول إنك كنت تسرق فكيف يعقل أن تصير كاتبا!

ـ لقد كتبت بعض الكتب في السجن فأطلقوا سراحي بسبب هذه الكتب.

لا يبدو على القطراني أنه يصدق ما يقوله له جنيه. ظل منبهرا. أيصدق أم هو مجرد مزاح؟

قال له القطراني:

ـ يبدو عليك أنك عانيت كثيرا. لكني أعتقد أنني عانيت أكثر منك.

ـ كم عمرك؟

ـ خمسة وعشرون عاما.

ـ كم قضيت في البحرية المغربية؟

ـ حوالي خمس سنوات.

ـ هل لك أب وأم؟

ـ نعم.

ـ أنا لا أب ولا أم لي. أنا طفل مهجور.

(تذكرت قصيدة بودلير عن الغريب وجنيه يسأله).

ـ هل دخلت السجن؟

ـ كلا.

ـ أنا قضيت فيه سبع سنوات.

ـ هل تسولت؟

ـ كلاّ.

ـ أنا فعلت ذلك لفترة من حياتي وكنت أنام في الشوارع أو تحت القناطر.

كتبت له يومية اللص بالفرنسية وقلت له:

ـ اقرأ كتابه هذا. سيعجبك كثيرا إذا بذلت مجهودا لفهمه.

تأمل القطراني الورقة وسأله:

ـ عمَّ يتحدث كتابك هذا؟

ـ أتحدث فيه عن حياتي البائسة: كيف كنت أسرق وكيف كنت أنام مع الرجال من أجل العيش وأشياء أخرى.

بعد لحظة سأله القطراني:

ـ هل ما زلت تكتب؟

ـ كلا.

ـ لماذا؟

ـ لم يعد لدي ما أقوله.

ـ حاول أن تكتب كتابا عن الفلسطينيين الذين عشت معهم.

ـ هذا المشروع سأحاول أن أحققه عندما أعود إلى فرنسا. عندي أوراق كثيرة كتبتها عندما كنت أعيش معهم.

أعدت على جنيه سؤالا كنت قد ألقيته عليه منذ سنوات:

ـ ألم تسمح بعد لدار غاليمار أن تصدر كتبك في طبعة الجيب؟

ـ كلا.

ـ لماذا؟

ـ لا أريد أن أرى كتبي تباع في الأكشاك مثل الصحف وأوراق اليانصيب.

لم أرد أن أناقشه في هذا الموضوع حتى لا أزعجه.

14 ـ 10 ـ 1974

(مقهى باريس من 7.30 إلى 9 مساء)

لحق بي محمد القطراني راكضا:

ـ بحثنا عنك البارحة.

جنيه يبدو مرحا. سألني بعد أن تصافحنا وجلست:

ـ ماذا تفعل؟

ـ كالعادة أقرأ وأحاول أن أكتب قصصا جديدة. وأنتما؟

ـ كنا في فاس. أقمنا في فندق المرينيين. موقع الفندق رائع، لكن كان على مهندسه أن يجعله أجمل مما هو.

سألته:

ـ هل تحدثتما مع أناس هناك؟

ـ ليس كثيرا. خدم الفندق كانوا لطفاء معنا. لم نكن نخرج إلا قليلا إلى المدينة القديمة. في الفندق تقدم إلى معرفتي شخص ذو أبهة. لست أدري من هو السخيف الذي دله على إسمي. لم يكن يفقه شيئا ومع ذلك فقد كان متبجحا بنفسه بشكل مزعج. كان بعض المغاربة في الفندق يبجلونه بتحياتهم والخدم يحيونه حتى تكاد أن تحاذي جباههم ركبهم. رأسه محشو بالخرافات والغيبيات.

ـ ومن هو؟

ـ قال لي أحد الخدم إنه شخص مهم، ولكنه لم يكشف عن هويته. لقد كدت أموت ذات ليلة في الفندق. إن الأومليت التي أكلتها سببت لي تسمما ومغصا فظيعا. أعتقد إنها صنعت من بيض فاسد أو أي شيء آخر. وفي «المنزل» (قرية القطراني) استعدت قواي. كان شيخ هذه القرية ودودا جدا معي. كل ما كنت أتمنى، لو أنني مت هناك، هو أن يدفنوني في القرية. لكني أعتقد أنهم ما كانوا سيفعلون لأنني نصراني كافر.

قال القطراني ضاحكا:

ـ ليس صحيحا. لقد أخبرت كل من سألني عنك هناك أنك تحب العرب، وأنك كنت مع الفلسطينيين في مخيماتهم، وتكتب عنهم كتابا ستنشره في فرنسا.

قال جنيه:

ـ هذا صحيح. ولي كثير من الأصدقاء الفدائيين.

بعد لحظة قلت لجنيه:

ـ لقد كان هنا مؤخرا صمويل بيكيت صحبة زوجته. في الفترة

الأخيرة صار يزور طنجة كثيرا. أهديت له الكتيب الذي كتبته عن يومياتي معك في طنجة. (المذكرات المنشورة بالإنجليزية من ترجمة بول بوولز إلى حدود 69).

ـ قل لي ما هي علاقة براين جيسن ببول ببوولز؟

ـ إنهما صديقان قديمان في طنجة.

فرك جنيه رأس القطراني.

ـ وأنت، ماذا تقول؟

ـ أنا لم أفهم شيئا مما تتحدثان عنه الآن.

ضحك جنيه قائلا:

ـ برافو! ينبغي لك ألاّ تفهم شيئا إذا لم يكن هناك ما ينبغي فهمه.

كان القطراني مزكوما. قال له جنيه عندما رآه يسعل:

ـ إنك مزكوم ومع ذلك فأنت لا تكف عن تدخين الكيف وشرب البيرة الباردة. (أضاف): وأنا أيضا أخذت نصيبي من زكامك وإن كان خفيفا.

ثم التفت إليّ وقال:

ـ أتدري، إن القطراني صار دائي ودوائي.

ابتسم القطراني وقال لي بالدارجة:

ـ إنه غريب الأطوار، لكنه جد طيب. ما رأيت رجلا مثله.

سأل جنيه بمرح:

ـ ماذا يقول لك عني؟ إنني لم أفهم جيدا ما قاله.

قلت له مازحا:

ـ يقول إنك أيضا داؤه ودواؤه.

قال جنيه:

ـ أتمنى ذلك. حينئذ سنتبادل الداء والدواء بالتساوي. أتمنى أن

يداوي أحدنا الآخر عندما يعديني أو أعديه بالزكام.

بعد لحظة صمت سألني جنيه:

- قل لي، ما زالت هنا الرشوة للحصول على جواز سفر في أقرب وقت ممكن لمحمد؟

- لم يعد الأمر سهلا كما من قبل.

- أريد له جواز سفر بأي ثمن. أنا ذاهب إلى باريس للحصول على بعض المال وتسوية بعض الأمور هناك ثم أعود. لن أتأخر أكثر من خمسة أو ستة أيام. لا بد لي من تتبع مؤتمر الرباط عن قرب.

سألته:

- هل ما زلت عازما على حضور مؤتمر المسرح العربي الذي سيعقد في العراق كما قلت لي؟

- طبعا. هذا إذا لم يعقني المرض أو أيّ أمر آخر يمنعني من الحضور.

لقد وجهوا لي دعوة رسمية.

* * *

كتبت مذكراتي مع جان جنيه بتاريخ متسلسل كما التقيت به ثم لم أعد أكتبها لأني شعرت أنه لم يكن راضيا عن الاستمرار في كتابتها.

لقد عاد، مرات عديدة، وحده أو صحبة القطراني (توفي في حادث سيارة بعد وفاة جنيه) إلى طنجة بشكل عابر، لأنه صار يقيم في العرائش بعد ما اشترى للقطراني منزلا هناك، ثم شجعه على الزواج حتى يتخلّص من عشرة القحاب كما قال لي جنيه.

في الثالث عشر من فبراير عام 80 سافرت إلى باريس لأقدم «الخبز الحافي» في برنامج لابوستروف. كان جنيه قد اكترى شقة ذات غرفة واحدة في بيجال، هو الذي تعوّد الإقامة في الفنادق الكبيرة أو

الصغيرة. استقبلنا، الطاهر بنجلون وأنا، عند الباب حافيا. تعانقنا قائلا لي:

ـ إنك كتبت كتابا جيدا.

كل أثاث الغرفة سرير لشخص واحد، كتب في ركن على الأرض، تليفون فوق طاولة صغيرة ومنفضة جنب السرير، وسجادة صغيرة لمن يريد الجلوس. لم يكن هناك مقعد. رائحة البول تنبعث من الحمام، نافذة الغرفة مقفلة لأن جنيه مزكوم. استلقى على فراشه الصغير والطاهر وأنا جلسنا عن السجادة.

عندما خرجنا قال لي الطاهر: «إن جنيه لا يكاد يخرج إلا لشراء الصحف والمجلات والبسكويت والموز لأنه يعاني من آلام أسنانه، وإذا ذهب إلى مطعم يكون طعامه خفيفاً». كانت تلك هي المرة الوحيدة التي رأيته فيها في باريس. وكان الطاهر يزوره باستمرار.

أنجب القطراني ابنه عز الدين وتبناه جنيه ثم أدخله إلى مدرسة داخلية في الرباط. وظل جنيه يشرف على تربيته حتى وفاته في 15 ـ 4 ـ 1986. قيل لي أن أنيس بلافريج هو المشرف الآن على تربيته في قسمه الداخلي، حسب وعد أعطاه لجنيه.

في الرباط كان جنيه قد تصادق مع محمد برادة وزوجته ليلى شهيد. كانا يستضيفانه في منزلهما للغداء لأن جنيه، خاصة في سنواته الأخيرة، كان ينام باكراً. ذات مرة أقام عندهما، هو الذي يرفض إطلاقا أن يقيم عند أحد، عشرة أيام.

كان السرطان ينهش حنجرته ويخنقه، ومع ذلك فلم يتخل عن تدخين سجائر جيتان. كان صوته ضعيفا ومبحوحا عندما قابلته في قاعة الفندق الملكي بالرباط صحبة القطراني وابنه عز الدين.

زرت قبره ثلاث مرات، في إحداها صحبة بعض الصحافيين الفرنسيين ليأخذوا صورا. لم ألتق القطراني سوى في المرة الأخيرة.

أخبرني أنه أعار بعض رسائل جنيه إلى أستاذ في كلية الآداب بمراكش لأنه كان يحضّر دراسة عنه.

ـ وهل أعادها لك؟

ـ ليس بعد.

شعر القطراني بندم كبير عندما لمته على ما فعل. اقترحت عليه أن يبيع رسائل جنيه، على الأقل، إلى إحدى الجامعات في الغرب لتبقى محفوظة إذا لم يكن يعرف كيف يحتفظ بها هو. قال بانفعال:

ـ أبدا لن أفعل شيئا من هذا ما بقيت حيا. إن أشياء جنيه أعز عندي من كل أموال الدنيا كلها.

ـ لكن يجب عليك أن تكف عن إعارتها إلى أيّ كان. هناك كثير من الكذابين ولصوص النصوص النصابين. إن جنيه كان سيغضب إلى حد الخصام معك لو أنه حيّ.

ـ هذه الغلطة لن تتكرر أبدا في حياتي. إني أعتذر لجان المسكين. بالمسكنة، لأنه عاش دائما معتزا بنفسه، ومات دون أن يستجدي حتى القَدَر نفسه لمواجهة موته، لكنني أدرك أن جان المسكين تعني عند القطراني جان الطيب. إن كل من يعرف القطراني وعلاقته مع جنيه يدرك أنه كان يحبه إلى حد العبادة، ولذلك فهو يرتكب بعض الهفوات عندما يقابل من يبدي إعجابه بجنيه فيسترسل في حكي كل ذكرياته معه أو يعيره شيئا ما يخصهما.

«لقد زارني في العرائش، ثم زرنا ولدي عز الدين في الرباط، وبعد ذلك عاد إلى باريس ليموت في فندق صغير مختنقا. مات المسكين وحيدا هناك».

لقد شاع في الصحافة، بعد وفاة جنيه، أنه طلب، رغبة منه، أن يدفن في العرائش. وحسبما قال لي القطراني نفسه إن هذا ليس

صحيحا. إن جنيه قال للقطراني ولجاكي (صديقه الآخر الذي تبناه): «يمكن أن أدفن في أيّ مكان آخر إلا العرائش». لكن قُدِّر لجنيه أن يدفن في مقبرة إسبانية قديمة أكثر المدفونين فيها عساكر في الجيش الإسباني، وهي قريبة من بناء كان ثكنة عسكرية إسبانية. وعندما سألت القطراني عن سبب دفنه في العرائش قال:

ـ إن جاكي[1] هو الذي اتخذ هذا القرار في آخر لحظة. ربما فعل ذلك حتى يكون قبر جنيه قريبا منا أنا وابني عز الدين. ثم إن جاكي نفسه يزورنا باستمرار. لقد حمل لي مُؤَخّراً المال من عائدات حقوق نشر كتب جان الذي جعله وصياً عنها. إننا نقتسم العائدات.

في المرة التي زرت فيها قبر جنيه صحبة القطراني قال لي:

ـ إنني أزور قبره ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع. أجلس هنا، وحدي أو مع عز الدين، عندما يكون في عطلة مدرسية، وأتأمل البحر مستعيدا ذكرياتي مع جان، في المغرب أو خارجه. عندما يكون معي جان أنسى كل شيء ما عداه. إنه يملأ حياتي بأجمل ما أحب أن أعيشه. أما اليوم فقد تركني وحدي. لا أعتقد أني سأعثر على صديق مثله. إن الحقيقة التي كنت أعيشها معه قد انتهت إلى الأبد. إن جاكي أيضا يحس بنفس الفراغ. إنه لم يعد يرسم شيئا. لقد فقد حياته التي كان يستمد قوتها من جان. أنا وجاكي نعرف القليل عن الحياة، أما جان فقد كان يعرف جيدا الكثير، وقد علّمنا بعض الأشياء من هذا الكثير.

في مساء السادس من أبريل 1987 كان لي موعد مع جورج بوسكي مدير المركز الثقافي الفرنسي في طنجة ومساعده دانييل لوران للعشاء في مطعم الدورادو. كنت أنتظرهما في حانة خوانا دي أركو قرب المطعم.

---

(1) صديق حميم لجنيه.

فجأة، ونحن خارجون، انبثق أمامنا القطراني قائلا:

ـ كنت أعرف أني سأجدك إما في الدورادو أو في خوانا دي أركو كعادتك كل مساء. أعرف أنك لا تدخل إلى منزلك إلا في آخر الليل.

قدمته إلى جورج ودانييل. رحَّبَا به بحرارة عندما علما أنه صديق جنيه.

أثناء العشاء، راح القطراني يجيب عن بعض الأسئلة التي ألقاها عليه جورج ودانييل حول صداقته مع جنيه. وتحت حماس الإعجاب الذي لمسه منا نحو جنيه استرسل في سرد ذكرياته معه. كان يتحدث عنه بصيغة الحاضر.

كنت مدعواً في اليوم التالي، على الساعة الخامسة مساء، صحبة جورج، إلى اللقاء الثقافي الذي نظمه المركز الثقافي لفاس ومكناس. كان موضوعي هو الحديث عن ذكرياتي مع جنيه في طنجة، وكان جورج بوسكي سيتحدث عن جنيه وعني كتقديم لحديثي عن جنيه.

لدى خروجنا من الدورادو استضاف جورج القطراني ليبيت عنده. وكان القطراني قد وافق على أن يصحبنا إلى مكناس، لكن في الصباح، ونحن في محطة القطار، غير رأيه، لقد قرر، في آخر لحظة، أن ينزل في أصيلة ثم يتابع سفره إلى العرائش في إحدى سيارات السفر الجماعي وبينما كنا نقترب من أصيلة ألححنا عليه أن يصحبنا لكي يستمع إلى ما سيقال عن جنيه. كان جوابه مضطربا وهو يقول:

ـ إني راغب في صحبتكما لولا أن الوقت غير مناسب في هذه الظروف. شيء ما يحفزني للدخول إلى العرائش. زوراني متى تشاءان في العرائش. أنا غالبا لا أسافر كثيرا خاصة بعد وفاة جان.

توقف القطار فودَّعَنا باضطراب وحزن. شيَّعَنا بيده والقطار يقلع. رأيناه خافضا رأسه وهو ماش ببطء غير ملتفت إلى شيء. إنه في منتهى حزنه.

أثناء سفرنا حدثني جورج عن ليلة القطراني في منزله. «بعد أن دخلنا طلب مباشرة أن يشرب شيئا فأعطيته زجاجة نبيذ. راح يشرب من فمها مثل بحار قديم وهو مستلق على الكنبة. ظل الليلة كلها يهذي باسم جنيه. أعتقد أن موت جنيه خرَّبَ عقله إلى الأبد. من الصعب أن يبدأ حياته. إنه يحس نفسه ميتا وهو حي». «إنها مأساة ولكن من يستطيع إنقاذه من هوسه عن جنيه».

بول بوولز وعزلة طنجة

محمد شكري

بول بوولز وعزلة طنجة

سيرة روائية

«إذا أنت كنت عدوي فسأقتلك من أجل المال، إذا أنت كنت صديقي فسأقتلك مجاناً».

مَثَلٌ من السوق الداخلي أورده إيرا كوهن Ira Cohen في مقالة كتبها عن بول بوولز بعنوان Mimbad Sinbad.

طنجة الأسطورة لماذا؟

إن الحنين المبالغ فيه إلى طنجة، والتحسر على ماضيها الدولي لَيَبْدُوانِ لي عبثاً؛ لأنّ كل فترة، من تاريخ مدينة، أو بلد، لها قيمتها وجمالها كما في حياة الإنسان: إذ كل مرحلة من حياته لها سحرها، لكن الأكثر عبثاً هو عندما يتحسر على طنجة ـ الأسطورة، طنجة التي لم نعد نجد فيها ما كنا نجده فيها ويلائمنا، طنجة التي أصبح يحنّ اليها، من بعيد أو قريب، هؤلاء الذين لم يعيشوا أبدا فيها. «كل مباهج طنجة اختفت!» هكذا يقول عنها أكثرهم تشاؤماً وحسرة.

طنجة ـ الأسطورة نعم، هذا لا يُنكَر، لكن لمن؟ طنجة ـ الفردوس المفقود نعم، لأنّ هناك الشاهدين على نعيمها، لكن لمن؟ طنجة ـ السحر الذي لا يُقهَر، هذا أيضا نعم، لكن لمن؟

ما أكثر الذين تكلموا أو كتبوا عن طنجة فقط من خلال أهوائهم، وملذاتهم، أو نزواتهم أو استجمامهم أو حاولوا نسيان شقائهم فيها! إذن فطنجة هي، لبعضهم، ماخور أو شاطئ جميل أو مستوصف مريح.

إذا نحن تكلمنا عن طنجة، من خلال بول بوولز وزوجته جين

آور، فيحق لهما أن يتحسرا ويحنّا اليها، ويتذكرا بكارتها المُغتَصَبة؛ لأنّ لهما حنينهما في ماضيها. غير أن الأسخف في الحسرة السائبة، والحنين اللقيط، قديماً وحديثاً، هو ما يُكتب عنها، قليل أو كثير، من مقالات، واستطلاعات هشة. . .

ان أكثرية ما يُكتب عن طنجة اليوم، هي كُتُبُ ـ بطاقات بريدية (كارت بوسطالات). قد يمكث في طنجة كاتب ما أسابيع ويكتب عنها كتيباً متبجحاً بما يعرفه عن خفاياها، وجغرافيتها السرية، وأمجادها الغابرة والمشاهير الذين عاشوا فيها أو مرّوا بها. إنهم لكثيرون الذين يكتبون عن المغرب بطاقات بريدية فَيُهَرِّجون الكتابة ويسطحونها، بحثاً عن شهرة مجانية، فُقّاعية، وزبائنهم القراء هم أيضاً هؤلاء المرضى بالافتتان، والغرائبي وما ورثوه من ألف ليلة وليلة أو ما تَبَقّى في ذاكرتهم منها: «لأنّ في طنجة القرن العشرين هناك دائماً سحر ألف ليلة وليلة متأهّب لينبثق». أسفاً لهم. إنّ مَثلهم مَثَلُ سائح ركب جملاً فقد أصالته جيء به إلى أحد شواطئ طنجة (أو وُلِد فوق رمال الشاطئ الطنجي نفسه) وأُخذت له صورة أو صور فأرسلها إلى قريب أو صديق قائلاً له: إني أستمتع بصحراء المغرب. . . ! إنهم كتّاب محطات السفر هؤلاء: فهم قد يخرجون من غرفة في بلدهم ويدخلون إلى غرفة أحد فنادقنا في المغرب ويزعمون أنهم زاروا بلادنا. قد يتناولون نفس أطعمة بلدهم في بلدنا. وفي أفضل الأحوال، إذا هم تجرأوا، فإنهم يطعمون الكسكس، وشيش كباب. . . غير أن الأفظع من هذه السطحية هي الكتابة عن طنجة بحقد وعنصرية، والاستخفاف ببسطاء أهلها كما فعل الصحافي ألبيرتو إسبانيا Alberto España الفاشيستي في كتابه «La pequeña historia de tanger» تاريخ طنجة الوجيز[1]. ويبقى كتاب: «مذكرات شيخ

(1) حرفياً: تاريخ طنجة الصغير.

طنجي، Memorias de un viego tangerino لإسحاق لاريدو، عميد الصحافيين، في زمنه، أهمّ وثيقة تاريخية واجتماعية عن طنجة دون تحيّز. أما ألبيرتو إسبانيا، رغم دلائله التاريخية، فإنه لم يهتم، في كتابه، إلا بالسلطة الحاكمة، الأجنبية والوطنية، وببعض أعيان طنجة المغاربة المستسلمين إلى طغيان الاستعمار وهيمنته».

يقول بول بوولز: «فيما يتعلق بالسياحة فإنني أعتقد بأنها تساهم في تدمير العالم: فالسياح لا يتركون شيئاً وراءهم؛ فهم يدمرون جميع الدول التي يعبرونها. ونحن نعلم ذلك جيدا: فالسياح لم يعودوا يجدون معاناة في الذهاب إلى حيثما شاؤوا بفعل ذلك الاختراع الذي يُسمى الطائرة. إنه أمر مُرعب. بالنسبة لي[1]، هذا النوع من النقل يصلح فقط لقطعان الماشية، من غنم، وثيران لنقلها إلى المسلخ، إن الطائرة قد تصلح للتحرك بشكل سريع، لكن ليس للسفر؛ إذ السفر يعني أن تكون مستعدا للرحيل لعدة أشهر وليس لساعات معدودة. والسياح حيثما يكونون يسخرون من هذه الفكرة. إنهم يريدون الوصول بسرعة والاستقرار في أحد الفنادق. وهذ كل شيء. فهم لا يأبون لاكتشاف بلدٍ ما. وفي العصر الذي نعيشه الآن لا يفكر الناس سوى في عامل الزمن. إنهم يذهبون لتمضية عطلة قد تستغرق ما بين ستة أسابيع أو ثلاثة، حسب الأحوال. فلماذا هذا؟ ألم يكن من الأفضل لهم أن يبقوا في بيوتهم؟» هذه الفكرة عبّر عنها بوولز أيضا بشكل أكثر عمقاً في «السماء الواقية[2] The sheltering sky» على لسان بورت Port في نهاية الأربعينات: «فالفرق بين السائح والمسافر هو أن الأول يقبل

---

(1) معروف عن بوولز أنه كان قد تخلى عن ركوب الطائرة منذ زمن بعيد لشدة خوفه منها، أما اليوم فلم يعد يخشى السفر فيها بعد أن أرغمه مرضه، أو تلبية لدعوات تلفزيونية إلى فرنسا والولايات المتحدة واسبانيا.

(2) روايته الأولى، صدرت في لندن: John Lebmann 1949.

حضارته دون أن يسائلها؛ ليس هكذا المسافر الذي يقارنها مع الحضارت الأخرى ويرفض المظاهر التي لا تعجبه». إن بوولز هنا يرثي للانسان الذي لم يعد يخلق زمنه تاركاً الزمن يخلقه دون مقاومة حيث يقول: «. . . فبينما السائح يستعجل عموماً عودته في منزله بعد أسابيع أو شهور، فإن المسافر، الذي لم يعد ينتمي أكثر إلى مكان ما إلا للآتي، ينتقل ببطء مدة سنوات من قطر إلى آخر من الأرض». ولكن بوولز يعرف جيدا أن المسافر الحقيقي قد انتهت رحلته الاستكشافية، والثقافية، والحضارية إلى حدود العشرينات والثلاثينات لتبدأ زيارة السائح الترفيهية. لم يعد المرء يخرج من بلده ليغامر في بلد آخر، إلا من تُضطَرُّهم مهامهم العلمية، والأدبية، والصحافية والفنية».

هذه «الطنجة» التي أعيت المؤرخين والباحثين عبثاً عن أصل من بناها هي ـ حسب الأسطورة الطنجاوية ـ وليدة الطوفان: فقد عادت الحمامة وصاح نوح: «طين جا» فإذا فُلكُه ترسو قرب «هضبة الشَّرْف». يتقاطع في طنجة الأسطورة والتاريخ. غير أنها لا تبوح بسرها الخالد؛ فهي تعيش في ديمومة ذاكرة صمتها ـ اللغز، السحر والحكمة. غير أنّ ميلان كونديرا Mialn Kundera يبرر هذا الطرح اللغزي في قوله: «إنّ صراع الانسان في الحياة هو صراع الذاكرة ضد النسيان».

إن هؤلاء الذين يأتون اليوم إلى طنجة، بحثاً عن نفس الحياة التي عاشها الذين من قبلهم ـ أو مرّوا فقط بها ـ لا يهمهم أن يخيب أملهم فيها. يكفيهم أن يجدوا صدى حكايات ترضيهم عمّا مضى. ما يهمهم هو أن يعيشوا ولو على ذكرى ما تَبقّى من آثار السابقين لهم فيها.

مجيء بول بوولز إلى طنجة

يقول عنه تينسي وليامز: «إنّ بول بوولز هو أهم كثيراً من الأماكن التي يكون فيها». ويقول بوولز، في رسالة إلى أليك فرانس Alec

France : «لم أحسّ أبداً أنني أعرف المكان كفاية جيدة بحيث أكتب عنه».

بدءاً من بداية الخمسينات، راح رواد جيل البيتنكس[1] The Beatniks يغزون طنجة: وليام بُرّوز، Willam Burroughs آلن جينسبرغ، Allen Ginsberg (عاد إليها آخر مرة في ديسمبر 93 لزيارة بوولز) جاك كرواك Jack Kerouac (زارها عام 57) وآخرون. لقد انبثقت كتابتهم لتمثل تمرداً جديداً لجيل الغضب الأميركي وضياعه بعد الحرب العالمية الأولى. أما بول بوولز، إذا استثنينا انخراطه النَزْوي في الحزب الشيوعي الذي ندم عليه وطرد منه، بعد أخذ وردّ، (من 39 إلى 40) فقد افتتن بالرحلات في باكر شبابه التي حفزته إليها، قهراً، تربية والديه القاسية. «لكن يظهر أنه في العام 39 كان ينبغي لبول أن يتخذ قرارا: الدهاء والانتهازية، إذا كنت تريد العمل في المسرح، في تلك الفترة، وبول كان يرغب فيه. لقد كان من المجدي أن تكون عضوا في الحزب الشيوعي المسيطر على النقابة. وسيطردك إذا أنت لم تكن منخرطا فيه. وليس فقط ذلك، وإنما أيضا يجب عليك أن تكون ستالينياً؛ لأنّ فرع حزب نيويورك كان ستالينياً وله تعاطف مع اليسار». هكذا لاحظ فرجيل طومسون بصدد بوولز.

وسيستمدّ بوولز، من هذه الرحلات، معظم كتبه الافتتانية، والغرائبية؛ Exotiques لأنه لا تكاد تخلو قصة له أو رواية من رحلة بعيدة أو قريبة: فهو كاتب مشّائي (نسبة إلى الأرسطوطاليسية) Péripatéticien كما يقول عنه دانييل روندو Daniel Rondeau.

جاء بول بوولز إلى طنجة صحبة آرون كوبلاند Copland Aaron (تلميذ ناديا بولانجي) مَثابةَ تلميذ يتبع أستاذه ويَروي عنه. وَصَلاها،

---

(1) Beatnik ابتكرها الصحافي هرب قاين Herb Caen في سان فرانسيسكو.

بعد توقف في وهران دام يومين، في الثامن من غشت العام 31 مرورا بسبتة وتطوان. إن أليس توكلاس Alice Toklas هي التي نصحت بول بوولز بهذه المرحلة وأيدتها جرترود شتاين المُهيْمنة[1]. كان من عادتها استقدام أحبّائها الأميركيين إلى باريس، خاصة المبدعين منهم. إنها تشجعهم على المغامرة والأسفار البعيدة. وسيرث منها بوولز هذا الارث، في كتاباته، عندما يستقرّ في طنجة نهائياً صحبة زوجته جين آور Jane Auer العام 47. غير أنّ أسفار بول هي من أجل اكتشاف مغامرات الأفكار وليس من أجل المشاركة في ثورة مثل بايرون في الإغريق، ومالرو أو أورويل في إسبانيا.

جاء بول بوولز ليقضي في طنجة صيفاً، مثل العابرين بها، فإذا به يخلد فيها. ومن الملاحظ أن معظم الذين يفدون إليها، من المبدعين الأجانب، يجيئونها في الصيف ثم يغادرونها بعد فترة تطول أو تقصر: لقاء، حب، أو زواج في ميناء. لا أحد شاهد. لكن بول ماذا أبقاه فيها بقية عمره؟ مناخها؟ بساطة العيش فيها؟ «المعجون» الساخن مصحوباً بكؤوس من الشاي المنعنع، والكيف المشاع بيعه حتى في دكاكين التبغ Débits في ذلك الوقت أم أبقته فيها دوليتها، وحرية العيش فيها، وكل سحر أسطورتها وعجائبيتها؟ كل ما نعلمه هو أن بقاءه فيها لم يفسره أو يبح به بمعنى محدد وصريح. إنه لا يجيب إلاّ بمراوغة ومواربة كعادته؛ فهو حريص على أن يكون متطابقاً مع ظله. واذا شاء يقول بسخريته المعهودة: «لقد جئت وبقيت». وأسأله:

---

(1) يذكر عنها همنغواي أنها كانت مستحوذة، ومستبدة في آرائها، لكنها، أحياناً، لا تخطئ في نصائحها. وذكر لي بوولز أن غرترود شتاين لم تكن ترغب في أن يزورها، مثلاً، عزرا باوند، لأنه كلما يجيء عندها يكسر لها كل ما كان قابلاً للكسر، إذا هو لمسه. وبسبب تقلباتها كانت تخسر أصدقاءها الواحد تلو الآخر كما يؤكد همنغواي.

ـ ولماذا بقيت العمر كله؟

ـ أوه! لأنه هكذا. ولست أنت الأول الذي يسألني مثل هذا السؤال، لكن ليس لدي ما أخسره اليوم إذا أنا أجبتك. كانت الحياة جميلة جدا في ذلك الزمان. (يقصد من الثلاثينات إلى حدود الاستقلال56) كان في إمكانك، مثلا، أن تسمع أصوات الزيزات فوق أشجار الأوكالبتوس وأنت جالس في رحبة مقهى باريس، أما اليوم فلن تسمع إلاّ ضجيج المحركات المصمة. . . !.

هكذا يجيب بصيغ مختلفة كل من يسأله عن هذا الخلود الطنجي الذي لم يندم عليه، رغم حسرته على ماضي طنجة. لكن إذا كان بوولز يريد أن يبقى المغرب كما عرفه في الثلاثينات والأربعينات فهي فكرة استعمارية محضة. يقول في رسالة إلى صديقه أليك فرانس Alec France (طنجة 2. 3. 75): «من بين أسباب بقائي هنا هو أنه عند وصولي وجدت شعباً منسجماً بروعة مع تخيلاتي Fantasias». وفي روايته «دعه يسقط Let it come down» يقول: «من مفاتن المنطقة الدولية (طنجة) كان يمكن الحصول على أيّ شيء ما دام يُسْتطاع أداء ثمنه وأن يُفْعَل أيّ شيء: فكل شيء كان قابلاً للرشوة. كانت قضية الثمن». وحين ينتهي كل شيء، بالنسبة له، يكتب (في 2. 8. 89) إلى ريجينا فاينرايش Regina Weinreich: «إنه من الصعب العيش في بلدٍ مسلم دون أن يكون المرء مسلماً». وفي «السماء الواقية» يقول حَمُو التهامي: «لا يمكن أن تحدث إلاّ أشياء سيئة حينما يجتمع النصارى والمسلمون». إنه لصَعْبٌ إقناع بوولز بأن «كل ما هو ماض هو مجرد رمز» كما يقول غوته Göethe. ولذلك فهو يحاول أن يقهر هذا الفناء الجميل، ولو باستجوابات، لإحياء ذكراه عندما أقعده المرض ولم يعد يكتب. لكن بول بوولز يحب المغرب ولا يحب المغاربة. هذا لا رَيْبَ فيه. وحتى محاولة دفاعه عنهم، في روايته «بيت العنكبوت The

spider's house»، خيَّب أمله فيهم؛ لأنه كان يعتقد أنهم سيعودون بعد استقلالهم، إلى حياتهم التقليدية. لكنه فوجئ بتَأورِبهم (يتشبهون بالأوروبيين) أكثر من الاستلاب الذي سممهم في عهد الاستعمار. إن المغرب الذي أحبه بوولز لن يرجع. ولذلك فقد انتهى، بالنسبة إليه، مع بداية الاستقلال. والصورة التي ظلت راسخة في ذهنه ليست فقط عن «الطنجاويين» بل عن كل المغاربة. مثلا، إنه يقرأ هذه الفقرة من أحد كتبه في الفيلم الذي أنجزه عنه سيباستيان هرت Sebastian Hirt: «دخلت باخرة للقراصنة إلى خليج المدينة مع بداية النهار. وأرسلنا أربعة رجال لسحبها إلى الميناء. ثم توجهنا إلى نقطة عند سفح الأخاديد وبقينا ننتظر. وعندما اصطدمت مقدمة السفينة بالرصيف توجهنا نحوها سباحة فالتقينا بعدد من ركابها الذين ألقوا بأنفسهم إلى البحر. إن ربان السفينة كان إلى جانب أفراد طاقمها فوق ظهرها. وهذه المرة تلقينا الأمر بقتل أقلّ عدد ممكن. لقد تمكنا من أسرهم جميعا أحياء إلا امرأة انجليزية كانت تغرق. لقد كانت السلاسل جاهزة. وجعلنا الأسرى يسيرون أمامنا عبر شوارع طنجة». ثم يضيف: «لقد كانت لهم أوامر للاستيلاء على جميع السفن الأوروبية التي تجوب عرض سواحل المغرب من أجل أسر بحاراتها وجعلهم عبيداً. إن هذه الحكاية يتمّ تداولها انطلاقاً من وجهة نظر مواطنين بسطاء استطاعوا أسر بحارة سفينة صغيرة. لست أدري بالضبط إلى أيّ حقبة يعود ذلك. أظن أن الامر يرجع إلى القرن السادس عشر. لقد أسروا آلاف الرجال ونقلوهم إلى مكناس كيما يشتغلوا في السراديب داخل باطن الأرض لحفر الزنازن الضيقة والمغاور للقصر. إنهم كانوا جسورين ومتهورين أيضا في تلك الفترة. وهم مستعدون لتكرار ما حدث إذا ما كان ممكناً ذلك. لكن الامر أصبح مستحيلاً في أيامنا هذه. إنهم يتحدثون بشكل جدي عن استرجاع الأندلس من اسبانيا.

قد يفعلون ذلك؛ فهم يكرهون اسبانيا وجميع الدول الاجنبية. إنهم شديدو البغض للأجنبي، وفي اعتقادي أنه من الممكن أن يحاولوا دون نجاح اجتياح جنوب اسبانيا. وقد فعلوا ذلك على عهد فرانكو الذي تمكن من أسر حوالي 55,000 مغربي استغلهم بعد ذلك كرأس حربة لجيشه. ولقد تمكنوا من تحقيق الكثير من الانتصارات، لكن يا للقدرّ لقد راحوا يهاجمون فلاحين في قرى صغيرة. إنهم كانوا واثقين من النصر؛ إذ شجعهم فرانكو على إباحة كل ما يريدون: بدءاً من إحراق القرى، ونهبها واغتصاب النساء. لقد كانت لهم مطلق الحرية في فعل ما يشاؤون. وفعلا نفّذوا ذلك بمنتهى السرور حيث قتلوا رجال الدين، والراهبات، وأحرقوا الكنائس، والقرى، وخربوا كل ما اعترضهم في طريقهم، لأنهم كانوا يحبون ذلك».

في قصة «بعد منتصف النهار» تقول السيدة كالندر Callender للسيد فان سيكلن Van Siclen بصوت متعب عن ابنتها: «لو أنك تعرف أخطار تربية فتاة في هذا المكان مع هؤلاء المغاربة حولنا، وناس جدد غير معروفين يصلون إلى البنسيون كل يوم. إننا، طبعا، نحاول الحصول على مغاربة طيبين، لكن أنت تعرف كيف هم: إنهم ليسوا أهلا للثقة على الاطلاق، كلهم مجانين مثل الماعز. لا أحد يعرف ماذا يدور في عقل أي واحد منهم في أية لحظة. نشكر اللّه على أننا نستطيع أن نسمح لأنفسنا بارسال شارلوت إلى الكوليج في انجلترا».

ان المغاربة، في نظرها، همج، لكن شمسهم وطبيعتهم الخلابة تجد فيها منتهى سعادتها. لكن السيدة لايل Layle، في «السماء الواقية» The Sheltering Sky هي أفظع وأكثر غباء من السيدة كالندر عندما تخاطب بورت: «يقولون إن هنا في الجبال من المستحسن حمل سلاح. وإنّ ينبغي لي القول إنني ما رأيت أبداً عربياً يعرف استعماله. إن الذين يجب الاحتراس منهم هم الفرنسيون الوحشيون» وبينما كان

خدم الفندق يحيون بورت والسيدة لايل Lyle وابنها Eric والسيارة تقلع بهم: «Bon voyage».

قالت السيدة لايل وهي تتلاءم في جلستها: «لقد لاحظت أن عدداً من الأشخاص يركّزون نظرهم فيَّ وأنا خارجة. (ثم تقول:) إنهم جنس منحطّ ومضجر، لا يفعلون شيئا آخر في الحياة سوى التجسس على الناس. كيف تعتقد أنهم يعيشون!» ولا يقل عنها خبثاً حينما يقول تانر Tunner لبورت Port عن هؤلاء الخدم: طيب، سننادي على أحد هؤلاء القرود Macacos لكي يبدل الغرفة (تبديل غرفته مع كيت حتى تكون غرفتها مجاورة لبورت).

إن السيدة لايل تسبّ الجميع بادئة بابنها إيريك Eric البهلول الذي يقول عنها لبورت: «إنها لن تعرف ما تفعله إذا أخذناها إلى بلد متحضر». ثم تقول هي لبهلولها: «لقد اكتشفتُ المسجد الأكثر وقاية، لكنه مليء «بالمخاطبين» الزاعقين مثل شياطين. إنهم حيوانات قذرة». إنّ بوولز بارع في وصف النفاية البشرية مادياً ومعنوياً دون أن يورط مشاعره حيالها.

بول بوولز أيضا يحب المكان أكثر من الانسان؛ فهو لا يحب نفسه إلاّ في مكان بالذات. إنه يكتب من طنجة إلى وليام تارج William Targ «إن الأماكن كانت دائما أكثر أهمية لي من الناس. يعني أن الناس يعطون سُلّم المنظر، المنظر ليس ستار خلفية لهم. أحلامي ليس من عادتها أن تكون حول الناس، تكاد دائماً أن تكون حول الأماكن، اتجاهات؛ أوضاع نسبية للأشياء المحيطة بي. المخلوقات البشرية التي تظهر فيها يخلو منها الوجه، إنها مجهولة. أقبل هذا مثل شرط أساسي للوجود» لكن بوولز يعتبر نفسه دائما منفياً أينما حلّ. ويكاد ينفي حتى مولده في نيويورك؛ فهو له كل أرض ولا أرض له. أما جين فتهتم بالحوار أينما كان. لا يهمها المكان إلا قليلاً كما تعترف في إحدى

رسائلها. «الحياة هي إحراق أسئلة La vie est des bruler des questions كما يقول أنطونان أرطو».

«إنهم عصابة من الكسالى المعوزين، المحبين للراحة، يقضون كل الوقت مدخنين الكيف في سباسيهم، (المفرد: سبسي) ومتطفلين على الأكل إنهم مخنثون باطلون» هذا ما يقوله عن المغاربة سير نيجيل Sir Nigel البريطاني القميء، الضئيل والكريه، ذو العينين الشمبانزيتين المتقاربتين، والوجه المعشش بالتجاعيد. إنه يمارس ساديته بجنون على خمس مراهقات مغربيات يأتين اليه من قرى مجاورة لطنجة، تترأسهن وتروضهن فتاة سادسة سوداء تكبرهن. يسوطهن سير نيجيل بسوطه بينما هن يتخامشن بالاظافر ويتجاذبن الشعر والثياب إلى حدّ الإيلام. وعندما يبلغ المشهد الأنين توقفهن مروضتهن باشارة من يدها فتنسحب كل واحدة إلى حجرتها. هذا المشهد الذي يصفه بول بوولز بمهارته المعروفة في قصة «عشاء في منزل سير نيجيل» كان يشاهده جماعة من صحافيين انجليز وكنديين. ويؤكد أحدهم الذي يعرف سير نيجيل أن الصبايا يأتين اليه عن طواعية ويقدمن هذا العرض سعيا للأكل الجيد مدة شهر محبوسات وتكافأ كل واحدة بقفطان باهظ الثمن قبل أن تغادر. وفي رأي سير نيجيل أيضا أن طباخه وسيد مفاتيحه والمشرف على بستانه ـ الذي جلبه معه من الزنزيبر ـ يقوم بالعمل الذي يحتاج إلى ستة من المغاربة للقيام به. إن خيال ألف ليلة وليلة هو الذي طعّم هذه الطُباخَة على طريقة ساد Sade. على أن بوولز ينفي أن يكون هناك تأثير ما من ساد على كتاباته؛ لأنه لم يقرأ كتبه وإن حاول عام 50 أن يقرأ «مائة وعشرين يوما من سدوم» حيث وجد الكتاب غير لائق للقراءة كما كتب لجون مارتين في بلاك سبارو بريس (12 ـ 6 ـ 78) بصدد مقدمة كتبها غور فيدال لمجموعة بوولز القصصية يلمح فيها إلى هذا «التأثير».

يقول بول بوولز عن الحكواتيين: «إن الناس الذين حكوا لي

حكاياتهم قد فعلوا ذلك بلذة ليس إلاّ. كان شيئا مألوفاً. الناس كانوا يحبون حكي الروايات والاستماع اليها، وذلك منذ زمن ليس ببعيد: خمسون عاماً أو أقل مع حلول التلفزيون لم يعد أحد يفكر في ذلك. فالتلفزة قتلت، تقريباً، كل شيء. لقد قضت على الموسيقى والادب الشفوي... وماذا أكثر؟ طبعاً هناك أشياء أخرى. إنه بسبب الأسلوب الذي أنشئت به التلفزات التجارية التي تقتل الثقافات لا غير. إننا عاجزون عن فعل أي شيء». (من فيلم عملاق طنجة: بول بوولز ـ الأسطورة).

عاش بول بوولز متمنيا لو أن الاشياء ظلت ثابتة كما أسعدته في زمن ما، وأن التغيرات الجغرافية، والتواريخ والثقافات الجديدة قد أفسدت عليه متعة العيش أينما ارتحل. وربما فضّل البقاء في طنجة لأن فضاءها يكاد يخلو من مفهوم الزمن (الذي لا قيمة له كثروة للبشر)، والحركة بالمقارنة مع الغرب عندما جاءها أول مرة. إذ «ماذا يعني أسبوع بالنسبة لهم؟ ليس لديهم أيّ مفهوم عن الزمن» كما يقول بورت لكيت في السماء الواقية. إنه نوع من الاستشفاء من التلوث والوقت الذي يجعل الناس مسكونين بالسرعة... لكنه عبثا يحاول إعادة الاعتبار لماضيه الذي يتشبث به بيأس. لقد أفلت منه إلى الأبد، ولم يعد لديه إلاّ رثاؤه بشكل مَرَضيّ وأسيان.

في رسالة إلى شارل هنري فورد (19. 2. 1947) يوضح بوولز مفهومه للمكان: «كما تعرف تماماً جيداً، لم أحسّ أبداً أني منحاز إلى أيّ مكان حيث كنت، وأبداً لا أنتظره. لكن، بطبيعة الحال، بقدر ما يكون أقلّ الناس في مكان ما وبقدر ما يقلّ حدوث الأشياء بقدر ما أكون أقلّ وعيا لتفويتي ما يحدث أمام عينيّ. وهذا هو سبب إعجابي بالأماكن الصعبة... وفعلاً، إذا لم يكن هناك إطلاقاً أحد، فيمكن لي

القول إن سبب انزعاجي هو أن المكان هكذا، حيث لا أستطيع العيش فيه، وإذن فليس غريباً أن أكون أيضا غير قادر على بقائي. وبكلمات أخرى، هي مسألة العثور على أوضاع غير مريحة وتحمُلِها ما دام ممكنا ذلك قبل فراري، حينئذ يمكن وصف رغبة كما لو أنها تماما طبيعية».

وسنعرف أيضا أن بول بوولز رادَ وأسس، من خلال كتاباته، ورحلاته، وحياته المتميزة، عالم الهيبيين (دون أن يقصد ذلك) نافيا مطلقاً أن يكون كاتباً منتسباً إلى البتنكس مؤكداً أنه مخطئ من يعتبره منهم. مع ذلك فقد استقبلهم أفواجا، وحاورهم طويلاً رغم أنهم كانوا يأخذون الكثير من وقته. لقد كان أباهم الروحي متفهما تمردهم على عائلاتهم، ومجتمعاتهم (كما فعل هو مع أسرته وبلده)، متسامحاً معهم حتى في حماقاتهم وتفاهتهم إلى حدّ أن يتركوا حقائبهم عند مدخل شقته الصغيرة قائلين بانشراح: هيه، ها نحن جئنا لنراك!... ومع الوقت تعب منهم ولم يعد يستطيع استقبالهم. وقد كلَّف المرابط القادر دائماً على القيام بهذه المهمة.

كانت المدرسة الأميريكية تستقدم كل صيف فوجاً من الطلبة الذين يحاولون الكتابة الادبية فيصحح لهم بول بوولز نصوصهم. لكن لا أحد منهم كان موهوبا. كانوا يبحثون عن الثراء من خلال الكتابة. لكنهم لم يكونوا يعرفون جيدا حتى القواعد النحوية.

ظل بوولز سنوات يمارس معهم هذه المهمة حتى أعجزه المرض (أجريت له عمليتان حتى الآن على عِرق النّسا La Ciática) وأتعبته شيخوخته الكئيبة. لكن يبقى بوولز، في كتاباته، أقلّ صوفية، وعمقاً، من هرمان هيس الذي كان له أيضا تأثير كبير على الهيبيين؛ (خاصة من خلال عملية: «ذئب البراري» في جانبه التشاؤمي، و«سيدهارتا» في جانبه التفاؤلي) لأنه كان أقلّ انبهاراً بالغرائبي، والافتتاني. وكذلك لم يكن في حاجة إلى تناول «المعجون» مثل بول بوولز ليستوحي المخيلة

المشتهاة كيما يصف ضياع وموت بطله بورت في السماء الواقية، The Sheltering Sky وديار نيلسن (بطل دعه يسقط) يدقّ مسمارا بكل قواه في أذن صديقه التهامي ليتخلص منه خوفا من أن يستولي له على ماله.

وسيكتب نورمان ميللر فيما بعد: «الجريمة» المخدرات، السَّفاح، موت الإنسان الشريف، الاحتفال بالمآدب والمباهج، إنها نهاية الحضارة. . . !».

لكن السؤال الذي أطرحه على بول بوولز هو هل انتصر وحقق حلم المبدعين الاميركيين الحُجّاج إلى العواصم الثقافية: باريس، برلين، روما وطنجة، في زمن مجيئه اليها؟ ثم أهو حقق، ايضاً، حلمه معزولاً عن أحلام الآخرين الذين سبقهم إلى مغامرة السفر عندما يقول: «مثل أيّ رومانسي، كنت دائماً مقتنعاً، في غموض، أنه ذات يوم سأجدني في مكان ساحر يكشف لي عن أسراره، ويهب لي الحكمة والنشوة، وربما الموت!؟»

إنني، هنا، أتذكر مليكة، بطلة قصته «هنا نتعلم Here To Learn» التي أراد أن يخلق منها تيم Tim (بيجماليون) غالاتيا Galatea.

إن مليكة تخلصت من البؤس المادي بعدما مات زوجها وورثت عنه، لكن تحديها الأكبر يبقى في كيفية تجاوزها بؤسها الروحي، لأنها لم ترث من أسرتها سوى بؤس الغيبيات.

سأل شاكر نوري بول بوولز:

ـ هل تخاف الموت؟

ـ لا. إنني لا أخاف الموت. طبعا لا أريد أن أموت، لكن مع ذلك فإنني أخشى هذه اللحظة القدرية. كلنا سنموت. وهذه حقيقة إنسانية ينبغي لنا أن نقبلها كما نقبل الحياة: فالموت هو جزء من الحياة. ورغم ذلك فأيُّ شيء لن يكون حقيقة واقعية.

إنّ نزوع الهروب، القهري، ولد مع بوولز. نحن نعرف أيضاً أن وجوده لم يكن مرغوباً فيه: فأبوه أراد أن يتخلص منه، وهو في الأسبوع السادس من عمره، عندما وضعه على حافة الشرفة، في أحد أيام نوفمبر الثلجي. وهناك رواية أخرى تقول إن جدته من أمه فينفيسر Winewisser هي التي كانت تريد موته غيرة منها لكي تستأثر بابنتها (أمه) وحدها، أو أنها لم تكن ترغب في أن يكون لابنتها أطفال. لكن عدوه الأكبر هو أبوه الذي حارب حتى ذكاءه باكراً: «غيوراً من موهبتي الهائلة أمر بأن يُخْرَج البيانو من الدار». هكذا يقول عنه في رسالة إلى صديقه موريسيت عام 32 من إيطاليا.

عاش بول بوولز طفولته وسط عالم الكبار، وليس حضن الكبار، لأنه لم يتمتع بأيّ دفء في أسرته: إذ حياته فُتّنت، وروقبت، وعوقبت إلى حدّ الإرهاب والجنون، ولم يتسامح معه أبوه الاّ في ظروف نادرة. ومن بين التعذيبات التي كانت تُمارَسُ عليه أن أباه كان يفرض عليه، بنوع من الوسواس القهري، مضغ لقمة أربعين مرة قبل بلعها حفاظاً على صحته، كما كان يعتقد. ويبدو جليا أن بوولز قد استوحى قصته «حقوق صقيعية» من محيط عائلته؛ إذ هناك تشابه بينه وبين دونالد بطل القصة.

لم يرَ بول بوولز ويعاشر أو طفل حتى بلغ السابعة من عمره. وعندما دخل المدرسة لم يكن له فيها أيضا أصدقاء، لأنه كان ينعزل عن رفاقه. وستكون هذه العزلة مصدر تفوقه عليهم في دراسته. لهذا فقد كتب أول حكاية أشخاصها حيوانات. وكانت أمه تناغيه في الرابعة من عمره بحكايات فوق مستواه العقلي لتنميه، وتقرأ له أيضا قصص إدغار آلان بو المرعبة وما زال حتى الآن كاتبه المفضل، وبعده اكتشف بنفسه باكراً لوترييامون، الذي لا يعتبر أكثر دموية من بوولز نفسه في كتاباته، فأعجب به، لكنه لم يعجبه فوكنر لأنه قرأ كتبه ولم يصدقها كما يقول

لآلن هيّبرد Allen Hibbard في رسالة من طنجة (18ـ 1ـ 83)، ولم يتمّ قراءة «المهرّجون» Guignol's Band لسيلين Celine، أما جويس Joyce فهو يعترف لميليسنت ديلن Millicent Dillon في رسالته لها: «أغبطك إذا كنت قادرة على تحمل درجة من الاهتمام بانتظام في قراءة عوليس Ulysses. الناس لا يكفون عن التأكيد بأنهم قادرون. الناس أيضا يؤكدون أنه متبّصر وخادم». أما رامبو فقد ظل معجبا به إلى حدود الخامسة عشرة من عمره ثم حلّ اعجابه بمغامراته محلّ شعره. وكذلك حيّرته تقنية Francis Bacon وأربكه«الغداء العاري» لوليام برّوز.

إنّ صحة أمه كانت ضعيفة، ولذلك كان أبوه يردد عليه: «إنك سبب مرض أمك الدائم، لأنّ ولادتك كانت عسيرة»!.

إنّ بول بوولز الآن، وقد قارب السادسة والثمانين، يتمنى لو أنه يكون طفلا، لكن ليس الطفل الذي كانه، دون شك: «أحبّ أن أكون مرة أخرى طفلاً، لأنّ الهواء يفوح أفضل. الآن، وأنا في الواحدة والثمانين من عمري (وقتما أجري معه هذا الحوار)، هناك إمكانية أقلّ للتمتع بالحياة. إنّ الطفل حرّ؛ فهو يخرج، يرى الشمس، والزهور، ويستطيع أن يتنفس بكامله. إن إنساناً، في مثل عمري، يخرج وهو شاعر بأنواع صغيرة مختلفة من الآلام. هذا ليس مهماً. الطفل له إحساس بأنّ العالم رائع؛ فهو لا يخاف، لأنه بريء. ربما لأنّ لي حنينا نحو تلك البراءة، وذلك لا يعني أن حياة الأطفال هي فردوس؛ الأطفال يعانون أكثر من الراشدين؛ الأطفال يعانون، يحسون ويتمتعون بشكل أفضل».

بول بوولز يحب أن يشعر بالخوف، لكنه لا يعرف لماذا. . . ! في اعتقاده أنّ «الخوف هو الذي يدير العالم، هو الانفعال الأقوى، الأكثر قوة من الحب، لأن الحب لا يحرك العالم؟، إنه ينتج النوع: فهو ليس مهما مثل الخوف الذي يتصدّر. الخوف من أن تفارق الحياة لأنه معلوم

أن كل واحد منا يريد الاستمرار في العيش. وكل ما هو خارج يهددك؛ لأنه إذا أنت لم تكن خائفا فإنك لن تتنفس». وطبعا فإن هذه الفكرة تأثر بها من كتاب «تَدَهور الحضارة الغربية» لـ: أسوالد اشبنغلر الذي كان معجبا به.

في روايته «بيت العنكبوت» لا يُطرح السؤال: لماذا العيش، لكن كيف يمكن العيش؛ لان الدودة في الفاكهة، ومعلوم أنها رواية قَدَرية.

بول بوولز لم يستطع أن يجد حلاً للخوف من الموت كما وجده أبيقور: «ما دمت أعيش فلا خوف من الموت، واذا مت فلن أحسّ بشيء». لكن الحكمة التي يهبها لنا بوولز عن الخوف، الأهم من الحب، أليس فيها أيضا كَبْح لمواجهة الحياة؟ طبعا هناك شكل آخر للتخلص من الخوف هو الانتحار. إنّ البورجوازية، مثلا، بالنسبة لبوولز هي أنها: «تملك المال، الرفاهية، لكنها تشعر بنفس الخوف من الموت. لا شيء يحمي الانسان من الموت. لا شيء. هناك ناس يؤمنون بالخلود. إنه يبدو كما لو أنّ هؤلاء الناس أقلّ خوفا، لكن لماذا؟ ينبغي أن يكون لهم نفس الخوف، لأنّ لا أحد أثبت، ولا أحد سيُثبت، أن الخلود موجود»(1) لكن بول فاته أن يذكر أن الخوف لا حدود له.

إنه يقول عن الموت: «أعتقد أنه ينبغي أن نموت كما عشنا. إذا كنا قد عشنا في كارثة فاننا سنموت في كارثة. هذا أفضل. ما دام أنه سنموت يوماً ما فلا يهم بأيّ شكل سيكون. أظن أن من يخافون من الموت فهم أولئك الذين يعتقدون أن هناك حياة بعد الموت. إنهم يجهلون ما سيحلّ بهم عند مماتهم. فإذا كنتم تؤمنون بإله ما هو الذي سيحاسبكم على ما فعلتم في حياتكم، وكنتم على يقين من الحصول

(1) من استجواب أجراه معه في طنجة المراسل الخاص لجريدة El País أندري. ف. روبيو في 29/ 3/ 1992.

على رضاه فانتم إذن قلقون، إنكم لتَخافون من الموت. لكن هذا ليس ضرورياً». غير أنه إلى أيّ حدّ يقبل بوولز فكرة إميل سيوران E. Cioran بأنه «عندما يموت المرء يصبح سيّد العالم».

طنجة بين صوت وصوت

عندما زار مارك تواين طنجة (قادماً من إسبانيا) العام 1867 لم يبق فيها أكثر من 36 ساعة. لقد علق عليها في كتابه «الغريب البريء» Innocent Abroad «طنجة هي المكان الذي كنا نرغب فيه من قديم... كنا نريد شيئاً كاملاً ومختلفاً تماماً». ثم اعتبرها الثانية من بين أقدم مدن العالم. وجدها جنة يوم وصوله كما كتب لأصدقائه، لكن سرعة مغادرته لها بقيت مبهمة حتى اليوم. ومع ذلك فلم يخب ظنه فيها. أما بول بوولز فقد ظل هنا، رغم أنه قد يكون حدث له شيء ما مزعج أو لم يحدث. إنه «الكاتب الأمير المقيم بامتياز في المدينة» كما قال عنه جافن يونج Gavin Young. وصرّح آرون كوبلاند بعد أيام من إقامتهما (هو وبول) في طنجة: «إنها مستشفى المجاذيب، مستشفى المجاذيب»؛ لأنّ توتر وضجيج أهلها في الكلام أزعجا راحته، وكذلك لم تكن أصوات الطبول والعيطة تكف ليل نهار. وعندما زار فاس، صحبة بول، وجدها أكثر إقلاقاً من طنجة فاثبت نفوره من المغرب كله. أما بول فقد كان أقل حساسية من كوبلاند وأعجبته فاس أكثر من طنجة حيث كسب علاقات مع بعض الأسر البورجوازية وحمايتها له وأصبح للاغتراب متعته. ترومان كبوتي جاء العام 49 صحبة جين بوولز كأنه طفل خائف تجرّه أخته الكبرى. كان عمره خمسة وعشرين عاما. أتى فقط لتمضية الصيف في طنجة دون أن يبدأ عملا في كتاب، أو يكمله، أو ينقحه كمعظمهم. وبعد عودته إلى نيويورك كتب محذرا من يغارد طنجة من ثلاثة أشياء أساسية: «أن تلقح نفسك ضد التيفويد (وقد

أصيب به بوولز)، وتسحب كامل رصيدك البنكي، وتودع أصدقاءك لأن الله يعلم إن كنت ستراهم إلى الابد. هذه النصيحة بالغة الجدية. . . » لقد هرب منها خوفا من أن يأسره سحرها الذي أخلد الآخرين فيها: أحسّ أن الزمن إذا لم يكن ثابتا فيها فهو يتحرك ببطء شديد ولم يترك (مثل بوولز) القدر يختار له مصيره فيها.

يقول عنه بوولز: «كان مكتزنا بما فيه الكفاية. له صوت غريب (صوت ماعزيّ) وطريقة غريبة في الكلام. كثير الفكاهة، وكان يضحكنا. المشكلة الوحيدة هي أن لا أحد، هنا، كان يعرف من هو. كان ينتظر أن يقول عنه الجميع: انظر! إنه ترومان كابوتي. لكن لا أحد كان يقول ذلك. أخيرا. . . كان يرفض الذهاب إلى المدينة القديمة أو القصبة (. . .) كان يخاف. «لا، لن أذهب إلى هناك!» (بول يعجبه كثيرا تقليد صوته). هكذا كان يتكلم. صوته ماعزي. سألته لماذا لا تريد أن تذهب؟. أجابني: «من يعرف ما سيحدث لي!» ولم يكن يحدث أيّ شيء، لكنه كان يرفض الذهاب!».

«ترومان كابوتي ذهب إلى هذه السهرة. كانت سهرة تنكرية. الجميع كان مقتنعا. لا أعرف بماذا كانوا متخفين. كانوا يحملون أكاليل من الزهور، ونوعا من. . . ملابس الرقص. وكانت هناك السيدة جرين Green، وما إن رأته حتى تساءلت: «لكن ما هو تنكرك؟» قال: «أنا روح الربيع!» قالت: «لا يبدو ذلك!» وهنا توقف حديثهما!» ويجيء براين جيسن Brion Gysin عام 50[1] ليفتتن بالحفلات الموسيقية

---

(1) (1916 ـ 1986) جاء ممنوحاً من طرف مؤسسة بولبرايت Fondation Bulbright في يوليوز ليقضي هو أيضاً الصيف فبقي 25 سنة. رسام، مخترع وكاتب. درس في السوربون. كتب بالاشتراك مع برّوز عام 1960 المبيد El exterminador. استضافه بوولز إلى المغرب حيث عاشا وسافرا معاً عدّة أشهر قبل أن يستقر براين جيسن في طنجة.

الشعبية التي عرّفه بها بوولز، الذي أصبح الوصيّ الأكبر على من يفد إلى طنجة (مدينة الحلم City Dream) من الاميركيين، وأحيانا وصيّا حتى على غيرهم، بعد أن ربض فيها مثل أبي الهول، فصار المُعَمّد الشرعي، والمرجع لهم عن المغرب كله. براين جيسن أيضا وجد طنجة فردوسا كما قال لبول، ويتمنى أن يعيش فيها حياته كلها، ولكي يشدّ نفسه اليها افتتح مطعم ألف ليلة وليلة في جزء من قصر آل المنبهي في مَرشان (أجمل الاحياء القديمة خارج أسوار المدينة)، تبنىّ جوق «جهجوكة» في طنجة، وأشهر موسيقاهم في أوروبا، والولايات المتحدة، وجلب فرقة Rolling Stonns إلى طنجة لكي تستمع إلى موسيقاهم وتَعَلّم الدارجة المغربية. كان يتكلمها احسن من بوولز لأنه كان أكثر منه معاشرة للمغاربة وأحبَّهم وصادقَهم[1]. وقد قال يوماً لبول: «إذا قُدّر لي أن أصير مسلّما فسيكون بسبب هذه الموسيقى الشعبية المغربية».

كتب براين جيسن روايته الوحيدة The Process (الصحراء المفترسة) في ترجمتها الفرنسية، لكنها لم تلق رواجاً. لقد ظل في طنجة خمسة وعشرين عاما حتى أرغمته العناية الطبية اليومية بمرضه المزمن، الخبيث، على العيش في باريس حتى مماته عام 86. لم يتخلَّ عن العودة إلى طنجة لزيارة أصدقائه ومعارفه. إن وصيته لم تنكر حبه لطنجة ومراكش: فقد حملت معها أخته الروحية آن كومينج فيليسيتي Anne Cuming Felicity من باريس رماده في قارورات صغيرة ونثرناه بين صخور مغاور هرقل، ونُثِر أيضا جزء من رماده في «جامع الفنا»[2]،

(1) بول بوولز ينطق أسهل الكلمات خطأ: الحمام ينطقه حمان، المجمر: مجماح، الغيطة: الريطة، المقدم: المقدن وغيرها كثير كما ورد في سيرته الذاتية وكتبه الأخرى.

(2) الجامع الشهير في سلحة مراكش.

الذي أحبه كثيرا. رماد هنا، رماد هناك، يا للرماد!.

لعل براين جيسن هو الأصيل الوحيد الذي لم أسمعه أبدا يتذمر من حياته بين المغاربة في طنجة وغيرها من المدن المغربية. وقد قال لدانييل روندو Daniel Rondeau في باريس، بعد أن غادر الإقامة في طنجة نهائياً: «إن طنجة، خلا هذه السنين، كان فردوساً. لن ترى أبداً هذا على الأرض».

سجَل بول بوولز كثيرا من أنواع الموسيقى المغربية الشعبية والأندلسية. يقول عن الصعوبات التي اعترضه: «كنت في حاجة إلى مساعدَة من الحكومة المغربية؛ فعندما أحُلُّ في إحدى المدن أتصل بالقائد. اكشف له عن هُويَّتي وأطلب منه أن يجمع لي موسيقيين. أحياناً، كان القُواد يرفضون. كانوا يقولون: «كلاّ، كلاّ، نحن لا نريد أن يتمّ تصدير الموسيقى المغربية. لا نريد أن يستمع الأجانب إلى ما نفعله». بعضهم كان حقيقة غير مهذب، لكن أكثريتهم كانوا لطفاء، مستعدين أن يعينوني. كان ينبغي الحصول على دعم الحكومة من أجل جلب الموسيقيين، لأنه، أحياناً، كان يجب إرسال شاحنة للبحث عنهم على بعد مائة كيلومتر، في الجبال، واستقدامهم حيث أستطيع التسجيل معهم. إنه يحدث أن يكونوا في عين المكان، في القرية، في معظم الأحيان، كان لا بدّ من الذهاب بحثاً عنهم حيث يوجدون».

في بداية الستينات بدأت أسمع وأقرأ عن أسماء الكتاب والفنانين الأجانب الذين زاروا طنجة في الماضي والذين يزورونها على فترات أو الذين رحلوا عنها ولم يعودوا اليها حتّى ماتوا مثل ترومان كابوتي، وجاك كرواك، وألفريد تشستر الذي آثر الانتحار في إسرائيل بعدما طُرد من طنجة وأصيلة بسبب مشاغباته مع السلطة المحلية وتصرفاته المجنونة أينما حلّ. من بينها أنه أراد أن يجعل من سطح منزل قديم، اكتراه في أصيلة، مسبحاً. وجنّد لهذه المهمة أطفال الحيّ لكي يساعدوه في انجاز

مشروعه حيث كانوا ينقلون له الماء في أسطال. وأذكر هنا أن بوولز كان يستعيد هذه الحماقة بانتشاء وهو يضحك.

كنت أرى، من بعيد، بوولز الرائد وجماعته، لكني لم أكن قد تعرفت بعد إلى أحدهم شخصياً أو قرأت له. كانوا كتاباً ولم أكن أنا قد نشرت بعد قصتي الأولى. كنت غارقاً في قراءاتي الكلاسيكية والرومانطيقية العربية والاجنبية. لم أكن قد زرعت بذرتي الأولى في حقل الأدب، وما كان عندي ميل لإغواء مثليتهم الجنسية. سأعرف، فيما بعد، أن بول بوولز هو أكثرهم كتماناً للوطيته مثل جاك كرواك. لكن كرواك قد يستعري إذا هو سكر؛ فقد نهض ذات مرة في خمارة صارخاً: إني تناكحتُ مع غور فيدال Gore Vidal. «كان اللواط يعتبر، بين الأدباء والفنانين، نوعا من الرياضة القومية في الأربعينات والخمسينات خاصة في العام النيويوكي». كان شيئاً حميماً لتعزيز الصداقة: فقد عاد آلن جنسبرغ وبيتر أورلوفسكي Peter Orlovsky كرواك وهو مريض. ولكي يبرهنا على صداقتهما له ناكاه. وعندما احتجّ كرواك على أنه ليس لوطياً وما كان ينبغي لهما أن يفعلا له ذلك أجاباه بلطف بالغ: «إننا فقط أردنا أن نسعدك يا عزيزنا جاك!» وعلق أورلوفسكي آسفاً على أن جاك كان سكران إلى حدّ أنه لم يُنعِظ.

بعد أن صدرت روايته «على الطريق» On The Road «اعتُبِرَ كرواك بمثابة مارلون براندو في الأدب». فقد صار «الرجال يتمنون معرفته شخصياً، والنساء يردن النكاح معه بالقوة». فأيُّ شيء يمكن له أن يكتبه سينشر ويباع جيداً، لكنه دفع الثمن غالياً: فقد قتله الاحتفاء بشهرته. وكان كرواك يتباهى بشهرته أمام أيّ شخص معززاً من طرف الشبان الذين يترددون على الحانات ليشربوا نخب معبودهم. إنه تلميحيّ واستعراضيّ من أجل الدعاية لمشواره الأدبي». «كان جاك كرواك «قطيعياً» Grégaire، جَماعياً. يحب أن يخرج لكي يشرب

ويتكلم. كان بالغ الجماعية. يجب أن يكون محاطاً بالناس. كان دائماً مع الناس. مستعداً أن ينهق لكل ما يصغي له على أنه كاتب مشهور. كان يصيح: أنا جاك كرواك!» هكذا قال عنه برّوز Burroughs.

يعترف وليام بُرّوز أنه جاء قادماً من سان فرانسيسكو عام 52[1] إلى طنجة لزيارة بوولز مؤلف: «دعه يسقط»[2] Let it Come Down بول نفى هذا الزعم في أحد استجواباته) ومرة أخرى من أجل الغلمان، خاصة الاسبان، والحشيش والمعجون. يقول في الغداء العاري: «الرفقاء الاسبان عَمَّدوني بالرجل الخفيّ El Hombre Invisible».

إنك قد تراه في السوق الداخل جالساً في مقهى أو واقفاً مستنداً إلى حائط أو متمشياً، وبعد لحظات قد تراه أو يراه غيرك واقفاً أو متسكعاً في شوارع المدينة الجديدة. هيئته دائماً صارمة. إنه يوحي لمن يراه، في هذا الوضع، كأنه يتجسس على شيء ما: ياقة معطفه دوماً مرفوعة، قبعته مُحدَودَبة قليلاً على جبهته، نظراته ثابتة، إحدى يديه قابض بها على طرفي فتحة معطفه في الصدر والاخرى في جيبه أو هما معا في جيبي معطفه. إنها الفترة التي كان يتناول فيها شتّى المخدرات بشكل دائم: حقناً وابتلاعاً وتدخيناً. وكان بول بوولز وبراين جيسن يلازمان زيارته في فندق المونيريا حينما كان يكتب الغداء العاري. كانا يجمعان الأوراق المبعثرة على الأرض ويرتبانها. وعندما زار طنجة آلن غينسبرغ وجاك كرواك ساعدا بُرُّوز على ترتيب ما كان قد أنجزه من

---

(1) في ربيع هذه السنة كان برّوز قد قتل زوجته جان Jean أثناء حفلة واضعة كأس الشمبانية على رأسها فأخطأ حيث انفجرت جمجمتها. وكان قد مارس معها هذه اللعبة من قبل.

(2) عنوان الرواية مأخوذ من ماكبث. الفصل الثالث، المشهد الثالث: بانكو Banquo: سيسقط المطر هذه الليلة المجرم الأول: دعه يسقط (يهجمون على بانكو).

الغداء العاري. كان كرواك يضرب المسودّات (حسب ما قيل)[1] على الماكنة وبيتر أورلوفسكي Peter Orlovsky ينتشي بتدخين الكيف وإعداد الطعام مع برّوز.

وليام برّوز في طنجة

عندما وصل برّوز إلى طنجة واجه المجتمع الطنجي بعداء: مغاربة وأجانب؛ المغاربة يراهم منحطين فكرياً ومشعوذين، والأجانب كانوا متباهين بوضعهم المادي الذي يسمح لهم أن يكونوا في أحسن المطاعم والحانات. لقد تحاشاه المقيمون فيها مثل بول بوولز والمترددون عليها مثل تينسي وليامز. كان برّوز يعيش منعزلاً. لم يكن يثق في أحد إلى حدّ أنه كان يخرج إلى الشارع وفي جيبه سكين أو مسدسه الذي يلمّعه باستمرار. لقد بالغ في خلق نوع من البارانويا يحمي بها نفسه كي يسكن قلق عزلته. وفي دينز ـ بار Dean's Bar كان صاحبه Dean يعتبر مجيء برّوز شؤم. لم يكن يلبّي طلبه للشراب، إلا على مضض إذا كان مصحوباً بزبون جيّد مثل Kells Elvis صديق برّوز في الدراسة الذي شجعه على الكتابة في بداية الثلاثينات.

آفة برّوز في التفاهم مع المغاربة ومحاولة العيش معهم هي أنه رفس أعرافهم وتقاليدهم ولو مجاملة كما فعل بوولز الذي استطاع أن يتأقلم معهم بدهاء. أما برّوز، الذي اعتبر نفسه سامياً على هذا التواضع، فقد كتب إلى براين غيسن Brion Gysin في باريس بتشنج: «ينبغي لي المغادرة قبل إطلاق مسدسات اللازر على أهلها (طنجة) المُبَلَّدين (من البلادة)». لقد كان يعيش مثل كوبوي من الويسترن دخل

---

(1) ينبغي الإشارة هنا إلى أن الوصي الشرعيّ على المسودات الحقيقية للغداء العاري هو آلن غينسبرغ، حيث كان برّوز يبعث له بكل ما يكتبه وغينسبرغ كان يرتب الأوراق إلى أن انتهى المخطوط.

إلى مدينة لا يعرفه فيها أحد. لكنه عندما اكتشف أحد أسرار العيش في طنجة صار منها وصارت منه وكتب: لا أفهم كيف يمكن لأحد ما أن يستطيع أن يكون أكثر سعادة مما أنا عليه الآن... أطلب من اللّه أن لا يُقَدّر مغادرتي طنجة... طنجة هي مدينتي المحلومة. منذ عشر سنوات حلمت بالوصول إلى ميناء وأدرك أنه هو المكان الذي كنت أودّ أن أكون فيه... منذ أيام بالضبط، مجذفاً في الجَوْن Bahía، تعرفت عليها كما لو أنها حلمي «Como la bahía de mi sueno».

إن حلم برّوز هذا يشبه حلم بوولز بمكان (طنجة) سوف يعطيه الحكمة وربما الموت وهو في نيويورك. غير أن ما أبقى برّوز في طنجة ليس هدفاً أنتروبولوجياً مثل بوولز إنما فقط وجد ملاذاً يحميه ممارساً إدمانه على المخدرات بهوس كما يكتب في رسالته إلى آلن غينسبرغ (18. 8. 54): «لقد توصلت إلى التفكير في بوليس طنجة كنموذج لما ينبغي للبوليس أن يكون عليه ويفعله. إنهم لا يشغلون أنفسهم بشيء عن حياتنا الجنسية أو تعاطينا المخدرات (طبعاً، الكل يدخن الشاي «الكيف» في الشارع كما هو التبغ). كل ما يعملونه هو الحفاظ على النظام (يقومون به كفاية). لم أر عراكات، وحينما تحدث مشاجرة فإنّ البوليس يكون هناك في ظرف ثوان. مع ذلك فلم يستطيعوا منع جريمة حديثة العهد في الشارع الرئيسي، لكن لم يكن هناك تبليغ. كان عربي[1] يمشي مع عربي آخر وصوّب طعنة لامرأة في المعدة، أما عن تحاشي السرقة (فأيضاً ليس هناك كثير منها). وفي حالة نزاع بين عربي وأميركي فهذا الأخير يكون له دائما الحقّ، تلقائياً. هذا يعجبني ولا أسيء استعماله: فإذا أنا ضربت أحدا فيمكن لك أن تكون علي يقين من أنه يستحقه؛ لأنه عادة أنا ذو طبع طيب وصبور إزاء الأخطاء. إنه لَمُفْرح

---

(1) كلمة عربي في هذا النص يقصد بها برّوز المغربي.

إن تعلم أن البوليس سيساندونك إذا ما وقعت مشكلة. في الوقت الراهن لم تحدث لي إحداها. لقد حاول عربي سرقتي، لكن دفعا قويا قضى على المحاولة. إن المحاكم لا تكلف نفسها حتى بالتظاهر أنها غير منحازة. إن عربياً ينال دائماً عقوبة أشدّ من أوروبي في نفس مستوى الجريمة. رغم ذلك، فكل الأحكام هي نسبياً منخفضة: حوالي خمسة أعوام كحدّ أقصى».

هذا هو المغرب الذي يفتقده اليوم برّوز وبوولز ومجايلوهما الذين عاشوا في طنجة. لم يجد برّوز راحته، في بداية مجيئه إلى طنجة، إلاّ صحبة المغاربة ماسحي الاحذية الذين يدخن معهم الكيف في المقاهي الشعبية. ولم يكن يفهم شيئاً مما يثرثرون فيه. كان يجمعهم الكيف والشاي المنعنع. لم يكن عنده أيّ حسّ حضاري ليفهم تقاليدهم، ولذلك كتب إلى آلن غينسبرغ: «ماذا يعني هذا الخراء من الثقافة الإسلامية؟» نشوته الكاملة لم تكتمل إلاّ ملتصقاً بجسد عشيقه كيكي Kiki. كانا يمارسان الجنس مدخنين الكيف. وقد وصل هذا العناق «الأيروسي» في إحدى المرات إلى ست عشرة ساعة. وهكذا يعترف برّوز أنه في الوقت الذي كان المجتمع الطنجي يجيعه فلم يكن يبخل عليه كيكي بجسده مقابل أقل من دولارين في اليوم: النصف له والنصف لأمه المريضة التي كانت مطلعة على علاقتهما الحميمة. لم يكن يقلق برّوز في نعيم جنته إلاّ قلة موارده المادية من والديه التي يصرف معظمها على شراء المخدرات. كانت أعراض الإدمان التي تبدو عليه جدّ مقلقة إلى حد أنه كتب: «ليلة البارحة استيقظت على من كان يضغط على يدي. كانت يدي الأخرى». وعندما تتأخر يتكلف كيكي العزيز ببيع أو رهن ملابس برّوز أو آلة التصوير أو ماكنة الكتابة.

في سنة 65 كان برّوز في طنجة. وفي 30 ديسمبر 65 مات جي هازلوود Jay Haselwood بسكتة قلبية. لقد حضر برّوز جنازته. كان

مشهداً حزيناً جداً في مقبرة سانت أندريوس St. Andrews. لقد اعتبر برّوز موت هازلوود رمزا لنهاية فترة كان شعارها: عش ودع غيرك يعيش. لقد كان العيش في طنجة يصل إلى حدّ الخروج على القانون. كان برّوز قد استهلكها بما فيه الكفاية. وأصبحت زياراته إليها، بين فترة وأخرى، مجرد حنين عابر، تحية، جولة في حديقة منسية. لم تعد توحي له بشيء هي التي كانت أساساً ضرورياً لمشواره الأدبي.

لم يرد قط بُرّوز أن يتجذر في طنجة مثل الآخرين: ديفد هربت (ابن كونت انجليزي)، مرغريت مكباي M.Macbey (رسامة)، كلود توما (مترجمة بوولز ومحمد المرابط)، وكلاوديو برافو Cloudio Bravo (رسام شبلي). ربما هؤلاء أحبوا طنجة أكثر من برّوز.

اشترى إدوار روديتي منزلاً في القصبة ذا حديقة متواضعة تتوسطها شجرة تين ضخمة وبئر وكرمة. يأتي اليه كلما أجهده عمله مُترجماً فورياً دولياً في المؤتمرات. إنها أكثر المهن إنهاكاً للأعصاب، كما يقول. يتقن الانجليزية، الفرنسية، الاسبانية، الالمانية، التركية، وملم بالايطالية والبرتغالية. أشعاره، قصصه ومقالاته الادبية يكتبها بالانجليزية والفرنسية. ترجم من التركية بعض قصائد يونس عمري. يعرف جيدا أهم العواصم العربية. وفي كل عاصمة له فيها مغامرة جنسية: «كادوا أن يغتصبوني، لكني نجوت منهم بأعجوبة...!» ثم يضحك باقتضاب. عندما يبالغ في حكي إحدى مغامراته أشك في وقوعها، لكن ماذا أقول له حين أراه يبالغ في تصديق نفسه؟ إنها نشوته. هناك دائماً أكثر من واحد يتبعه محاولاً اغتصابه ولكنه يعرف كيف يتفلت منه. إن شطحات خياله الجنسية الرائقة لا تنتهي. يسلي بها نفسه ومن يتعجب معه لغرابتها وطرافتها. يفخر دوماً أنه يعرف شخصياً ابنيّ أحمد شوقي وأحفاده. له أيضا ذكريات مفرحة ومحزنة في باريس مع المصرية المغتبرة نِعْمَتْ عِلْوي بك أيام كان يحبها ويتراسل معها رينه ماريّا ريلكه

R. M. Rilke كذلك يحكي روديتي أنه استيقظ ذات صباح في أحد فنادق باريس نائماً مع لوزكا في فراش واحد دون أن يتذكر كيف حدث ذلك في ليلة سكر وعربدة.

في طنجة، يمكن لأيّ بارع في الحكي أن يخترع أية حكاية فَيُصَدَّق أو عليه هو أن يُصَدَّق حاكيَها حتّى تتمّ متعة العيش في سحر أسطورتها المتلونة وتدوم. لقد انطبع، في ذهن عشاق هذه المدينة، قديماً وحديثاً، أن الملل مطرود من مملكتها المسحورة، الشبيهة بألف ليلة وليلة، وأن جلال أسطورتها، من عهد أنتيوس Anteaus إلى آخر الغزاة، يحمي ويغذي كل خرافة تُحاك فيها وعنها. إن أسطورتها التحوّليّة تُجَمِّل كل أكذوبة تُلَفَّقُ عنها. إنه من الحمق أنّ يجرؤ من يقول الحقيقة فيها أو عنها. كل آتٍ اليها يريد أن يكون شهريارها وهي شهرزاده. لكنها هي الواعدة بالقهر والطرد وربما بالقتل لمن يخونها ولا يعرف سرّها ـ اللغز. لا تُسامح من يخطئ معها. وبين الأمس واليوم، وما كان وما لم يكن، فهناك دائما المغامرون الحالمون بها.

في «السماء الواقية»، يقرر بوولز، بلغة صحافية، على لسان المستر ريتشارد هولاند موجهاً كلامه إلى ديار نلس: «في نيويورك هناك رجال الأموال المحتالون، هنا (طنجة) الصرّافون. نيويورك لها نصّابون، طنجة المهربون. كل الدول هي مجتمعة وليس هناك كبرياء مدني Cívico (وطني أو قومي). والجميع مستعدون أن يمتصوا دم الغير. إنها حقا ليست مقارنة متينة. أليس كذلك؟».

مساء، رافقت إدوار روديتي[1] لزيارة بول بوولز. كلاهما يحب من ينتج فنا ويشجعانه على المضيّ فيه مهما كانت قيمته. صداقتهما جدّ قديمة. إنهما في نفس السنّ تقريباً، لكن بوولز يبدو أكثر حيوية في

---

(1) أخبرتني المستشرقة السويسرية كلود كرول بوفاته يوم 10/ 6/ 1992 بنزيف داخلي بسبب سقوطه عن سلم في أحد فنادق إشبيلية.

حركاته وانعكاساته. شيء بارز يلازم بوولز هو ضعف سمعه: إنه غالباً ما يكوّر يده اليمنى حول أذنه أمام محدثه ليقول له بالاسباني: «Que!» ماذا!.

أتساءل: أهو تمثيل؟

26. 4. 1994

أخبرني اليوم روبيرتو دي هولاندا Roberto de Hollanda أن بوولز لم يعد حقاً يسمع من أذنه اليمنى بعد العمليتين اللتين أجريتا له على وجهه في باريس وأتلانتا لإزالة ورم سرطاني.

إنّ بوولز، مثل معظم الذين أزمنوا في طنجة، يفضل الحديث بالاسبانية إلاّ مع مواطنيه.

قدمني إليه روديتي بصوته اللطيف:

ـ إنه كاتب مغربي ريفي. قصصه، التي حكى لي مضمونها، جيدة.

أرجو أن تروقك فتترجم له بعضها.

تطلّع إليَّ بول بنظرته الهادئة، الاستكشافية والمبهمة ثم قال خافضا نظرته المتأملة كعادته:

ـ ولماذا لا!

في هذه اللحظة، لست أدري لماذا فكرت في لوتريامون؟ هو الذي أراد أن يكون ما يكون، هو الذي أراد أن يكون في منتهى السادية ومنتهى الحنان. وفكرت، أيضا، ربما بسذاجة، أنه عندما يموت الكبار تبقى الجريمة عارية. لكن هاجساً آخر همس لي: إن الوجود يبدو أنه دائما يغار من المبدعين الحقيقيين، ولذلك يصيبهم بالموت العبثي، والمبكر، حتى لا يزاحموه في خلوده. اخلد إذن وحدك، لكن عندما يموت كبارك فإنك ستبقى وحدك، أيها الحارس الأبدي على الجريمة.

كانا يتكلمان بالانجليزية. أفهم أكثر ما يتكلمان عنه. هما في ماضيهما وأنا شارد بينهما في تأملاتي. أنا كذلك لي ماضٍ، لكني لم أعد أجد من أستعيد معه حنيني اليه بلذاذة. لقد أبعدنا الزمن المتردئ، يوماً فيوماً. هناك من شيخته حياته سيئاً أو جُنَّ أو هاجر أو مات. لا أدري، مع رفقاء الماضي، أهي فاتتنا أزمنة جميلة كنا نستحقها؟ لكن عبثا رثاء مصير لم يحن بعد. «إن مصير الإنسان لا يكون ملكاً شخصياً له إلاّ عندما يكون مُشابها لما تحتوي عليه ذاكرته» كما يقول إدواردو مايا Mallea Eduardo.

استيقظت من أحلام يقظتي عندما سمعتهما يتكلمان عن جين بوولز المريضة في La clinica de REPOSO de los ANGELLES في مالقة. تردد اسمها هي وأحمد اليعقوبي، والمرابط، وبراين جيسن ونورمان جلاس عدة مرات.

مساء اليوم التالي حملت معي قصتين: «العنف على الشاطئ» و«بقول الأموات». استعملنا الاسبانية نقلا إلى الانجليزية. أعجب بوولز بالقصتين. لم نكن قد أنهينا بعد ترجمة قصة «بشير حياً وميتاً»[1] عندما وصل الناشر الانجليزي بيتر أوين Peter Owen إلى طنجة. لم يقل لي بوولز عنه شيئاً كثيراً. وبعدما نشر أوين كتابي ولم يدفع لي حقوقي في النشر، ما عدا مائة جنيه كتسبيق، أدركت أنه عَوْلَق Vampir. هو نفسه يعترف بأنه جانجستر، Gangster، لكن دفاعا عن نفسه، يدعي أنه يساعد المغمورين على البروز والشهرة.

لعلّ عبد القادر الجَنابي (الشاعر العراقي) كان على حقّ حينما قال: «كَوِّنْ لنفسك شهرة ثم مَثِّل في ذهن القارئ». وكنت أريد أن أمثل. مبتدئاً كنت وما كان يهمني هو أن أنشر ما كتبته حتى وإن يكن

(1) بول هو الذي اقترح لها هذا العنوان بدلاً من «بقول الأموات».

هناك احتيال وابتزاز: أن أنشر كتابي الأول. كان بيتر أوين قد نشر «حياة مليئة بالثقوب A Life full of holes» أو «العيشة المذلولة» ـ كما هي مسجلة في الاصل عند بوولز ـ لادريس بن أحمد الشرادي (اسمه الحقيقي العربي العياشي) وهي سيرته الذاتية، و«الحب بحفنة من الشَّعَر Love with a few hairs» لمحمد المرابط وجاء من جديد بحثاً عن ضحية جديدة.

سبق لإدوار روديتي أن حكى لبول بوولز شذرات عن حياتي المتشردة إلى حدود العشرين من عمري، وحكاها بوولز لبيتر أوين. اقترح عليّ أوين أن اكتب سيرتي الذاتية فأجبته فورا:

ـ ولكنها مكتوبة، وهي عندي في شقتي.

فوجئ بوولز فنظر إليّ باندهاش. اتسعت عينا أوين الماكرتان وقال:

ـ وإذن فلنوقع الآن عقداً مؤقتاً. سأعطيك مائة جنيه تسبيقاً عند استلامي المخطوط مترجماً من طرف المستر بول بوولز.

وافقت بهزة من رأسي ووقعنا، ثلاثتنا، العقد الذي كتبه بوولز على الراقنة دون أن يعلق بشيء. سأعرف، فيما بعد، أن بوولز يحب مثل هذه المغامرة المبهمة؛ لأنّ حياته كلها كَوَّنها على ما هو غامض وغرائبي إلى حدّ العدمية التي يقود إليها أشخاص قصصه ورواياته: «إنّ أشخاص قصصي قد أنفيهم إلى التشاؤم من غير أن يسقطوا في العدمية كما يفهم القراء والنقاد العاديون». هكذا يدافع بوولز عن نفسه.

لم أكن، في الواقع، قد كتبت بعد جملة واحدة من سيرتي الذاتية «من أجل الخبز وحده» كما هي في عنوانها الاصلي العربي. كنت أحلم بكتابتها يوما ما، بعد أن أحقق بعضاً من الشهرة الادبية. أحداثها كانت مطبوخة جيداً في ذاكرتي. إنّ «طاجين» حياتي كنت قد قدمته في أطباق مختلفة إلى رفاقي التلاميذ في العرائش، عُشاق سماع المغامرات التي

لم يعيشوها ويسمعوا عنها. ومثلما تُسعف الأميين ذاكرتهم بدأت، في نفس الليلة، كتابة الصفحات الأولى في سُدّة (عِلِيَّة) مقهى روكسي حتى غلبني السكر، وأضعفني الجوع، ونفضتُ جيوبي، كالعادة.

كل يوم أكتب وأذهب عند بوولز، مساء، لأملي عليه جملة إثر جملة بالاسبانية فينقلها مباشرة إلى الانجليزية. ليس صحيحاً أنني أمليتها عليه بالدارجة المغربية، إذ إنني غير متمكن من فنّ الحكي الأدبي بها. حتى أحمد اليعقوبي، وعبد السلام بولعيش، ومحمد المرابط وادريس الشرادي، أمهرهم في الحكي، استعملوا مع بوولز ما يعرفونه من إسبانيتهم العادية لنقل حكاياتهم إلى لغته الانجليزية. إنهم كانوا يسجلون حكاياتهم بالدارجة المغربية تتخللها تسمية بعض الأشياء بالإسبانية. وكان بوولز يقوم بالنقل والتعديل (وليس الترجمة) وهم يساعدونه بالشرح والتأويل. أكيد أن بوولز كان يعيد صياغة النصّ أكثر من مرة، عند التنقيح، قبل ضربه نهائياً على الراقنة، رغم أنه ينفي ذلك أمانة أو خدعة فنية.

غالباً ما كان يجيء المرابط وقت اشتغالنا. نتوقف لحظات لنتكلم قليلاً ونتلاطف معه. إن بوولز لا يسعى إلى الانسجام في حياته مع الآخرين. إنه يحطمه على غرار «الأبواب المقفلة[1]»، أو مثل ما هو تانر Tuner في «السماء الواقية» حيث يعمل باستمرار مزعج وممل على إفشال حميمية بورت مع كيت ولو دون قصد منه: يصاحبهما أينما ذهبا. وكان بورت في أمسّ الحاجة إلى أن يكون وحيداً مع كيت. لم يبق لتانر Tuner إلاّ أن ينام معهما في فراش واحد. وقد ظل يستميلها بإلحاح حتى نام معها. لكن رغم هذا التماسّ يبقى «الناس لا يصيرون أبدا قريبين حقيقة من بعضهم البعض. إنهم فقط يتوهمون ذلك» كما

---

(1) مسرحية سارتر التي كان بوولز أول من ترجمها إلى الانجليزية.

تقول ديّ Day زوجة الدكتور سلاد Slade في «الدَّغَل الأحمر Ap above the world» في أصلها الانجليزي.

إن بوولز يحب دائما الصراع بين المرابط ومن يفد من أصدقائه أو معارفه أو مجرد زائريه لأول مرة، لكنه لا يقدر على تغيير شيء في حضور المرابط أو أنه يريد ما يحدث لينتشي به. إنه يبتسم بسخرية ولامبالاة في المواقف الحرجة. وغالبا ما ينكمش مثل «القنفذ» كما يسميه المرابط نفسه. ولم يسبق أن حدثت بيني وبين المرابط أية مواجهة مُشاكسة. إنه عندما يدخل يُهَيْمِن ويصير بوولز مستعذبا هذه الهيمنة ـ اللعبة التي يعرفها كل من يزور بوولز. قد نشرب فنجان شاي أسود آخر بالليمون بعده بول نفسه أو المرابط، إذا كان رائقا مزاجه. من عادة المرابط أن يعلق بحماس مُبالَغ فيه على أيّ حدث سياسي سمعه من الإذاعة أو التلفزة محلياً أو دولياً أو من أحد المقاهي. ومن جهتي لم أكن أناقش معه أيّ موضوع بعمق. بول غالباً ما يلزم حياده الدبلوماسي: «آه! هل صحيح حدث ذلك؟ يا للأسف. إنني أفهم. نعم. لا. محتمل. ما كان ينبغي أن يكون الأمر هكذا كما تقول...» هكذا يتكلم بول في حضور المرابط إذا كان الموضوع مُحرجاً. أما أنا فاكتفي بهزّ رأسي. ينصرف المرابط أو يبقى. قد يأخذني معه في سيارته إلى وسط المدينة. كنت معتاداً تفقد حاناتي الليلية وعاهراتي قبل دخولي إلى شقتي البائسة في الطابق الاخير: برد وقطرات تتساقط من السقف في الشتاء، وفي الصيف أختنق بما تختزنه الجدران من شمس يوليوز وغشت. الزوايا لا تخلو من العناكب وخرائط صغيرة شكلتها الرطوبة. لم يكن عندي ما يُزيّن الشقة.

تخلّى المرابط عن الشراب منذ سنوات مخلصاً للكيف والمعجون. إنه ماهر في إعدادهما. لم يعد بول يدخن الكيف في السبسي. يحشوه

في سجائر سوداء. خارج منزله يكتفي بتدخين سجائر إنجليزية. إذا دخن الكيف، وكان سيخرج إلى المدينة، فإنه يمضغ كَبْشَ قَرَنْفُل حتّى يخفي رائحة الكيف. إنه حريص على آداب المعاشرة الاجتماعية Étiquette.

للمرابط ذكريات معَ البغايا اللواتي عرفهن شابات واليوم تجعدت وجوههن، وأيديهن وازرقّت شرايين سيقانهن، وتسوست أسنانهن وترهلت أجسادهن. يحب أن يزورهن، لكنه يَسْتَحبّ أن يصحبه رفيق إلى حاناتهن. يكرمهن بسخاء. يجد غالبا أكثر من واحدة منهن في نفس الحانة. صارت تروقه رفقتي. ربما لأننا من نفس الطينة، أو أيضا لأننا ريفيان، والريفيون يتآزرون، خاصة في الأزمنة الأخيرة، فيما بينهم. لم يكن المرابط يتناول غير الليمونادا وأنا البيرة أو الويسكي. لكن، رغم هذا التلاطف بيننا، فقد كانت هناك عثرات: كان، أحيانا، يقاطعنا عندما كنا نشتغل أنا وبول في ترجمة الخبز الحافي. لقد تفاقمت غيرته عن عملنا بشكل جدّ سخيف إلى حدّ القَرَف حتى أنني فكرت في الانسحاب نهائياً، لكن بول أنقذ الموقف في الوقت المناسب: فذات ليلة نهض غاضباً ودخل المطبخ. خرج حاملاً مطرقة صارخاً في وجه المرابط: «اخرج من هنا وإلاّ قتلتك».

كنت أعرف أن بول قادر على قتل آلاف الاشخاص في مخيلته المُبدعة، ولكن في الواقع ما كنت أظنه قادراً على قتل ذبابة. لكن تبين لي أنه لا يسمح لكرامته أن تُهان بمثل هذا الاستهتار الصبياني. كان المرابط قد أزعجنا إلى حد الغضب ونحن نشتغل.

غادر المرابط الشقة بهدوء. لم يسبق لي أن رأيت بول ساخطاً كما في تلك الليلة. توقفنا عن العمل وأشعل سيجارة محشوة بالكيف وراح يدخنها مسترجعاً هدوءه. كلانا يدخن سيجارته في صمت مبهم. لم أكن قطّ أتخيل أن بول يجرؤ على أن يهدد أحدا بمطرقة، لكنني أدركت

أنه بول القادر على كتابة «العقرب»، «دعه يسقط»، «مشهد بعيد»، «طريدة هشة»، «علال» و«البستان». . . ![1] بعد لحظات عاد المرابط واعتذر لبول ثم خرج. كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أزعجنا فيها ونحن نعمل. ولم يكن من عادة بول أن يدوم حنقه أو يعلق كثيرا على مثل هذا الحادث الطائش. إنه يُسامح، ولكنني لا أعرف إن كان يعاني أم لا! ذات مساء، ذهبت عنده سكران وصرت أثرثر عن أشياء لا تعنيه في شيء. في اليوم التالي اعتذرت له. قال بهدوئه المعهود:

ـ انس ما حدث. فقط أننا لم نشتغل، لكن لماذا كنت تريد أن أحضر لك صبياً مشوياً لتأكله؟ أصحيح عندك هذه الرغبة؟.

ـ أنا؟

ـ نعم. هكذا كنت تردد بإلحاح رغبتك في أكل صبيّ مشوي.

ـ لا أذكر شيئاً من هذا.

ـ هذا أفضل.

شيء عن جين بوولز

إن جين أو جاني Janie، كما يُحَبّبُها أصدقاؤها، لم ترد أن تخلق مستقبلها.

بول يقول اليوم: «جين تزوجتني لأنها كانت تهرب من أمها أكثر من هروبها من الرجال. أما أنا فلم أهرب. كفاني تجاهلي النساء» وطبعاً لم تستطع جين أن تتخلص من انطواء طفولتها وأهواء شبابها. كأنما كانت تريد أن تحقق: لتَبْلَ الاشياء التي تملكها لأنها الجدّة السامية التي تريد. لا يستطيع أن يؤثر في عصره إلاّ النبيّ أو الشاعر، وجين كان عليها أن تمثل كوميدياها، لكن عصرها لم يقبلها. كان تمثيلها خارجا

---

(1) عموماً، يطغى الرعب والسادية والعنف على أعمال بول بوولز.

عن المألوف في حياتها اليومية وكتابتها تريد أن تتخطى عصرها في الكتابة، في الحب، في الصداقة، في الحديث وفي طريقة لباسها وقُصَّة شَعرها الغلامية. حريتنا ألاّ نكون أحرارا لأحد، وجين أفرطت في طيبتها وأعطت الكثير من حريتها للذين لا يستحقونها. أتذكر هنا ما قاله شاعر الحمراء محمد بن ابراهيم: «ولُدتُ رجلا فلم أكُنْه». وكذلك كانت جين. فقد عاشت جين أخرى غير التي كانت تريد أن تعيشها وتستحق. كانت بطلة عصرها في جرأتها الأدبية وسلوكها، لكن الجمهور لا يريد للبطل، إذا هو لم يستمرّ في انتصاراته، إلاّ أن يموت أو يصاب على الأقل بمرض مزمن حتى ينتشي بمأساته. كانت نزعة جين، في عزّ شبابها، ثورية راديكالية وليست تَوافُقية على غرار النزعة الطاوية(1). لكنها لم تستطع أن تستمر في تجاوز الإحباط وقهر الموت بتمجيد نفسها إبداعاً أدبياً دون أن تنتظر من يؤازرها. لأنه إذا كانت الحياة ضد الانسان فمن حق الانسان أن يكون ضد الحياة.

الخوف، بالنسبة لبول، حاضر على الدوام. وبالنسبة لجين كانت تخشى ولا تخشى. إنها لامبالية وخوفها ظرفيّ. إنّ العشاق يفقدون رشدهم عندما يبالغون، وجين بالغت في العشق الهارب منها ففقدت رشدها. أما بول (قارورة الكآبة Gloompot كما أسمته جين، المسكون بالجبرية) فإنه صامد. وربما حقق شيئاً مما قاله جنيه Genet في الأسير العاشق «إن حياتي المرئية ليست سوى خدعة جدّ مُقَنَّعة».

ماذا عساها تفعل المرأة الدميمة بالمرآة؟ إنّ جين كان لها جمالها المتميز في صباها، ودمامة في شيخوختها، بسبب العياء النفسي والانحطاط الجسدي، فانطفأت تماما جاذبيتها حتّى الرماد حيث لم يعد

---

(1) طاو يوانمينج ولد في نهاية القرن الرابع الميلادي. نزعته مبنية على التوافق مع الحياة لا الثورة عليها.

لها سوى أن تكسر كل مراياها وتترك من يجمع شظاياها.

ليست هناك رواية واحدة عن حياتها مثلما نتساءل عمن كان، حقيقة، يريد التخلص من وجود بول الصغير، أهو أبوه أم جدته من أمه أم كلاهما كان يرغب في عدم وجوده؟

إن جين وبول أرادا أن يؤسطرا حياتيهما، تحدياً وانتقاماً من عائلتيهما. ربما اتفقا، سراً، على هذا القرار ورميا مفتاح اللغز في مكان مجهول: مثل طنجة نفسها. أين مفتاح متاهاتها...؟ جين تتماس ولا تلتقي حتّى مع نفسها. إذا هي دعيت إلى سهرة فقد تقضي أكثر من ساعة مترددة بين أن تلبس هذا الثوب أو ذاك، حسب رواية مدام جيروفي. لكن بول يذكر أكثر من هذا: فقد كتب في رسالة إلى أبويه رينا Rena وكلود عن حفلة تشريفية Gala من طراز ألف ليلة وليلة أحيتها باربارا هاتن Barbara Hutton حضرها مائتا ضيف جاء كثير منهم من لندن وباريس ـ حسب قوله: «بما أننا استلمنا دعوة، فقد حضرنا، وجين قضت أسبوعا مشغولة في إعداد أزيائها. يمكن لكما أن تتصورا التهيج! آن (هارباش) (Anne Harbach) أوصت على لباس سهرة جديد للمناسبة. في كل ساعة كانت هناك استشارة هاتفية وجين غيّرت رأيها على الأقل عشرين مرة حول ذهابها أو عدم ذهابها. أخيرا ذهبنا وكل شيء كان على ما يرام». وظلت جين أيضا تتردد في الالتحاق ببول في طنجة ستة أشهر حتى جاءت مصحوبة بعشيقتها الجديدة جودي Jody في 31 يناير عام 48 خائفة مما ستواجه في هذه المدينة ذات السمعة المغرية والمخيفة معا.

لا ننسى هنا أن أم جين كانت تدللها وتختار لها ملابسها وتُلبِسُها وهي بين السابعة والثامنة عشرة من عمرها. لقد دللتها إلى حدّ الجناية على حياتها. «ولكن إنّ فَسَدَ الملحُ فماذا يُمَلَّح؟» (إنجيل متى ـ 5 ـ 3).

كل علاقة، بالنسبة لجين، لم تصر إلاّ وَهْماً. لقد فقدت التماسك

بين ما هو واقعي وما هو خيالي. الناس، في نظرها، هم أيضا يتماسون ولا يتقابلون ويتطابقون. إنها وحيدة مزاجها وأفكارها. ورغم أنها كانت تعيش علاقات حميمة ومتحررة جنسيا، مع نساء من بلدها وغير بلدها، فإنها لم تسمح لبول أن يمارس معها الجنس إلاّ عند الزواج منها. ولم تدم علاقتهما الجنسية سوى سنتين ونصف ثم اعتصم كل منهما في جنسيته المثلية ليعيشا قريباً وبعيداً من بعضهما البعض في آن واحد.

التقت به في نيويورك في إحدى ليالي نوفمبر العام 37. ما أعجبها فيه هو أنه يبتسم بعذوبة. كانوا جماعة يدخنون الماريوانا في هارلم. ومنذ تلك اللحظة صار عدوها المحبوب. تزوجا في 21 من فبراير العام 38. لكن هذا الزواج تمّ ضدّ إرادة أمها؛ لأنها كانت تريد لابنتها أن تتزوج يهودياً مثلها، غير أن جين كانت لاسامية إلى حدّ التزمت، وكذلك تزوجها بول لِيُغْضِب أباه المناهض للسامية. وإذا كان نورمان غلاس Norman Glass[1] قد رفع دعوى ضد أمه لكونها يهودية (ولا تعرف هل كان جاداً أم أنه مجرد مزاح) فإنّ جين اكتفت بأن تعيش بعيداً جداً عن أمها.

كانت جين معتادة الكلام والتفكير بالفرنسية (التي أتقنها أيضا بول)، وكتبت بها روايتها الأولى: «الحوذي المنافق Le phaéton hipocrite» قيل إنها ضاعت، لكن جين، التي تتملكها نزعة تدمير ما تنجزه، قد تكون هي نفسها مزقتها.

عاشت جين آور Jane Auer كل التقاليد والأعراف. وعندما أنهكها المرض الجسدي المزمن، والإحباط الأدبي والعاطفي عانقت الصليب وآمنت بالغفران (جعلوها تعانق الصليب وتستغفره وهي في شبه

---

(1) كاتب انجليزي. عاش فترة في شمال إفريقيا خاصة في طنجة إبّان الستينات. ترجم من الفرنسية إلى الانجليزية رحلة إلى الشرق لجيرار دو نرفال Gérard de Nerval.

غيبوبة المرض ومحنته، حسبما رواه لي بول). إنّ ما دمّر جين هي عدميتها مع نفسها لكي ترضي نزعتها المازوخية: أن تحقق لذة الإخفاق وملاشاة ما تنجزه؛ لأنها قلما ترضى عنه. كل شيء ينبغي خلقه. بالنسبة إليها ليست هناك تسلية أو عزاء في الحياة اليومية.

وكتابتها كانت خلقاً وليس تقليداً، ولذلك عجزت عن أن تتم الكثير مما تبدأه. أما بول فلم يكن ينقّح كثيرا ما يكتبه كما يقول هو. لكن الغريب هو أن جين لديها ميل كبير لهدم ذاتها وإرادة قوية للعيش، أما بول فقد اكتفى بتشاؤمه، حسب زعمه. التشاؤم، بالنسبة اليه، شيء إنساني، والعدم لا ينبغي أن يُنسَب إلى هذا العالم، لكن بول عدمي حتى نخاع العظام.

إن معضلة جين بوولز هي أنها تريد أن تسكنها الكتابة، ولكنها لا تستطيع أن تقبض عليها وتسكنها باستدامة كما تريد. لم تغالب وتكابد بما فيه الكفاية، مثل بول، لكي تضع موهبتها في كتاباتها إنما فضلت أن تضعها بين أصدقائها ومعارفها وحتى من لا يعرفها من العابرين. إنها لا تكاد تمسك بخيط أريان Ariane حتى ينفلت منها. فهي حقا موهوبة، لكن ينقصها عناد الجلوس ساعات ليلا أو نهارا كما فعلت كوليت، وسيمون دو بوفوار، ويورسينار ومرغريت دورا. لم يكن يشد جين إلى المقعد القاسي الضابط، المنتج، إلاّ كتابة الرسائل الطويلة إلى بول أو إلى أصدقائها شاكية أحوالها المادية المتدهورة أو متذمرة من علاقاتها العاطفية مع «الشريفة» ومن يحيط بها من النساء اللواتي تتزعمهن لاستنزاف مال «هاذ النصرانية الكافرة باللّه» كما كنّ يقلن عن جين.

هناك لحظة قد نبكي فيها مرة واحدة بمرارة. ومن يبكي أكثر من مرة فماذا نفعل له؟ فلنتركه يبكي ما شاء من مرّاته حتى يعيا منه البكاء. لسنا حراساً على حدود مشاعر الإنسان. دَمّر نفسك ما شئت.

إنك ابن المُنَبِّهات، والشّره، والاستمناء الإفنائي. لا تخش من

يلومك. إنك تغني وتذهب، ترسم وتذهب، تكتب وتذهب وتخلق ما تشاء وتذهب. رجاء، اترك هذا العالم لنفسه ولا تفكر في كيفية توالده، لأنه لا أمل فيما يتوالد منه كما تحب. إننا حقا نتمرد، ولكننا لا نتوالد كما نريد. لو أنّ حكمة بعض الأنبياء تعصمنا!.

إنّ جين بوولز لم تكن تحب إلاّ الهارب منها. من الهارب إذن من الآخر أهي الكتابة أم هي؟ الواضح أنها كانت تحب الناس (الفَناء) أكثر من الإبداع عنهم (البقاء). كادت أن تفنى مثلهم. إنها لم تحتجّ بما فيه الكفاية على ما هو جدّ عادي في حياتهم وحياتها. وكانت قادرة لو أنها قهرت ضعفها. لكن عاطفتها هي الأقوى فيها على الهشّ في الحياة التي عاشتها مع الناس في استسلام.

لعل محبطاتها المتتالية، خاصة العاطفية، هي التي نغّصت عليها حياتها وساهمت في إشلالها ودمارها حتى أعجزتها عن الكتابة فصارت «عبقرية منسية».

إنّ جين ترفض الانضباط في الكتابة، أو أنها لم تكن قادرة عليه مثل بول الذي يتكيف ويتلاءم مع أسوأ الحالات ليكتب كما حدث له عندما كان يكتب روايته «دعه يسقط». إنّ الأوضاع المملّة أو العاجزة أو المؤلمة قد تكون حافزا منبّها للكتابة. يقول في رسالة إلى وليام رايت William Wright (23 ـ 7 ـ 54) «لكن ربما هو الملل الذي يحتاجه المرء لكي يعمل جيداً». ثم يضيف: «لقد تحققت من أن القضية هي هكذا. ينبغي للمرء أن يكون مملاً حتى يرغب في الهروب بقوة كافية». وقد لازمه هذا التكريس للعمل منذ مراحله التعليمية في الرسم، والموسيقى وأخيرا الكتابة التي انتقل اليها من الموسيقى مثل حرباء كما قال في استجواب له لغيلا سروقا Ghila Sroka. لقد ظلّ وفيا لآرون كوبلاند الذي قال له: «إذا أنت لم تشتغل في العشرين فلا أحد سيحبك في الثلاثين».

سأله شاكر نوري في استجواب معه هنا في طنجة:

ـ لقد لاحظت أن هناك جَنْبَكَ مجموعة من أعمالك، أهي ذات قيمة نفيسة بالنسبة لك أم أنك تعيد قراءتها؟

ـ إنها هنا لأنها هنا. أنا هنا لأنني هنا وليس لأنني اخترت ذلك. ربما عندما نكون في مرحلة الشباب قد نفكر في إنجاز الكثير من المشاريع. أنا شخصياً لم أفكر في أية مشاريع لأني كنت واثقاً من عجزي عن تحقيقها. ومنذئذ قررت أن أترك الحياة تحقق مشاريعها. واليوم أقول لك بأني لا أتوفر على أيّ مشروع في ذهني. فقط في نهاية السنة القادمة سأبلغ الثمانين من عمري. (وقتما أجري معه هذا الاستجواب).

ـ هل تحب الوحدة؟

ـ كلاّ، بل أحب الصمت. إنه السبب الذي جعلني أرفض العيش في نيويورك. ثم إننا نعلم أنه لكي نشتغل بشكل جيد فينبغي لنا أن نكون وحيدين.

كان بول محظوظاً خارج محيط أسرته حيث وجد دائماً من يشجعه ويوجهه في إبداعه وعلى رأسهم جرترود شتاين التي نصحته بأن يهجر الشعر ويجرب حظه في شيء آخر، وآرون كوبلاند وفرجيل طومسون وجهاه إلى الموسيقى. وعندما أطلع بوولز جرترود شتاين على أشعاره لتعطي رأيها فيها قالت له على مضض: «طيب، إن المشكلة الوحيدة لهذه الأشعار هي أنها ليست شعراً». أما جين فلم تجد أحداً في مستوى هؤلاء عندما بدأت تكتب. إنها خالقة نفسها. ولقد عانت كثيرا من العجز لإيجاد الكلمات الخلاقة. كانت تمزق، باستمرار، ما تكتبه، لكن ميزتها أنها لم تكن تندم أو تبكي على ما تحطمه مثل طفلة غرّيرة بل قد تعزّي نفسها وتفرح، في صمت، على ما أجهضته؛ لأنه قد يكون

مشوهاً، في نظرها. وإذا حدث لها هذا العجز في الكتابة فإنها تغرق نفسها في الكحول: قد تشرب وحدها زجاجة كاملة من جين ـ طونيك في شقتها (مثل كيت في السماء الواقية التي شربت زجاجة كاملة من الشمبانية على الريق في الفراش، ومعلوم أن فيها ملامح من جين) أو تخرج لتتسكع في الحانات لتفجير أفراحها بطريقتها الساخرة التي قد تجرح من لا يعرفونها. إنها تريد دائما تكسير المعتاد. هي، قطعا، أذكى من عمرها منذ صباها (مثل بول). ربما موت أبيها وهي في حدود الثالثة عشرة من عمرها (وأيضا كانت وحيدة أبويها)، هو ما أذكاها قبل الاوان، بالنسبة لعمرها. يرى فيها غينسبرغ ذكاء، نبوغاً، احتشاماً واحتراماً، وتذكره شخصيتها بجوان Joan Vollmer زوجة برّوز.

إنّ جين هي من أكثر الراهبات أمام الكلمة الموحية. ولعلّ «في البدء كان الكلمة» كان أكثر ما يُرْهِبُها: إذ كل كلمة تكتبها فهي عرجاء، حسب اعتقادها، وذنبها المسكونة به لا تريد أن تحدده وتبوح به. التدمير الذاتي وُلِدَ معها وكان قَدَرها المحتوم.

أخلاقها صارمة، محتشمة؛ فهي رفضت، عندما أصيبت بمغص هضمي، أن تكشف للطبيب عن جسدها. لم تكن ترغب في إنجاب أطفال. لعلها كانت تخشى آلام الحمل والولادة أو ربما الموت نفسه. إنها بالغة الشجاعة وبالغة الخوف: أتذكر هنا إدغار آلان بو الذي كان يوقظ، في قصصه، الأموات في توابيتهم، وقبورهم بينما هو كان يخشى أن يأوي إلى فراشه لينام وحيدا في سلام. إنّ مثله، في العمق، كانت جين بوولز وإن هي لم تُنهض أحدا من قبره في كتاباتها. كان لا بدّ لها أيضا من تخدير نفسها بالكحول. والمنومات حتّى تنام أو عندما تريد أن تأخذ المصعد: حيث يغدو كل شاهق يغمرها بدوخة الصعود، وكل منحدر يشعرها بالسقوط في هاوية لا قرار لها، وكذلك هو النفق: فهو بمثابة متاهة لا نهاية لها ولا مخرج منها. جين تخاف أيضا من

النار، ومن الكلاب، ومن التماسيح وحتى طحالب البحر. . . ! لم أعرف جين شخصياً، لأنه حينما قدّمني إدوار روديتي إلى بول بوولز كانت هي في مرضها العصيّ والأسيان في مالقة رافضة أن يزورها إلاّ الحميمون جدا في حياتها، لكني استمعت إلى الأحاديث الطويلة عنها من بول والذين عرفوها وعاشروها مثل التسماني (السائق السابق لبول وجين)، وأحمد اليعقوبي (رسام مغربي)، والعربي اليعقوبي (ممثل ومجهِزّ ملابس التمثيل)، والحمري (رسام مغربي)، ومحمد المرابط وهو أحسن من يدافع عن جين من بين المغاربة الذين عرفوها. كان المرابط يُعنى حينما تمرض ـ حسب شهادة بول نفسه ـ بينما هي أوعَزَت إلى بول أكثر من مرة بأن يَطرده من العمل معهما. طبعا كان هذا في البداية، لكنهما صارا صديقين يدافع كل منهما عن الآخر. كذلك حدثني عنها براين جيسن، وإمّا Emma صاحبة مسبح شاطئ B.B.C، وروديتي، وليلي Lilly صاحب Bar Parade.

لعلّ انتحار جين بوولز العقلي، البطيء، هو الذي قادها إلى الافراط في الشراب، والمُسكّنات وخليط من الأدوية. في رسالة إلى فرجيل طومسون يقول بوولز عن جين: «إنها مقتنعة أنه لا أحد قادر على تشخيص مرضها وأن الانتحار هو الحلّ الوحيد». لقد أرادت أن تعرّي نفسها فراحت تطعنها وتنهشها حتى العظام. ولم يكن بول يمارس علهيا أيّ تعسف، حسب ما سمعته منه، لكي تتخلّى عن أهوائها، وهذه نزاهة منه. كان يشفق عليها دون أن يردعها بل كان يتحمل نزواتها عندما توقع شيكات برصيد أو بدون رصيد وتعطيها لمن يطلب مساعدتها حتى ولو لم يكن يعرفها أو تترك حسابات في بعض الحانات مثل باراد Parade يدفعها عنها هو البخيل الذي عاهد نفسه بألاّ يدفع إلاّ ما يمكن دفعه عن نفسه لا عن غيره. «دائماً أخبئها وأصرف منها أقلّ ما يمكن». هكذا يقول عن النقود؛ لأنّ المال لا رائحة له Pecunia non olet.

إنّ بخل بول بوولز يتجلّى حتى في الورق الذي كان يكتب عليه بعض رسائله إلى جين: ورق فظيع كانت تكرهه كما تشير في حاشية رسالتها اليه في نهاية العام 50 من باريس. انه حقاً قد عاش فترة فقيراً أيام دراسته في أميركا، وبعدها هرب من والديه إلى باريس، ولكنه لم يجُعْ إلى حدّ أن يرى «خَرْيَة» كلب ويحسبها دُقَّة الخَرْدَل moutarde كما حدث لهنري ميللر في باريس نفسها، ولم ينم في الشوارع وتصطكّ أسنانه في برد ليالي يناير وفبراير مثل جنيه Genet الذي كان يتسول قوته اليومي جوّاباً قرى الأندلس ولا يجد ملجأ يحتمي به من البرد والريح. لقد كان بول بوولز يجد دائما قريباً من عائلته أو صديقاً يؤويه ويساعده. ولعله ورث شحه من والديه اللذين لم يكونا يعينانه مادياً الاّ حينما يكون مشرفاً على الافلاس التام. ومعروف أن بول بوولز يحب المال ويؤثّر عليه محاولاً دوماً أن يتقرب إلى من يملكه. يقال عنه: «هو يعيش حياة قناعة» لكن لماذا لا يقال عنه: إنه يعيش حياة شحّ. فهو تعجبه حياة الرفاهية، لكنه لا يدفع ثمنها. ورغم تحسن أحواله المادية، في نهاية الأربعينات، فقد تردد كثيراً قبل أن يشتري أوّل سيارة. لكن، بايعاز من براين جيسن: الشيطاني، وضع حدّا لتخوفه من الخصاص المادي فاشترى جغوار Jaguar جديدة غطاؤها قابل للطيّ Décapotable، وشغَّل معه محمد التمسماني سائقاً له بلباس رسمي اقترحته عليه صاحبة أوتيل فيللا ميموزا Hotel villa mimosa.

أصيبت جين بشلل نصفي سبّب لها شبه عمى ثمّ عمًى تاماً قبيل وفاتها. كانت تجد أسباباً لكي لا تكتب شيئاً يهم الآخرين. وقد يكون تجاهل الجمهور لروايتها «سيدتان رصينتان»، واشمئزاز أسرتها من إقدامها على كتابة هذا العمل المشين، ثم النقد الذي لم يتفهمها حيث اعتُبرت الرواية سخيفة وباطلة لدى ظهورها. كل هذا قد ضايقها كثيرا وأثّر على حساستها المُرْهَفة. ومن بين الاحباطات الكثيرة ما يرويه بول

في رسالة إلى فيل نورنبرغ Phil Nurenber: «جين وأنا كنا قد انتهينا من الخروج من حانوت في الشارع الثامن وأنا حامل كيساً ورقياً جدّ ضخماً. القصد كان هو الوصول إلى منزلنا من الشارع العاشر في أقرب وقت ممكن. لكن أنايس نين Anais Nin ظهرت وباشرت مع جين أطول حديث أتذكره بينما أنا كنت أحاول منع الثلج الذائب من أن يفسد الكيس. بعد أربعين دقيقة تابعت أنايس نين طريقها؛ كانت قد حكت لجين كم أضجرتها روايتها[1]. الأمر واضح، إذن، فأنا لن أنسى اللقاء».

لقد كانت جين تغذي نتاج بول الادبي بوجودها معه كما يعترف هو نفسه. لم يعد يكتب شيئاً مهماً ـ حسب قوله ـ بعد وفاتها. أما هي فكانت تنفي وجودها الأدبي فيه ولا تريد أبداً أن تعتبر نفسها نداً له عندما تقول: «لا ينبغي أن يكون أديبان في أسرة أدبية». أهو مبرر لعجزها عن استمرار استلهام الكتابة؟ إنها متواضعة إلى حدّ مهابتها. وحين كان بول يزداد شهرة في الموسيقى ويشقّ طريقه في الادب كانت هي تخبو متألمة عمّا لا تستطيع أن تنجزه ولو من أجل إرضائه. كانت تشعر بالغيرة القاتلة والاضطراب من أحمد اليعقوبي رغم أنها هي التي شجعته على الرسم في فاس صحبة بول عندما لم يكن يعرف بعد كيف يمزج الألوان. كان أحمد اليعقوبي يرسم بحيوية وهي عاجزة عن كتابة أسطر في روايتها الجديدة: «خارج العالم داخله Out in the world»[2] التي كانت قد بدأتها عام 50 في باريس ولم تنهها أبدا. وكانت قصة A stiek of greem candy هي آخر ما كتبته في مارس 49 أثناء عطلتها مع بول في صحراء الجزائر.

---

(1) سيدتان رزينتان.

(2) أو حرفياً: خارج ـ داخل العالم.

إنّ جين كرّست نبوغها في الحياة خِلافَ بول الذي صبّ موهبته في تآليفه الموسيقية وكتبه دون أن تشغله حتى أية عاطفة جنسية ما عدا حبه لجين. إن جين وضعت أدبها في الحياة، وبول وضع حياته في الأدب مع كل تحفظاته؛ حيث يكتم سرّه حتى على نفسه: أن تراه ولا تراه محاولا أن يرى كل الناس ولا يراه أحد. أو كما هو على لسان ديار في «السماء الواقية»: «كان هو الإحساس نفسه الدائم، أن لا يحسّ نفسه متورطاً في ذلك، أن يبقى على الهامش، أن يكون إلى جانب الواقع لكن ليس منخرطاً فيه». أما رامبو فقد نقل الادب إلى الحياة دون أية تحفظات: وضع قلبه على الطاولة كما يفعل ثلاثة أو أربعة عباقرة يظهرون كل قرن حسب تعبير سيلين Céline، والآخرون يمارسون لعبة الإنشاء والمحاكاة.

يقول عنه صديقه طومسون: «إن بول كان له قليل من الغريزة الجنسية». «ببساطة لم يكن الجنس مهماً بالنسبة له». وأكثر من هذا فإن طومسون وآخرين من أصدقاء بول وجين يشكّون في أنهما (بول وجين) كانت لهما ممارسة جنسية مع بعضهما البعض. لكن ميليسنت ديلون[1] Millicent Dillon تؤكد أنهما مارسا الجنس، ولكنه انقطع بينهما بعد سنتين ونصف حسب ما قال لها بول نفسه. وهكذا فإنّ الجنس سيصبح إثماً في حياته. وكان أيضا يخشى أن يغتصبه أحد خاصة في حمّام مغربي عمومي. وإذا كان بول مفتوناً باللواط فهدفه منه هو تصعيده حتى يصير تجريدياً: مجرد فكرة حتى يسلم منه جسدياً. كتب إلى صديقه بروس موريسيت Bruce Morrissette مؤكداً له أن «اللواط هو موضوع أخّاذ بالنسبة لي، كما هي الجرائم الدامية، الاغتصابات، وحكايات المدمنين على المخدرات. إنها مثيرة للمشاعر لأنها ميلودرامية. إنه

(1) روائية أميركية، كاتبة سيرة جين بوولز ونشرت أيضا مجموعة من رسائلها.

صراع! ومن لا يهب سنوات من حياته ليستطيع خنق أحد ما دون أن يُعاقَب. . . ؟».

هذا هو مفهوم الجنس عند بول بوولز. وبما أنه غير قادر على ممارسته بمثل هذا الانحراف الشاذ فإنّ تطهريته تبقى محمية مثل قوقعة. وقد كوّن ميوله التي ستشكل مفهومه لحياته باكرا حينما يكتب لبروس موريسيت هذا الاعتراف (20 ـ 2 ـ 1930): «أنا جدّ فاسد. إذا فطنت أني فاعل شيئاً ممتعاً يروق للناس فإني أغيره بشيء آخر؛ لا بدّ من أن يكون سيئاً. ينبغي لي إزعاجهم مُراهَقة؟ غضب. ربما ستقول بأنه جانب من عاطفة شمولية. Panemocionalismo إذا كان، فما زلت قادراً على أن أكون سويا (أقصد بهذا اشتهاء المُغايِر أو لوطياً hetero U Homo)، لكن، إذا لم يكن، فسيكون عليّ أن أتشرد في الحياة مفتشاً عن شيء أحبه نهائياً، وهو جدّ محتمل أن تكون حيوانات. وذلك سيكون سيئاً، لأنه يتعلق بفسق أكثر فسقاً من التسامح العادي مع البشر. لكن منذ زمان فطنت إلى أنه أينما لمست شيئاً بيديّ أحوّله إلى شكل فاسق. لا يمكن أن يكون هناك حبّ، مودّة وحتى رضا «في حياتي». إن ما يمكن لها إرضائي هي رذيلة ما. إنه أكيد، حقيقة. أن أُضْرَبَ، مثلا. عيب ما. لكن يا له من رضا. إحراق غابات. يا لها من لذة. أن أعضّ نفسي من الألم. إنه أكثر إرضاء من التعامل سيئاً مع فتاة أو رجل. طيب، حمداً للّه، على الأقل أنا شاذّ بشكل (مُخَالِف). لكنه يحوّل الحياة إلى سلسلة من السلالم حيث تؤدي إلى أصقاع هي من العمق والنتانة لا توصف. لا يمكن لي أن أكوّن أيَّ مفهوم عن وجودي. كل يوم يجعل مني لحماً أكثر فساداً. لا شيء جسدي. هناك احمرار في خديّ، لكن أوه، ها، ها، السهم مغروز في قلبي. أن أحدثك عن ذلك يهمني. هو بمثابة أن يُحْكىَ لصديق حادث مرعب رآه المرء ولا يستطيع النسيان. إن الحكاية تحيي المشهد بقوة أكثر، عابراً،

هو أكيد، لكن ما بعد يتيح للإنسان أن يسترخي وينسى كل شيء إلى أن يرغمه حلم ليلة على تذكره».

إنّ بول بوولز هو الذي يعطي أهمية للمكان والناس ولا ينتظر أحداً ليسعده. أو «بمجرد ما تقبل واقع أن الحياة ليست مسلية فستكون سعيداً أكثر» هكذا كانت الأم تقول لابنها ديار Dyar. هدف بوولز هو أن يكشف عن الفنّ ويخفي الفنان كما يقول أوسكار وايلد في تقديمه لروايته «صورة دوريان جراي». نفس الفكرة يعبر عنها بوولز لكنه يذهب أبعد من وايلد: «اعتقادي الخاص كان هو أن الفنان ما دام عدواً للمجتمع فينبغي له أن يبقى لمصلحته الخاصة أكثر ما يمكن خفياً وطبعاً غير متميز من باقي الأوباش. في ركن ما من ذهني كان يسود الافتراض بأن الفنّ والجريمة كانا متحدين غير قابلين للحل والفسخ؛ فبقدر ما كان الفن عظيماً، كان عقابه بالغ الشدة. . .» على أن بوولز سيدوس ويسحق أية قيمة يتبجح بها الكاتب عن نفسه حينما يكتب إلى جيمس ليو هيرليهي James Herlihy (طنجة 30. 4. 66): «تُعطَى أهمية بالغة للكاتب وأهمية أقلّ لعمله. ماذا يهم من هو وما يحسه إذا كان مجرد آلة فقط لنقل الأفكار؟ في الحقيقة هو غير موجود. إنه صفر، فراغ. جاسوس مبعوث إلى الحياة بقوى الموت. موضوعه الرئيسي هو إرسال الخبر إلى الجهة الأخرى من الحدود، مرة أخرى إلى الموت. حينئذ يمكن الإنعام عليه بشخصية أسطورية: «قضى حياته بيننا، خاننا واجتاز الحدود حاملاً معه اللوازم». لا أعتقد أن الكاتب يساهم في شيء: ادعاءاته لفعله هي تَخَلُقِيّة (حربائية). الشيء الوحيد الذي يعرف أن يفعله هو أن يحافظ على سير الآلة وأن يتعلم تحسينها بتثاقل وفي كل مرة هو أقلّ مهارة. إن جاسوساً ما هو ماكر وبمقياس الممكن، مجهول. إن اقتناعاته وانفعالاته الشخصية هي آلية «ماكرة». كل هذا يبدو بالغ الجدّية، لكن أنت الذي أثرته». على أن هذه الفكرة عبّر عنها رامبو في مطلع شبابه ببضع

كلمات: «المؤلف، الشاعر، هذا الرجل لم يوجد بعد!» مع ذلك، الإنسان مطلوب منه أن يختار الوجه الأقلّ قتامة لإثبات وجوده: أن يساهم في استمرار ما سبق خلقه أو، على الأقل، أن يُرَمِّمَه.

إن بوولز لن تنقصه الشجاعة لخلق أبطال يعذبهم دون رحمة. لقد خلق عذاب الآخرين في أعماله لينتقم مما عاناه في طفولته. إنه خلاصه حتى لا يُجَنّ. أن يضع الآخرين في الجحيم ليجد عزاءه. كلنا سنذوق العذاب الأليم. لِمَ لا! لعله انتقام من الوجود البشري كله.

كثيرون، من الغربيين والأميركيين، يقولون إنّ طنجة دون بول بوولز ليست طنجة. لكن، أية طنجة؟ أهي فقط طنجة التي أحبها بوولز وأمثاله يوم كانت لطيفة Chic والعيش فيها رخيص جداً، وحيث أيضا كان المال هو الذي يبحث عن الناس أكثر مما كانوا هم يبحثون عنه؟ إنّ فضاءها هو الذي خلقهم فيها، وقليل هم الذين ساهموا في إثرائها أدبياً وفنياً دون ادعاء. بمعنى آخر: في البداية، الفضاء هو الذي يُغْني المبدعين، ثم هم الذين قد يُغْنون الفضاء، إذا أصبحوا عباقرته.

يقول بيتر أوين، في غلاف أحد كتب بوولز: «إنّ بول بوولز يعرف المغرب أحسن من المغاربة». ويقول أيضا في كتاب (بول بوولز كما يراه أصدقاؤه): «في العام 62. كنت أستحمّ مع زوجتي في «شفشاون» والتقيت هناك أميركياً فاتفقنا معاً على أن رواية بول بوولز «السماء الواقية» هي موجز المغرب». إنّ بيتر أوين لم يحدد لنا مستوى هذا الاميركي الذي اتفق معه. فقد يكون مجرد سائح عادي. والسياح العاديون ليسوا حجة على أية حضارة أو ثقافة ثم إنّ «السماء الواقية» ليست فيها إلاّ ملامح جدّ باهتة عن المغرب. كان عليه، بالأحرى، أن يشير إلى صحراء الجزائر حيث تدور معظم أحداث الرواية. ولذلك فالورقة التي لعبها هنا بيتر أوين خاسرة. وعن السيرة الذاتية لبوولز يضيف: «في رأيي أن بول بوولز هو أكثر طيبة من أن يكتب سيرة ذاتية

واقعية؛ لأنه يكره أن يتكلم سيئاً عن الناس». لقد كان على بيتر أوين أن يقول أيضا: «لأنه يكره أكيدا أن يتكلم سيئا عن نفسه هو بالذات». وطبعا معروف دائما عن بيتر أوين أنه سخيف في تصريحاته التي يزكي بها تجارته كناشر ابتزازي لحقوق المؤلفين من بينها حقوقي عن كتابي (من أجل الخبز وحده For breada lone ـ الخبز الحافي في أصله العربي). ومثله ميجيل ريبرا مونتيسينوس، Riera Montesinos Miguel، دانييل هالبرن Ecco Press, Daniel Halpern ـ وجفري ميللر Jeffrey Miller Cadmus. إنهم عَوالِقُ Vampíros هؤلاء الناشرون. فعندما طالب وكيل أعمالي روبيرتو دي هولاندا دانييل هالبرن بحقوق نشره كتابي «جان جنيه في طنجة»، الذي ترجمه بوولز، أجابه: «إن الحقوق محفوظة لبول بوولز، وشكري ليس إلاّ أمياً». وربما لم يكن دانييل هالبرن يعلم أن النص موجود ومكتوب أصلا بالعربية، أو أنه كان يعلم بوجوده وأراد أن يتملص منه عن قصد.

ظلت موهبة جين بوولز تنتظر انضباطها في العمل، لكن الإحباط، أدبياً وحياتياً، ظل يُعجِزها عن إنجاز ما كانت تريد إنجازه. كل الفضاءات التي عرفتها لا تحبها إلاّ وهي بعيدة عنها: إنها تحنّ إلى طنجة وهي في باريس، وتحنّ إلى المكسيك أو نيويورك وهي في سيلان (سريلانكا اليوم) أو في طنجة.

تميزت جين بوولز بسخريتها من كل شيء حتى في أكثر الحالات الكئيبة في حياتها. ربما لتتخلص من عقدة سُلطانية أمها ـ وإنّ لم تصل إلى قسوة وجهل أمّ رامبو. لقد عانت منها كثيراً، ورافقها استبدادها طوال حياتها وهي على بعد قارة أو قارتين منها. أما بول فقد تدبر أمره باكراً متخلصاً من كل لعنة عائلية تلاحقه. كان أكثر مواجهة في التمرد على توجيهات أبويه الصارمة خاصة أباه! وكانت أمه، أيضاً، ضحية لِتَعَنُّتِ أبيه!.

عرفت جين بوولز الشريفة[1] في أبريل العام 48 عن طريق بوولز الذي كان يعرفها في «سوق الزراع». كانت الشريفة تبيع القمح في دكان (شبيه بِوجار) ضيق إلى حدّ الاختناق، أيام الصهد[2]. كانت كتلة بشرية تثير الإشفاق، جهازاً هضمياً، لا أثر فيها لما يمكن أن يُغري من جمال أو سلوك. إنها متوحشة وشريرة. هكذا يقول عنها الذين عرفوها من مغاربة وأجانب. حتّى جين نفسها كانت تشكو من قسوتها عليها في رسائلها إلى بول وإلى أصدقائها بما تُرهقُها به من ابتزاز ماديّ فادح، هي الكريمة والمُفلِسة، في معظم الأحيان، أو إحزانها بمراوغاتها العاطفية. كانت مسيطرة عليها إلى حد أنها أرادت أن تخضعها لتصوم معها رمضان. وكانت جين تعتبرها مثل ابنة تبنتها. وبدون رعايتها (حسب قول جين) ستشقى. ولكن جين كانت ترعى غُراباً. غير أنّ هذا لم يكن يهمها، هي العنيدة الشفوقة. إن سحر الشريفة، بالنسبة لجين، هو في الجميل المنعدم فيها. ولأنّ جين (مثل بول) منجذبة دوما إلى ما هو غامض ومبهم وما ينفر منه الآخرون فقد انسحرت بها. وربما هذا الغامض في علاقاتها العاطفية هو ما أدام علاقتها بالشريفة أكثر من سابقاتها. آلم جين مشهد هذه الكتلة البشرية المكدودة، الملتحفة بلباسها الجَبَلي و«شاشيتها»[3] في حجم عجلة سيارة، والمتكورة على نفسها في حانوتها ـ الوِجار فأشفقت عليها ثم أحبتها بجنون. ما أقسى حبّ امرأة لامرأة!.

إنه عناد الحب القاسي، المراد، وربما القاتل، القدري، اللابُدَّ منه. ليس ضروريا أن يكون شاهدا أو حَكَماً على مثل هذا الحب أحد.

---

(1) ولدت في طنجة بقرية المراين ناحية رأس اسبارتل Cap spartel حوالي عام 1928 ويقال إنها توفيت في 1989.

(2) الصّهدان أو الصيْهِدان: شدة الحرّ.

(3) قبعة كبيرة تعتمرها المرأة الجبلية اتقاء للحرّ.

إن الذين عرفوا الشريفة، من المغاربة، يعتبرونها «ساحرة»، ماكرة، قادرة على تسميم الإنسان حسب المرابط نفسه، الأكثر معرفة بها. ولا يختلف معه أحمد اليعقوبي الذي يؤكد أن الشريفة كانت تسحر لجين خاصة عندما وجدت تحت مخدتها شَعَراً ودماً متخثراً وأظفاراً ملفوفة في رزمة خرقة. ويعتقد بول أنها حقاً سممت ببغاءه، وقد تسممهما هو وجين[1]. وكان أكثر ما يخيفه فيها ضحكتها المفرقعة الكاشفة عن سنّها الذهب. أما الأجانب، الذين عرفوا الشريفة صحبة جين، فإنهم ينعتونها بالتفاهة، والدمامة والخبث. لكن السؤال هو متى أُغرمَت جين بما هو مهم ومن هو جميل؟

عاشت جين بوولز لتهدم كل ما يهمها ويهم الآخرين. ومهما يكن، فإنها، خلافاً لبول السادي ـ المازوخي[2]، كانت قاسية على نفسها وليس على أشخاص كتاباتها.

إن بول بوولز لم يقتل ويعذب، واقعياً، أحداً، لكنه قتل وعذب الكثيرين في أعماله الأدبية. ومن حسن الحظ أن مخيلته لم تصل إلى مستوى المركيز دو ساد. وربما لعجزه وليس لرغبته. إذ لا نعرف ماذا كان سيكون لو أنه استطاع؟ لأنه، مثلاً، اقترن في ذهنه دائماً الجنس بالجريمة أو الفجور. وعندما عجز عن تجريم الجنس نفاه من حياته إلى حدّ العداء. إنّ بول بوولز مجرم جنسي خفيّ لم يرتكب جرائمه.

عندما كانت تذكر كلمة «السعادة»، في حضور جين، فإنّ عينيها تتسعان ضاحكة وتقول بسخرية: «السعادة، ما هي السعادة؟ أين هي

---

(1) يعتقد بعضهم أن مرض جين كان نتيجة (التوكال) السّام الذي وضعته لها الشريفة بالتدريج في الأكل فسممها وسبب لها شللاً لازمها حتى مماتها. وبطلب من جين أهدى بوولز للشريفة منزله في حيّ «أمراح» المؤدي إلى باب البحر في القصبة.

(2) Sadomasochiste: الشخص الذي تزدوج فيه السادية والمازوخية.

السعادة؟» وطبعاً لم يكن أحد يجرؤ على أن يجيبها. . . ! إن سخريتها محيرة، وحتى عند قراءة أعمالها نجد أنفسنا ملزمين على التلاؤم مع الجانب الساخر فيها. عندما أُخْبِرَ بوولز بأن فرقة الصورانو Le sorano للمسرح الوطني بتولوز ستعرض مسرحية In the summer house بيتها الصيفي Sa maison d'été ـ في ترجمتها الفرنسية ـ بعث للمسؤولين على الفرقة برسالة منبها إيّاهم: «كلما بدأتم تنظرون إلى أنفسكم بجدية، فإنكم تخسرون جين. لا تنسوا أبدا دعابة جين».

نزلت من سيارة المرابط قرابة الواحدة صباحا أمام حانة مونوكل. أشباح بشرية تمرّ. لم أعد أثق في الحشرات الليليلة. كنا قد حضرنا حفلة عشاء أقامتها كلود توماس Claude Thomas في منزلها العتيق الجبلي. بول يطرب لجوق جيلالة غناء ورقصاً. يقول عن الجَذبة: «المبدأ هو أن تكون مسكوناً سواء من خلال اللّه كما هو الأمر بالنسبة لسود افريقيا الوسطى، أو من خلال وليّ مثلما هو الحال هنا، في المغرب، أو في الجزائر. إنهم يطلبون من الوليّ أن ينزل: يستعطفونه، وعموما (يَردَحون): يرقصون في الوقت نفسه. إن الموسيقى تدعو إلى الرقص وتُدخلهم في الجَذبة. إنهم يفقدون الوعي. وهذا شيء ضروري. بدون ذلك فإن الوليّ لا يمكنه أن يحلّ في الشخص. غير أن هذا لا يفلح دائماً. أحياناً، يتمرغون على الأرض، يحاولون الانحلال من أجل استقبال الوليّ. لكن شيئاً من هذا لا يحدث. إنهم يئنّون، يبكون. وحده مسلم يمكن له أن يحقق ذلك. إن غير المؤمنين مثلك ومثلي لعَاجزين عن فعل ذلك. إنه لمن المستحيل! ينبغي أن يتوفر الايمان. إنه يسمح بالدخول في الجذبة: استحضار الوليّ. إذا لم تكن مسلماً، فإنك تستهزئ بالوليّ! لكنهم يؤمنون بذلك، ولكل واحد وليّه المفضل». إنه يتوسل اليه بُغية القدوم إليه. وحينما ينتهي الرجل أو المرأة من «الرَّدْح»: «الرقص العنيف، فإنه عموما يسقط على الارض

فاقدا وعيه. وعندما يسترجع وعيه فإنه يحسّ دائماً بأنه في حالة جدّ جيدة كما لو أن له أجنحة. من وجهة نظر بسيكولوجية، فإن ذلك جيد. إنه لممتاز. . .».

المرابط شارك في الرقص حتى الانتشاء والإغماء. إنه رائع فيما يتقنه. أنا كنت شاهداً لا قدرة لي على البروز في مثل هذه الحفلات: إنها نشوة أخرى: ألاّ تكون أيَّ شيء في شيء لا يعنيك.

في يوم من الأيام، كنت عائداً من الرباط إلى طنجة في القطار، كان هناك طفل يرعى ثلاثة رؤوس من الغنم يحيي بيديه مبتهجاً قطاراً بأكمله يمرّ سريعاً. لا شك كان يراه الكثيرون من خلال نوافذ القطار. قد يبتسم له أحدهم دون أن يراه الراعي الطفل. ربما يردّ عليه طفل تحيته بنفس الابتهاج أو لا أحد. . .! ماذا يريد الطفل الراعي؟

في الرابعة صباحاً، طردني خواء جيوبي من حانة مونوكل. شممت رائحة بعض الفروج المُشهية، لكن كانت لي مشامي وكانت لهن روائحهنّ في هذه الليلة. أحسست أني أريد الاغتراب: حيث لا يعرفني حتى ظلي. «السهرات الجميلة دائما تحزنني!» هكذا قال لي أدونيس (أحمد سعيد)، في شوارع تورينو، وهو يحدثني صباح أحد عن حروب الديانات. وبين كنيسة وأخرى كنت ألحّ عليه أن ندخل حانة في انتظار خروج إدوار الخراط وزوجته من إحدى الكنائس التي كانا يصليان فيها. كان هناك أيضا مشروع زيارة متحف حيث يوجد قميص المسيح (كما يُعتقد) لكنه لم يتحقق بسبب رفيق أخذته ساقا فتاة إلى حيث يتهامسان، ويتغامزان، ويتباوسان وربما. . .!.

قال أدونيس ونحن ندخل حانة متحسراً على عدم ذهابه إلى المتحف الذي يوجد فيه كفن المسيح: «اسمع يا محمد، إنّ ما قتلته الحروب الدينية هو أكثر مما قتلته الحروب السياسية والاقتصادية».

عند الكأس قبل الأخيرة رجوته أن يكتب لي الأبيات الشعرية الثلاثة للأعرابية المجهولة التي تلاها علي في (ألبا):

وما ذنبُ أعرابيةٍ عَرضتْ لها
صُروف النَّوى من حيث لم تك ظَنتِ
إذا ذكرتْ ماء العُذَيبِ وطيبه
وبَرْدَ حَصاه، آخرَ الليل، حَنّتِ
لها آهة عند العَشيّ وآهة
سُحَيْرا ولولا الآهتان لَجُنَّتِ

انتشيت ولعنت مع أدونيس التيس والعنزة اللذين حرمانا من رؤية كفن المسيح. قد يكونان الآن يتنايكان. . . !.

كنت أترنح وأهذي عائدا إلى مسكني. وجدت في طريقي صفيحة فارغة فصرت أركلها حتى بلغت قدام إذاعة طنجة. كان فراغ الصفيحة يطنّ ويطنّ: إنه صدايَ. قال بواب «راديو بار» لرفيق له جالس معه على العتبة:

ـ مسكين! لقد حمقته القراءة والخمرة.

ولكي أؤازر نفسي وأتغاضى عما أسمع وأنساه فكرتُ في أنّ لا حياة أحدٍ أجمل من حياة أحدٍ في العقل أو الجنون الجميل، في الصحو أو في السكر المريح. بئس الليل التهم، والبقايا المتروكة في نهار حارّ. الصمت في مملكة الصخب! الآن من يهيج هذا الكلب «جوبا» في صمته؟ صمت بعض الكلاب؟ لا أحد. الكل حبيبه. ربما يكون لي الآن امتياز، ومجال ليس للنائمين. الواحدة صباحاً. إريك ساتي Eric Satie وقطرات تنسال من وريقات مشبعة مطراً على وريقات. كل أحدٍ أحدُه. لا أحدَ يسأل عن أحد.

من حظيّ أني لست، في هذه الليلة، مثل نلسن ديار NELSON Dyar[1] أو ضحيته.

يقول بول بوولز عن المخدرات: «لا أستقرّ في مكاني. لا يمكن لي أن أبقى جالساً. ينبغي لي أن أتحرك. عندما نريد الكتابة فإنه يستحيل. لكن حينما ندخن فإننا لا نريد التحرك أو القيام بجولة. إننا نظل حيثما نحن، مركزين على ما نفعله. هذا شيء عادي. عموماً، لم أكن أدخن قبل أن أبدأ الكتابة. وهذا لم يحدث قط. لكن التدخين ابتغاء البقاء مُركَّزا فهذا أمر ميسور. إنّ الناس لا يفهمون هذا. إنهم يظنون أننا ندخن لامتلاك هلوسات وأفكار سعياً للكتابة. هذا لا يعطينا أية فكرة. وفي أقصى الحالات يُلهمنا الأفكار الموجودة في الشعور الباطني، لكنها ليست بأفكار. إنها كانت موجودة هنا. إنّ «الكيف» لا مسؤولية له ولا شيء يمكنه أن يتولد عنه. إن «الكيف» لا يخلق شيئاً. لقد حاولت أن أشرح هذا، ولمرات عديدة، لصحافيين أو نقاد، لكن أغلبيتهم لم تفهم». وفي رسالة إلى Alec France يقول: «إنّ «الأرض الساخنة»[2] (في الترجمة الإسبانية أو العالم من فوق ـ Up above the world في عنوانها الأصلي) كُتِبَ كاملا بتأثير من «الكيف». وإذا لم أخطئ «الضبع» The hyena والبستان[3] The Garden وهذا لا يعني أنني لم أكن أدخن شيئاً عندما كتبت بعضاً من القصص الأخرى...».

قرب منزلي، اعترضني اثنان. تركتهما يسلبانني ساعتي دون أن أقاوم وأعنف معهما. أحدهما ضحك ضحكة استهزائية. إنهما من السافلين. لا عليهما. كانا منتصرين. وكنت أضعف من أن أدافع عن

---

(1) بطل رواية بوولز «دعه يسقط». البطل هنا يقتل رفيقه التهامي تحت تأثير «المعجون».

(2) إشارة إلى روايته.

(3) إشارة إلى قصتين له.

نفسي. فكرت: ما جدوى أن أستغيث بحارس مقهى روكسي؟ إنه عجوز. وهو الآن داخل المقهى يقظان يستريح أو هو نائم. حارس شكلي: فزاعة بشرية لا غير. سبق لحارس الحيّ المجاور أن طارد لصين كانا يحاولان سرقة سيارة. في اليوم التالي كانوا أربعة. كتَّفوا له يديه ورجليه ودعكوا له أوراقاً في فمه. وحشوا له «السبسي» الذي يدخن به كيفه في أسته. هذه هي الحراسة في حارتي: شوف واسكت.

كانا يسلبانني كل ما أملك وأذن أحدهما قريبة من فمي. كلاً. سيسلخانني إذا أنا عضضتها له، أما إذا بترتها فحتماً أنهما سيقتلانني. ثم هناك السبسي والأوراق المدعوكة في الفم. مراهقان من مدمني «السولوسيون» La solution[1]. إن مرحهما وضحكاتهما يؤكدان ذلك. ساعتي. ربما هما في حاجة اليها أكثر مني. ضحكا، اللعينان، وهما يبتعدان. غرت منهما. إنّ للسرقة نشوتها. سبق لي أن شعرت بها عندما شاركت في سرقة حانوت في الترانكات[2]. في تلك الأيام لم تكن تتم السرقة بحشو السبسي في الأست والأوراق المدعوكة في الفم. كان للسرقة أخلاق.

لم تكن هناك سكين ولا سيف للتهديد أو الطعن. كان هناك اللص الذي يسابق الريح.

كانت ساعتي التي سلبانها أهدانيها شاعر مغربي. لا عجب أن تُسرق هدايا الشعراء في آخر ليل الفقراء.

انزلقتُ صاعدا الدرج: دم في ساقيّ. الكهرباء مقطوعة حفاظا على الطاقة. ظلام دامس. الليلة أيضاً هي هنا. إنها تنام بين بابي وباب جاري في انتظار أن يجيء أو لا يجيء. تلبس بلوجينز وكبوتاً قصيراً.

---

(1) محلول الأثير Ether (شديد التبخر والاشتعال) وهو نوع من الغِراء أو الصمغ يستعمله بعض الشبان بالشم للتخدير.

(2) حي شعبي في تطوان.

لا بد أن تكون سكرانة أو محششة حتى تنام هكذا على الأرض الباردة. كلما وجدتها هكذا أضطر أن أتخطاها لأدخل حتى وإن كانت «إحداهن» فإنه لم تعد تروق لي دعارة الغريبات. نمت وصحوت. شربت ما تَبَقّى في الكأس من نبيذ. الساعة لا عقارب لها الآن. تذكرت الساقية في بار ماروك. أعرفها يوم كان نكاحها أفضل من الاستمناء. اليوم صار الاستمناء أفضل من نكاحها. الملعونات! لا يتلطفن إلاّ عندما تبدأ الشيخوخة تغزوهن بشكل سيئ، أو عندما يبدأن ينمن عند عتبة بابك في انتظار مجيئك متى شئت أيها السيد..! من الأفضل أن نشيخ معا دون أن نحسّ. الساقية لا أدري لماذا أرغب في خنقها كلما رأيتها؟ ربما لأن فمها يَتَمَرْحَضُ إذا هي تكلمت. سأحسّ بمنتهى النشوة وعيناها جاحظتان وثقل جسدي مُتجمّع في يديّ وأنا فوقها أضغط وأضغط بجماع قواي وهي تناضل محاولة الانفلات أو أن تتنفس ولو نشقة من الهواء ولا تستطيع. ما أريح الدفء الذي يفارقها فإذا بها مثل سمكة على شاطئ مهجور! إن مثل هذه الجرائم المتخيلة أوحت لي بها كثير من وجوه الأغبياء المزعجين. كم جرمتُ في الخيال الذي نجاني من إجرام حقيقي! أحياناً لا نعرف لماذا نجرم.

تأملت السقف. سقفنا جميعا في بيت المستقبل الأبدي. لم يعد لي من ليل طنجة إلاّ نملية من لا أعرفهم. هجم عليها التتر والمغول فاختفى أبطال ليلها منهزمين. فكرت في رشيدة الحشاشة. إنها اليوم جُنّت. تمشي حافية القدمين أو تجرّ نعلاً من البلاستيك وجلبابها مُبقّع بالوسخ منتشرة فيه ثقوب من الأمام. بين سبابتها وَوُسْطاها اسوِداد ممزوج بالاصفرار. إذا دخلت إلى مقهى أو حانة فإنها لا تطلب إلاّ السجائر. اعترضتني ظهرا وقالت من خلال أسنانها المُتَهدِمَة: «لو أنك تزوجتني لما رأيتني كما تراني اليوم». فكرتُ، وهي تأخذ مني سجائر وثمن أكلة خفيفة: لا يمكن لنا إنقاذ كل من نحبه. تلك جُنّت، تلك

تزوجت بمن هو الآن في السجن، تلك طلّقت بعد إفلاس زوجها في القمار والسكر، تلك شاخت مُتسوّلة في صمت دون أن ترفع يدها لمن يمرّ، تلك ماتت دون أن تجد إلى جانبها من يلطف احتضارها بقطرات ماء في فمها ومنشفة مبللة على جبينها المحموم. كلهن في الحضيض أو في الرّهان على الحلم المستحيل أو في العدم الأعلى.

ليل طنجة. . . الأسطورة أتعبني تشيؤه، أغثتني حثالته المجرمة حتّى لم أعد أتقيأ في الصباح إلاّ الصفراء، لكن ليل طنجة مثل صوت ساحرة عوليس لا يخضع لقواعد الرحلة الأدويسيّة كما هي الساعة لا عقارب لها في ذهن جدتي رقية أو خالتي فاطمة (بالظاظ كما ينطقها الريفيون). الجدات والخالات يتشابهن. أما أنتَ فكلكَ لها منك شيء، وهي لها شيء منها لك. لا تَطابق، لكن حتماً هناك تلاقح. لا أريد أن أعود إلى الحَلَمة رضيعاً. كفاني الفطام قبل الأوان. لا ذكاء بالغ بين رجل وامرأة: لكل أخلاقه. أحدهما يذوب في الآخر. إنها شريعة العشق القاتل، لكن كلانا الآن يعيش متوحداً. جنون البعد يُقَرِّبُنا أجمل. لي دائماً موعد مع الشفق وليس الشمس. إنها لحاسري البصر.

صمت سقفي يتكسر الآن من جديد بزمّارات عرس يمرّ بطيئاً في ضجيجه ليثبت وجود مستقبله المُحتَمَل. إنك تجد نفسك أمام الصمت الليلي ينكسر بزمّارات عرس أو بزمّارات باخرة تعبر البوغاز.

الزمارات الأولى توحي بالثبات للذين قهرتهم الوحدة، والثانية تنبئ بالسفر إلى عوالم مجهولة تشتهيها المغامرة الهاجسة. لا شيء يُشفّفك كما تريد من هذا الصمت الجليل إلاّ إذا شفَّفْتَ نفسك: ألاّ تريد أن تسمع حتّى عندليبك فإذا هي «الجَوْقَة»[1] و«الجوق»[2]. صمت النُساك.

---

(1) المقصود هنا الجماعة من الناس.

(2) المقصود «الجوقة الموسيقية».

لم يعد لنا إلاّ تاريخه. صمتك. صمت سقفك. صمت الصمت. السقف الذي لا يقاسِمُكَهُ أحد حتى في النظرة اليه. أنت تكون ما أنت عندما تنتهي من عملك. كم أكره من تستمرّ معه مهنته أينما حلّ! أن تجرد نفسك، أن تتمرد على رب عملك، ألاّ يُزاحمك أحد في وحدة سقفك، ألاّ نزاحم حتّى أنفسنا، أن نعزل حتّى أنفسنا عن أنفسنا، أن نغلّق أبوابنا حتّى في وجه أعزّ من نحبه ويحبنا. فَلْيَصمُد من هو أكثر صمتا ووحدة، ولنحذر من مُجَامَعَة القطيع!.

3 ـ 5 ـ 1994

زرت بوولز هذا المساء صحبة روبيرتو دي هولاندا قرابة التاسعة. وجدناه يدخن سيجارته السوداء المحشوة بالكيف في فراشه. سألته:

ـ كيف الحال؟

ـ كما ترى. إني وحيد.

ـ في الوحدة إما أن يكون الإنسان عبقريا أو بليداً.

وبابتسامة ساخرة قال:

ـ ولماذا ليس هما معاً؟

عندما سئل بول عن دواعي زواجه جين أجاب: «لكي اتخلص أنا من النساء، وتتخلص هي من الرجال». لكن بول يقول بأن هذه رواية لفّقها النّمامون. أما جين فإنها تتبجح بشذوذها بينما بول يكتمه أو يراوغ إذا سئل عنه. منذ البداية اتفقا على أن لا تكون بينهما أية خيانة؛ فهي ستعرف كل عشاقه، وهو سيعرف كل عشيقاتها. ومعروف أنه ورث من التطهرية أكثر مما ورثت جين. طوال عشرتهما لم يكن أحدهما يعرف من كان يترك الآخر عندما يفترقان. ربما كانا يتعمدان هذا الفراق، الذي

يطول أو يقصر، لخلق الحنين بينهما حسب مزاجهما. أنا ايضا أفعل هذا مع المقربين إليَّ أو مع طنجة نفسها: فحينما لا أجدها في داخلها أبحث عنها خارجها والعكس لا أستغني عنه من حيث تَلِدُ إذ ما أكثر ما أسافر، أحياناً، دون هدف، داخلها أو خارجها! قد أهجر شقتي لأسكن في فندق عائلي مات عشاقه أو قهرتهم الهجرة إلى عوالم معلومة أو مجهولة. قد لا أزور حاراتِ شهوراً أو سنين. ومن المعروف عن جين أنها كانت أكثر عناداً في مطالبها لكي تعود إلى بول. وكان هو يذعن. لا أعتقد أنه أحبّ أحداً (إذا هو حقاً أحبّ) كما أحبها. لقد أخذ في الانطفاء أدبياً، ونفسياً طيلة فترة مرضها حتّى ماتت فصار يشيخ بتهكم كاتماً كآبته بكبرياء. إن جين تتردد كثيراً لكي تقرر شيئاً ما، لكنها إذا هي قررت تصبح أقوى من بول. وعن الفراق بينهما، الذي يحدث على فترات متباعدة، كانت هي تكتب قصة عن امرأة تتخلّى عن زوجها وهو يكتب قصة عن رجل يتخلى عن زوجته. أكانا يلعبان لعبة الوجود الأدبي؟ ذلك سرّهما مثلما هي عشرتهما. إن جين، أحياناً، تحب ما يكرهه، وتكره ما يحبه. وبينهما تَحْتَمِل حياتها في عذاب مزمن، ونزوات هازئة برتابة حياة المحيطين بها. سخريتها كانت لاذعة، لكنها مستحبة لدى عشاقها ومريديها. معلوم أن بول أقوى من جين في تحمل عذاباته النفسية وكتمانها منذ صغره. لكأنه قُدَّ من صخر. إنه يتذمر، لكنه يقاوم الشكوى، يحب من يسدي إليه الإحسان في المأزق، لكن له نزوع قوي إلى التخلص منه. ومثابرته على العمل كانت دائماً تنقذه. أما جين فهي بركان في حالة فوران. إنها تعلن شكواها لأقرب من يكون إلى جوارها: من تعرفه ومن لا تعرفه. هي الرغبة القاتلة في أن تفني نفسها حتّى لا تُذَلّ: «أنا دائما على خطوة من اليأس». الخطيئة والشعور بالذنب، لذة التألم دون الإيلام، التلاشي، الطموح إلى ما ليست قادرة على تحقيقه في الكتابة والحب ثم الخوف من العزلة. هذا ما كان

يلاحقها ويُكَوْبِسُها (من الكابوس). إنها أشقى من شارلوت برونتي.

في رسالة من جين إلى ليبي هولمان LIBBY Holman من طنجة في ديسمبر 1948 تقول فيها: «أستطيع الحصول على أجنحة ورؤوس ديوك بسنت واحد لا لجزء الواحد في المائة، (اسم مسكوكة أميركية)، لكل قطعة، لكن لا أحد لي آكلها معه، أيّ جدوى إذن من ذلك، أحسّني محكوماً عليّ سيئاً كوني لا أجد أحداً يؤاكلني ما عدا في ليال غريبة، وليس هناك داع للأكل أكثر من وقت آخر».

هذه هي جين الشّكاءة من وحدتها. أما بول فيحب الصمت. جين تريد دائما أن تكون نفسها، لكنها لم تستطع. أهي جبانة؟ إنها قادرة على خنق أفعى الكوبرا.

تحشم؟ أكثر من نعم. إنها إنسانية أكثر من اللازم كما عرفها الذين كانوا في حاجة إلى مساعدتها لهم عكس بول الذي لم يؤمن يوما ما في حياته بما هو إنساني. كل ما كان يهمه هو أن تتحرك الأشياء في غياب تام عنه أو أن يراها ولا تراه حتى لا يكون شاهدا في شيء عنها. كل حركة ينبغي أن تكون، بالنسبة لجين، مُداعَبة؛ لأنّ الحياة هشة، لكن بول يظل عدوها الحبيب، الأقوى منها بانضباطه على العمل. كلاهما يستمد قواه من الآخر، لكن كلاً منهما على طريقته، إلاّ أنه هو المستفيد وتبقى هي مشدودة فقط إلى متعة ما يحققه هو. جين تقول، أحياناً: «لا شيء مقرف في الرجال». وأحياناً تقول: «هناك شيء يقرف في النساء». أهي الرغبة الارضائية المُتَبادلَة دون التلاقي؟ لا شك أن كليهما كان يحب الآخر على هواه، سراً أو علانية، لكن بول نفسه يعترف أنه ما أكثر ما لم يكن يفهم تماماً ما كانت «تفبركه» وتريد التعبير عنه! لم يكن خارج دائرة الحيرة التي تخلقها جين حولها. إنها جين، لكنها، في كتاباتها، حاولت دوما أن تستغلّ ما هو غامض في النساء مثلما حاول بول أن يستغلّ ما هو غامض في الرجال. وطبعا فإن جين لم يهمها بول

إلاّ كعشرة وفكرة، وكذلك هي والنساء بالنسبة لبول. إنه أكيد تزوج ذكاءها وموهبتها، وعندما خبت إشراقاتها قلّ اهتمامه بها. إن جين، في خلواتها، تحب على الدوام ما هو بعيد عنها، لكن الأحبّ هو أن تكون بعيدة عن البركان، والنَّفق، والكلاب الشاردة، ومن يريد اغتصابها أو مراودتها ومجامعتها ولو بلطف. لا ننسى أنها ورثت بعض التزمت الأخلاقي من عائلتها. لقد كافحت في حياتها لكي تتخلص نهائياً من هذه الزماتية فلم تستطع.

عندما عرفت «جين» بول بوولز قالت له حرفياً: «لا أريد أن تكون لي معك أية علاقة جنسية إلاّ إذا ما تزوجنا. أريد أن أتزوج وأنا عذراء».

تظل هذه الرغبة غامضة حتى الآن في علاقتهما. وطبعا هي هنا لا تريد أن تذكر المرات الضائعة في العدّ التي تركت فيها نفسها تُفتضّ مع السحاقيات مثلها وهي بين الثانية والثالثة عشرة من عمرها قبل أن تعرف بول. إنّ جين ستحب الإناث بشراهة، وبول سيحب الذكور أقلّ شهوة منها. إنه قدرهما. حتى هما لا يعرفان لماذا يتحابان، لكنهما لا يلتقيان. قد يتعانقان في فراش حميم، يتلامسان ويتداعبان، يتناجيان ويفتكران، وقد يكون بينهما تداع عن ذكريات مشتركة ولكنهما لا يتطابقان في استرجاع نفس الذكرى. إنهما ما أكثر ما يلتقيان فقطّ في هُيام الوهم! كيف كان يحدث هذا الانسجام الودود السريّ بينهما؟ لا ينبغي أن يهمّ أحداً إلاّ هما؟ وكذلك ظلاّ عاشقين للغامض بينهما حتّى ماتت هي ولم يندم هو على هذه العشرة التي صفعت مجتمع زمانهما. إن ما تحدته هي أكثر مما تحداه هو، لكنه هو الغانم دون أن يعاني ما عانته هي.

معروف أن بول بوولز هو بارد جنسياً كما يعترف هو نفسه بصراحة. مرة سألته:

ـ سنيور بول، أما زلت تمارس الجنس في سنك؟

ـ كلا. منذ أكثر من عشر سنوات لم أمارس الجنس.

كان ذلك في أواخر السبعينات. ونحن نعرف أنه لم يكن يفرق بين الذكر والأنثى حتّى بلغ السابعة عشرة من عمره.

ظلّ بول وجين يستلهم كلاهما الكتابة عمّا يوحيه أحدهما للآخر حتّى عجزت هي عن الكتابة بسبب مرضها الذي جلب لها الفشل التام. لقد انتهت إلى مرحلة عجزت فيها عن أن تعمل لتحلم أو تحلم لتعمل. فحتى الحلم من أجل الحلم تخلّى عنها. ولم يعد هو، بعد موتها، متفرغاً سوى للترجمات، والروبورتاجات، والاستجوابات، وكتابة يوميات جدّ عادية ثمّ نْظمِ أشعار باهتة بعناد. فلو كانت غرترود شتاين حية لمنعته، أكيداً، منَ زيارتها. هل نسمح أن نقول بأنّ للشعراء وحدهم أن يعاندوا الشعر؛ لأنه هو الفَصْل بين الأسمى والأدنى، هو البرزخ، هو الرسول بين الإله والإنسان. أما عن النصوص التي ينقلها من الدارجة المغربية فهو يقول في رسالة إلى آلن جنسبرغ وبيتر أورلوفسكي: « ـ 2 ـ 8 ـ 62 ـ أن أعمل فيها يُحْدِثُ لي ارتياحاً ممتعاً، وإنْ كنت واعياً بأنها نوع من إبداع غير مُباشرٍ».

إن جين لم تتمتع إلاّ بالحب الغابر. ربما، بسبب تصرفاتها المتقلبة، كانت تُبعد عنها من كان يريد أن يحبها بعمق وصدق لأن الوضع القارّ يضاعف من قلقها ومللها. ولا أتكلم هنا عن «الشريفة» وطيطوم: إذ لم تكن جين، بالنسبة لهما، إلاّ مورداً للرزق في علاقتهما مع هاذ «النصرانية الكافرة باللّه» كما عُرِف أنهما تقولان عنها. وحتى الشريفة نفسها لم ترض منها جين رغبتها الجنسية سوى في السنة الأولى التي عرفتها فيها كما اعترفت جين نفسها لديفيد هربرت. كان هناك أخريات من بلدها، لكنهن لم يعدن إلاّ في الذكرى. أما «الزُّهرة السمينة» فلم تكن إلاّ قحبة ظريفة استُقْدِمَت إلى جين من ماخور حومة

بنشرقي، ولم يكن لها وجود حميم في حياة جين سوى أنها كانت جميلة، لطيفة، طويلة القامة ومكتنزة، تأكل وتشرب بشراهة، ولها حضورها الطاغي دون أن تهدد أحداً. وكان حاميها في البورديل يخيف اسمه أو ظله الناس بشراسته إذا أغضبه أحد. وأصبحت مثل هذه العلاقات التي تنسجها جين، لتسكين قلقها، مصدر إزعاج كبير لبول.

إن جين كانت مُحبة أكثر منها محبوبة: فلم تربح الحب ولا الطموح الأدبي الذي كانت تصبو إليه. هذه هي مأساتها. لم يستطع أحد أن ينقذها منها لأنها ما كان ترضى أن يسعفها أحد في مسعاها: فما أن يدركها أحد لإسعافها حتى يحزنها الاستنجاد لأنها لم تستطع أن تنجزه هي بنفسها. إنّ ما أرادته هو أن تجعل من الحياة أدبا، لكن المحيط الرديء الذي عاشت فيه حاصرها: فهي لم تعرف كيف تتخلص تماما من عقدة عائلتها التي كانت تلاحقها حتى وهي بعيدة عنها. ما كان يكرهها أحد بالمعنى العميق، ولكنها خلقت نوعا من الكراهية لنفسها دون أن يشجعها أحد. الإحساس أنها غير مرغوب فيها خلقته هي نفسها. كانت خاضعة لبعض ما تُمليه عليها أمها، أما بول فقد رمى سيطرة أسرته في المزبلة البشرية. لقد استفاد من المعاناة والغربة، ومغامرات الأسفار... إنه حقاً عصامي، بينما ظلت جين أسيرة من يساعدها في اجتياز محنة من محن مغامراتها. ورسائلها إلى بول وإلى أصدقائها زاخرة بالشكوى من عدم احتمال وحدتها، وعجزها عن إنجاز ما تريد أن تكتبه وهو الخلاص الذي يمكن أن ينقذها من اليوم الرتيب في طنجة. إن أعزّ أصدقائها بعيدون عنها. أكيد أنها كانت تفكر فيهم وتحلم بهم، ولكنها لم تكن متأكدة من أنهم كانوا هم أيضا يبادلونها مشاعرها! إنه وسواس البعد...! خلقنا لنعيش دائما معا ونحن بعيدون عن بعضنا البعض.

كانت لها ولاءات لأسرتها، وأصدقائها ومعارفها. لم تُشهر

الخصومة على أحد وإنما آثرت أن تُشهرها على هدم نفسها. تَمَرُّدُها على أسرتها لم يكن إلاّ طيشاً بينما تمرد بول على أسرته كان جذرياً اتخذه عن قرار صارم. لقد جَنَت على جين طفولتها الخائبة مع أسرتها ولم تعرف كيف تتجاوزها كما فعل بول.

لا يُعرف، حتّى الآن، هل وهبت جين بوولز نفسها للإله أو للإنسان؟ إنها ظلت حائرة بينهما طيلة حياتها حتّى مماتها. أحست أن حياتها منذ باكر عمرها هشّة، مُتَصدِّعة، ومن الصعب رأبها. لن تكون سليمة على الاطلاق، ولذلك انجرفت مع التيار الذي حملها إلى ما صارت إليه. لو أنها كرّست نفسها لشحذ موهبتها الأدبية فلربما أنقذها من اندحارها العدمي. إنها تحب الهارب منها حتّى التسمم. لا تشفق على نفسها في شيء. وهي بالذات التي تُبعد عنها من يحبها وتلاحق من يمتنع عن إرضائها. حقا كان لها احساس بالاثم مما تفعله. كمعظم المتمردين على عائلاتهم التطهرية في زمانها، فهي، ما عدا خوفها من المجهول المرعب، لامبالية، لا خيال لها من عواقب ما تمارسه. إنها قد تجلس على أفخاذ الرجال، من واحد إلى آخر، لكن لا أكثر من ذلك، تتصرف مثل طفلة بريئة في حركاتها، غير أنّ أحاديثها مهمة، وما كانت تقوله يكون غالباً مُبهماً يحيّر الحاضرين. ومن الملاحظ أنهما (هي وبول) عندما يفترقان يكون هو في حاجة إلى وجودها معه أكثر مما تكون هي في حاجة إلى أن يكون معها. لكنها لا تطيق أن تكون معه دون أن يكون معهما ثالث. ليس بمفهوم الجحيم عند سارتر في مسرحيته «الأبواب المقفلة». إنه مجرد ثالث لخلق صراع حميم: حتّى يكون للحضور بعدٌ ما، وللعبور حضور من أجل دوام اللقاء والبقاء بينهما. وأن لا يتعدى هذا الثالث بينهما أحمد اليعقوبي الذي لم تكن تحتمل جين وجوده اللصيق ببول.

لا شك أن هذا القرن سيظلّ يذكر أراغون وإلزا سارتر ودو بوفوار،

دالي وجالا، فتجرالد وزيلدا وبوولز وجين. . . ! ومفهوم أن: «وراء كل عظيم امرأة». ليس باطلاً، ولا يهم من الشّرير هي أو هو. على أنّ أفظع تدمير كان هو بين فريدا و د.هـ. لورنس.

إن بول هو حزين كما تراه جين: (قارورة الكآبة كما كانت تناديه Gloompot)، وسخريته من الآخرين ليست إلا للتخفيف من مزاجه الجنائزي. ولقد وصفه صديقه آرون كوبلاند بأنه بارد كسمكة. أما جين فقد كانت قادرة على تلطيف أي مزاج متوتر بحضورها الساحر ـ الساخر، الطفولي حتى حين لا تتفوه بكلمة. ربما كانت امرأة يحترم بعض الرجال، في زمانها، النساء أمثالها، في زمن الرجال الأقوى من زمن النساء. وربما ما كانته هي نفسها في زمانها حيث لم تفرق بين أخلاق الرجال والنساء وإنما عاشت المساواة بشكل طبيعي دون أن تطالب بُها. أكيد أن كل النساء من أسرتها تنكرن لكتابها «سيدتان رزينتان» الذي ميَّزَ شخصيتها في عصرها، لكن من هُنّ هؤلاء النساء سوى أنهن من عائلتها: نساء عاديات، أجهزة هاضمة، لا يشتركن مع جين إلاّ في القرابة التافهة، المتزمتة. . . التي ساهمت في انهيار جين!.

إنّ جين بوولز لا تفارقها صبيانيتها اللطيفة التي تزعج بها الاغبياء. وهي ميزتها المحبوبة بين رفاقها وأصدقائها. يقول عنها آرون كوبلاند Aaron Copland: «لا أعرف أبدا ما يحدث في ذهنها. في رأيي. كانت أكثر غموضاً من بول. هو محافظ، لكنه متفتح مع من يعرفهم جيداً. كان في شخصية جين جانب طفولي بارز إلى حدّ ما. لقد كانت بالغة الحساسية، وسهلة التقلب، لكن فقط لأسباب محددة. ومع ذلك فيبقى صعباً أن تحزر. إنّ كل ما نعرفه عنها هو أنّ أجوبتها، مهما كانت نوعيتها، تظلّ متميزة وغير عادية».

معروف أنّ آرون كوبلاند، وغور فيدال لم يكونا ينسجمان مع تصرفات جين، لكنهما لم يبلغا حدّ العداء الذي كان بين بونويل وجالا

سلفادور دالي. وفي المقابل كان أكثر من أحبها من الكتاب ترومان كبوتي وتينسي وليامز. لو أنه تحقق حلم جين في الكتابة لأصبحت معجزة في الادب. ومع ذلك فقد ماتت شهيدة ما لم تحققه فيه لأنها لم ترد أن تتاجر به، رغم خصاصها، إلى حدّ الإفلاس، في بعض المراحل في حياتها. إنّ ما عرقل مسيرتها في الحياة والادب هو الصدق والبراءة، أما بول فقد رفس كل شيء يعوقه ولم يشفق أبداً على أحد من أجل تحقيق ذاتيته. الإنسانيّ في كتاباته يكاد ينعدم. وليس نادماً حتى الآن.

من عادة جين، أيضاً، أن تذهب حيث تخاف أن تذهب. أهي لعبة خفية أم هو عناد أم تحد؟ مرة عادت حافية القدمين، والطقس بارد وماطر، من مكان كانت قبلاً تخشى دائماً الذهاب اليه. لا ندري ماذا حدث لها في هذه النزوة «التعويذة». ربما لم يحدث لها شيء أو حدث رغم أنها هي التي تخاف أن تُغتَصب! إنه من أسرار أيّ كان يخاطر بحياته في آخر الليل، في مكان مشبوه، يعود إلى منزله وحيدا. هو سرّ أجمل الليل. إنها جين أخرى: فقد تخشى حشرة لا تؤذي مثلما هي تقرب من أفعى ذات الاجراس متحفزة لقتل قطّها الوحشي مخاطرة بحياتها، بكل هدوء، لإنقاذه. كان بول حاضراً يشاهد ما يحدث. وعندما سألها عن غيبتها:

ـ جين، أين كنت؟

ـ أوه! كنت في المكان الذي أخشى الذهاب اليه.

ومن معتاد بول أيضا ألاّ يعلّق على مثل هذا الجواب.

إن جين بوولز ممسوسة، وبالمفهوم الجيد هي عبقرية. إنها قد تعتذر عن أشياء لم تقترفها؛ فعقدة الذنب تلازمها، ومنها تستمد وجودها السحري. الوجود فيض، لكنه، بالنسبة لها، خطأ يفيض.

في أبريل العام 40 سافرت جين وبول وشخص اسمه بوو Boo إلى

شيكاغو. كان بوو لصيقا بجين ولا يكاد يفارقها في حفلات الشراب أينما ذهبت. وكانت حين تقدمه إلى الناس على أنه أخوها. أما بول فكان يتضايق منه. وفي حفلة عشاء، حضرها السيناريست رتشارد بوك وزوجته، سألت امرأة: «كم لجين بوولز من إخوة؟» وهنا تَهَسْتَرت جين صارخة: «هل لنا حقا إخوة وأخوات؟».

هكذا هي جين، تحبها ولا تكرهها. قد تتشابه مع زيلدا فتجرالد؛ فكلتاهما تخلق أشياء، وحكايات لتسلي نفسها، ولتهدم ما قد تحبه ويحبه الآخرون: إذ لا شيء ثابت يستحق الدوام. لكن السؤال عن اللاّجَدوَى دائما مطروح؛ جين بوولز وزيلدا فتجرالد وُلِدتا معا لخَلخَلة المعتاد في الآخرين، لا شيء يهم. الأهمّ هو إبهار العاديين: الأرانب والقنافذ البشرية، لكن زيلدا حطمت زوجها لأنها كانت تغار من عمله مشجعة إياه على إحياء السهرات الصاخبة أو حضورها عند الآخرين حتى أنهكته العربدة والسكر ومات وانتهت هي مجنونة. أما جين فكانت دائماً تشجع بول على إنجاز ما كان يعمله كأنما هو تعويض عما لم تكن هي تستطيع إنجازه في عشرتهما الأدبية...!.

إنّ بول بوولز يكتم مشاعره. أبدا لا تعرف ما يفكر فيه. لا يستعرض نفسه. هذا أجمل ما فيه. يحب الببغاوات ويقتني منها البُكم، وربما لها وحدها يبوح بسرّه حين يخاطبها. كان صاحب مطعم في باريس يحمل دائماً ببغاء على كتفه، وكان مرسيل بروست من زبائنه. أهدى الرجل «البحث عن الزمن الضائع» لبول، لكنه لم يهتمّ كثيراً بالهدية قدر ما عشق الببغاء، وربما تمنى أن تكون له.

عندما يقع بول في حرج مع الآخرين فإنّ جين هي التي تسرع إلى إنقاذه. ما ألطفها في الوقت المناسب! إنّ جاذبيتها تروق لكل من يراها. ومعروف أن حياة بول وجين لا تكاد تخلو من حيوانات تصاحبهما أينما ارتحلا. وقد يجتمع عندهما كل من قطّ، وقُطيْطة،

وبطّة، وببغاء وقِطين وحشيين. . . الخ. كم يتذكر بول، بأسف، عندما افترس أحد قطيه الوحشيين حمامة فمزقت عظامها أحشاءه!.

الجنس، بالنسبة لبول، شيء ثانوي. ليس أساسياً في حياته، إنما هو لينجزه في كتاباته ولا يوظفه إطلاقا كإغراء. ومعلوم أن بول، منذ أن تعرّف إلى الفتاة الانجليزية بيجي Peggy وهو في حدود 17 سنة من عمره، لم يبد أية ميول جنسية نحوها. لقد اكتفى بعلاقة أفلاطونية معها حتى لم يعد، خلال فترة، يعرف ما يفعله بدونها. كانت فتاة جريئة وطائشة، وحتّى لا يتورط في علاقة جنسية معها هجرها. وأيضا فيما يقرؤه ينفر من الكتابات الجنسية. سألته مرة عن كتابات هنري ميللر فقال «إنه كاتب مُجيد، لكنه مملّ عندما يطيل في وصف المشاهد الجنسية. إنّ أفضل كتاب له يعجبني هو عملاق ماروسيا Le colosse de Maroussi». عن أنايس نين قال: «آه، تلك المهووسة بالذبذبات الجنسية المكبوتة. إنني ألومها على إحباطها جين عندما علّقت على روايتها (سيدتان رصينتان) بشكل سلبي وسيئ».

إنّ من يقرأ السيرة الذاتية لبول بوولز «دون توقف Without Stopping» سيدرك أنه كان يدقق ويخطط لكل ما يعيشه. وفي هذا لا يختلف كثيرا عن ترومان كبوتي إلاّ أنّ ترومان وسواسي أكثر من اللازم؛ تنقصه اللياقة وروح المغامرة، مهووس بالتبجح وهستيري مثل تينسي وليامز. غير أنّ «دون توقف» بول لا يقنعنا كثيراً، رغم أنه يقول في رسالة إلى أليك فرانس France Alec (طنجة 13 ـ 6 ـ 73): «في السيرة الذاتية، ليس هناك أدنى نية في التخفي». إنها سيرة ذاتية بمثابة فهرس للأسماء، والزيارات، والرحلات ما عدا الفصول التي يخصصها لطفولته وعائلته: إذ حياته التي يرويها مليئة بالتوقفات، والرتابات والملالات! ولكنه هو نفسه لم يكن راغبا في كتابتها، إلاّ أنه قد ألَح عليه أن يكتبها على هواه. ولقد وجد مبرراً أيضا لكتابتها؛ لأنه كان في

حاجة إلى تغطية تكاليف مرض جين في LA CLÍNICA DE REPOSO DE LOS ANGEL في مالقة.

لم يبق عندي سوى ثلاثة دراهم، عندما خرجت من حانة مونوكل. أكثر من الثالثة صباحاً. سأتناول قهوة بالحليب في البيلو EL PILO الجيلالي الغرباوي جالس في رحبة المقهى. عرفته في أواسط الستينات. يزور طنجة بين فترة وأخرى حاملاً معه رسوماً ينجزها على الكرتون. حينما تنفد نقوده يعطيني أحدها لأبيعه له كيما يغطي مصاريفه اليومية، مائة وخمسون درهما أو مائتان لكل رسم: ناداني:

ـ إيه! تعال.

جلست ثم قال بصوت جاد:

ـ أتعرف ماذا حدث لي منذ لحظات؟

ـ ماذا حدث؟

ـ صدقني أو لا تصدق. لقد كنت قبل لحظات في مولاي ادريس زرهون. حملت حقيبتيّ الاثنتين ومشيت إلى فاس. فجأة، رأيت شبحين يتبعانني. تركت لهما الحقيبتين وجريت. لست أدري كيف وجدت نفسي جالسا هنا!.

حدّق فيّ ثم أضاف:

ـ كل ثروتي كانت موجودة في الحقيبتين: لوحاتي، أوراقي الشخصية، ملابسي ونقودي.

ـ للأسف!.

ـ هل معك نقود؟.

ـ حالتي ضعيفة.

ـ هات ما عندك.

أعطيته الدراهم الثلاثة دون تردد قبل أن أصير شبحه الثالث

ودخلت المقهى لأتناول قهوة بالحليب، وخبزاً محمصاً بالزبدة دَيْناً.

في اليوم التالي، مساء، كان يتعشى في مطعم زاكورة في منتهى أناقته وأزهاها. استضافني للعشاء معه. أهو حقاً الغرباوي! لم يكن هو الذي رأيته ليلة البارحة في رحبة مقهى البيلو. كانت تلك آخر مرة أراه فيها حتى علمت، بعد أكثر من سنة، أنه غادر المغرب نهائياً، بعدما باع كل لوحاته، وأدوات رسمه لأحد الأثرياء المعجبين بفنه ليموت في باريس، في ليلة جدّ باردة، فوق أحد مقاعد الحديقة شان دو مارس في أبريل العام 1971. كل شيء سريالي ومحتمل في طنجة.

ليس للموت جغرافية إذا متنا صدفة. مثل هذه المرة الأخيرة حدثت لي أكثر من مرة. جنيه بحث عني في مطعم ـ بار نيغريسكو BAR NEGRESCO فلم يجدني. تغدى فيه وترك لي عند الخادم ـ مازحاً ـ كأس نبيذ وجريدة فرانس سوار ثم مات بعد شهور. تعشيت مع تينسي في الباراد ثم حملنا معنا ما تَبَقّى في زجاجة النبيذ لنشربه في مسبح فندق المنزه. اقترح عليّ أن نجلس في رحبة مقهى باريس لنشرب شيئاً. وقبل مجيء النادل جلس جنب تينسي شاب يسيل الدم من رأسه على وجهه فهرب تينسي حاملاً معه نصف زجاجة النبيذ دون أن نتوادع ولم أره مرة أخرى حتى مات مختنقاً في فندق بعد سنوات في «غموض»، حسب رواية بول بوولز.

كان الغرباوي متذمراً من الوسط الفني في أواخر حياته في المغرب. إنّ الجمهور المغربي لم يكن مهيأً بعد ليتقبل فنه التجريدي (وصنوه أحمد الشرقاوي). كان موقف الغرباوي من الرسم يبدو غريبا هنا في المغرب، أما في الخارج فقد كان يمكن له أن ينتج في عمله بأكثر حرية لأنّ هناك من يتفهم أعماله ويرحب بها: متاحف، نقاد ومعارض... وهنا كان الرسم غائبا أو محرّماً إن أنجزه مسلم.

يرى الغرباوي أن الرسم، في زمنه كان يعاني تخلفاً كبيراً في

المغرب، بل يكاد يكون منعدماً في الثقافة المغربية الفنية، الفن التجريدي طبعا. وما كان موجودا منه لم يكن في بدايته، وما تبنته البعثات الأجنبية، في الجنوب والشمال، هو فقط لإرضاء ذوق فئة ساذجة مخيلتها محشوة بالغرائبي والفانتازي.

إن الغرباوي هو الطائر الذي لا أرجل له، ضئيل الجسم، كبير الجناحين، ومثيله الطائر الأزرق الآخر محمد خير الدين[1]، وهما معاً يكادان يتقاربان في السلوك، والأهواء والإجهاز على المألوف في الإبداع.

يقول بوولز، في سيرته الذاتية: «ينبغي اليوم أن يكون الانسان عديم الإحساس كيما يستطيع الاستمرار في كونه فناناً». لكن هذا لا ينطبق، مثلاً، على الغرباوي، وخير الدين الآتي من (أزرو ـ واظو): صخرة النسيم (حيث يجلس أهل القرية للحديث أيام القيظ). كلاهما عاش صامداً ضدّ العاصفة الهوجاء.

ولد الغرباوي العام 1930 في (جَرف المِلْح ـ الغرب). أعماله اليوم موجودة معظمها في المغرب لدى المعجبين به من الاثرياء في منازلهم، وفي بعض متاحف أوروبا، والولايات المتحدة وحيث لا ندري!.

بدأ تقزز بوولز من الأجسام البشرية العارية عندما كان يدرس الرسم وهو في السادسة عشرة من عمره. وبلغ السابعة عشرة ولم يكن يفرق بين اختلاف الذكر والأنثى جسدياً. ولقد بدا له ذلك مدهشاً. لماذا هذا الفارق؟ هكذا تساءل. . . ! لكن الأغرب من هذا التساؤل هو لماذا لم يرق له أن يرسم الجسد البشري إلا باللون الأزرق؟ أكان يعتقد أنه نزل من السماء مصبوغاً بهذا اللون؟.

إنّ كل شيء جاءه متأخراً في حياته: فحتّى شهرته مبدعاً أدبياً

(1) 1941 ـ 18/11/1995.

عالمياً لم تأته إلاّ بعد الستين. إنه اليوم ينطبق عليه المثل: «يوم عشنا مُتنا».

وبين الوردة وساقها الشائكة، مارس بول ما يمكن أن نتجاوز لنسميه الجنس (كما يعترف في سيرته الذاتية) مع هيرمينا Hermina (فتاة هنغارية) وسط نبات القُرّاص. وفي أحد فنادق باريس مرّ بتجربة جنسية مع فتاة أخرى باردة، سلبية، فكانت مُماثلة للأولى وربما اكثر خيبة. ماذا يبقى من لذة الجنس والرغبة فيه إذن؟ وحتّى الجنس مع الذكور لا نعرف عنه إلا أقلّه في حياته. ولكي ننصفه ينبغي أن نلغي اهتمامنا به في حياته، لأنه هو نفسه يوافقنا على ذلك، وليس نادماً على الاطلاق أنه لم يُهتمّ به أساساً في حياته. لقد تأكد لنا أن الجنس النسوي لعبة خاسرة في حياته. أما تجاربه مع الجنس الذكري فتلك وردة نعرف لونها، وبداية رائحتها وصلت إلى مشامنا بكاملها من تجربته مع بيللي هوبير Billy HUBERT، أحد أقاربه، الذي جاء إلى باريس وأغوى بول بكرم باذخ (وكان بول معوزاً) إلى حدّ أنه أقنعه بالرجوع إلى نيويورك «لأنّ والديه لم يعاتباه على هروبه»، لكن بول ندم على عودته. واعترف أنه لم يكن قد نضج بعد ليقرر حياته دون أن يتدخل فيها الآخرون».

«إنّ بول، في شبابه، كانت له رشاقة متميزة ينجذب اليها الذكور والنساء الذكيات». هكذا قال لي إدوار روديتي.

يكتب بول بوولز، في سيرته الذاتية: «الكتابة أهمّ من حياتي. لا أهمية لحياة الكاتب. إنّ عمق تفكيري في كتاباتي وموسيقاي». لكن، رغم هذا التصريح، علينا أن نحذر من الروح الملفعة بالفن! إن هدف الفن هو أن يصبح سيد الواقع: أن يكشف عن الواقع الخفي، غير أن بوولز راهن على الكثير ولم يحقق إلاّ القليل في مسعاه لكي يجعل من المرئي سِحرا.

إنّ بول يأخذ دائما حذره البالغ تجاه الآخرين والأشياء، لكن يلطفه

بنوع من التفكه. ولكي يحقق شبه انغلاق حلزوني على نفسه حذف التليفون. حتّى السفر وجد له مبرراً عندما يقول: «أعرف لماذا لم أعد أسافر؛ لأنه لم تعد هناك بواخر».

قد يكون له عذره لأنه كان يسافر ومعه ثلاثون حقيبة ودولابان كبيران. ويلقبه بعضهم بالداندي العاشق القديم للبواخر Paquebots.

هذه الحياة شبه القوقعة، السابتة، بدأ يمارسها في طنجة أواخر الخمسينات؛ لأنه «عندما يغادر المرء غرفته تبدأ كل متاعب العالم» كما يقول باسكال Pascal، أو لأنه «في النهاية تخسر هُوَيَّتنا بالعيش في غرف الفندق» كما تقول السيدة رينمانتل Mrs Rainmantle إلى السيدة سلاد Slade في «الدَّغَل الأحمر». وبسبب مرضه، في السنوات الأخيرة، يكاد يعيش في ركن من الغرفة. وليس من عادته، أيضاً، أن يدقّ على باب أحد. إنه شبيه بالفيلسوف سانتايانا: فإذا لم يسأل عنه أحد فلا يسأل هو أيضاً عن أحد.

بعد الاستقلال، صار بول يعتبر المقاهي، والحانات والمطاعم في المغرب بمَثابة مخافر للشرطة السرية والمخابرات. ولهذا يكتفي بأن يذهب بعد الظهر، صحبة سائقه عبد الواحد إلى البريد، و«السوق الجديدة» في شارع فاس ليشم رائحة الزهور ممزوجة برائحة اللحوم، والخضر، والفواكه ويداعب القطط الصغيرة المهجورة. بول يحب القطط ويكره الكلاب: «مكانها البادية وليس المدينة. إنها تهاجم، أما القط، رغم كبريائه، فهو وديع». هكذا قال لي يوما. لكن، بعد دخول جين «عيادة الراحة للملائكة» في مالقة، لم يعد يؤوي أيّ قط في منزله. كانت هناك قطة سوداء تأتي، في وقت معيّن، فيطعمها الحليب قدام باب شقته. وعندما لم أعد أجد الصحن أمام الباب، ولم أعد أراها في مدخل العمارة مسترخية سألته عنها فأجابني بصوت آسف:

ـ ماتت المسكينة. كانت قطة لطيفة رغم أنها متشردة.

إن بول ليس مثل جاك كرواك الذي يعتبر أن موت قط كان دائما طالع شؤم (طيرة).

وجدته ظُهرا في سوق شارع فاس يداعب قطة صغيرة. سألته عن رأيه في حرب الخليج الساخنة فأجابني بهدوئه المعهود:

ـ إنّ ملاعبة هذه القطيطة الآن أفضل، في رأيي، من كل كلام عن هذه الحرب القذرة.

لكن، مع ذلك، فإنّ بول له رأيه فيها: «لقد تمّ قصف العراق بشكل عنيف جداً. ولم يكن من الضروري الوصول إلى هذا الحدّ، لكن السيد بوش أراد أن يبين بأنه قويّ. إنني مقتنع بأنّ الاميركيين كانوا مرتاحين. لقد قالوا عندها: إنّ أهوال حرب الفيتنام قد امّحت. وها نحن قد استرجعنا قوتنا وعظمتنا. وهذا أمر سخيف. أما في طنجة فلم يعد هناك سياح. وتوصل الاميركيون بدعوة من حكومتهم ليغادروا المغرب. وفعلاً فإنّ جميع الذين كانون يشتغلون هنا قد تمّ ترحيلهم نحو واشنطن. لم يعد هناك سياح. لقد أصبحت الشوارع مقفرة. حتّى المغاربة أنفسهم لم يعودوا يخرجون إلى الشوارع(1). لقد دام هذا الوضع حوالي شهر. وبعد ذلك عادت الأمور إلى طبيعتها. لم يحدث أيّ شيء آخر. والاميركيون ومن المحتمل أيضا الأوروبيون اعتقدوا أنّ الناس هنا كانوا غاضبين حيث تظاهروا في الشوارع، لكن لم يقع هذا إلاّ مرة واحدة في اليوم الاول لَمّا علموا بأنّ هيئة الامم المتحدة قد قصفت العراق، لقد أثار هذا حفيظتهم لأنهم مسلمون. فهناك مسيحيون

(1) ينبغي أن نقول هنا إن بول بوولز يكاد يعيش، بعد الاستقلال، في غرفة موجودة في طنجة وليس في المدينة. ممّ سيخاف المغاربة؟ من الحرب؟ لقد كانت حربهم، رغم أنهم كانوا يعرفون أنها خاسرة مع الغرب إلا البلهاء منهم الذين آمنوا بالانتصار الحقيقي على غرار ما شاع في حرب الأيام السبعة. إن بوولز هنا يهوتر، وبعيداً جداً عن الواقع.

يقتلون مسلمين، وبالطبع فإنّ مثل هذا الأمر لم يكن يعجبهم، لكنهم نسوا أنّ ملكهم قد أرسل جنودا من أجل قتل المسلمين. في النهاية، نسي الجميع كل هذا، وأنه لأمر طيب. إنني أكره الحرب، وأعتقد بأنّ هناك قليلاً جداً من أناس يحبونها. فالحرب تعطيهم الشعور بالقوة والعظمة، وفي العمق هو ما يبحثون عنه. نحن لا نخاف الذين نعرفهم، ولا نشعر بالتهديد سوى من الاشخاص أو الاشياء التي نخاف منها. (المعرفة) فقط هي التي يمكنها الانتصار على الخوف»[1].

كانت جين، حينما تتوقف عن الكتابة الأدبية (قصصها القصيرة) تجد تعويضاً ومتنفساً كبيراً عنها في كتابة رسائل طويلة إلى بول والى أصدقائها. تتحدث فيها عن أبسط التفاصيل اليومية طرداً لملالتها، ووحدتها القاتلة، أحيانا، أو لاستكشاف حياة المغاربة في محاولة تعلم لغتهم وتقاليدهم. وقبل أن تحب جين أحداً وتنصهر في هذا الجزء الافريقي، فقد كتبت من تريتوبس Treetops، في إحدى رسائلها لبول: «أتمنى، حقاً، العثور على امرأة حتّى لا أبقى دائماً وحيدة في الليل. أنا متأكدة من أن الحياة الليلية العربية لا تهمني في شيء. وكما تعرف، فإنني لا أحب هذا الرهط مستساغاً أو كائناً. ومثلما سبق لي أن قلت لك فإني أكاد أكون واحدة منهم. طبعا، أنا لا أعرف شيئاً عن الحاضرة العربية». إنني أرفض ترديد كلمة «عربي». وفي مناسبة أخرى قالت: «ببساطة، أفكر أنني أبداً لن يهمني أحد أن يكون لاتينيا، Latino عربياً أو سامياً». هكذا كتبت مفضلة عليهم السكوتلانديين والإيرلانديين.

بدءاً من بداية الستينات، أخذت تنتابها نوبات تفقد خلالها جزءاً كبيراً من ذاكرتها. البداية كانت منذ أن أصيبت بنوبة السكتة الدماغية Apoplexie عام 57. كما تقول في رسالتها إلى ليبي هولمان LIBBY

(1) من فيلم جبّار طنجة «بول بوولز وعزلة طنجة».

Holman من طنجة عام 65. فقد كانت تتعشى مع صديقتها ماري، وفجأة نسيت اسمها العائلي (لكن سأتذكره، آووه، ها هو ذا: إنه كروفت بانك Croft Bank) وكذلك، في هذه الفترة، كانت رسائلها مليئة بالأخطاء: حرف أو أكثر من حرف محذوف في بعض الكلمات. وستتلقى، لعلاج كآبتها وتهدئتها، 23 صدمة كهربائية بين انجلترا واسبانيا. في العام 1966، بدأت جين تملي معظم رسائلها على صديقتها Carla Grissmann دون إمضاء غالبيتها. في أواسط أبريل من العام 1967 أخذ بول جين إلى مالقة حيث قبلوها في مستوصف للأمراض العقلية للنساء. هناك عادت لتأخذ الصدمات الكهربائية. الرسائل المكتوبة من هناك كانت بخط اليد، خط غير منتظم، بالكاد تُفَكّ قراءته. وبداية من هذه المرحلة، فإن النَسْخَ لم يعد فقط انحرافات في ضبط الكتابة نحوياً وترقيماً وإنما كذلك صار شرح الكلمات المشطب عليها دون شرح.

إذا كانت جين تخشى دائما الأنفاق، والجبال وكل شاهق، والمصاعد، وانهيار سقف فوقها فإن بول يتمنى لو أنه يعيش في كهف مظلم. إن ما كان يريد تحقيقه ـ على طريقة الرومانسيين ـ هو الهروب من المجتمع المتمدن إلى الحياة البدائية؛ إذ حينما نيأس من التحضر نتمنى حياة بدائية أو غجرية. إن له استقلاله الشخصي أما جين فتفتقده. إنها أيضاً لا تستهويها المناظر الطبيعية لأنها تخشاها خاصة الأدغال. لقد كتب بول، في بطاقة بريدية، إلى غرترود شتاين، اثناء شهر عسله، في أميركا الوسطى: «إنني متزوج شابة تكره الطبيعة، وهنا نحن محاطون بالبراكين، والزلازل والقرود. . .» ويكتب عن نفسه إلى بيجي غرانفيل Peggy Granville من لشبونة (25. 3. 58): «أعرف جنوب البرتغال ـ مقاطعة ألغارف Algarve وهي جميلة. لكني لا أبحث عن الأشياء الجميلة».

تقول جين لبول، في إحدى رسائلها: «أنت ستفعل ما كنت تفعله

دائماً، وكذلك هلفيتيا Helvetia (صديقتها الحميمة) لكن أنا ليس لديّ وجود مستقل».

إنّ همّ جين الكبير هو عجزها عن الاستمرار في الكتابة. إنه الموت العقلي الذي كانت تخشاه. الامر هنا يختلف عن لورنس العرب الذي انقطع عن الكتابة لينتحر عقلياً وصار عادياً حتّى مات في حادثة سير راكباً دراجته النارية. كانت تستهويه المغامرة أكثر من كتابة الشعر واستمرار عبقريته الجريئة التي أبان عنها في «أعمدة الحكمة السبعة»[1]. أما رامبو فقد استبدل الشعر بالمغامرة المادية. وحين سئل يوماً عما إذا كان ما زال يكتب الشعر، وهو غارق في تجارة العبيد والسلاح، أجاب: «آه، الشعر!» لكنه كان قد بلغ نضجه الشعري دون أن يعرف. ربما كان سيدور في حلقة القمة الباردة لو أنه استمر يكتبه!.

إن الكتابة أصبحت عبئاً ثقيلاً بالنسبة لجين: «ينبغي لي أن أكتب، لكنني عاجزة». برّوز أيضا كان يخشى العجز عن الاستمرار في إنهاء روايته «الغداء العاري» عندما هزمه تعاطيه المخدرات بإفراط في بداية يناير عام 55. كان يخاف الحصار التام في استمرار الكتابة.

إن رامبو لم يرد أن يُنْزِل الأدب مطلقاً إلى الحياة، ولم يرد أن يُصعّد الحياة مطلقاً إلى الأدب، إنما حاول أن يمزج بينهما قبل أن يتفرغ نهائياً إلى هوس مغامرته سعياً لكي يصير مجهولاً، لكن عبثاً؛ إذ نبوءته كانت أكبر إلاّ من مناصريه، في زمنه، القلة ـ الصفوة التي استكبرته، وهي التي ولّدت أجيالاً ممن يحيون ذكراه حتّى اليوم. «الموت يُحيل الحياة إلى مصير» كما يقول مارلو[2]. لقد حقق ما فكر فيه: أسفاره من انفجار ما كتبه.

---

(1) إشارة إلى كتابه المشهور.

(2) الشاعر الانجليزي كريستوفر مارلو Christopher Marlowe (1564ـ 1593) مؤلف الدكتور فاوست.

في الكتابة، كان طموح جين أكبر مما تستطيع إنجازه، هي الموهوبة باكراً. ربما كان ينقصها شيء من المكر، هي البالغة الطيبة التي ساهمت في إخفاقها، أما بول فهو سيد الماكرين الأمهر محصّناً في قوقعته. أن تؤمن فهو شيء جيد، لكن أن تؤمن وتفهم فهو شيء أجود، وجين كانت تؤمن بما لم تفهمه.

عاشت جين وهي مهددة دائما بالانسحاب من الكتابة كلما تفاقم عجزها في إنهاء ما تكتبه، لكن أيّ كتاب أو كتابة؟ هذا ما كان يعذبها. إنها تَعدُ بكتاب دون أن تكون قد بدأت جملته الاولى. فهي إذا بدأت عملاً كانت تمزق ما تنجزه منه متمثلة «كل شيء باطل وقبض الريح». وحتّى ما نشرته كان لا يعني لها شيئاً كبيراً إن لم تكن تتمنى محوه من حياتها.. كل شيء محتمل في حياة جين المضطربة، وأيضاً في حياة بول؛ لأن كليهما آمن أن العيش لا يُحتمل إذا لم يؤسْطِر المرء حياته. كان قد سبقهما إلى هذه العقيدة من المهزلة البشرية سكوت فتجلرالد وزيلدا، لكن بول وجين لم يكونا استعراضيين وتهريجيين مثلهما.

تقول بياتريس بندار Beatrix Pendar عن جين: «في الأربعينات، كان كلّ المحيطين بها معجبين بترددها ولامبالاتها؛ لكن، للأسف، كانت قد كبرت ولم يعد يصدر عنها ما يروق...» أمّا غور فيدال Gore Vidal فيجد جين غير محتملة على الإطلاق مثلما أيضا كان يشاكس ترومان كابوتي لنفس السبب، وكان هذا بمثابة أخ عزيز على جين. وكذلك جين كانت تكره غور فيدال عكس بول الذي كان يحبه كثيرا كما هي كراهية بونويل Buñuel لغالا Gala وانسجامه التام مع دالي.

عرفت بياتريس بندار عند بول. جدّ مهذبة، رقيقة وكريمة. تكتب أشعاراً رومانطيقية لنفسها وتقرؤها على أصدقائها. كان لها زمانها من الجمال، وملامحها ما زالت شاهدة عليه. أغرقت نفسها في الكحول

حتى بدأوا يسرقونها خارج منزلها وداخله. استضافتني مرارا في شقتها. كانت تقرأ عليّ أشعارها وكأس من الويسكي لا يفارق يدها. نادراً ما قابلت امرأة في منتهى رقتها وطيبتها. كنت ألقاها في قاعة شاي مدام بورت Porte فنشرب معا حتى يغلبها السكر فأرافقها إلى منزلها. قد ترغّبني في كأس أخرى عندها فلا أمانع. تعيش جدّ متوحدة، ولم أكن أنا أيضا أقلّ توحدا منها. أثناء قراءتها إحدى قصائدها فكرت أن الشعر له إخوته في أيّ مكان وزمان. فلا تأشيرة للدخول إلى مملكة الشعر. إنه يؤازر الناس ويؤاخيهم أينما كانوا.

كانت جين تغار من علاقة بول مع أحمد اليعقوبي (1931ـ 85)، لكنها تكتم غيرتها، ثم هي تحب أن يكون بينها وبين بول العزيز غريم كعادتها، على غرار كيت وبورت وبينهما تانر Tuner دون أن يحتدّ التوتر كما في (الأبواب المقفلة)[1]. إن بورت وكيت يحبان بعضهما كثيراً (مثل بول وجين) ولكنهما لا يستطيعان العيش معاً في سعادة، لا ينتظرهما سوى الفراغ والعدم. إنك لا تعرف متى تنفر منك جين ومتى تميل اليك. وعندما سألها بول عن رأيها في أحمد اليعقوبي أجابته بهدوء: «إن له ثقبين في مكان العينين!» ربما كانت في لحظة غضب مع نفسها أو مع الغير وليس أحمد اليعقوبي بالذات. ومعروف أنه كانت لها نزواتها. لم تكن شريرة على الاطلاق، حسب الذين عاشروها في الاميركيتين وهنا في المغرب. إنها تخلق حياتها كلها ولا تعيشها بالتقسيط: فإما كل شيء أو لا شيء. لا شيء ثابت في حياتها. كل ما يُنجَز يستحق الدمار ليبدأ شيء ما حتّى يكون أكبر وأفضل. ما هو؟ هي نفسها لا تعرفه. إنها إن لم تكن تريد الجواب فإنها لا ترضى أن تدغدغ العاديين، السخفاء. كانت تعرف من تجيب. إنما الأكيد عندها هو أنّ

---

(1) إشارة إلى مسرحية سارتر.

ما هو موجود ينبغي أن يندثر ويزول لأنه باطل. . . ! عبثاً كان يهددها بول حينما كان يقول لها: «لا أريد أن أراك إذا أنت لم تشتغلي». ولم تكن تشتغل في شيء. لقد كانت في يأسها دون عزاء، ولا جدوى ممن يؤازرها، تتحطم بما تفكر فيه. تستعذب كسلها الألَذ المرغمة عليه. لا أحد يقدر أن يلومها. إنه اختيارها. ما هو؟ فقط أنها تُمنّي نفسها بانجاز ما لم تعد قادرة عليه. هي والكتابة كلتاهما ضائعة في الأخرى. ظلت تصارع من أجل تحقيق انعكاس الإبداع على الحياة: أن لا تكون الحياة كما هي وإنما كما نريد لها نحن أن تكون. ربما ما كان يحزّ في نفسها هو أنها لم تحقق، في النثر، ما حققه رامبو في الشعر قبل أن يهجره إلى ذروة انتحار صمته البطولي الجميل. . . !.

«الأطفال الذين لم يولدوا بعدُهُمْ أكثر سعادة». هكذا قالت لبول. وكانت تعتبر نفسها بمَثابة أمّ حنون لصديقتها الحميمة «الشريفة»، وأنها ابنتها هي التي لن يكون لها أبدا أبناء: «لماذا نأتي دائماً بالأولاد إلى هذا العالم؟» هذا ما تحب أن تقوله ساخرة من الوجود كله.

عندما تتوتر علاقاتها مع أصدقائها، ومعارفها فإنها تُعَزي نفسها: «إننا نعيش إلاّ مع العابرين». هذا ما قالته هازئة للورنس ستيورت. كان صعباً على جين أن تقرر شيئاً ما وتحسم: «لم أعش بعد يوماً واحداً سعيداً في حياتي، لكني لم أتخلّ بحثاً عن السعادة». وكذلك أشخاص أعمالها. أما بول فيقودهم إلى الدمار التام أو إلى نهاية أليمة في أكثرية أعماله. إنّ الجريمة الوحشية دائماً حاضرة فيها؛ لأنه أسس مذهبه على بغض الانسان لأخيه الانسان. وأية علاقة مع الآخر قائمة على الخداع، والتربص، والاحتيال والاغتيال. جين كانت أكثر منه رحمة بأشخاص أعمالها. إنهم دائما يأملون أن يسعدوا يوما ما، أما بول فقد أغرق نفسه في العدمية: لا أمل هناك! ولقد كافح هو أيضا كثيرا لتحقيق سعادته من خلال الكتابة. إنه لم ينس نصيحة آرون كوبلاند. وظلت تصاحبه أينما

كان: «إذا أنت لم تشتغل في العشرين فلا أحد سيحبك في الثلاثين». وهذا الكفاح كان مصحوباً أيضا بما يقوله بول عن نفسه: «لنا شعور بذنب اللص، لكن ليس دون غنيمة». لكأنّ جمجمة يورك لا تفارق خياله. العدمية تتجذر في بول كما هو النخاع في العظام. لا ينجو معظم أشخاص رواياته وقصصه من الطوفان. إن بورت Port، مثلاً، في السماء الواقية، كان من سعادته أن يتوغل في الصحراء حتى لا يترك وراءه أثراً؛ لان العاصفة الرملية واعدة دوماً بمحو الآثار. إنه الارتماء في العدمية. وبول يعرف جيداً أن: «الإنسان مكروه في الصحراء.. يُلاحَظ هذا في السماء، في الصخور وفي الهواء» كما يكتب إلى بيجي كلانفيل هايكس Peggy Glanville Hicks. وفي قصة مشهد بعيد يُقطع لسان بطلها ويُرْغَم على القيام بمشهد تهريجي، علما أنه أستاذ اللسانيات. إنه مشهد بدائي في منتهى الوحشية. وبطلا قصتيه «طريدة هشة»، و«علاّل» لا ينجوان من هذا المصير السادي: الأول يقطعون له عضوه التناسلي ويُغرز له في سُرّته، والثاني يفجرون رأسه بفأس. إن بول بوولز يعتقد أنه، في الكتابة، ينبغي أن تكون هناك معادلة: أن يتحول الواقع إلى خيال، والخيال إلى واقع وهو الأقوى. في قصته «كلمات مشؤومة» Paroles Malvenus إذا كان كاستور Castor (بطل الغثيان لسارتر) يقول: «أنا صامد في الحياة» فإنّ بول بوولز يقول: «إنّ حياتي بعد مماتي». لكن كتابه يومية طنجة Journal Tangerois (89 10987) يتراجع عن هذا الخلود حين يقول: «هذا التكهن مشكوك فيه. إنّ الرغبة في أن يترك المرء أثرا وراءه تبدو عبثاً حتّى ولو نجح الجنس البشري في الإبقاء على حياته خلال قرن إضافي. هذا إذا وُجِدَ من يستطيع القراءة». لقد يئس بول من معنى: «الحيوية هي اللذة الأبدية» كما يقول وليام بليك.

يوم الأحد

ذهبنا إلى «الرميلات». كان هو اليوم الوحيد الذي اشتغلنا فيه، بول وأنا، خارج منزله. كان في حاجة إلى فيتامين الشمس كما قال. يوم ربيعي. كنا نترجم الخبز الحافي. جلسنا في مكان مُشجر، مُعْشَوشَب ومفروش بالزهور الوحشية أغلبها بنفسجي. عائلات مغربية وأجنبية تستعيد مرح طفولتها مع الأطفال. كنا بعيدين عن ملاعبهم وصراخهم. ذكرني نفور بوولز من صراخهم بسيمون دون بوفوار. كلاهما يحبهم لكن من بعيد.

كان قد سألني صحافي في ملتقى جائزة غرينزاني كافور Premio Grinzani Cavour في تورينو (15 ـ 5 ـ 93):

ـ ما رأيك في الزواج وإنجاب الأطفال والحب؟

ـ لست ضد مؤسسة الزواج، لكني لا أحتمل تأسيس أسرة. أما الاطفال فهم موجودون أينما كانوا دون أن نلح على أن يكونوا من صلبك أو صلبي بالذات. لقد أحببت عاهرة ففشلت، وحب عاهرة قاس وأحياناً قاتل وأنا أحب حياتي. ربما عواطفي لم تعد تكفيني سوى لنفسي.

إن بول بوولز له اليوم حساسية بالغة تجاه الشمس: هو الذي استمتع بشموس الصحارى، والمناخات الاستوائية، في زمن بعيد. إنه لم يعد يسبح في البحر منذ سنوات طويلة رغم أنه محاط ببعض الشواطئ النقية والجميلة. لم يعد يستنسم (من النسيم) إلاّ رائحة اليود عندما يتجول، في سيارته، عبر منار «رأس اسبارطيل Cap Spartel». إن مرضه جعل أقرب الأشياء إليه أبعدها عنه. هناك عذر آخر: فقد صار جلده يحترق وينسلخ بحساسية سريعة أكثر من السابق، إذا هو تعرّى في الشمس التي كانت إلهته في زمن ما. لم يستأثر بها بل قاد إليها من أحب

وكره من أبطال قصصه ورواياته ورفقاء أسفاره. بول اليوم فقد مناعته في كثير من الأشياء. إنه رأى كثيرا، وملّ أو عجز عن أن يرى أكثر مما رأى. لقد أصيب بالتخمة من كل شيء. لا بد أن يكون شيئاً جدّ مُغْرٍ وسحريّ حتّى يشتاق اليه. لكن زمن السحر قتله التضخم البشري، الحروب، الإفلاس الاقتصادي وانهيار القيم الاجتماعية والقيادات المعتدلة. ثم لم يعد هناك سفر بالبواخر.

3 ـ 5 ـ 1994

زرت بول، صحبة روبيرتو دي هولاندا حوالي التاسعة مساء. كان بول قد انتهى من عشائه. سألته:

ـ سنيور بول، كيف الحال؟

ـ ها أنا وحيد.

ـ لكن، في الوحدة، الإنسان إما أن يكون عبقرياً أو غبياً.

ضحك بتعب وقال:

ـ ولماذا ليس هما معاً!؟

8 ـ 5 ـ 1994

هذا الصباح سيسافر بول إلى باريس ثم إلى أتلانتا لتُجرى له عملية لإزالة ورم سرطانيّ يمتدّ من الأنف إلى الصدغ. فكرت: في النهاية الكل يخشى الموت ما عدا كلبي جوبا.

ربيع 1972

كنا في الرميلات. فجأة أشرت إلى آل جيروفي: إيزابيل وصِهْرَتِها إيفون Ivonne:

ـ سأذهب للسلام عليهما.

أوقفني بانفعال رقيق:

ـ أرجو ألا تفعل ذلك. إن الناس يهربون من المدينة لكي يرتاحوا من الذين يعرفونهم فيها.

فكرت: إنه على حق. ينبغي أن نكون بدويين في البادية، ومتحضرين في الحاضرة. لم أتخلص بعد من بدويتي وأنا في المدينة. بلعت ريقي. إني وريث عاداتنا: فنحن ما أن نتراءى حتى نسارع إلى التعانق داخل المدينة وخارجها عند المجيء والذهاب أكثر من مرة في اليوم الواحد.

برد وشمس خفيفان. سائق بول، عبد الواحد، يتجول بعيدا عنا. يظهر ويختفي وأنا وبول نترجم صفحات من الخبز الحافي. سألني مرة عبد الواحد:

ـ هل ما تحكيه أنت أو المرابط لبول ويترجمه إلى الانجليزية يهم كثيرا الأجانب؟

ـ أنا لا أحكي فقط، أنا أكتب الحكاية لكل من يقرأ.

ـ لا أفهم جيداً.

ـ وأنا لا أعرف كيف أشرح لك.

ـ لكن المرابط لا يكتب، إنه فقط يحكي.

ـ لكن بول يكتب له. ولا بد أن تختلف الحكاية عند كتابتها. لدى عودتنا اشترى عبد الواحد لبول بيضاً بلدياً من طفل جبلي واقف في حاشية الطريق. شربنا الشاي في قهوة صغيرة (صاحبها يعرف بول قديما). روادها من مدخني الكيف والماهرين في الحكي عن ماضيهم الجميل. طنجة اليوم لا توحي لهم إلاّ بالحسرة والعزلة.

17 ـ 1 ـ 1993

النكاح، بالنسبة لبول، جهد يبذله البشر باطلاً ومثله هكذا كان يعتقد تولستوي. النكاح ليس صالحاً إلاّ للنسل. لكن بول ينفي حتّى

الإنسال، إذ يكفي الانسان أن يتخلص من عبث وجوده ولو كان في الشاذ. إذا وُجدنا فما علينا إلاّ أن نكافح حياتنا لكي نجد الخلاص من هذا الوجود الموبوء. هنا يتجلى منتهى عدميته! لأنه إذا كان هناك خطأ في عدم تعادل فيضنا فما نُلام في مشكلة فهم بعضنا البعض.

زرت اليوم بوولز صحبة هانس والروبيو. كان بول متعباً جداً في فراشه. في وسط الغرفة طبْلَة(*) فوقها ركام كبير من الأدوية. ساعده عبد الوهاب (شاب أراه عنده لأول مرة) على الاستواء جالساً فوق الفراش. وعندما قدمت الروبيو لبول على أنه من تافراوت هلّل:

ـ أوه! لقد كنت هناك في الأربعينات. أعجبني كثيراً سوقها كل يوم أربعاء، والجبل المطلّ عليها.

قال الروبيو:

ـ والصخرة التي تشبه قمتها قُبَّعةَ نابوليون.

قال بول:

ـ في كل ليلة كانت الثعالب تهاجم الكلاب الشاردة. الثعالب هي المنتصرة دائماً والكلاب تفرّ مُئِنَّة عاوية. (يقلدها): عاو... عاووو... أما أزالت هناك الثعالب؟

قال الروبيو:

ـ أبغوغن؟ (نطق بالسوسية) نعم. لكن ليس كما من قبل. هناك بعضها في الجبال البعيدة عن القرى، غير أنها لا تقترب منها. ما يكثر الآن، في تافراوت، هو (بوتكانت Boutagant) الخنزير البري، (أنزيظ وتاروشت): السنجاب والظَّرِبان.

قال بول، بصوته الواهن، وقد بدأ يعتدل وينتشي في فراشه:

ـ العالم تغير كثيراً في كل مكان.

(*) طاولة صغيرة.

بدأت أعرق. الخشب يطقطق وشعلة هائلة في المَدخنة. بول قد يستدفئ بالنار حتى في عزّ الصيف. وإذا سألته يجيبك: «أنا بردان». لم أسمعه أبدا يشكو من الحرارة في منزله أو خارجه. أمام المَدخنة صفّ من الزجاجات البلاستيكية ملأى بالماء. لعلها كانت هناك لامتصاص الرطوبة. أراد هانس أن يأخذ صورا لبول، لكنه اعتذر لأنّ حالته الصحية لم تكن تسمح له بذلك. ذاكرته ما زالت قوية، عيناه حييتين ومشرقتين. فقطّ سمعه ضعيف منذ أن عرفته في بداية السبعينات. محوت من ذهني نكتة المتظاهر بأنه لا يسمع. إنّ بوولز حقاً لم يعد يسمع بوضوح. عندما خرجنا قال لي الروبيو:

ـ عجيب، هذا الرجل!

ـ لماذا؟

ـ لأنه ما زال يتذكر كل شيء منذ أكثر من خمسين سنة. لقد نسي شيئاً مُهمّا هو أن في تافراوت صخرة أخرى رأسها يشبه رأس أسد.

قلت:

ـ ربما لم يزرها.

قال بانفعال، كعادته:

ـ مستحيل آلسي محمد. إن كل السياح الذين يزورون تافراوت يعرفون صخرة رأس الأسد.

قلت مازحاً:

ـ أنا رأيي أن رأس الاسد هو الذي يشبه رأس الصخرة. إن بول بوولز لا يسيح مثل الآخرين.

ـ وماذا هو إذن؟

ـ قد لا يعرف ما يعرفه الآخرون، وقد يعرف ما يعرفه الآخرون أو أكثر.

قال بحيرة.

ـ أنتم الكتاب غامضون.

سألني هانس عّما نتحدث.

ـ عن صخرة يعرفها كل السياح الذين يزورون تافراوت ولا يعرفها بول بوولز أو نسيها.

ـ عرفها أو لم يعرفها فهي مجرد صخرة.

قال الروبيو بانفعال:

ـ كلاّ يا مسيو هانس. إنها صخرة مهمة. كل من يراها يتعجب من شكلها.

ضحك هانس ولم يضف شيئاً.

6 ـ 6 ـ 1993

ترددت في الدخول إلى حانة «كوسموبوليتا» Cosmopolita[1] لأنها صغيرة مثل حانة «ثقب في الحائط»[2]. يكفي ستة أو سبعة أشخاص فإذا هي ملأى. لم تكن فرجيني قد دخلتها معي من قبل. أغريتها فوافقت. إنها دائماً تغامر أكثر من سنها (18 سنة). التمسماني كان هناك في ركن مثل لقلق مقدس. وديع. أمامه زجاجة نبيذ صغيرة. يبدو أن الكمية التي شربها قبل مجيئنا قد تَجَمَّع لونها في وجهه الذي تكَرَّزَ (من الكرز). شارد. رحّب بنا. تيقظ. بعد نخبين أعدناه. فرجيني Virginie وأنا، إلى ذكرياته مع بوولز وجين والجماعة: براين جسين، تينسي وليامز، وليام برّوز، ترومان كبوتي وآخرين. صارحته أني أكتب مذكراتي مع بوولز وثلته. صَمَتَ وشَرَدَ. لم أخرجه من أحلام يقظته إلاّ

---

(1) أشهر حانة في زمانها، أسسها المغني أنطونيو سيفيا Sevilla عام 1927، وكانت عبارة عن ناد صغير للفنانين.

(2) اسم حانة أخرى أصغر منها، أسستها مدام لاماركيز.

عندما أحسست أنه مستعد أن يتحدث لي عن هؤلاء وغيرهم. أخذ يتكلم بالانجليزية حتّى تفهم فرجيني: «بول، جين، أحمد اليعقوبي والمرابط. أوه! تلك كانت حياة أخرى». رفع كأسه إلى فمه. تمهل قبل أن يفرغه كله ببطء. يقاوم تعبه بلباقة وهو يتذكر. فكرت: إنه تَربّى جيداً. لم يفسده التحضر الزائف الذي انخرط فيه صدفة. يسكن في قرية «برييش». استضافنا أنا وفرجيني. أجلنّا الدعوة. تلاطف معها إلى حدّ الأبوة. وعندما سألته فجأة أهو حقاً قتل بول قطّ جين حيث دفعه من على حافة نافذة شقته في الطابق الرابع أجابني بحدة:

ـ أبدا لا. بول قد يؤذي بعض الناس وأشياء أخرى في كتبه، حسبما سمعت، لكنه جدّ إنساني في الحياة الواقعية. خيال الكتابة شيء آخر لا نحاسبه عليه لأنه حرّ في خياله.

ـ العربي اليعقوبي قال لي ذلك.

ـ اسمع: العربي اليعقوبي صديقنا، لكن ما يقوله عن بول ليس صحيحاً. إنه لا يعرف بول كما أعرفه أنا. طبعاً لم أقرأ كتبه رغم أني سمعت عنها الكثير. إنني أتكلم الانجليزية، ولكنني لا أقرأ بها الكتب إلاّ الرسائل.

سألته فرجينيا:

ـ أنت الذي تعرف أصدقاء بوولز القدماء، ما رأيك في جاك كرواك إذا كنت قد تعرفت إليه؟ (إنها معجبة به حدّ العبادة).

شرب كأسه دفعة واحدة ثم أجاب:

ـ أوه! ذلك أيضا عرفته. إنه يشمّ الأشياء قبل لمسها. جدّ ذكيّ. كان يربك بول بتلقائيته عندما يتكلم. بول لم يكن يعتبره كاتباً جيداً عندما سألته عنه. كرواك كان، مثل جيله، شابا تمرد على أسرته ومجتمعه ولكنه لم ينضج. هكذا قال لي بول. أما أنا فقد أعجبت بشخصيته لأنه بسيط ولا يعقد الأمور. الأمر يختلف مع برّوز مثلاً: إنه

دائماً في قوقعته. (صمت لحظة وشرب كأسه) ما أحلى الكأس قبل الاخيرة! (نظر إلى فرجينيا ثم إليّ) سأقول لكما شيئاً قبل أن أنصرف: إن بول علمني أشياء كثيرة. له أهواؤه ولي أهوائي، لكنني ما زلت أحترمه. إنه يرى بعيداً، ورؤياه عن مستقبل الذين عاشروه صادقة.

سألته أنا:

ـ والمرابط ماذا تقول عنه اليوم بعد أن لم يعد يعاشر بول؟

ـ بول مثل جين، كلاهما لم يعرف كيف يختار أصدقاءه من المغاربة.

سألته في زيارتي الأخيرة له منذ أسابيع:

ـ ألم يأت ولو مرة واحدة منذ أن غادر؟

ـ لا. وليس ملزماً أن يأتي لأنه لم يعد يشتغل عندي.

صباحا. 11 ـ 7 ـ 1995

التقيت المرابط قدام البنك الإسباني المغربي. كان ينتظر أحداً أو ينتظر نفسه. صحته منهارة. شاخ سيئاً. تبادلنا كلمات عن صيف طنجة السياحي البائس هذا العام وأزمة الماء الذي بدأ الناس يسمونه «الذهب الأبيض» في المستقبل. ابتسامته شاحبة.

6 ـ 8 ـ 1993

قرابة الرابعة مساء مرّ بول بوولز قدام حانة نيغريسكو Negresco. سلمت عليه. صوته ضعيف. مريض. ذاهب إلى طبيب الأسنان. يمشي مقوساً مائلاً على جانبه الأيسر. عبد الواحد يمسكه من ذراعه الأيمن. رجعت إلى طاولتي المطلة واجهتُها على الشارع لأشرب كأساً من الويسكي مفكرا في مساوئ الشيخوخة.

في عيد ميلاد بول العام 94، الذي تعوّد المرابط الاحتفال به في

منزله على الطريقة المغربية التقليدية: (جوق موسيقى جيلالة وذَبحُ خروف)، رغم القطيعة بينهما، راح بول يعدد لروبيرتو دي هولاندا مزايا خدمة سائقه عبد الواحد له، وعنايته به وطبخه اللذيذ. وهنا قال له المرابط[1] الجالس قريباً منه:

ـ سنيور بول، (يتكلمان دائما بالاسبانية) ولكنني أيضاً فعلت نفس الشيء معك، بل أكثر.

قال بول، ببروده الثلجي المعهود:

ـ لا أعتقد. أنت لم تفعل شيئاً من أجلي. كنت فقط تشتغل عندي حينما تريد.

انشغل المرابط مع نغم الموسيقيين فقال روبيرتو لبوولز:

ـ لكن كنتما صديقين حميمين.

ـ من؟ المرابط؟ ليس هذا صحيحاً. إنه لم يكن أبداً صديقي!.

ـ وماذا كان لك إذن؟

ـ كان مستخدماً مثل الذين اشتغلوا عندي.

21 ـ 8 ـ 1995

زارتني إنكارنا Encarna مساء. جاءت مباشرة من زيارتها إلى المرابط. منذ عام وهو يعاني من سرطان المعدة، حسبما قال لها. يفكر في بيع ضيعتَه لإجراء العملية في إسبانيا أو ألمانيا. وعندما أخبرته أنها ستزورني قال لها: «قولي له بأنني أموت شيئاً فشيئاً. إنه المكتوب».

23 ـ 8 ـ 1995

زارت إنكارنا بوولز هذا المساء. ما زال يدخن سجائر سوداء محشوة بالكيف. أخبرته عن تفاقم قرحة المرابط السرطانية. قال لها:

---

(1) المرابط جدّ ماهر في الطبخ.

«لم يعد يزورني. لا أعرف عنه شيئاً. ليس هناك من هو على صلة بيننا. أعرف أنه سيعاني كثيراً لأنه كان دائماً يعطي أهمية كبيرة لمظهره الجسدي».

11 صباحا (11 ـ 11 ـ 1995)

زار روبيرتو هولاندا والمرابط بول من أجل طلب مساعدته لدفع تكاليف إجراء العملية الجراحية للمرابط في ألمانيا. مبدئياً وافق على دفع الفواتير. وعندما انصرف المرابط قال بول لروبيرتو: «كانت جين على حق حينما قالت لي يوما بأني دائما أخاف من أنّ المغاربة سيفطنون إلى كوني أعرف أنهم يكذبون عليّ».

بدءاً من عام 50، بدأت جين تشعر بالعجز عن الكتابة. كتبت إلى بول من باريس في نهاية يناير: «عندي إحساس قويّ أنه ينبغي لي التخلي عن الكتابة، إذا لم أستطع أن أصل إلى أكثر مما وصلت اليه. لا أقدر أكثر على الاستمرار ضائعة في الطريق كما يحدث لي الآن». أمّا بول فلم يفكر يوما في التخلي عن الكتابة. لقد أجرت جريدة ليبيراسيون الفرنسية استطلاعاً نشرته في عدد خاص في ربيع 85. طرحت فيه على العديد من الكتاب، منهم بول بوولز، السؤال التالي: «لماذا تكتب؟» وأجاب بوولز: «أنا اكتب لأني أعيش في دنيا الأحياء». لكن هناك سؤالاً آخر لم يطرح عليه بعد وهو هل كان سيصبح كاتباً، بالمفهوم العريض، لو أنه لم يستوطن طنجة كما كانت الاسكندرية للورنس داريل L. Durrell، ويسافر بعيداً عنها أو قريباً منها، عائداً دائماً اليها؟ إنه يؤكد لاوطنيته حين صرّح لعَمّار الجندي (مجلة الوسط 32 ـ 3 ـ 92): «لست أميركيا أو مغربياً. أنا زائر للأرض. عليك أن تكون مسلماً لكي تحيط بالمغرب وتنتمي إليه». ويقول بيتر أوين: «إن بول بوولز يعرف المغرب أفضل من المغاربة».

في رسالة (19 ـ 2 ـ 47) إلى شارل هنري فورد يعلل بول سبب بقائه في طنجة: «لم أكسب صداقات جديدة في الشهور القليلة التي قضيتها هنا. السبب هو أنه يراودني إحساس بأنني لست حقيقة في طنجة. إنها متغيرة بشكل فظيع ولا أحاول أن أتصور كيف كانت من قبل. إن جانباً مما كان، طبعاً هو كما كنت أنا، وكما أنا أيضا تغيرت، يبدو عذابا غير ضروريّ للبحث عن ماض لم يترك أيَّ أثر. لقد تحققتُ من أنني دائماً موجود أكثر في مكان ما حيث لم أكن أبداً فيه ولا أعرف شيئاً حوله. مرة أخرى إلى مكان ما. سواء إذا تغير أم لا فإنه ليس هو نفسه. أليس حقيقة؟ وأن لا يكون هو نفسه يعني، بطبيعة الحال، أنه غير حيّ. كل مكان يزوره امرؤ من جديد يظهر أنه قد فقد الحياة التي كانت تجعله موجوداً في المرة الأولى التي رُئي فيها. أكيد لم أفكر أبدا في العودة إلى طنجة لكي أبقى، لكن لسبب ما مكثت هنا، ربما لأنه لا يمكن للمرء الحصول على كل ما يريد والعيش رخيص والسفر محكوم بالمشقة... تأشيرات للمغرب الاسباني وتجديد تأشيرات للمغرب الفرنسي وناس سيئو الظن في القطار... وخاصة كوني حسماً لا أملك طاقة لأعدّ الأمتعة وذهابي إلى مكان آخر...».

16 ـ 9 ـ 1994

قالت لي نتاليا هذا المساء عائدة من داكار: «عندما تصل إلى إفريقيا تتمنى أن تكتب عنها كتاباً، وبعد شهور تتمنى فقط أن تكتب عنها مقالة، وفي نهاية السنة تتمنى أن لا تكتب عنها شيئاً».

وقال يوما إيزنهاور للشعب الأميركي: «كل شيء يسير نحو الأفضل في أفضل العوالم».

بدأت جين تفكر في الانسحاب من الكتابة إذا هي لم تُنْهِ كتابها، لكن دائما أيّ كتاب؟ إنه مجرد وهم! لقد راحت تُمنيّ نفسها بإنجاز

شيء لا وجود له. كانت موهوبة وماهرة، ولكن ينقصها الاستعداد والإرادة. أما بول فلم يكن يعد بشيء أكيد خلاف ترومان كبوتي الذي يخطط دائماً لحياته الأدبية بدقة ويعرف تماماً ما سيكتبه في المستقبل في فترة محددة. لكن بول كان يعمل باستمرار ولا يكاد ينقح ما يكتبه (حسب زعمه) مثل جاك كرواك الذي يقول أيضاً بأنه لا يكاد ينقح كتاباته[1]، لكن ناشره مالكوم كوولي Malcom Cowley يُكَذِّب ما يقوله كرواك عن نفسه؛ لأنه ينقح كثيراً لكي يكون النص جيداً. لكأنما كل تنقيح يُفْقِدُ العملَ بكارته التي يحبها كرواك وبوولز.

يتعمد بول تغييب السارد بصيغة المتكلم غياباً شِبْهَ كليّ في أعماله: «لا أريد أن أكون في أيّ منها. بقيت بعيداً عن كل قصصي، ما عدا ثلاث أو أربع منها أخذت شكل المونولوج أو الرسائل؛ إذ لم يكن هناك من سبيل للتنحي، بطبيعة الحال». وبهذا يؤكد بوولز أنه ينبغي للمؤلف ألاّ يُقحِم حياته الشخصية في كتاباته: «إذا كانت لحياة المؤلف قيمة كبيرة فهذا معناه أن كتاباته لا تستحق الاهتمام. إن الحياة الشخصية هي أمور خاصة، ليس فيها ما يهم أيّ إنسان آخر. وماضي الشخصي لا يعني لي أنا شيئاً. لقد كان مُحَمَّلاً بالمعاني لحظة كنت أعيشه، أما الآن فلا أظنه ذا قيمة حتى بالنسبة لي».

بين طنجة الأمس، وطنجة اليوم، هناك الحالمون بها على الدوام، رغم خيبة أملهم فيها. وبول بوولز أكبرهم. إن الانتحار، بالنسبة للياباني، انتصار وليس انهزاما، لكن بول ينهزم دون أن يخوض معركة ما في شجاعة، معنوياً وجسدياً، عندما يقول: «لا شيء يُنْتَظر إلاّ الموت. ما زلت أنتظر موتي في طنجة. هذا أكيد». وأيضا: «الآن لا

(1) قيل إنه كتب أحبّ رواية إليه «المتسكعون الروحيون» Les clochards céléstes خلال ثلاثة أو أربعة أسابيع.

شيء يمكن أن يحدث ما عدا الذي يجب أن يحدث». أو: «الانسان ليس له سوى أن يموت sterben Mann mus nur» كما فكرت ديزي Daisy في مونولوجها[1].

إنّ أنتيوس، قبل أن يموت، صارع هرقل، أما بول فإنه استسلم للقدر ولم يعد ينتظر إلاّ ميتة جميلة، تليق بِقَدْر كفاحه الابداعي.

لقد أحبت جين بوولز الناس أكثر مما أحبوها على مزاجها. لم تُكَذّب أحداً، ولم تستجدِ حياتها. الكلّ بالنسبة لها، عاقل إلاّ الأحمق، لكن كم من عقلاء كانوا محيطين بها؟ رابطة الأخوة الانسانية؟ صداقات حقيقية؟ إشفاقات؟ إنها لم تصل إلى التواصل الحقيقي مع الآخرين! كلّ ما كانت تحبه بعمق كان يهرب منها أو تخلق هي أسباباً لكي تبعده عنها حتّى يتمّ لها العشق لا المنَال: التَماسّ لا المواجهة. ولا ننس، هنا، عاملاً أساسياً في عدم تواصلها هو أن معظم اللصيقين بها من المغاربة هم من حضارة وهي من حضارة. لقد جاءت إلى طنجة لكي تحب من أجل الحب فإذا بها ترى حبها يباع ويشترى في السمسرة. إنّ جين تحب الهارب منها: الممتنع...! تحب المتاهة لا الطريق المنير. وفي هذا تشترك مع بول في التيه اللانهائي أو تمَنّي الغياب التام. نوع من البوذية ممزوجة بالعدمية: الشقاء، اللااستمرارية وانعدام الذات.

في سنة 1968 بلغت جين عجزها عن التعبير الأدبي. بول، أيضا، سيقلّ إبداعه (ربما بسبب تأثير مرضها عليه كما يرى بعض نقاده وأصدقائه) ويبدأ في تخصيص معظم أوقاته لنقل (وليس ترجمة) ما يحكيه له المرابط مسجلاً بالدارجة المغربية وما يسعفه به إلمامه بالاسبانية. وكانت جين لا تحب هذا العمل الجديد الذي راح بول يخصص له معظم وقته بحماس. كانت تحب أن يكتب ما يفكر فيه هو.

---

(1) شخصية من رواية «دعه يسقط».

ربما لامارتين هو الذي قال: «مخلوق واحد تفتقده فإذا الكل خراب». كان بول يتوقع حدوث مثل هذه المحنة والنهاية مع جين وربما منذ أن تعارفا. كلاهما قَدَرٌ في الآخر. لا هي ولا هو دون أن يعيشا معا مثل كيت وبورت في «السماء الواقية». لكن هذا لا يعني أنه نادم على عشرته معها. فقط أنه لم يكن ينتظر مأساة مرضها. لقد كانت مِهمازه وحافزه. أوحت له بالكثير من خلال التناقض الموجود بينهما: هي تلقائية: منطلقة على سجيتها، وهو منضبط ومُدَقِّق في حياته.

أظن أن بول، من خلال عشرتي معه، التي دامت قرابة ربع قرن، لم يكن يعطي كبير اعتبار لما ينتجه هو بالذات أو لما ينتجه أحد ما. المهمّ هو أن تعمّ الجودة وتتكاثر: جودة النتاج ولا يهمّ من ينتج. كان يشجع هذا المبدأ. نادرا ما قابلت أحداً من المبدعين، كباراً وصغاراً، يتخلّى، بتواضع، عن أناه الإلهية في الفن. هذا من ميزته. وحتى أسطورته ترك الناس يخلقونها على هواهم، وصارت تتغذى من نفسها، وتكبر كل يوم، ولم يكن عليه سوى أن يرعاها ويزكيها بتناقضاته الحربائية حتّى لا يصدم معبوديتهم له...!.

بول كان يكتب كيما يكافح ضد تفاهة العيش اليومي المعتاد حوله، وفي العالم، «حتّى لا نموت مثل الحيوانات» كما يقول همنغواي في هذا المعنى. هذا معقول، لكن ماذا نقول عن امرأة تتعرّى من الخلق لترينا صورة العالم، وربما لترينا فقط، باستفزاز، مؤخرتها الخَنِزَة!؟ لا أعتقد أنها تفعل ذلك إلاّ لتقاوم العاطفة الثلجية. إنها ستحمل نزوتها ولن تبوح بها في هجمتها القادمة. إنها العاصفة الكاسحة المباغتة. لا تهبّ لِتُسامِح. ما نتركه من أثَر سام لا يُعادل جدالنا فيه. لمن إذن ذروة في الخلود؟ أحقا هو خالد مَنْ خَلَقَ فكرة الخلود؟

إن بوولز، اليوم، جدّ متحسر على ما حدث من تبدل في طنجة (والعالم طبعاً، رغم بعده عنه). في نظره لم يبق منها ثابتا إلاّ «الشرقي»

(ريح الشرق). وهو في هذا لا يجازف بفكرة تافهة. فطنجة اليوم استكان أهلها في بيوتهم الصغيرة بعدما باعوا أجمل أراضيهم بأبخس الأثمان. الشرقي حاضر في طنجة موزعة ريحه على مدى شهرين في السنة كما يذكر اسحاق لاريدو في كتابه مذكرات عجوز طنجي. «في الحقيقة، ما تَبَقَّى هنا هو الهواء والريح. عملياً، كل شيء اختفى مع انفجار فترة الحركة المسعورة التي بدأت قبل حرب 1939 بقليل واستمرّت إلى أن حدثت اضطرابات 52». ثم يضيف: «حتّى في القصبة، ليس هناك إلاّ زقاق واحد لم يعان من تغيرات: إنّ مسلمي طنجة، مثل العالم كله، شغوفون بالبناء، وإعادة صياغة الأشكال»[1].

بول بوولز أحبّ المغرب، لكنه المغرب الذي جاءه العام 31. لم يحبّ أبدا المغاربة. وإذا لم يحبهم فلماذا سيبذلون هم أيضا أيّ مجهود ليحبوه؟ ومع ذلك فهو يتمسك ببقائه حين يقول لجيمس ليو هيرليهي James leo Herlihi «(4. 10. 72) لكن، بنوع ما، لا أتصورني عابراً الأطلسي. على الأقلّ لا، حتى يطردوني من المغرب بالقوة. (في الواقع لا تعجبني الولايات المتحدة، لكن لا تَقُلْ ذلك لأحد)». وهنا يشترك بول بوولز في هذا الشعور مع هنري ميللر عندما يقول: «لكن العودة إلى نيويورك، من ناحية أخرى، كانت مخيفة، فالمدينة التي أعرف كل شارع فيها، معرفتي لكتاب، وحيث أصدقائي الكثر، ظلت آخر مكان على وجه الأرض أودّ العودة اليه. إنني أفضل الموت على قضاء بقية أيامي مرغما في مسقط رأسي».

في كتاب بوولز «أيام ورحلات» يكتب أيضاً: «لأنّ هؤلاء المتزمتين العرب هم راسخون مقتنعون بأن الغربيين يزورون المغرب فقط لكي يسخروا من العادات وسلوك بلد متخلف». هكذا كان يصرخ

(1) من كتابه «أيام ورحلات».

بول بوولز من قبل، أما اليوم فلم يعد له سوى أن يحشرج. لقد قال بول بالتا Paul Balta[1]: «بالأمس، كان العرب، في نظر الغرب، شجعاناً، نبلاء، اليوم هم كسلاء، مخادعون، قساة، خبثاء...».

إنّ آفة بول بوولز هي أنه لا يميزّ كثيراً بين الماضي والحاضر، في حياة البلدان وشعوبها، رغم تجواله الكثير. أما المستقبل فهو منعدم بالنسبة له. بمعنى آخر، هو يريد أن يعيش في عالم بدائي ثابت ولكنه متحضر. كيف يمكن ذلك؟ إنه لا يعرف كيف يجيب رغم أنّ هذا الطرح من بين طروحاته عن البشرية.

هذا الهاجس، بين المتحضر والهمجي، شغل أيضا د. هـ. لورنس في معظم قصصه ورواياته، لكن أمله خاب عندما عاش في المكسيك وكتب أهمّ مؤلفاته: الثعبان ذو الريش Le serpent à plumes. وكذلك خابت طوباوية ألدوس هكسلي الذي كان يعاني من نفس الصراع الذي طرحه في روايته العالم الشجاع الجديد Brave new world. إنّ معظم كتابات بول بوولز تَنْصَبُّ على الحنين إلى العهد الاستعماري، في المغرب وغيره، على هواه الشخصي.

22 ـ 7 ـ 1993

زرت بوولز صحبة بدرو Pedro (شاب إسباني رسام). استقبلنا عبد الواحد. كان بول مستلقياً على فراشه مُتْعَباً قليلاً. بعد تحيتنا له قال: «ها أنا هنا سجين. لا أنتظر سوى الموت». فكرت: لكن ليس بنفس القسوة التي أنهى بها حياة أشخاص قصصه ورواياته. عزمت على أن أبعث فيه بعض الحيوية فتجرأت:

ـ سنيور بول، ألا تعتقد أنك أشللت جين عندما كنت تنتج بحماس

---

(1) مدير أبحاث الشرق الأوسط.

كبير في الموسيقى، وتكتب القصص بوفرة، ورحلاتك الموزعة في عدة كتب بينما كانت جين عاجزة عن إتمام أيّ نصّ بدأته؟

ـ تلك مشكلتها وليست مشكلتي. أنا لم أكن أتدخل في حياتها إلاّ في حدود تهمّ صحتها، وفقط عندما أرى أنه سيلحقها سوء هي غافلة عنه. لقد تركتها، في النهاية، تفعل ما تريد في حياتها. لم أُرغِمها أبدا على فعل شيء هو ضدّ إرادتها.

ـ لكن، فيما يتعلق بدفنها، معروف أنك ضدّ أن تموت وتُدفَن مسيحية.

ـ هذا صحيح. إن جين من أصل يهودي بلغاري كما هو معلوم. ما حدث هو أن الراهبات استطعن إقناعها بأنه يمكن لها أن تصير كاثوليكية. وتحت التأثير اليومي، على ضعفها الجسدي والمعنوي، انتصرت الراهبات واستسلمت هي. لكنني لا أظن أنها اعتنقت الكاثوليكية. كانت مغلوبة على أمرها. وكان لا بدّ من أن أدافع عنها عند موتها. مرة زرتها فوجدت صليبا في عنقها. لم أقل شيئا لأخوات الإحسان. ما كان يهمني هو أن يُعْنَيْنَ بها. كنت سعيداً مع جين رغم ما يقوله الآخرون.

كان بول، في هذه المرة، أكبر من الحزن الذي تعوّد أن يكتب عنه، لكني لم أتراجع عن أسئلتي.

ـ تقول جين إنه عندما تكون أنت زاخراً في إنجاز تآليفك الموسيقية والأدبية تحسّ هي بالتضاؤل والانطفاء فإلى أيّ حدّ تشعر تجاهها إبداعياً ولا أقول نداً للندّ؟

ـ كنت أقدر موهبتها. ولا أحسّ بأيّ ذنب تجاه ما لم تستطع تحقيقه في كتابتها وحياتها. كانت مسؤولة عن نفسها وطموحاتها الأدبية. بعضها أنجزته، وبعضها ظل طموحاً مستمراً وحلماً. في رأيي إنه ينبغي أن يكون كل واحد مسؤولاً عما ينجزه وما لا ينجزه. حقا

ساعدتها على تصحيح بعض أخطائها النحوية، والترقيمات. . . لكن هذا لا يعني شيئاً كبيراً. إن هذا العمل كان يمكن أن يقوم به أيّ أستاذ لغة. وهي أيضاً كانت تعرف هذا وتقوله، إنما كانت تريد أن أتولاه أنا. إن جين وهبت لي كثيراً من الابتهاجات، وخلافاتنا كانت قليلة مهما ذاعت الشائعات عنا وبُولغَ فيها، ولها موهبتها المتميزة في الكتابة. إنه من العبث أن يقارن أحد ما كتاباتها بما كنت أكتبه. كلانا كان يكتب على مزاجه. لم تكن هناك أية منافسة أو غيرة أدبية أو اجتماعية بيننا. كنا نشترك في محبة بعض أصدقائنا على اختلاف أهوائهم ومبادئهم ومذاهبهم الفنية. «لا يمكن لك أن تقدمي مخطوطاً فظيعاً إلى أحد!» هكذا صرخت في وجهها يوما. أما هي فقد هزت كتفيها قائلة: «إذا عثرتُ على ناشر فإنه سيتكفل بتلك الأشياء (تعني ضبط الكتابة). إنهم لا ينشرون كتاباً لأنّ النحو سليم، أيها السيد المتشائم». هكذا كانت تناديه بدعابة.

ـ سنيور بول، يقال إنه عندما ماتت جين لم تعد أنت تنتج أعمالاً أدبية جيدة كما كنت تحبها. ومن أجل ذلك اتجهت إلى نقل وصياغة بعض الحكايات لشبان مغاربة عاشروك.

ـ لا أنكر أن وجود جين معي كان حافزاً كبيراً ومهمازاً لي على المضيّ في الكتابة، لكن عندما مرضتْ صار لي مسار آخر في الكتابة. ولست نادماً. كانت تجربة أخرى. لقد فكرت جين دائماً أن أحدنا لا بدّ أن يكون كاتباً. ولم أكن أوافقها على ذلك. الأمر هنا لا يتعلق بالدونية أو الفوقية في الموهبة. إنما كان بمثابة هبة منها وكأنها تقول: اشتغل أنت لأنك أقدر مني ومنضبط. أنا متعبة. لقد ولدت لكي أعيش كما أريد، لكنهم أرادوا لي حياتي كما أرادوا هم ففشلنا كلنا: هم وأنا (تقصد أسرتها). جين لم يكن لها انضباط في الكتابة. لقد مزقت كثيراً مما كنتُ معجباً به. إنها جين، ومن كان يستطيع منعها من أن تفعل

شيئاً أو أن لا تفعله!؟ لا مؤاخذة لي عليها. كانت رفيقة طيبة. ينبغي لنا أن نتعلم كيف نحبّ بعضنا البعض حتّى في أسوأ تفاهمنا.

إن جين مدفونة في مقبرة سان ميغيل في مالقة، لكن في قبر مجهول الاسم وعمرها 56 سنة. قضت منها 16. وبما أن الأمر يتعلق بمقبرة كاثوليكية فإنّ المسموح به، إلزاماً، هو إقامة صليب فوق قبرها. لكن بول لن يضع صليباً فوق قبر جين؛ لأنّها هي نفسها لم تكن مقتنعة بذلك. إنه يقول: «فيما يتعلق بي، فلا قبر هنالك. أنا لا أؤمن بالمقابر والقبور. أيّ جدوى من ذلك؟ أمن أجل البكاء على الموت؟ هل تتجاوزه؟ إننا لا نقدر أبداً أن نتجاوزه. إنه دائماً معنا. على كل حال، فأنا لست قادرا على تجاوزه؛ لأنه يفقدني صلتي بالعالم. أظن، وعلى مستوى عريض، أني عشت بالوكالة دون أن أعي ذلك. وعندما لا أجد أحداً أعيش من خلاله أو غيره فإني سأكون قد انقطعت عن الحياة».

من حسن الحظ أن بول يخشى الموت مثل الآخرين ولا يجعل منه مأساته الخاصة، لكنه لم يندم على شيء حتى وإن كان قد آلم الغير وسبب لبعض الناس ضرراً سواء في سلوكه أو في أعماله الأدبية المرتبطة بالشر والزاخرة بالبطش والموت العنيف. وطبعاً فإنه لم يعاهد نفسه على أن يكون قديساً حتى يستغفر شيئاً. حياة جاءت، حياة مضت، وهناك أشياء لم تأت وأشياء لم تذهب.

عاش بول بوولز في المغرب مؤمناً أنه أجنبي غير مرغوب فيه ولا مصالحة معه. «إنهم لا يقبلونني، لم يقبلوني أبدا. ما زلت أعتبر أجنبياً هنا». هكذا صرّح في استجواب أجراه معه خيسوس رويث مانتيا Jesus Ruiz Mantilla لجريدة البايس EL PAIS (30 ـ 5 ـ 95) حيث يحذر من الاسلام مقتنعاً بأن القرن القادم سيكون موسوماً بالمواجهة بين المسلمين والغرب.

هذا العداء، إنّ كان موجوداً من طرف المغاربة له، خلقه هو ولم يخلقه المغاربة تجاهه. ومعلوم أن بول، أينما يكون، يعيش دائماً في حالة حصار وبارانويا. إنه يتوهم أن هناك دوماً من يتجسس عليه ويتوجس به شراً مثل سلب ماله، مثلاً، الذي يتحدث عنه بتقديس وعبادة. بول جدّ بخيل، هذا من حقه، لكن ليس من حقه أن يتوصل سنوياً بعائدات حقوق نشر كتبي التي ترجمها ولا يعطيني قسمتي ما عدا التسبيقات الهزيلة التي آخذها عند التوقيع على العقد. ثم هو يأخذ 50 في المائة عن حقوقه في الترجمة.

كنت أزوره أكثر من مرة في الأسبوع. لم يكن زواره كثيرين مثل اليوم. لقد صار بعضهم اليوم يسجل آخر كلماته، وهو في فراشه، على غرار ما فعلوه مع تولستوي عندما هاجر أسرته وهام بحثاً عن نهاية مريحة بعيداً عن زوجته الملهوفة على حقوق نشر كتبه ومصير أراضيه التي أوصى بها للفلاحين الفقراء. لكن بول لا يفكر أبدا أن يصبح قديسا في بلد يعتبر أهله همجا وبلهاء. إنه يكره الفقر، هذا من حقه، ويحتقر الفقراء هذا ليس من حقه. ثروته التي سيخلفها، (أكثر من سبعمائة ألف دولار حسبما قال لي روبيرتو دي هولاندا) سيتركها لأحد البنوك لتُستَثمر من أجل مساعدة مؤسسات فنية أو غيرها. اليوم دائما هناك أكثر من زائر من طنجة أو من الخارج. أحياناً تجد خمسة أو ستة متعددي الجنسيات يحاورونه باللغات الثلاث: الانجليزية، والفرنسية والاسبانية اللتين يتقنهما. إنه للياقته، لا يرفض استقبال أحد إلاّ إذا كان الزائر قد زاره من قبل وأزعجه بأسئلة لا يحبها. لكن المرابط يتكلف بهذه المهمة إذا كان حاضراً: فإذا لم يرق له الشخص، هو بالذات، فإنه لا يتردد في طرده حتى وإن شاء بول بقاءه. غير أن ما يضايق بول حقاً هو أن تطلب منه سلفة مهما يكن مبلغها. إنه يبلع ريقه عدة مرات بصعوبة وينظر اليك باندهاش وشحوب خافضاً عينيه مفكراً قبل أن يوافق على مضض أو

يرفض بأدب بالغ. كنت أشتغل في التعليم. وقبيل نهاية الشهر يذكّرني إذا كنت مديناً له: «لا تنس أنك مدين لي بـ. . .» وطبعاً لم يكن المبلغ يتعدّى خمسين أو مائة درهم. أما طلب مساعدة ثلاثمائة دولار من أديب حتى وإن كان يهدد بالانتحار مثل نورمان غلاس[1] فالرفض يتطلب رسالة مشفوعة بالاعتذار، واللف، والدوران، والنصائح، والحكم وحسن التخلص. . . هذا مقطع منها: «(طنجة 16 ـ 11 ـ 68) على كل حال، فقط يمكن لي كتابة قراري آملا أن لا تأخذه على استياء. عندي صداقة لأهبها، لكن ليس مال. آخرون عندهم مال أكثر من صداقة، بعضهم عنده الشيئان معاً، بعضهم ليس عنده شيء من الاثنين. ما العمل».

إن بول في حضور زواره يتألق ذكاؤه الحادّ دون ادعاء، ساخر بلياقة بالغة، صريح، محايد عند اللزوم، يعطي رأيه دون مُوارَبة وليس عنيدا في النقاش. إنه ينسحب إذا توتر الموقف. عندما لا يتفق على فكرة يكتفي بأن يقول: «أووه، الأمر هكذا إذن. لم أكن أعرف. . .» إنه: «يشارك في كل شيء، لكنه لا يتخذ موقفاً من شيء» يعتقد أنه مخدوع، ولذلك فعندما يرى غيره ينخدع يجد عزاء في كونه ليس الوحيد المخدوع.

صحبت تينسي الذي خرجت معه من منزل لويز دو مورون. كنا جماعة، لم أكن مدعواً لكنني أقحمت نفسي لأنّ الرفقة راقتني. جيوبي كانت مثقوبة وكنت مهدداً بالدخول إلى شقتي دون أن أتعشّى وأتناول بعض الكؤوس.

كان تينسي سيسافر بعد يومين حين دعاني للعشاء في مطعم الجُنِيْنَة Djinina صحبة بول، والمرابط وعبد الواحد. وطبعاً فإنّ تينسي هو

(1) معروف بكثرة شكاواه عن إفلاسه المادي وتذمره ومراوغاته.

الذي دفع الحساب. أعتقد أن بخل بول حالة مَرَضية: إنه يوفّر حتى لا يفقر، لكنه يعيش الفقر ذاته.

مرة سألته:

ـ لماذا تنشر كتبك عند بعض الناشرين اللصوص مثل بيتر أوين؟

ـ لأنني لست هناك ليكون لي الاختيار. كيف يمكن لي أن أراقب نشر كتبي وأنا هنا وهم هناك، إن معظم الناشرين أوغاد. يفعلون ما يشاؤون خاصة إذا كنت تعيش في بلد بعيد عنهم. إنهم هكذا.

وكنت أقول لنفسي: إنك كذاب يا سنيور بوولز. كان يستلم عائدات المبيعات مباشرة أو نسخة من الشيك المدفوع لحساب بنكه في نيويورك يبعث له بها وكيل أعماله وليم موريس أجنْسي. وطبعاً لم يكن لي وكيل لأعمالي آنذاك، ولم أكن عارفاً بعد أن الكاتب يمكن أن يكون له وكيل لأعماله الأدبية. هذه محنة أخرى تُضاف إلى هذا العالم الثالث الذي تُغْتَصَب براءته بمعمودية اكتشاف الموهوبين والمغمورين فيه. لكأنه إحسان وليس عدلاً ابداعياً، أو على الأقل، مُناصَفة.

يكتب بوولز إلى Carol Ardman: «(19. 11. 72) شكري يجيء كل يوم. هو والمرابط لهما عادة جديدة، هي أنهما يتعشيان معا في السوق الداخلي ZOCO CHICO كل ليلة. الآن لا يمكن لي أن أتخيل أيَّ تكهن. لكن أظن أنه إذا كان أحدهما سيؤثر في الآخر (أدبياً) فسيكون المرابط هو الذي سيؤثر في شكري».

لست أدري ممن سمع بوولز هذه الإشاعة! لم يحدث قطّ أننا ذهبنا سويا أنا والمرابط إلى السوق الداخلي وتعشينا فيه. إنّه تخمين خائب من بوولز؛ لأنه (أدبياً)، للمرابط عالمه ولي عالمي وكلانا يتحصن في موقعه كتابة، وحكياً، وحياة ما عدا أننا كنا نذهب، أحياناً، إلى إحدى الحانات الليلية في البولفار لنتسلى مع الساقيات BARMAIDS والنديمات ENTRAINEUSES إحياء لحنيننا المشترك مع بعضهن.

لكنه بوولز الذي يستوحي خياله الغُرَفي (نسبة إلى الغرفة) ما قد يحدث أو يحدث فعلاً أو لا يحدث إطلاقاً في الخارج. أما أدبيا فقد أَثَّر حقاً المرابط في بوولز إلى حدّ الاقتباس منه والتماهي مع بعض نصوصه في قصصه المغربية.

إن بول بوولز أمريكي أينما كان الأمريكيون أما أنا فربما مغربي فقط في المغرب، في نظره وأمثاله. وأيضا كان اسم بول بوولز يكتب بنفس حجم اسمي على الغلاف كأنما هو يشاركني تأليف كتبي. لا شك أنه إشهار من خلق ناشر مثل بيتر أوين PETER OWEN، لكن بول بوولز لم يخجل، هو المشهور والغني، من هذه السفالة التي كان عليه أن يعارضها...! والأكثر مهزلة هو أن كتبي الأربعة التي أمليتها عليه وترجمها وافق على حقوق نشرها منسوبة اليه مُناصَفة: COPYRIGHT MOHAMED CHOUKRI AND PAUL BOWLES. كان يفعل نفس الشيء مع محمد المرابط، لكن الأمر يختلف؛ لأنّ المرابط صديقه الحميم، وهو حاضر معه، ويأخذ منه ما يستحقه بطريقته الخاصة، أما أنا فأبقى خارج الدائرة وحجة بوولز أنه يساعدني على الشهرة...!

في السنوات الأخيرة، صار روبيرتو دي هولاندا وكيلاً لأعمال المرابط، ورودريغو ريّ روسا RODRIDO REY ROSA[1] وبإيعاز من المرابط صار أيضا رتبيرطو وكيلي.

لقد اكتشف روبيرتو هذا الابتزاز من خلال العقود التي أطلعه عليها المرابط ونسخ الشيكات التي كان يعرف مخبأها في شقة بول. وعندما

---

(1) كاتب شاب من غواتيمالا أقام سنوات في طنجة. ترجم بعض قصص بول بوولز إلى الاسبانية، وفعل بول بوولز نفس الشيء فترجم له قصصه إلى الانجليزية. ومن المحتمل أن يرث هذا الشاب الحميم حقوق نشر مؤلفات بوولز كما قال لي روبيرتو المطلع على هذه الإشاعة.

ناقشه روبيرتو في هذه الملابسات عن حقوق نشر كتبي أجاب بصوته الرخو، الجامد، الساخر، اللامبالي، كعادته: «وبعد، فإنّ شكري سكير، إنه يبذر ماله في الشراب وبعد ذلك لا يتذكر ما يستلمه من مال».

بول بوولز الذي عاش ورأى العوالم يقول مثل هذه السفالة عني. ليس غريبا، فقد احتقر غيري أكثر مما احتقرني: الذين سخّرهم في كتاباته، والذين فقط عاشرهم أو اشتغلوا عنده، لكن هذا لا يعني أنني لا أحب بعض ما كتب، وهو أيضا أحب بعض ما كتبت. إلاّ أن هذه نزهة في حديقة أخرى.

6 ـ 3 ـ 1994 (30 و 11 صباحا).

التقيت رامون ورفيقته قدام مقهى باريس. لم أكن أعرف ما أفعله بنفسي في هذه الساعة. لقد تأملت سقف غرفتي بما فيه الكفاية. أدركت، من خلاله، أن ما يسمى بالحب الحقيقي لا يتمّ إلا عبر الحلم ونشوة الخيانة. كلمتني مجهولة هاتفياً:

ـ هل أنت محمد شكري؟

ـ نعم.

ـ أنا فتاة المستقبل!.

ـ هنيئاً لك...!

ـ أعطني خيطاً رابطاً أيها القواد...!

ـ ابحثي عمن يضع لك صمّاماً في أفواهك المرحاضية الثلاثة يا ابنة الطاعون البشري.

كنت أستمع إلى إريك ساتي ERIK SATIE وهي تمرْجِض كلماتها.

سيزور رامون ورفيقته أنطونيو فوينتيس ANTONIO FUENTES. كلفهما البارحة بشراء خبزتين سوداوين له. قبلت دعوتهما لزيارته. لم أره منذ سنوات. يشتري طعامه من مطعم صغير قرب منزله. قلما يذهب أبعد من السوق الداخلي. دائماً وحيداً. كلمته مرة واحدة أثناء معرضه في أواسط الستينات. قال رامون:

ـ أكيد أنه لن يدخلنا اليوم إلى منزله لأنه أدخلنا البارحة. حتى معارفه القدامى لا يستقبلهم إلاّ على فترات متباعدة إذا كان مزاجه رائقاً. لا بد للشاري من أن يصحبه أحد يعرفه، لكنه لا يستقبل أكثر من ثلاثة أشخاص، وليس قبل الحادية عشرة صباحا، وأن لا يكون يوما ضبابيا. إذا لم يشتر لوحة فلن يدخل مرة أخرى. إنه يقترب من التسعين وذاكرته ما زالت قوية ومشرقة.

الباب قديم لا لون له. دقّ رامون عدة مرات صارخاً: رامون وصونيا. يعتمر قلنسوة من الصوف، لحيته البيضاء غير حليقة منذ أيام. قدمني إليه رامون:

ـ كاتب مغربي.

قال بالدارجة المغربية:

ـ أنت من طنجة. هذا مِزيانْ! (أضاف لهما) إن له وجه فنان. إني أرى ذلك، يبدو عليه شيء مميز!

فكرت: ربما أثاره أنفي المعقوف! التفت إلى عاملين يُبَيِّضان جدران مسجد «الجامع الجديد» داعيا لهما بالعون والبركة. يحيّي كل من يمرّ بالدارجة المغربية «اللّه يعاونك». ثم قال لنا:

ـ المغاربة يقدسون العمل. إنه عبادة لهم مثل الصلاة!.

مدّ له رامون الخبزتين الملفوفتين في كيس بلاستيكي صغير أبيض. تأمل الخبزتين وقال:

ـ إنه خبز على كل حال، لكنه ليس هو الخبز الأسود الحقيقي الذي أعرفه. هو ما زال موجودا في السوق الكبير. فقط إنه أغلى قليلا من الخبز الأسود العادي المغشوش وينبغي أن تعرف من أين تشتريه.

ودعناه فقال رامون:

ـ إنه لا يكاد يخرج. أطفال الحيّ والجيران هم الذين يتسخرون له. إنه عدوّ النظافة. أثاثه المُراكَم، المغبّر تعشش فيه الفيران. بعض لوحاته بدأت تتأثر بالرطوبة. زاره القنصل الاسباني بابلو برافو PABLO BRAVO وزوجته صونسوليس SONSOLES. اقترحا عليه ترميم جدران الغرف المتصدعة وصياغتها. قال لهما، كأنّ شيئاً سيؤخَذ منه عُنْوَة: أرجو أن يبقى كل شيء كما تريانه الآن. هكذا تعودت على حياتي.

سألتُ رامون:

ـ سمعت أنه بخيل جداً وغني.

ـ إن أعظم ما اخترعه الانسان هو الفن والمال، هكذا قال لي.

ـ ولمن سيترك ثروته؟

ـ يقال إن أحد البنوك في طنجة سيتكلف باستثمارها، لمن؟ لا أحد يعرف بعد ما كتبه في وصيته[1].

قلت ضاحكاً:

ـ بول بوولز فعل نفس الشيء. وهو أيضا عاش فقيراً وسيموت غنيا.

بعض القصص التي كتبها بوولز مستوحياً أجواءها من المغرب،

---

(1) مات في صيف هذا العام (95). عثروا في منزله على أربعة آلاف درهم ورسوم ولوحات صباغتها من النوع العادي الرخيص.

قائمة، أساساً، على «السحور» ES'HEURS وليس TSEUHEUR كما ينطقها ويكتبها بوولز ومعناه «السِّحر» الخفيف القائم على الإيهام «بالتعزيم» المكتوب على وَرَقة أو على شيء مثل البيضة، و«التوكال ETTOUKAL» وليس TSOUKIL كما ينطقها ويكتبها بوولز وهو «المأكول أو المشروب» ومعناه «السِّحر» الفعّال، السّام، والهدف منه هو قهر الشخص جسدياً ومعنوياً حتى يتمّ الاستسلام، والإشلال (الجزئي أو الكلي) ـ حسب الكمية المتناولة ـ وقد يؤدي إلى الموت كما في قصة «بني ميدار». وأخفّه هو فقدان الذاكرة AMNÉSIE كما في قصة «البستان»(1). السحور بالتعزيم يمارسه الرجال الذين درسوا في «المسيد» (الكُتّاب)، وتسميهم العامة عن جهل «الفقهاء». أما «التوكال» فغالبا ما تمارسه النساء لجهلهن القراءة والكتابة.

والشائع أيضا أن «السحر» القويّ الفعّال يمارسه اليهود وتلامذتهم البرابرة. عموماً، فإنّ هذه القصص «المسحورة»، التي استوحاها بول من البيئة المغربية، هي جاهزة ومعروفة، غير أن حكايتها بين مدخني الكيف ومتناولي «المعجون» لها خيالها الساحر...

الملاحظ هو أن المعجون لا يرد في قصص بوولز القصيرة ما عدا قصة «علاّل» المرعبة. ربما لأنّ مفعوله هو أكثر جهنمية كما يحدث في روايته «دعه يسقط». وربما أيضا أن المعجون أكثر حضرياً، واستحضاره يتطلب مهارة خاصة وثمنه ليس في إمكانية الجميع مثل الكيف الشعبي. إن أشخاص قصصه المغاربة فقراء والمعجون تَرَفٌ باهظ. يتولَّد عن السحر والكيف والمعجون الحيلة، الخداع، الاحتيال، الانتقام والارهاب كما في القصتين: «صديق الجميع» و«الفقيه». ولعلّ ما يقوله بطل قصة (مدام وأحمد)، هو أصدق تعبير يشمل هذه القصص

---

(1) قصتان لبوولز.

جميعها: «مدام، كل الناس يمارسون الاحتيال في هذه الأيام. كل الناس».

الاحتيال، الخوف، عدم الثقة واليأس والاغتيال... هذا ما غذّى، على الدوام، معظم كتابات بوولز.

إن بوولز مولع بصوت المؤذن الذي يوقظه، في بعض قصصه المغربية ومذكراته، بشكل صوفي. وهو يرى أن الأذان، يفقده اليوم الميكروفون الكثيرَ من جماليته وخشوعه وعذوبته. إننا نوافقه على ملاحظته هذه، التي لها وجاهتها، لكن من أيّ مصدر أخذ هذا الحكم على المرأة في الدين الاسلامي الذي يورده في قصته «عَصْريةٌ في الجبل» (وجبة خفيفة عند العصر)؟: «مع انقطاع النهار، كانت البادية قد بلغت صمتاً شاملاً. من بعيد كان يُسمَع صوت رخيم واضح». نظرتْ إلى مَجيد:

ـ إنه الأذان؟ أيُسْمَعُ من هنا؟

ـ طبعا. ليس بعيدا من مَرْشانْ. ما نفع البادية إذا لم يُسْمَع الأذان. من أجل ذلك يذهب المرء للعيش في الصحراء.

ـ شش: دعني أستمع صوت جيد. هه؟ إن لهم أقوى أصوات العالم (المقصود المؤذنون). إنه يحزنني.

ـ لأنك لا تنتمين إلى الدين.

ظلت تتأمل لحظة ثم قالت:

ـ أعتقد أنك على حقّ.

كادت أن تضيف: «لكن، حسب دينك، فإنّ النساء ليس لهن روح».

إن بول بوولز ما زالوا يعتبرونه، هنا، مثل سائح طالت إقامته وليس مقيماً. وهذا ما يؤلمه. هكذا قال لي.

حين يأتي له عبد الواحد (سائقه) ببريده فإن أول ما يبحث عنه في الرسائل، داخل السيارة، هو هل هناك رسالة فيها شيك!.

«لم تعد لي عائلة. وكل من أعرفهم منها ماتوا. من حسن الحظ أن هذا يمنعني من الذهاب إلى أميركا. إني مستسلم للمقدور»[1]. لكن بول بوولز ظل يخاف الرجوع إلى أميركا بسبب شكوكه من أن يسحب منه جواز سفره كما يفعلون مع الذين لهم ميول يسارية وهو له سوابق. أما اليوم فلم يعد له ما يخشاه بعد مرضه، سنّه، «أبو هَوْلِيَته»[2] وشهرته العالمية. لكنه، مع ذلك، يكتب إلى جيمس ليو هيرليهي JAMES LEO HERLIHY «أما بغضي لأميركا فطبيعيّ أنني أخفيه. ـ طنجة 17 ـ 2 ـ 66».

مع مرور الوقت، أخذ أسلوب بول الخاص يتحول موازياً لترجماته من الدارجة المغربية. وهذا ما يفسّر نتاجه عن البيئة المغربية. وهنا يحتج المرابط على أن بول بوولز لم يكن ينقل بأمانة ما كان يمليه عليه من حكايات حسبما قيل له من طرف بعض المغاربة الذين يعرفون الانجليزية واستمعوا إلى تسجيلاته وقارنوها مع الترجمة المتصرف فيها. لكن الغريب هو أن بول محا نسخ تسجيلاته مع المرابط.

لقد بدا العمل طيّعاً وسهلاً عندما بدأ ينقل حكايات المرابط؛ لأنّ المرابط يحكي ولا يعقّد اسلوبه. وكانت جين تعارض ما يفعله لأنها تريد له أن يكتب كتبه لا ما كان يمليه عليه الساذجون ليستمرّ كاتباً.

التقيت، هذا المساء غييرمو كارولوس GUILLERMO CARLOS. صوفي. طاف العالم. ونحن نشرب كأساً في النيغريسكو NEGRESCO قال:

---

(1) من الفيلم الوثائقي الموضوع عنه: أميركي في طنجة.

(2) نسبة إلى «أبو الهول».

ـ ما زالت هناك شعوب تعيش براءتها الناضجة، والوجه الأصيل المغربي له هذه الصفة، لكن تنقصه المرآة الذاتية حتى لا يرى نفسه في مرايا أخرى تشوه وجهه الحقيقي. إنه ينقصه الوعيّ بنفسه، والتقنية الحديثة التي غزته سلبته هذا القُفْل لأنه تعامل معها بانبهار وعمًى. لقد أصبحت الثقافة عالمية، لكن الدور الذي ينبغي أن يقوم به المغرب هو أن يحمل البراءة الإنسانية وهي له!.

لم أر غييرمو بعد ذلك. ربما اختفى في مغارة!.

إن بوولز، سواء تعمد أم لا، فإنه يشبه بطله في قصته «لو أني أفتح فمي» وهو يرى نفسه جالساً في بارك: «إن المرور يسير على بعد مسافة ما من حيث أنا موجود ممدداً على الأرض تحت الأشجار. الزمن، اللازمن. أعرف أنه من وراء الاشجار هناك شوارع غاصة بالناس، لكن أبداً لا أقدر على لمسهم. لو أنني أفتح فمي للصراخ فلن يخرج أيّ صوت. وإذا مددت ذراعيّ نحو أحد الوجوه حيث تمرّ صدفة في الطريق القريب، فسيكون باطلاً، لأنني خفيّ. إن ما لا يُحْتُمَل هو التناقض المرعب: أن أكون هناك وأنا عارف، مع ذلك، فإني لست هناك. لذلك، لكي يوجد المرء فينبغي له ألاّ يكون فقط لنفسه: إنه من اللازم أن يكون إطلاقاً للآخرين. من الممكن لأحد ما أن يؤسس وجوده على اقتناع أن الآخرين يعرفون أنه هناك. أقول لنفسي: إنه في مكان ما في هذه المدينة تفكر فيّ السيدة كراو فورد CRAWFORD».

يحدد بول بوولز مفهومه لبدايته الأدبية، بعد شهرته مؤلفاً موسيقياً وناقداً للجاز في الهيرالد تريبيون HERALD TRIBUNE فيما يلي: «كنت قد قرأت بعض الكتب عن الإثنولوجيا. بدأت أحسّ، شيئاً فشيئاً، برغبة ابتكار أساطير متبنّياً وجهة نظري للعقلية البدائية. إن الشكل الوحيد الذي خاطرني، لكي أُظهِر هذه الوضعية، هو الاسلوب القديم السُّريالي للتخلي عن الرقيب الواعي، وكتابة ما ينبثق من قلمي.

في البداية، بانت لي، من هذه التجربة، أساطير حيوانية. وبعد ذلك خرافات وحيوانات مُقَنّعة لكائنات بشرية أساسية. وذات يوم أحد ماطر، استيقظت متأخراً. هيأتُ تِرْمُس (كظيمة) من القهوة ورحت أكتب أسطورة أخرى من تلك الأساطير. لم يزعجني أحد. واستطعت أن أنجز عملي». قرأته ثم عنونته: «العقرب». قررت حينئذ أنه يمكن لي أن أُريه لأحد ما. وحينما نشرته فيو VIEW استلمت تهاني. وهكذا استمررت في خلق أساطير. إن موضوع الأساطير تخلّى عاجلاً عن أن يكون (بدائياً)، وأصبح معاصراً، وإن كانت المواضيع وسلوكات الاشخاص ظلت كما كانت في خرافات الحيوانات. من خلال ذلك المدخل الصغير ولجتُ من جديد ميدان السرد القصصي. كنت قد قررت، منذ زمان، أن العالم كان بالغ التعقيد كيما يستطيع المرء أن يعود إلى كتابة التخيل ذات مرة. وبما أنني لا أفهم متاهات الحياة كلها، فسيكون من المستحيل عليّ إيجاد مَرْجعيات مشتركة مع القارئ العادي أو المُفْتَرَض. ورغم أني كنت قد بعت قصتين أو ثلاثا إلى HARPERS BAZAR فإنني لم أحسّ بابتهاج كبير إلاّ عندما قَبِلَتْ بارتيزن ريفيو PARTIZAN REVUE نشر «مشهد بعيد». هذا يعني أنني أستطيع العودة إلى كتابة القصة الخيالية.

إن بول بوولز يعتقد أن الحياة ينبغي أن تنتسب فقط إلى الناس الذين يفكرون مثله، لأنّ الحياة هبة، لكن مع وقف التنفيذ.

28 ـ 10 ـ 1993

زرت بول صحبة ابراهيم الخطيب حوالي الخامسة مساء. كان قد انتهى من تناول عشائه وقت وصولنا. كان داخلاً إلى الحمّام منطوياً على نفسه. لا شك أن ألم عرق النَّسا قد عاوده. عند عودته إلى غرفة نومه ساعدناه، ابراهيم وأنا، على الاستلقاء فوق فراشه. عبد الواحد

كان في المطبخ. تركت ابراهيم يتحدث مع بول بالاسبانية عن متابعات أدبية صدرت عن بعض ترجمات كتب بول التي يهتم بها ابراهيم، ثم وجَّه لي بول سؤال الزيارة:

ـ ماذا هناك من جديد؟

أدركت أنه يقصد آخر ما أكتبه. كنت قد أخبرته أني أكتب مذكراتي معه وأشياء أخرى عن طنجة.

ـ لقد بلغت 107 صفحات بخط اليد.

إنه ينفعل دائماً عندما أذكر له أني مستمرّ في كتابتي عنه كتاباً. «ماذا سيكتب عني شكري؟ إنه لا يعرف عائلتي ثم هو لا يعرف عن حياتي الكثير». هكذا قال لروبيرتو دي هولاندا. ولي قال: «أتمنى أن أقرأ ما تكتبه عني».

عندما أخبرته أني أقرأ (بول بوولز ـ المتفرج الخفيّ) الذي كتبه عنه ساوير لوصانو Sawyer Lauçanno اشمأزّ قائلاً:

ـ إنه كتاب تافه. كُتِبَ بخبث. لقد طلب مني مؤلفه أن أتعاون معه في كتابته خلال زياراته لي فرفضت؛ لأني كنت منشغلاً بأشياء أخرى أهمّ، وأيضاً لأن صحتي لم تكن تسعفني بشكل منضبط لكي أستجيب لأسئلته الشاملة عن حياتي وأعمالي. إني أبغض هذا الكتاب ولم أُنهِ قراءته لأنه يزيف الحقائق عن حياتي ويُسيء إليّ. إنّه يؤول الحقائق حسب مزاجه. وهو إنسان خسيس.

لقد تأسف بول بوولز كونه لم يعدّ له تسميماً عند زيارته الأولى إلى طنجة كما كتب في رسالة إلى رجينا فاين رايش Regina Weinreich. طلب منه ابراهيم أن يهدي له تذكاراً. قال بول بطريقته المبهمة:

ـ ماذا تريدني أن أهدي لك بالضبط؟

ـ أحد كتبك مع إهدائك.

ـ لكن هذا يتطلب مني أن أنهض وأبحث عنه. سيتكلف شكري بذلك.

حمل له ابراهيم 5 نسخ من المجموعة القصصية (البستان) التي ترجمها له عن الانجليزية إلى العربية. قال ابراهيم:

ـ في البداية، بدا لي سهلاً ترجمة قصصك، لكن عندما شرعت في العمل وجدت ذلك صعباً.

وافقه بول:

ـ صحيح. هذا ما يقوله الذين ترجموا قصصي.

رجاني بول أن أبحث عن أيّ من كتبه في الغرفة الأخرى. كان عبد الواحد حاضراً معنا. صرنا نبحث أنا وهو عن أيّ كتاب لبول وسط ركام من الكتب فوق طاولة. عثرت على «السماء الواقية» مترجمة إلى الاسبانية وقَّعه: «أشكرك على أنك ترجمت قصصي».

كان بول مبتهجا برؤية بعض نتاجه مترجماً إلى العربية. كنت أحمل معي روايته (دعه يسقط LET IT COM DOWN). طلبت منه توقيعها فقال:

ـ ماذا، هل يكفي توقيعي فقط؟

ـ ما تشاء.

كتب: «إلى محمد شكري. مع إعجابي».

يتنفس بصعوبة هذا المساء. تضاءل جسمه عمّا رأيته في المرة الأخيرة. لأول مرة رأيت في غرفة نومه تلفزة قبالة فراشه، هو الذي كان ينتقدها دائما ويكرهها منذ أن عرفته. قيل لي، فيما بعد، إن كلاوديو برافو هو الذي أهداها له. ما الذي يشاهده فيها؟ إنه أحد أسراره! أشرت إلى ابراهيم بالانسحاب حتى لا نضاعف تعبه.

قال لي بول يوما: «من قبل، عندما كان عندي التليفون، كانت المكالمات تزعجني؛ لأن أشخاصاً كانوا يكلمونني إن كنت مستعداً أن أسمح لهم بزيارتي أم لا، أما اليوم فالأمر أكثر إزعاجاً ومُحرجاً؛ فعندما أفتح الباب، لمن يدق، أجدني مضطرا إلى إدخاله. هل سيصدقني إذا قلت له أنا مشغول أو تعب؟».

حينما خرجنا قلت لإبراهيم:

ـ أخيرا، أهدى لك «السماء الواقية». إنها «طريدة هشة»[1] أليس كذلك؟

إبراهيم لا يعلق على مثل هذا المُزاح. إنه يكتفي بالضحك المُقْتَضَب المبهم.

من مذكرات جون هوبكنز JOHN HOPKINS عن بول بوولز في كتابه CARNETS DE TANGER كراسات طنجة (8 ـ 2 ـ 64): قال لي بول البارحة بأنه لا تهمه أمزجة اللحم والدم، لكن الناس كأوعية للأفكار مثل كامو CAMUS. خاصة الأفكار المجردة التي تهمه أكثر من البشر.

23 ـ 8 ـ 1964

إرفنج روزنتال IRVING ROSENTHAL يدخل شقة بول صارخا ثم لجأ إلى ركن ويداه فوق عينيه. سأل بول روزنتال:

ـ ماذا يحدث؟

ـ ذلك الشيء! ما هو؟

ـ إنه ببغاء.

ـ أبدا لم أر واحداً من قبل. أبعده عن ناظري!

---

(1) إشارة إلى إحدى قصصه بنفس العنوان.

قال إيرا كوهين:

ـ أعرف أنه مذنب، لكني لست متأكداً ممّاذا!

نورمان كلاس NORAMN GLASS رفع دعوى قضائية ضدّ أمه «كونها يهودية». هذا هو النوع من الأمزجة التي يمكن أن يجدها من يزور بول في شقته.

الجنس كان، بالنسبة لبول، محيراً، مخيفاً، جاهلاً إياه، ثم هو مقرون بالفجور. لكننا لا ينبغي، هنا، أن ننسى أنه وريث تقاليد انجلترا الجديدة التطهرية. كتب إلى شارل هنري فورد من طنجة في (19 ـ 11 ـ 1947): «تسأل عن الحياة الجنسية في طنجة. لي إحساس أنها تغيرت تماماً. لم أخبرها أبداً جيداً حتى عندما كنت شاباً».

«ذات ليلة، وأنا في التاسعة عشرة من عمري، ظللت مندهشا حين فطنت أنني رميت سكينا على أبي. خرجت بأقصى سرعة من الدار مكسرا زجاج الباب الرئيسي ونزلت راكضا في الطريق المنحدر تحت المطر. لم أكن قد جريت أبعد من ثلاثة مساكن حينما أدركني أبي بسيارته. أوقفها ثم راح يركض ورائي: «أريد أن أتكلم معك. لا تعد إلى فعل ذلك مع أمك. لم تكن فكرتي أنا أن ألاحقك لأبحث عنك».

في هذا الحادث، ربما أدرك بول بوولز أن الإنسان يستطيع، إذا كان ذلك ضرورياً، (حتى ولو كان في هذه المواجهة خُسرانه) أن يصارع إلهه. غير أن بول لم يكن قادراً على أن يتحدى كل من أنكر عليه مواهبه الباكرة. لقد وصل إلى باريس في العاشر من أبريل العام 31. وزار غرترود شتاين المهيمنة، والوصية على المبدعين المغتربين الأميركيين كما صار هو فيما بعد في المغرب عندما أصبح مثل «أبو الهول». ذات مساء أطلعها بول على قصائده الشعرية التي قلّد فيها السّرياليين. وبعدما قرأ عليها، بحذر، أبياته، نطقت هي بحكمها: «طيب، المشكلة الأساسية هي أن كل هذا ليس شعراً».

إن غرترود شتاين أنكرت عليه موهبته الشعرية وتنبأت بفشلها، لكنه استمرّ هو في كتابة الشعر بعناد. شعره كان تلخيصاً لنفس المواضيع التي سترد في رواياته وبعض قصصه. أما نثره فظل عادياً لم يطوره بالتنقيح الذي لا يوليه كبير أهمية حتى يُشَعْرِنَه POÉTISÉE تعويضاً عما فاته في الشعر المحض.

بالنسبة لبول كان أكثر أهمية له أن يكون شاعراً من أن يكون معتبراً شاعراً. لكن هذا الطموح أفلت منه ولم يحققه أبداً وإن ظل يحلم به حتى الآن وهو في بداية السادسة والثمانين من عمره. لقد ظل مسكوناً بهاجس كتابة قصيدة بين فترة وأخرى إلى حدود السبعينات[1]. إنه يريد أن يتجذر في الشعر ولو أنه خاسر فيه، على نحو ما قاله سترافينسكي: STRAVINSKY «الآخرون ما زالوا رومانطيقيين، أما أنا فإني رومانطيقي».

قالت غرترود شتاين لبول: «إنك همجيّ مصنوع». ولقد كافح طوال حياته، من خلال كتاباته، كي يتخلص من فكرة أنه نتاج أبيه، وكل ما يُصْدِرُ الغير عنه.

إن الخصاص المادي الذي كان يشتكي منه دائما بول بوولز وهو أيضا يعرف كيف يتغلب عليه بطريقته الخاصة. يقول عنه صديقه فرجيل طومسون: «كان يمثّل كأنه مُخنَّث، ومن خلال ذلك كان يكسب مالاً وصداقات. لكن في الحقيقة لم يكن مهتما بالقضية الجسدية». ومع ذلك، فإنّ إدوار روديتي يحكي أن «بول بوولز، جسدياً، كانت له شهرة كبيرة بين الأندية الزاهية في باريس. دائما كان يتبدّى نفوراً. الأمر معه أن كل شيء كان ذهنياً».

---

(1) ظهر له ديوانان: «شجيرات الربيع» عام 1971 و«قريب من اللاشيء» عام 1981. تواريخ نشر القصائد من العشرينات إلى أواخر السبعينات.

بدءاً من هنا، ينبغي أن نفهم أن بول في العشرين من عمره عاش رافضاً الجنس من أساس وجوده، وليته لم يكن موجوداً. غير أنه لم يكن يرفض علاقة المُشْتَهي للمُغاير (اشتهاء أفراد الجنس الآخر) HÉTÉROSEXUEL. كان يجدها أكثر قبولا من اللواطة HOMOSEXUALITÉ. لكن هل حققها في حياته؟ كل هذا يعني أن بوولز ورث نوعا من تطهرية انجلترا الجديدة، ولم يقدر أبدا أن يتخلص من ملازمتها له في حياته الشخصية، وفي حياة أشخاص بعض قصصه الأميركية. إن الجنس يبقى عدوه الأكبر، وبسببه يحدث سوء التفاهم ومعظم المآسي بين أبطاله.

لقد أتيحت لبول، في عدة عواصم، فرص لكي يتحرر من كبته، ولكنه لم يستطع أن يستجذر ما كان متجذراً عميقاً فيه. إنه يحب عالم الجنس في شذوذه، لكن دون أن يشارك فيه عملياً بالمعنى العميق. كان يكتفي بدور المشاهد عن بعد أو المتلصص VOYEUR. هذا يكفي لاستثارة لذته الجنسية. كان دائما يخاف أن يُغتَصب جنسياً؟! هذه اللذة الجنسية ظلت مثل محاولة القبض على سمكة في الماء باليد فصارت نوعاً من السادية الإسقاطية على أشخاص أعماله القصصية والروائية مثلما فعل غوستاف فلوبير في روايته سلامبو.

من قبل، لم يكن القراء يستثيرهم أدب بول بوولز، أما اليوم فقد بدأ يغزوهم. قد يكون في هذا الاهتمام الفائق بأدبه وسيرته نوع من ردّ الاعتبار لأنه أصبح يطابق ذوق العصر. لقد خلق لغزه: أسطورته. ليس بدعة أن يخلق الانسان أسطورته، غير أن كل أسطورة لا يخلقها إلاّ العبقري.

يضع بول بوولز بينه وبين الحقيقة المعيشة حجاباً سميكاً، لكن هل بقي السُّمك يُصامد هشاشة الحياة؟ إن الجبرية التي احتمى بها، في زمن ما، لم تعد تنفعه اليوم في شيء. لقد استسلم. الحياة التي لم يؤمن بها

انتصرت عليه. عندما كتب روايته الأولى «السماء الواقية THE SHELTERING SKY» بين 47 ـ 48 في باب الحديد ـ فاس[1] فربما لم يكن ينتظر هذه الشيخوخة التي غزته بطيئاً حاملة معها زادها من المرض في ساقه (عرق النَّسا)، وسرطان جلدي في وجهه وطنجة أخرى جدّ غريبة عن التي في مخيلته التذكارية. نموت ولا نعرف سرّ طنجة. هل يَصْدُق وَعْدُ العَنْقاء؟

هذه الظهيرة، داخلا إلى شقتي، كان هناك، قرب ليسيه رونيو LYCÉE REGNAULT، المكي الذي لم يكن هو أيضاً ينتظر جنونه. أتذكر ذكاءه المشرق. كان يجتاز البكالوريا ويريد إتمام دراسته في إنجلترا. اليوم لا يطلب سوى صمته، وتشرده، وسجائر أو أعقاب. لا يمد يده لأحد. أعطيته واجبي المعتاد معه كلما رأيته. قال وهو يقتل قمله بيده النحيلة:

ـ ألا تقتل معي يوما ما هذا القمل الذي لا يكاد يفارقني؟

ـ لقد رافقني طويلاً وقتلت منه الكثير. أرجو أن تعفيني.

ـ إن قمل اليوم أكثر شراسة من قمل أمس.

ـ أعرف، إنه هو أيضا أكثر جوعاً اليوم ويتوالد أكثر.

يحدّق فيّ باسماً وأنا أبتعد، ظهر موتشو MUCHO. هو أيضاً أعفوه ذات صباح من عمله على رصيف الميناء لأنه جُنّ فجأة حينما حمل الكيس الثالث أو الرابع. كان أقوى مجنون في طنجة. ضربته كانت قاضية لمن كان يشاكسه ويعاركه. اليوم شاخت قواه. كعادته معي قال:

ـ هات حسنة آلوالد!

(1) يقال إنه كتبها بالفرنسية مثل جين التي كتبت روايتها الأولى أيضاً «الحوذي المنافق» بنفس اللغة.

ـ ماذا أكلت اليوم؟

ـ أكلت الخراء وشربت الدم.

ثم مضى يجرّ نصف حذائه. من قبل، كنت أنا الذي أتبع خطى المجانين أينما ذهبوا، اليوم صاروا هم الذين يتعقبون خطواتي. كنت أنا المنجذب اليهم وأصبحوا اليوم الأكثر انجذاباً إليّ. ربما رأسوني لأهديهم إلى جنون أعمق! هناك مجنون كان تلميذي منذ أكثر من ثلاثين سنة. يعرف خريطة تنقلاتي. عندما لا يعثر عليّ في إحدى الحانات أجده قرب مسكني. طفق يضايقني هذا الانتظار لكي أعطيه الخمسة الدراهم التي يطلبها. قال لي مرة:

ـ لقد ظلمتني يا أستاذ.

ـ لماذا؟

ـ عندما كنت تلميذك أخذت مني كتاباً كانت فيه صورة سنجاب ولم تعده لي إلى يومنا هذا.

ـ سأشتري لك إذاً كتاباً فيه صورة سنجاب وحيوانات أخرى.

ـ لا يمكن.

ـ لماذا؟

ـ لأنّ ذلك السنجاب كان عجيباً. إنه فريد من نوعه.

ـ لكن السناجب متشابهة.

ـ أبداً لا. هل الناس متشابهون؟

ـ لا.

ـ كذلك هو سنجابي. إنه لا يشبه إلاّ نفسه.

ـ والآن ماذا نعمل؟

ـ سامحك ا، ولكنك ظلمتني وظلمت سنجابي.

حدجني بكآبة ومضى ملتفتاً إليّ بين خطوات وأخرى. قدام مقهى

روكسي توقف مطيلاً إليّ نظرته الغامضة ثم انعطف وغاب. اختفيت أنا أيضا بسرعة قبل أن يظهر مجنون آخر.

في قصة بول بوولز «كلمات جاحدة» يذكر على لسان كاسطور في الغثيان لسارتر: «أنا أبقي على حياتي Je me survis» إن بول يتفق مع كاسطور الذي لم يقرأ كتابا واحدا كُتب خلال هذا القرن وله نفس الاحساس، إلاّ أن بول يفضل أن يقول عن نفسه: «حياتي مماتي Ma vie est postumd لا حلم دون أقلّ قدر من الشوق». هكذا قال بول في زمن القلق، والاشتياق والاسفار البعيدة. لم يعد اليوم مشدوداً إلى شيء جميل مستقبلي. لا شيء يُولِّد الحلم. لم يعد يهمه سوى كيف ستكون نهايته. منذ سنوات وهو ينام ويستيقظ على ألم واخز كإبرة منغرزة فيه حتى النخاع بعد أن أجريت له عملية على عِرْق النَّسا. كم يتمنى لو أنه ينام طافياً في الهواء!. مأساته اليوم هي أن يسافر قهراً من غرفته في طنجة إلى غرفة أخرى في أحد مستشفيات أوروبا أو أميركا إذا عاوده المرض.

قال بول، منذ فترة، في مقابلة تلفزيونية لإحدى القنوات الفرنسية: «على المرء أن يبقى حيث هو موجود. إن العالم تغير كثيراً، ليس هنا في المغرب فقط عندما جئته بل في كل مكان».

في العام 50. كتب بول إلى بيجي غلاند ـ فيل هايك Peggy Gland - Vill Hick: «في داخلي أنتظر الهروب إلى مكان آخر لا أعرف بالضبط أين طبعاً، فالمرء دائماً يحب أن يهرب إذا لم يكن له سبب لكي يكون في أيّ مكان. وأنا ليس لديّ أيّ مكان، ذلك يقين. إذ حينما أشتغل لا أفكر في ذلك، إني أحسّ أن الهروب هو أقلّ عجالة، بحيث إن العمل يمارس تأثيراً علاجياً. لكن عندما يشعر المرء أن الداعي الوحيد للعمل هو القدرة على نسيان الحياة الشخصية سيشعر

أحياناً أنه مفتون كونه يعتبر العمل شيئاً ما عبثاً، مثل الأقراص التي يتناولها لتسهيل الهضم. فبين شيء وآخر كان ينبغي أن يكون هناك متوسط ما، لكن ما هو؟ لا أحد يعرفه بالتأكيد». أما جين بوولز فقد كانت تهرب داخل نفسها مكتفية بأنّ «الحياة هي إحراق أسئلة» كما يقول أنطونان أرطو. وأن (تسافر) خارج نفسها وتذهب بعيداً (وحدها) فذلك يشكل حاجزاً منيعاً بالنسبة لها. إنها مِهْمازية في كل شيء.

لا بدّ لها من أحد يدفعها ويأخذها من يدها بحنان. وحينئذ تنقاد ولو كان المسير إلى الجحيم.

كانت جين قد عانت نوبة سكتة «مخية»Apoplexcid ليلة 30 إبريل. ولم تستعد وعيها حتى ماتت يوم الجمعة 4 مايو 1973. ظل بول جالسا جنبها إلى السابعة مساء ثم رجع إلى الفندق. وفي التاسعة أخبرته رئيسة الممرضات هاتفياً بأن جين قد ماتت منذ قليل. وفي اليوم التالي كان الدفن خاصا تماما في كنيسة القلب المقدس.

بعد موت جين كتب بول من طنجة (11 ـ 5 ـ 1973) إلى أدري وود Adrey Wood: «الآن لم يعد شيء يستبقيني هنا، ما عدا العادة، لكن من المحتمل أن أبقى حتى ترغمني ظروف خارجية على الذهاب، وإنه في كل مرة رجعت إلى الولايات المتحدة تبيّن لي أنه المكان الذي يقل حبّي للعيش فيه».

تينسي وليامز في طنجة

محمد شكري

تينسي وليامز في طنجة

سيرة روائية

تقديم

إن كتاب شكري يصف لقاءً من الصنف الثالث. فحينما علم أن تينسي وليامز قد شوهد في طنجة، في صيف 1973، قرر شكري فوراً أن يَتَحرَّى الزائر الأمريكي المشهور (قبل سنوات، فعل نفس الشيء مع جان جنيه، لكن المسافة التي كانت تفصلهما كانت أقل، لأن المغاربة والفرنسيين كانوا قد بدأوا يتعارفون من بداية هذا القرن). في ذلك الصيف، كان شكري كاتبا شابا وكهلاً معا، 38 سنة، حيث كتب منذ فترة قصة حياته الرائعة من أجل الخبز وحده FOR BREAD ALONE التي ترجمها بول بوولز P. Bouwles إلى الإنجليزية، يحكي فيها عن طفولة ومراهقة زاخرتين باليأس، والقذارة، والفاقة، وبعد ذلك، الطريقة التي تعلم بها (بدأ يَدْرُسُ في العشرين من عمره) القراءة والكتابة، وهكذا صاغ مستقبله الخاص ليصبح كاتبا وأستاذا. إنه من الضروري، مع ذلك، اعتبار المسافة الموجودة بين شكري وتينسي، ومهما يكن فقد هَذَّبَ شكري نفسه بعناد. وهو لم يسافر إلاّ قليلا، وبالنسبة إليه وباقي المغاربة، فإن أمريكا ما زالت تعتبر نوعا من الأرض المجهولة، أسطورية كما كانت بالنسبة للمهاجرين الأوروبيين الأوائل. كان هناك حاجز لغوي ـ شكري يحسن الأسبانية، ويتكلم فرنسية مقبولة، فضلا عن العربية، أما إنجليزيته (كما هي اسبانية وفرنسية

تينسي) فهي ابتدائية. وكلاهما يملك مزاجا مناقضا في مظهرين هامين. إن دعابة تينسي فجائية ومتفجرة، ودعابة شكري خفية وممتنعة. شكري يبحث عن النقاش الأدبي، مثال ذلك: (كدتُ أقول إن ألماوينميللر هي حفيدة همستربراينْ)؛ وتينسي يفضل تجنبه.

إضافة إلى كل هذا فإنه ينبغي مراعاة تناقضات أكثر بداهة:

أحدهما من طبقة كادحة مسلمة، والآخر من طبقة متوسطة أمريكية جنوبية. ميولهما الجنسية مختلفة. أحدهما نسبيا مجهول، بينما الآخر جِدُّ مشهور، وسَيُفْهَمُ أن إمكانيات التواصل بينهما كادت أن تكون باطلة تماما.

حينما يقال إن المضادات تتجاذب، فربما ما يراد التعبير عنه هو أن المشابهات تنبع رغم الاختلافات. إن شكري مثلما هو تينسي كلاهما هارب من ماضيه، كلاهما غير مكترث بكل شيء وكلاهما متوحد.

(حينما أَمُرُّ في سيارتي عبر بولفار باستور، شارع طنجة الفخم، كنت أرى مرارا شكري وحيدا، نحيفا، ملامحه حادة، متجولا أو جالسا في مقهى، دائما معه عُرْمَةٌ من الكتب).

كان شكري في ذلك الصيف يملك إحساسا بالفكاهة، لكنه أكيد أن تينسي لم يكن أكثر حماسة منه. كان قد وصل إلى طنجة مع الرفيق غير اللائق، وعدم اللياقة يحكي عنها شكري بشكل ممتع. (كما لو أنه ـ أي باكْسه ـ مثل تمثال الملاك في صيف ودخان). كان تينسي قلقا من أجل إنهاء مسرحيته: THE DEVIL BATTERY SIGN كان في منتهى توتره بعدما قاطع إقامته في إيطاليا، مثلما سيقاطع إقامته في طنجة. في البداية، هَدَّدَت هذه الإقامة بأنها ستكون احدى الزيارات المرتجلة التي لا يتم فيها شيء جيد، وربما أشياء كثيرة تمت بخير، لكن اللقاءات مع شكري كان فيها نوع من التوفيق غير المنتظر. طبعا، إن الإعجاب الذي مارسه شكري هو الذي أثار تينسي، وخلق فيه فضولا شخصيا.

لقد سمح شكري لنفسه أن يوعز لتينسي بالتخلي عن رفيقه غير اللائق (على الأقل، بين حين وآخر) وأبان عن استعداده لكي يكون مثالا جيد اللطف مع غريبي الأطوار. ومهما يكن، فقد تلاءما، والنتيجة هي هذه السلسلة الفورية اللامعة الشفوية، دون وقفات واسترخائية في آن واحد، لكنها دقيقة. في البداية يظهر أن شكري وقع في مكيدة الإعجاب بقدرة تينسي على الضحك في ظروف مختلفة. قال له: «إن كتبك، خاصة مسرحياتك، محزنة» لكنك دائما تبدو مرحا.

إن تينسي (وهو على حق) ينفي أن تكون كتبه محزنة، ويضيف: «الحزن يمكن أن يكون مفرحا، وأحيانا الفرح يمكن أن يكون محزنا. ليس كل حزن مُحْبِطاً، كما أنه ليس كل فرح يسلي». على كل فإن شكري يدرك أنه «من الممكن نسيان حالة التعب والضجر بفضل الضحك». وبعد أن كان قد فكر أن شخصية تينسي «لا تشبه كتاباته» يغير رأيه فيما يبدو. إن هذا المتوحد يدرك أيضا أن «تينسي يحب الوحدة، لكنه يخاف أن يكون وحيداً». ويتوصل تينسي إلى جواب جدير بالذكر بالنسبة للنقاد: «إنهم يسوطون جلدنا، لكننا نتعلم كيف نجدد جلدنا». في النهاية، نشأ ودّ «خالص بين الاثنين، ويؤثر فينا هذا الود لأنه يتعلق من دون شك بشيء عابر». «قد نلتقي»، هكذا يقول تينسي وهو يعانق شكري، لحظات قبل أن يقلع شراعه. «وقد لا نلتقي أبدا».

معظم لقاءاتهما لم تكن متوقعة بل صدفة: في الشارع، في المقهى، في شقة بول بوولز، لكن انطباعات شكري فيها تماسك عجيب. ومثل معظم المغاربة، فإنه قاص فطري، إن اللون المحلي والأشخاص الثانويين (الحياة في مقاهي طنجة، الشقة الفظيعة التي يعرضها أحدهم على تينسي، تجربة جارحة صادمة في مكتب البريد) إنها أوصاف مكتوبة بدقة حيث يبدو أنها مصادفة، وإذا كانت حكاية

شكري حول عبور تينسي في طنجة الذي دام ثلاثة أسابيع، خلال الصيف، قد أعطت أثرها، فذلك أن الأمر يتعلق بمجموعة من اللحظات، بسلسلة من المقاطع التي تظهر كيف تنشأ الظرافة من الفضول. «إن الطريقة التي يعبر بها تينسي تروق لي»، هكذا يقول شكري ذات لحظة. إنه بالغ الصدق فيما يقول، وأجود من هذا الكيفية التي يُبَلِّغُ بها إلينا.

جانين لامبرت

تينسي وليامز في طنجة

16 ـ 7 ـ 1973

زرت بول بوولز Paul Bowles في منزله. قال لي بالأسبانية:

ـ تينسي سيكون هنا يوم الأحد.

ـ أخيراً يعود إلى طنجة.

كانت سنة 64 آخر مرة زار خلالها طنجة. كنت أشرب الشاي الأسود بالليمون. فكرت: لقد مضى وقت طويل لم أشرب فيه خمرا في شقة بول. الفودكا هي آخر ما شربته عنده. كان صديق لي أمريكي سائح في باخرة روسية قد حمل إليه بعض الزجاجات. كنت أشرب منها يوميا حتى السكر أثناء ترجمتنا لسيرتي الذاتية «من أجل الخبز وحده». لم يعد بول يشرب منذ عشرين عاما، ونادرا ما يقدم الخمر لأصدقائه وضيوفه لكن قيل إنه يخفي دائماً زجاجة ويسكي يقدمها في الوقت المناسب. فكرت أن تينسي ما زال يشرب فلا بد إذن من أن يشتري بول بعض الزجاجات.

ـ لم أمكث طويلا. كان لي موعد مع محمد زفزاف في مقهى مانيلا.

وجدت زفزاف يشرب البيرة ويلامس بأصابعه شعيرات لحيته الخفية ويمسّد شعر رأسه الغزير المنفوش. قلت له:

ـ تينسي وليامز سيكون هنا يوم الأحد. هذا ما قال لي بول بوولز. لقد جئت من عنده الآن.

ـ إنه موجود اليوم هنا. لقد قابلته منذ لحظات في مرسم أحمد اليعقوبي[1]. كان مصحوباً بشاب أمريكي أو إنجليزي. كان معي شاب مغربي يدرس الرسم في بولونيا[2].

ـ غريب. (أضفت): ما هو الانطباع الذي أخذته عن تينسي؟

ابتسم وقال:

يبدو لي أنه يخشى الغرباء، لكن ملامحه تكشف عن أنه ينجذب إليهم بعد أن يألفهم. كان يلبس سُتْرة جميلة ونظيفة. إنه ليس من هؤلاء الكتاب الذين يهملون هندامهم. صديقه الشاب كان يحمل آلة تصوير فخمة. كان تينسي يبدو مرحا. لقد جعلته بعض حركات اليعقوبي يقهقه بصوت صاخب.

ـ واليعقوبي كيف تصرف معكما، أنت وصديقك؟

ـ أعتقد أنه لم يكن راغبا في بقائنا معه بعد أو وصل تينسي. اليعقوبي هو الذي دعانا هذا الصباح في مقهى باريس لنزور محترفه. أنا لا ألومه. إن سلوكه بدائي.

بدا لي زفزاف مثل شبح في الليل: بشرته ذات سمرة خفيفة وكل ثيابه سوداء. قلت له مازحا:

ـ ألم تخفه بمنظرك هذا؟ إنك تبدو مثل شيطان بلحيتك المدببة وشعرك الذي يشبه عش نسر.

قال ساخرا:

ـ لقد أثرتُ اهتمامه. رأيته ينظر إليّ بإعجاب وإن لم نتبادل غير

(1) ولد عام 1931 وتوفي في أمريكا عام 1985.

(2) عز الدين الدويب.

كلمات. لو لم يسْتعجل اليعقوبي خروجنا، أنا وصديقي، لصرنا صديقين. لقد بدا لي أن اليعقوبي كان يريد أن يستأثر بتينسي وهذا من حقه، لكن لا بد أن تقابله أنت عند صديقك بوولز.

صبّ البيرة الباردة في كأسه. فاض حببها على خشب المشرب. قطرات تتساقط من قاع كأسه وهو يشرب. ابيضّ شاربه. لحسه بلسانه ثم مسحه بيده وقال:

ـ إن البيرة لذيذة في النهار والنبيذ لذيذ في الليل. هذا ما نصحتني به «ميرا».

ـ من هي ميرا؟

ـ ألا تعرفها بعد؟

ـ لا.

ـ ستعرفها ذات يوم. سيصل «الجو ماري» غدا أو بعد غد من الدار البيضاء ليعرفك بها.

ـ إن هدوءك زائف. إنك تبدو لي دائما مثل مجرم خَطر أو لص كبير!

قهقهنا. هذه هي عادتنا عندما نتقابل. لا حزن ولا شكوى.

ـ حاول أن تكون صديقا لتينسي كي تكتب عنه كتابا كما فعلت مع جان جنيه Jean Genet.

ـ سأحاول. إن حياته أيضا مثيرة.

طلبنا مزيداً من البيرة. كنت أعرف أننا سنظل نشرب ونتحدث عن مشاريعنا الأدبية حتى الثالثة أو الرابعة صباحا. وأحياناً حتى تطلع الشمس، وفاطي[1] هي التي تنقذنا في الشراب.

---

(1) ساقية في حانة الأندلس.

17 ـ 7 ـ 1973

يوم جدٌّ حار. العاشرة والنصف صباحا. جلست في رحبة مقهى باريس. رأيته جالسا يقرأ صحيفة إنجليزية. جنبه الشاب الذي تحدث عنه زفزاف يحمل نفس آلة التصوير الفخمة. نظرت إلى صورته على غلاف مسرحيته «قطة فوق سطح صفيح ساخن». تأملته طويلا. ما زال في نظراته حلمه الرومانسي القديم. صورته هذه في الأربعينات. هو الآن في الستينات وأنا أجتاز عمره في صورة كتابه هذا. هو ولد في 26 مارس وأنا في 25 مارس. بيننا مزاج يوم واحد. هل أفاجئه كما فعلت مع جنيه في السوق الداخلي؟ هو يكتب وأنا أكتب. هو مشهور وأنا لست مشهورا. هذا هو الفرق. إن اللص المبتدئ الجديد، عادة، يقدم نفسه للص الماهر القديم. لقد مارست بعض الأعمال التي مارسها هو في أعوام فقره وأنا في أعوام بؤسي.

وضع لهما النادل زجاجتي كوكاكولا ثم صَبَّ في كأس تينسي شراب فرني برانكا.

شربته مرة فلم يعجبني. يستعمل نظارة سميكة لقراءة صحيفته. ينتقل من صفحة إلى أخرى بسرعة كمن يقرأ العناوين.

بعد حوالي نصف ساعة نهضا. يلبس بذلة صيفية نيلية اللون وحذاء من القماش. مرّا قدامي. يمشي بخفة. صديقه يبدو كمن يلاحقه في مشيته. هو يتأبط صحيفته وصديقه يحمل محفظة صغيرة. فكرت: إن لعبة التعارف الإنساني ستبدأ الآن. إما صداقة وإما عداوة.

رأيت اليعقوبي يقترب منهما. لعبة التعرف الإنساني صارت أقل صعوبة. اليعقوبي ليس صديقي، لكني أعرفه. لقد سبق لي أن أبديت له إعجابي ببعض رسومه. سرت خلفهم. قدام مقهى مانيلا صرت على بعد خطوات منهم. التفت اليعقوبي. رآني. توقف وقال لي:

ـ مرحبا. هذه فرصة سعيدة.

صافحني ثم قدمني إلى تينسي وصديقه باكسه Boxer. قال لتينسي:

ـ كاتب مغربي.

قال لي اليعقوبي:

ـ تينسي يفتش عن فيللا لِيُقضّي فيها عطلته. أيمكنك مساعدتنا؟ لا بد أنك تعرف أفضل مني في هذا الشأن. إنك تعيش باستمرار في طنجة.

مشينا في الطرقات نبحث عن وكالات الكراء. فكرت في أقربها منا. أريته مسرحيته «قطة على نار» المترجمة إلى العربية بهذا العنوان. قال:

ـ بالعربية أيضا.

ـ ألا تعرف هذا؟

ـ سمعت فقط، لكن هذه أول مرة أرى نسخة من كتبي بالعربية.

ثم أضاف ضاحكا ضحكته الأولى الصاخبة:

ـ كتب كثيرة، غلمان كثيرون.

قدام قاعة شاي مدام بورت سألني اليعقوبي:

ـ هل الوكالة التي نقصدها بعيدة من هنا؟

ـ إنها قريبة. في طريق موسى بن نصير.

قال تينسي:

ـ لنستقل تاكسي.

قلت له:

ـ المسافة من هنا إلى الوكالة التي نقصدها لا تتطلب التاكسي.

ضحك من جديد. لست أدري ماذا أضحكه. فكرت: إما أن

يكون متعبا أو هو يكره المشي تحت هذه الشمس التي يثقل لهيبها هذا الهواء الساكن.

في الوكالة شرحت للفتاة المغربية المكلفة ما نريده. قالت لنا إن هناك عدة شقق. اتصلتْ هاتفيا بوكالة أخرى. كنت واقفا. استرخى تينسي وصديقه باكسه على كرسيين. استأذن منا اليعقوبي ليذهب إلى مكان ما في نفس الشارع. قلت لتينسي إن بول بوولز صديقي وإنه ترجم لي إلى الإنجليزية سيرتي الذاتية ومذكراتي مع جان جنيه في طنجة وقصصا قصيرة. أبدى اهتمامه لقراءة مذكراتي عن جنيه. وعدته أن أعير له القسم الأول من الكتاب الذي نُشِرَ في مجلة أنتيوس ANTEAUS. تطلع إليّ فاحصا إياي وسألني:

ـ أين يوجد الآن جنيه؟

ـ لا أدري. لا أحد، ممن يهتمون به هنا، يعرف أين يوجد. ربما موجود مع منظمة سياسية مثل «الفهود السود».

ضحك ثم قال:

ـ أنا أقدر كتاباته رغم أنه غامض. إن خياله رائع. لا أدري إن كان ما زال يكتب أم لا؟

ـ لا أظن. لم يكتب شيئا منذ سنوات ما عدا بعض المقالات والتصريح ببعض الآراء السياسية في الاستجوابات التي يجرونها معه.

ـ أعرف هذا، إنما أقصد الكتب.

ـ قال لي، عندما كان هنا، أنه قد وضع نفسه في مقبرة الأدب.

(ضحك، ظل صديقه باكسه جامدا). لم يعد يرغب، أدبياً، في قول شيء أكثر مما قاله. هكذا قال لي هنا. إن رأيه في الأدب متشائم، خاصة عن المسرح.

عندما بلغنا الوكالة الثانية وجدنا المكلف الأسباني واقفا لدى عتبة

الباب ينتظرنا. قال لنا إنه أرسل إلى الوكالة التي كنا فيها، مع عونه الأسباني، مفاتيح ثلاث شقق شاغرة لنختار واحدة منها في طريق كيفيدو Quevedo. بدا الضيق على وجه تينسي. دعانا الرجل الأسباني إلى الدخول ريثما يعود عونه. بقي اليعقوبي مع باكسه خارج الوكالة ودخلت مع تينسي. أثاث المكتب مغبّر وقذر. تينسي جلس على مقعد قبالة امرأتين مغربيتين بائستين تنتظران شيئا. طفل إحداهما ينظر إلينا بعينين مشدوهتين. لم أجد أيّ شيء أجلس عليه. ظللنا صامتين. المكلف الأسباني يخرج إلى الباب بين حين وآخر ليرقب عودة مساعده. انشغلت برؤية خريطة قديمة تخطيطية عن شوارع طنجة ومقاطعاتها. سمعنا صياح المكلف يقول لعونه الشيخ لدى الباب:

ـ أسرع يا أنطونيو. إن السلحفاة تمشي أسرع منك.

قال لنا:

ـ ها هو الرجل الذي سيصحبكم قد عاد.

أفاق تينسي من شروده. سألت المكلف:

ـ كم هو ثمن الشقة تقريبا؟

ـ هناك ثلاث شقق. ثمنها واحد: مائتا دولار في الشهر للشقة الواحدة.

ـ سنرى. المهم هو أن تكون شقة مريحة.

من جديد مشينا في هواء ساكن، لكن في شمس بلا ظلّ هذه المرة. كانت بعض الظلال بعيدة عنا. الانزعاج بادٍ على وجه تينسي. مشيٌ بلا أيّ عمود من ظل في شارع قد لا تمرّ منه سيارة أجرة إلاّ بعد نصف ساعة أو أكثر.

للعمارة الكبيرة جناحان. لكل جناح باب. دخلنا الجناح الأول.

استقبلنا بواب مغربي في الردهة.

قال:

ـ المصعد لا يعمل اليوم. إنه منعطب.

قال تينسي، عندما شرحت له ما قاله البواب:

ـ أووه! كلا. حتى المصعد معطل. لنذهب.

كان المصعد قديما. فكرت: إن تينسي عامل المصعد سابقا، أيام فقره، يعرف جيداً الضيق الذي يعانيه رجل في الستين يرتقي حوالي مائة درجة كلما انعطب المصعد. قال لنا العون الأسباني:

ـ لنذهب إلى الجناح الآخر. هناك شقتان.

في هذه المرة كنا نخرج من ظل ونمشي في ظل. لم يكن لهذا الجناح مصعد. قال لنا العون إن الشقة التي يعتقد أنها ستروقنا توجد في الطابق الثاني. صعدت معه واليعقوبي خلفنا. تينسي وباكسه بقيا في الأسفل. سمعت تينسي يضحك. أطللت من الطابق الأول خلال الفراغ إلى أسفل. صحت:

ـ مستر تينسي، اصعد.

ضحك ثم صاح:

ـ لكن في أيّ طابق تقع هذه الشقة؟ يا إلهي.

رأيته واقفا ينظر متردداً في الصعود إلى فوق بعينين ضاحكتين. قلت له:

ـ مستر تينسي، اصعد. قد نعثر هنا على شقة جيدة.

باكسه لا يضحك ولا يعبس. فكرت: مزاجه لا يكاد يتأثر بشيء. إنه كتمثال الملاك في «صيف ودخان». ترمومتر مزاجه منعطب مثل مصعد جناح العمارة الأخرى، أما تينسي فعندما يمرح ينسى تعبه وضيقه.

كل الشقة غرفة كبيرة فيها سريران كبيران متقابلان. مشى الشيخ

الأسباني إلى مكان السرير الأول. فتح المصراعين الخشبيين ساحباً إياهما على سكة حديدية. قال:

ـ هذه غرفة نوم وتلك أخرى.

نوافذ الغرفة الثلاث تطل على شارع كيفيدو. في الجهة الأخرى من الشقة شرفة صغيرة تحتوي على حوض للغسيل تشرف على أرض جرداء. أطل تينسي على الأرض المليئة بالأحجار والأزبال. قال:

ـ أوه! لا. ليست هذه هي الشقة التي يمكن لي فيها العمل.

خرجنا من الشقة. سمعت الشيخ يقول لي بالأسبانية:

ـ لا يريدونها؟ ألا تعجبهم هذه الشقة؟ هناك شقة أخرى.

كان صوته مبحوحا، فيه شيء من الرجاء. قلت له:

ـ المعذرة على هذا الازعاج. إن هذا السيد (أشرت إلى تينسي) يريد شقة فخمة. شقة رائعة جدا. إنه مستعد أن يدفع ثمنها إذا وجدها.

قال بصوت خائب:

ـ لا نملك شقة أفخم من هذه.

من جديد مشينا قليلا ثم وقفنا تحت شمس بلا ظل في انتظار مرور تاكسي ليحمل تينسي وصديقه باكسه إلى فندق المنزه.

مرت ثلاث أو أربع سيارات أجرة محجوزة. كان تينسي كلما رأى إحداها عن بعد يرفع يده نحوها ويقول:

ـ ها هي ذي واحدة.

كنت أقول له في كل مرة:

ـ ولكنها مشغولة.

قلت لهم:

ـ إن أحسن مكان نستطيع أن نوقف فيه «تاكسي» هو مفترق الطرق قرب البريد المركزي.

مشينا في الشمس والظل. توقفنا قدام مركز البريد. أوقفنا سيارة أجرة كبيرة. ركب تينسي بسرعة يتبعه صديقه باكسه. أقلعت السيارة. لوح لنا تينسي بإيماءة من يده وبسمة الارتياح تغمر وجهه. كان باكسه يبدو إلى جانبه مثل تمثال «الخلود» في «صيف ودخان». لا تقرأ الكلمات على قاعدته إلاّ باللمس. سألني اليعقوبي:

ـ ماذا ستعمل الآن؟

قلت له ناظراً إلى السراب على مدى الطريق المزفت:

ـ أنا عطشان وجائع.

قال باسما:

ـ إنني أدعوك إلى تناول إزلافة(1) من البيصر.

في سوق «فندق الشجرة»، دخلنا مطعما مختصا في بيع البيصر. كان غاصا بالبائسين. طلبنا طاستين من البيصر بزيت الزيتون وخبز القمح. قال الخادم، الذي بدا لي أنه يعرف اليعقوبي:

ـ ليس عندنا خبز القمح الخالص.

طلب مني اليعقوبي أن أذهب وأشتري خبزة من القمح الخالص. كانت دكاكين بيع الخبز قبالة المطعم. ذهبت واشتريت خبزة من أقرب دكان. عدت متأملا تلك الخبزة في يدي. رأيت اليعقوبي أيضا ينظر إليها من بعيد. أعطيتها له وقلت:

ـ بائع الخبز قال لي إنها من القمح الخالص.

شطرها وشمها وذاق طعمها. قال باسما:

ـ كلا. ليست هذه الخبزة من القمح الخالص. لقد غشك ذلك البائع. إنها خبزة مغشوشة. أنا أعرف جيدا خبز الطحين الخالص من

---

(1) طاس.

القمح. حرام على الخبازين أن يغشوا في الخبز. إن من يغش في نعمة الله يصيبه الخسران.

كنت أبتسم وأوافقه على كلّ ما يقوله. ما كان يهمني هو أن آكل لا أن أناقشه في الخبز الخالص أو المغشوش أليست هذه تفاهة أخرى مثل تفاهة انتظار مرور سيارة أجرة؟ أعطاني نصف الخبزة وأخذنا نأكل. وضعت قليلا من مسحوق الفلفل الحار في البيصر الساخنة. أحسست بالحرارة الكاوية في فمي والاختناق في حلقي. سعلت بقوة. كان على الطاولة إبريق ماء من القصدير يشرب منه الأشخاص الثلاثة الذين يشاركوننا الطاولة. قمت وطلبت من الخادم فنجانين فارغين. ملأتهما بالماء من الحنفية ساعلا باستمرار. قال لي اليعقوبي:

ـ سيكون من الأفضل لو أنك لا تشرب الماء مع البيصر. إن مفعولها يكون أقوى بدون ماء.

لم أستطع أن أعمل بنصيحته ولا أن أناقشه أيضا في شرب الماء مع البيصر. ما كان يهمني هو ألا أسعل. راح يشرح لي فوائد البيصر للجسم كله خاصة مفعولها على المعدة والأمعاء والأعصاب. لكي أقول شيئا سألته عن سرّ تقطير «نقطتين» من الدم في طبخة الدجاج التي وصفها في كتابه عن بعض أنواع الطبخ المغربي. ابتسم وقال:

ـ آ! ذلك سرّ أحتفظ به. لقد سألني مثل هذه الأسئلة كثير من أصدقائي في أمريكا، لكني لم أكن أجيب أحدا عنها. انني أدع كل واحد يعتقد ما يشاء في هذا السرّ. إذا بحت به ضاعت حكمة نقطتي الدم من طبخة الدجاج.

ـ وهل عرفت أحدا شخصياً جرح نفسه وقطر «النقطتين» اللتين تلح على أن تكونا من دم الإنسان؟

ـ كثيرون فعلوا ذلك أمامي وأكلت معهم من نفس الطبخة.

فكرت: أتمنى لو لم يكن للإنسان أمعاء وغدد.

صحبته إلى مرسمه. على المسند لوحة لم ينهها بعد. وقفت أمامها أتأملها. اقترب مني بسرعة وقال بلطف:

ـ لا. أرجوك ألاّ تنظر إليها. أنا لا أحب أن ينظر أحد إلى رسومي قبل أن أنجزها. انظر إلى اللوحات الأُخرى الجاهزة.

اعتذرت له مبتسما. ألقيت نظرة خاطفة على اللوحات الجاهزة المعلقة على الحائط حتى لا يقول لي: «لا تتأملها طويلا. اتركها حتى تراها في أحد معارضي».

نزل إلى القبو ثم صعد بسرعة حاملا معه قميصين.

ـ تقبلهما مني هدية لك. إنهما صيفيان.

فكرت: ربما ما دعاه أن يعطيني إياهما هو قميصي هذا الذي لا يلائم الصيف.

وضع في الحاكي اسطوانة لعلي أكبر خان. أخرج من درج خزانة حزمة من الرسائل وأراني صور المناظر الطبيعية التي كان يرسلها له تينسي منذ سنوات من روما. بعضها مكتوب بالآلة الكاتبة وأخرى بخط اليد. اختار إحداها وطلب مني أن أقرأها جهرا. قال لي إن تينسي كان صديقا حميما له في تلك الفترة رغم أنه لم يكن سهل العشرة مع الناس. سألته:

ـ أولم يعد اليوم صديقا حميماً لك كما كان من قبل؟

ـ ليس الأمر كذلك. إنه ما زال صديقا طيبا معي، ولم يعد صعب العشرة حتى مع الأصدقاء الجدد. صداقتنا اليوم تختلف. يصعب عليّ أن أشرح لك. (أشعل سيجارة فرجينيا) نحن ما زلنا صديقين، لكن بشكل مختلف عن الماضي. ربما لأننا لم نعد نتقابل إلاّ مصادفة هنا أو في الولايات المتحدة.

أراني رسالة قديمة لتيموثي ليري ورسالة أخرى جديدة كتبها له من سجنه بواسطة محاميه. قرأتهما له. كانت الرسالة الثانية جدّ مؤثرة عن

قضية سجنه وسراحه الذي ينتظره. أطلعني على صورة لابنته من زوجته الأمريكية. قلت له:

ـ لقد كبرت.

ـ إيه، نعم، البنات يكبرن بسرعة أكثر من الفتيان!

18 ـ 7 ـ 1973

كنت جالسا مع أحمد اليعقوبي في سطيحة مقهى باريس. الشمس دوختني. كنا قبالة القنصلية الفرنسية. قلت له:

ـ ألن نذهب بعد لنرى تينسي؟

نظر إليّ باسما ثم قال:

ـ إنني أنتظر غروب الشمس. دائما أجلس في هذا المكان لأشاهد الشمس تغيب وراء بناية هذه القنصلية.

ابتسمت وسألته:

ـ لكن لماذا في هذا المكان بالذات؟

ـ ذلك سرّ لا يعلمه إلا اللّه.

ـ وأنت، ألا تعلمه؟

نظر إليّ وقال ضاحكا:

ـ هيا نذهب عند تينسي.

التقينا تينسي خارجا من متجر قرب المنزه. صافحنا بمرح وضحكة قوية.

عندما وصلنا مقهى باريس قال اليعقوبي، مشيراً إلى رجل مغربي داخل المقهى:

ـ ها هو ذا هنالك.

شرح لتينسي أن ذلك السيد الجالس في المقهى صديق له

وسيرشدنا إلى صاحب فيللا في «الجبل الكبير» مؤثثة ولها مسبح وحديقة. أطلق تينسي ضحكته الكبيرة وقال:

ـ فيللا ذات مسبح خاص وحديقة. هذا ما أريده. هذا ما أريده. دخلنا إلى المقهى. قدم اليعقوبي تينسي إلى صديقه الوقور، الأنيق، كنت أعرف ذلك الرجل بالرؤية منذ سنين. لم يجد صعوبة في التفاهم مع تينسي بالإنجليزية والفرنسية. أثناء الحديث عن الفيللا كان تينسي يوافق بانشراح على كل الشروط المادية للحصول على تلك الفيللا الجبلية. لم يبق للرجل ولتينسي ما يقوله أحدهما للآخر. تباسما مرتين أو ثلاثا دون أن يقولا شيئا. أخرج اليعقوبي رسالة كان سيرسلها إلى «لا ماما»[1] وطلب من تينسي أن يكتب لها تحيته من طنجة صحبته. كنت ألتفت إلى الشارع المكتظ بالسياح الذين زاروا هذه المدينة في هذا العام أكثر من المألوف. قرأ تينسي بصوت خفيض ما كتبه إلى «لا ماما» ثم أطلق ضحكته الصاخبة. سألت اليعقوبي عما كتبه لها تينسي. ابتسم وقال:

ـ هل يهمك أن تعرف؟

قلت بخبث:

ـ إن مزاج تينسي المرح يوقظ فيّ بعض الفرح. ثم ربما سأكتبه في مذكراتي.

من جديد ابتسم وقال:

ـ كتب لها: «أنا رجل قذر وعجوز، أرجو منك أن تعرضي لي إحدى مسرحياتي في مسرحك».

ودعنا صديق اليعقوبي وخرجنا. كان تينسي يريد شراء طاقية من المطاط للسباحة. سرنا في البولفار من متجر إلى آخر نفتش عن طاقية

---

(1) صاحبة مسرح صغير في نيويورك.

تروقه. كان كل متجر يعرض علينا طاقيات للنساء. لم يكف تينسي عن الضحك على تلك الأنواع من الطاقيات النسوية المطاطية. في متجر قدم له صاحبه عدة أشكال. كانت إحداها بشعر مستعار شبيه بصوف خروف.

أمسكها تينسي واستغرق ضاحكا في صخب، مردداً بعد كل مرة يستعيد فيها أنفاسه:

ـ رائع أن يلبس الواحد هذه الطاقية ويذهب ليجلس في مقهى باريس.

أنا واليعقوبي لم نعرف أيضا كيف نكف عن الضحك. فكرت: لم أر كاتبا في مثل مرح تينسي. مع ذلك هو الذي كتب «صيف ودخان» و«قطة فوق سطح صفيح ساخن».

اشترى طاقية زرقاء صالحة للرجال والنساء. كان يريدها بيضاء. كانت هناك واحدة لكنها ذات حراشيف وهو يريدها ملساء. دفع خمسة عشر درهما قائلا لصاحب المتجر:

ـ إن ثمن هذه الطاقيات غالية عندكم هنا. هذه لا تساوي ثلاثة دولارات حتى في أمريكا.

عندما خرجنا سألني تينسي عن مكان مدام بورت. كنت أعرف أنه كان يحب ذلك المكان في زياراته السابقة. كان مكانه المفضل مع جين بوولز. يبدو هذه المرة كما لوأنه لم يزر طنجة من قبل.

أثناء طريقنا إلى قاعة الشاي أَرَيته «قطة على صفيح ساخن» المترجمة إلى العربية:

ـ «قطة على نار»، هذا هو العنوان المختصر بالعربية لمسرحيتك. ما رأيك فيه؟

ـ المهم هو أن يكون هناك في المسرحية من يشعر أنه مثل قطة فوق سطح صفيح ساخن.

فكرت: لا شك أنه يحب الأشياء الساخنة والأشياء الحلوة. فكرت أن أقول له إنه من أجل ذلك يحب أن يضع لكتبه عناوين ساخنة وحلوة وشفافة: «صيف ودخان»، طائر الشباب الحلو»، «فجأة في الصيف الماضي»، «لقد أثرت عواطفي»، «الحيوانات الزجاجية». . .

سألته:

ـ هل يهمك أن تشاهد إحدى مسرحياتك تمثل بالعربية؟

ـ لا أدري. لم أفكر بعد في ذلك. لا أعرف كيف تمثل بعض مسرحياتي بلغات أخرى. لا شك أنهم إذا كانوا يعرضونها على المسارح العربية فإنهم سيمثلونها كما يريدون هم وليس كما أريد أنا، لذلك فإن حضوري وغيابي سيان.

دخلنا قاعة مدام بورت. قال تينسي:

ـ لقد اشتقت إلى هذا المكان.

جلسنا قرب نافذة مفتوحة تطل على طريق موسى بن نصير وجويا Goya استنشق تينسي نسيم المساء وتنهد:

ـ أووه! إنه رائع أن يجلس الواحد في هذه القاعة.

قال اليعقوبي:

إنها أحسن قاعة شاي في طنجة كلها.

قال تينسي بصوت حزين:

ـ أحب هذا المكان كثيرا. جين بوولز[1] أيضا كانت تفضل المجيء إلى هنا.

سادت لحظة صمت حول طاولتنا. رأيت عينيه خلف نظارته الشمسية نصف مغمضتين. ربما هو يحلم بشيء جديد أو يسترجع

(1) زوجة بول بوولز: توفيت في الرابع من ماي الساعة 9 مساء 1973 في مستوصف سان ميجيل بمالقة San Miguel.

ذكرياته هنا أو في أي مكان آخر. إنه يستمتع بهذا الاسترخاء. ربما يفكر في جين بوولز بالذات. كانت لها روح مرحة. اندهشت حين قرأت روايتها: «امرأتان رصينتان». إن مثل هذا الحوار لا يمكن أن تكتبه إلاّ كاتبة جيدة في سنّ العشرين: «تهيأتْ كريستينا للرقص وقالت لصديقتها ماري:

ـ الآن لا تفارقيني أبدا بعينيك. سأنفذ رقصة عبادة الشمس. بعد ذلك سأبرهن لك على أنني أفضل أن أرى إلهاً بدون شمس على أن أرى الشمس بدون إله. هل تفهمين؟

قالت ماري:

ـ نعم، ستفعلين ذلك فوراً.

ـ نعم، وهنا بالذات.

جاءت خادمة مغربية شابة ونفخت في سكوتنا بعض الحركات».

طلب اليعقوبي شاياً أسود. أنا طلبت القهوة بالحليب وتينسي طلب شاياً أسود وكأسا من الروم الأبيض. فكرت: أنه ما يزال يحب ينبوع الذكريات (خزانة الشراب) مثل بريك في قطة على نار. لست أدري اذا كان ما يزال يشرب حتى الويسكي. كان بوولز قد حكى لي أنه كان صحبة تينسي وبعض الأصدقاء خلال زيارته سنة 61 في هذه القاعة.

تينسي كان ثملا. سقط هو ومقعده إلى الخلف مُحدثاً دوياً أثار انتباه كل الذين كانوا في القاعة. هرعت إليهم مدام بورت وسألتهم:

ـ من هو هذا السيد؟ لقد رأيت صوره في عدة جرائد ومجلات، لكنني لم أعد أذكر اسمه. قال لها بوولز:

ـ إنه السيد تينسي وليامز.

قالت:

ـ آ! إنه هو إذن. لا يدهشني أن يحدث له هذا.

تركوه هناك منبطحا أرضا على قفاه حتى نهض وحده وجلس ضاحكا بصخب. كان صديقه فرانك مرلو غاضبا جدا عليه.

تذوق تينسي طعم الروم أولاً ثم صبّ الشاي في الفنجان. فكرت: إنه ما زال يفضل الروم على الشاي. قال لليعقوبي بمزاح:

ـ هل عثرت على بعض الفتيات الجميلات في طنجة بعد عودتك من أمريكا؟

قال اليعقوبي ضاحكا:

ـ واحدة فقط. لقد عثرت عليها بمشقة. إنها مغربية تتابع دراستها في الولايات المتحدة.

قال تينسي باسما:

ـ ألا تكفيك واحدة؟

ـ كلا. (ثم أضاف): قد تكفيني واحدة، لكني أريد أن أختارها من بين عشرات الفتيات الجميلات.

قلت لتينسي مازحا:

ـ إن ما يريده اليعقوبي هو حريم كامل.

تعالت ضحكاتنا. قال تينسي:

ـ أنا يكفيني غلام جميل. غلام واحد يأتي بدون صعوبة العثور عليه. لم يعد لي الوقت للبحث عن الغلمان.

ضحك بصخب. قلت له:

ـ أنت لا تحب إذن حريم الغلمان؟

قال ضاحكا:

ـ كلا. إن الحريم دائما متعب. لم يعد مسليا.

قال لليعقوبي:

ـ اسمع يا اليعقوبي، لا بد أن تفتش لي عن غلام جميل. غلام

واحد لي ولك أنت كل الحريم من الفتيات الجميلات. في فندق نيراداان، منذ سنوات، كان هناك غلمان رائعون. (أضاف ضاحكا): لا بد أن غلمانا آخرين رائعين قد حلوا مكان الذي لم يعودوا غلمانا.

فكرت: وما زالت الدعارة هنا تبدأ في الرابعة أو الخامسة كما يقول الأب لابنه بريك في قطة على نار.

سألني اليعقوبي:

ـ أين يوجد هذا الفندق؟

ـ لم يعد موجودا. إن صاحبه صار غنياً وقبض عليه في المدة الأخيرة بتهمة ارتكاب عدة جرائم جنسية. إنني أهتم فقط بفنادق العاهرات.

قال له تينسي مداعباً كتفه:

ـ لا بد أن تبحث لي عن غلام جميل. تذكر هذا. غلام واحد فقط، وأتمنى لك أنت حريماً كل فتياته جميلات.

ضحك اليعقوبي ضحكة مقتضبة ولم يقل شيئا. أريت لتينسي كتاب اللامنتمي مترجما إلى العربية.

ـ هل قرأت شيئا لكولن ويلسن؟

ـ نعم. قرأت له اللامنتمي. إنه كاتب جيد. هل ترجموا له كتبا أخرى إلى العربية؟

ـ ترجموا له كل كتبه تقريبا، حسبما أعلم. إنه يحظى بإعجاب كبير في العالم العربي.

ـ هذا رائع.

تناول اليعقوبي الكتاب بين يديه وسألني:

ـ هل يعرف هذا الكاتب أن كتبه ترجمت إلى العربية؟

ـ طبعا يعرف. لقد قرأت أن مترجمين عربيين يشتركان معا في

ترجمة بعض كتبه يتصلان به في إنجلترا. أعلنا مرة في مقدمة أحد كتبه المترجم إلى العربية أن صديقهما كولن مسرور بأن يرى كتبه تترجم إلى العربية.

قال اليعقوبي، بينما تينسي يتابع حديثنا بالإنجليزية باهتمام وعيناه باسمتان:

ـ ولا شك أنه يتقاضى حقوق مؤلفاته المترجمة إلى العربية.

ـ ممكن. لكني لا أعلم شيئا أكيداً عن هذه العملية.

قال بحماس:

ـ أعتقد أنه يتقاضى مالاً ما دام يعرف أن كتبه تترجم إلى العربية.

قال لتينسي:

ـ لماذا لا تكتب أنت إلى دور النشر التي نشرت كتبك بالعربية وتطالب المسؤولين عنها بحقوقك؟

ضحك تينسي وقال:

ـ أنا؟ كلا. إن ذلك متعب. ليس عندي الوقت. أرجو فقط أن يعطوني غلاماً جميلاً وجَمَلاً أركبه. (أضاف): عندي أيضا بعض الحقوق في روسيا وفي بعض البلدان الأوروبية الاشتراكية، لكني لا أكتب للناشرين ولا أذهب إلى هناك.

قلت له:

ـ كذلك قال لي جنيه عندما كان هنا عن حقوقه في البلدان الاشتراكية.

قال:

ـ لا أعرف أين هو الآن! متى كان هنا آخر مرة؟

ـ في نهاية أكتوبر 1969.

ـ كيف كان يعيش هنا؟

ـ كان متعبا وحزينا أحيانا كان يفارقه تعبه وينسى حزنه، لكنه لم يكن يستطيع قط أن يطير كما كان يفعل في الماضي. إن نيمبوطال أشل جناحيه. من المحتمل أنه يرى رؤى جميلة، غير أنه لا يستطيع أن يتحدث عنها.

ـ أنا أيضا أتناول نيمبوطال، لكني أتناول قرصا واحدا فقط لأنام.

ـ أنت أيضا كنت منذ سنوات مريضا جدا بسبب كثرة تعاطيك المنومات وكميات كبيرة من الكحول.

نظر إليّ بعينيه المفتوحتين على سعتيهما ولم يقل شيئا. كنت أنتظر أن يجيبني، على الأقل، ببسمة أو ضحكة كعادته. أعتقد أنَّ تذكره تلك الأيام المرعبة من المرض، الذي كاد يقتله، يرعبه.

سأله اليعقوبي عن بول بوولز وصديقه محمد المرابط (اليعقوبي[1] صديق لبول منذ أكثر من ربع قرن. زوجته جين هي التي علمته مبادئ الرسم. سافر معه إلى أقصى بقاع العالم. عاش معه فترة في «سيلان» ـ سري لانكا اليوم ـ حيث اشترى بول هناك جزيرة ما زال يملكها إلى اليوم، لكنه لا يستطيع أن يبيعها ويخرج ماله من هناك بعد أن تغير نظام الحكم. اليعقوبي لم يعد يزوره عندما يعود من اغترابه إلى طنجة بسبب وجود محمد المرابط، الذي لا يتفاهم معه، في منزل بول باستمرار). تحدث تينسي عن صداقته القديمة لبول ثم تكلم عن المرابط الذي عرفه في كاليفورنيا عندما زار أمريكا صحبة بول.

قلت لتنسي:

ـ غدا سأعطيك عدد مجلة أنتيوس ANTEAUS الذي نشر فيه الفصل الأول من سيرتي الذاتية ترجمه بول.

---

(1) قدمه بول بوولز لفرانسيس بايكن الذي عاش في طنجة فترة، واشتغل عنده اليعقوبي طباخاً وعلمه بعض أسرار مزج الألوان.

ـ هل يدفع لك دانيال هالبرن مالاً عما تنشره في مجلته؟

ـ كلا. لم يدفع لي حتى الآن شيئا عما أنشره في مجلته سوى ثلاثمائة دولار عن كتاب «جان جنيه في طنجة».

ـ أنا أيضا لا يدفع لي شيئا. إن إحدى قصصي التي نشرتُها في مجلته بعتها لمجلة أخرى بثمن جيد.

أطلق ضحكة كبيرة. لاحظت أن ضحكاته تضفي عليه مظهر الصحة والمرح. فكرت: أنه يعرف كيف يسعد نفسه. لا ينتظر أحدا كي يسعده. إنه في الستين، لكنه يبدو أقل من الخمسين.

قال له اليعقوبي:

ـ إن محمد المرابط داهية وينبغي لك أن تحذر منه.

قال تينسي:

ـ من؟ المرابط؟ أوه، كلا: إنه شاب لطيف وشجاع. أنا أحبه كثيرا. ثم سألني تينسي:

ـ هل أنت طالب؟

ـ كيف أكون طالبا وعمري ثمانية وثلاثون عاما. إنني أشتغل في التعليم.

فحصني وقال:

ـ لا يبدو عليك أنك في الثامنة والثلاثين.

ـ ربما لأني عرفت كيف أعيش.

تأملني من جديد دون أن يقول شيئا. نظر إلى ساعته. كانت الثامنة إلاّ ربعا. قال:

ـ أعتقد أنني سأنصرف.

نادى على الخادمة ذات العينين الآسيويتين الجميلتين وطلب منها

الحساب. أخرج أوراقا مالية من الدراهم مدعوكة. وضع فوق الطاولة ورقة خمسين درهما. قال له اليعقوبي:

ـ إن هذه الورقة تساوي حوالي عشرة دولارات.

قال تينسي ضاحكا:

ـ وهل يمكن أن تجلب غلاما جميلا؟

في طريقنا إلى فندق المنزه اشترى عددا من هيرالد تريبيون New York Herald Tribune. قال عن ذلك العدد الأخير الذي وصل:

ـ من المستحيل أن يشتري الواحد هنا مجلات وصحفاً في أوانها. إن هذا العدد صدر منذ أيام.

ثم سأل اليعقوبي:

ـ والسوق الداخلي، كيف هو اليوم؟ أما زال كما كان؟

قال اليعقوبي:

ـ إنه أخطر مما كان. مليء بالمتشردين والداعرين واللصوص.

قال تينسي:

ـ يا إلهي! إن العالم يزداد سوءاً.

أضاف اليعقوبي:

ـ سأصحبك إلى هناك لنشرب الشاي المغربي بالنعنع عندما تريد أن تزوره.

فكرت: إن اليعقوبي يبالغ. إنه من كثرة ما عاش في أمريكا صارت له نفس مخاوف بعض الأجانب الذين يخشون زيارة المغرب بسبب التهويل الذي أشاعه بعض البلهاء الذين عاشوا هنا تجارب سيئة.

ـ لا أعتقد أن السوق الداخلي خَطِرٌ إلى هذا الحد الذي تتصوره.

نظر إليّ بانزعاج وقال:

ـ أأنت أحمق أم ماذا؟ لا يمكن أن يذهب تينسي وحده إلى هناك.

إنهم سيزعجونه. لا بد أن نصحبه معا أو أحدنا على الأقل حتى نبعد عنه هؤلاء السوقيين[1]. إنهم يلتصقون بالأجانب مثل الغِراء.

ـ آ. فهمت الآن ما تعنيه. ذلك شيء آخر. معك الحق، لكن حتى ولو ذهب إلى هناك وحده فلن يزعجه أحد. إن الشبان الذين كانوا يعرفونه منذ أكثر من عشرين عاما لم يعودوا من رواد السوق الداخلي. فقد هاجروا إلى الخارج ليعملوا أو كفوا عن ممارسة الدعارة. إنهم اليوم رجال.

قال في عناد:

ـ مع ذلك يبقى السوق الداخلي خَطراً على تينسي إذا ذهب وحده.

ـ معك الحق. إن تينسي يخاف من الشبان الخطرين. بوولز أيضا كان قد تحدث لي عن انزعاج تينسي من الشبان الذين يلحون على صحبته. إن له انطباعا سيئا مع الشبان هنا خلال زياراته إلى طنجة كما سمعت. كان هناك شاب ذو قوام رياضي يلاحقه دائما. وكان تينسي يقول لبوولز:

ـ انظر، إنه هناك مرة أخرى ذلك الشاب المزعج. إنه مخيف، انظر إليه كيف ينظر إلي...!

لم أرد أن أستمر في معاكسة اليعقوبي. كنت أعرف أنه يضخم الأشياء. لقد فقد الإحساس بالعيش في طنجة. إن الحشاشين يشعرون دائما بالاضطهاد وأحمد اليعقوبي حشاش.

ودعنا تينسي قدام المنزه وانصرفنا. قال لي اليعقوبي:

ـ إنه رجل طيب جدا وجاد. يكره الكذب والتملق. يتذكر دائما أصدقاءه القدامى ويساعدهم إذا حدثت لهم مصائب. لكنه يقطع علاقته بصرامة مع من يغشه. أنا أعرفه منذ أكثر من ربع قرن.

---

(1) نسبة إلى السوق الداخلي.

ـ صحيح. أعرف عنه تقريبا كل ما تقوله عنه.

ـ من خلال ما قرأته عنه؟

ـ نعم. لقد قرأت بعض كتبه وكتابات كتبت عنه.

ـ أنا لم أقرأ له شيئا، لكني أعرفه خيرا ممن قرأوا له.

19 ـ 7 ـ 1973

وجدته جالسا مع صديقه باكسه في رصيف مقهى باريس. كانت حوالي الحادية عشرة والنصف صباحا. صافحتهما وبقيت واقفا. دعاني تينسي إلى الجلوس. عرض عليّ أن أشرب شيئا. طلبت قهوة بالحليب. لم أكن أملك فلسا واحدا للإفطار. فكرت: على الأقل لن اضطر إلى أن أدخن على الريق. كان يقرأ هيرالد تريبيون. أعطاها لصديقه وقال لي:

ـ هللو شكري! ماذا هناك من جديد؟

ابتسمت له. كنت أحمل معي مسرحيته: «هبوط أورفيوس»، و«بعد السقوط» لأرثر ميللر، مترجمتين إلى العربية. مددت له مسرحيته قائلا:

ـ هذه مسرحيتك: «هبوط أورفيوس».

أمسك الكتاب ضاحكا وقال بلهجة مازحة:

ـ أووه! ألم ينشروا لي صورة أخرى جميلة كما فعلوا في كتاب: «قطة فوق صفيح ساخن؟» (أضاف) أهو نفس المترجم الذي نقل مسرحية: «قطة على نار» إلى العربية؟

ـ نعم. اسمه محمد سمير عبد الحميد.

وضع الكتاب على الطاولة. أمسكه باكسه وسألني:

ـ كم من مسرحيات ترجموا له إلى العربية؟

ـ أعرف أنهم ترجموا له أربعاً أو خمساً. ربما أكثر.

أريته فهرس مسرحيات تينسي التي صدرت في تلك الدار مترجمة إلى العربية. سألت تينسي:

ـ هل قرأت لكتّاب عرب من الذين ترجمت بعض كتبهم إلى الإنجليزية؟

ـ كلا. (ثم استدرك قائلاً): آ. لقد قرأت لمحمد المرابط الذي يترجم له بول حكاياته.

أريته مسرحية بعد السقوط. قرأ العنوان بالإنجليزية وأبعدها عنه بيده باحتقار:

ـ أووف! إنه كاتب سيئ.

بدا التقزز على وجهه. فكرت: أهو يكره كل ما يكتبه ميللر أم أنه فقط يكره هذه المسرحية عن زوجته مارلين مونرو؟ ربما كانت مارلين صديقة لتينسي. فجأة استكان. انشرح وجهه واستعاد شكله المرح. أهو جاد أم أنه يمزح؟ انظر إليه باستغراب. انتظرت ما سيضيفه عن ميللر. قال بهدوء كما لو أنه يضع عنوانا جميلاً ساخناً لإحدى مسرحياته أو يختمها بجملة شفافة:

لا، لا. ليس صحيحا ما قلته لك عن ميللر. أنا فقط أمزح.

يبتسم ويتكلم ببطء. فكرت: لا بد أنهما لا يتفاهمان. بدأت أنا أيضا استعيد هدوئي وأبتسم معه بعدما كنت مندهشا. أضاف:

ـ إن أرثر ميللر كاتب جيد. (رأيت في هذه المرة، من خلال فتحة قميصه، صليبا ذهبيا جميلا مرصعا بأحجار سوداء) قد يكون لا يحب ما أكتبه، (ضحك) أظن هذا. لكن حبه وكراهيته لما أكتبه لا يعنيان شيئا. حتى ما يكتبه عنا بعض النقاد من انتقادات سيئة لا تعني شيئا. إنهم يسلخوننا، لكننا نعرف كيف نجدد جلدينا.

وَددْتُ لو أنه يستمر في الكلام هكذا. كان يتكلم بارتياح كمن لم يعد يهمه ما يقال عنه في صالحه أو ضده.

كان اليعقوبي قد وقف قدامنا. جلس وتركتهما يتحدثان. سمعت اليعقوبي يقترح عليه زيارة السيدة لويز مدو ورون LOUISE DE MEURON في منزلها. قال له اليعقوبي إن هذه السيدة تملك حديقة تعتبر من بين أجمل حدائق طنجة التي يملكها أغنياء هذه المدينة. طلب مني اليعقوبي أن أذهب لأفتش عن رقم هاتفها في دليل هاتف المقهى كي يخبرها بالزيارة.

حينما عدت وجدت تينسي انصرف مع باكسه. أعطيت رقم الهاتف لليعقوبي. قال:

ـ لقد وافق تينسي على زيارة السيدة لويز دومورون مساء اليوم. سنتقابل معه ونذهب سويا.

في المساء التقيت اليعقوبي وصديقته المغربية السمراء جالسين في رصيف مقهى باريس. ذكرت لي أنها درست في أمريكا وأنها لم تعد تذكر حتى كيف تتكلم جيدا الدارجة المغربية. كان اليعقوبي قد سألني عن رأيي فيها. قلت له إنها متكبرة. لا تحب أن تتكلم مع المغاربة سواء بلغتها أو بأية لغة أخرى. إن أربع أو خمس سنوات لا تستطيع أن تنسيها لغتها. كان هو أيضا قد قال لي عنها:

ـ واللّه حتى أنا لا أعرف. إنها تتكلم معي أنا أيضا بالإنجليزية. إنها امرأة. مزاج النساء صعب. إن لهن أفكارا شيطانية. هي تعرف عني أكثر مما أعرفه أنا عنها. هن لديهن كل الوقت لمراقبتنا نحن الرجال. أنا دائما أطلب منها أن تشرح لي ما تقوله بوضوح أكثر من مرة، أما هي فلا تطلب مني أن أوضح لها شيئا أقوله.

ـ إذن إما أنها تفهمك جيدا أو هي لا تفهمك مطلقا.

ـ واللّه لا أدري، أنا لا أثق في النساء. هناك دائما أكثر من شيطان يسكن في روح امرأة.

كنت أحمل معي «صيف ودخان» والعدد السابع من مجلة أنتيوس Anteaus المنشور فيه الفصل الأول من سيرتي الذاتية. وصل باكسه حوالي السادسة إلاّ ربعا. ثيابه بسيطة ونظيفة. جلس وأخبرنا بمجيء تينسي. بعد لحظة جاء تينسي. لون بذلته بني غامق. قماشها أملس يلمع في الشمس كلما تحرك. بدا مشرقا ومرحا. فكرت: إن حالته النفسية المرحة لا تتناسب مع لون بذلته الحربائية. طلب زجاجة ماء «ويلميس». كان باكسه حالما كعادته. الشمس توشك أن تغيب. فكّرت: هل ينتظر اليعقوبي مغيب الشمس خلف بناية القنصلية الفرنسية كما هي عادته؟ كتبت إهدائي لتينسي في الصفحة الأولى وأعطيتها له. قرأ بضع أسطر في بداية السيرة وانفجر ضاحكا. كانت السطور الأولى تبدأ بصراخي وحزني على موت خالي. شكرني وقال:

ـ لقد بدأت سيرتك الذاتية بالبكاء. هاهاها. لا بد أن تنهيها وأنت صامت. إن ما يبدأ بالحزن لا بد أن ينتهي بالحزن.

ثم سأل اليعقوبي عن المرأة التي سنذهب عندها. قال له اليعقوبي:

ـ إنها أرملة طيبة. تقيم في طنجة منذ سنين طويلة.

سأله تينسي مازحا:

ـ وهل تملك مالا كثيرا؟

ـ لا أدري، لكنها ليست فقيرة. هذا مؤكد.

قال تينسي بمرح:

ـ أنا لا أملك مالا كثيرا. أريد مزيدا من المال.

قلت لتينسي:

ـ إذا لم تكن غنية فإن لها لقباً على الأقل. إنها كونتيسة كما سمعت.

قال:

إن اللقب ليس كافيا في هذا العصر. لا بد من المال واللقب أو المال بدون لقب.

ضحكنا ما عدا باكسه وصديقة اليعقوبي. فكرت: هي وصديق تينسي من طينة واحدة. إنها توحي بالاغتصاب، أما هو ففي حاجة إلى مثل ذلك الزنجي الذي أكل الرجل الأبيض في قصة تينسي: «الرغبة والمدلّك الأسود» DESIRE AND THE BLACK MASSEUR.

فكرت في نفسي: إنني لا أملك سوى الحياة التي عشتها والحياة التي لم أعشها بعد.

كانت الشمس قد غابت وراء بناية القنصلية الفرنسية عندما نهض اليعقوبي وطلب منا الذهاب عند السيدة لويز. أعطاني اليعقوبي ورقة عشرة دراهم لأدفع للنادل ثمن طلباتنا.

ركبنا في سيارتَيْ أجرة صغيرتين. ركبت مع تينسي وصديقه باكسه وركب اليعقوبي في السيارة الأخرى مع صديقته.

في الطريق بدأ تينسي يدندن بأغنية. فكرت: أنه يعرف كيف يبهج نفسه في كل لحظة. كان بول بوولز يسكن سنة 1940 في أكا ـ بولكو ACA-PULCO عندما زاره تينسي هناك. كان ما زال كاتبا مغمورا يضع قدمه في المسرح كاتبا فاشلاً ويضع قدمه الأُخرى في كافيتريا أحد المستشفيات عاملا أو مقيما في مزرعة صغيرة في شاطئ لاغونا مقابل رعاية الدواجن والعيش على ما يسرقه من بيض وفاكهة وبصل جاف. كان ذلك في شهر غشت. وصل تينسي قبيل الزوال إلى منزل بول. كان مدعوا مع زوجته إلى حفلة ستقام على الشاطئ. في البداية انزعجت جين من زيارته لهما في تلك الساعة القائظة. لم يكونا يعرفان بعد شيئا عن مواهبه الأدبية. أخيرا أشفقت عليه جين وسمحت له أن يدخل المنزل من تحت تلك الشمس الكاوية. أوصيا خدامهما أن يقدموا

للسنيور كل ما يريد من أكل وشراب. حين عادا في المساء وجداه مستلقيًا على كِلَّة جِدَّ مَرِحٍ ومعه زجاجة من الروم يشرب منها وحوله ببغاوات تَرُدُّ على صيحاته النشوانة.

كنا نتبع سيارة اليعقوبي. كان بول قد عرفني بالسيدة لويز دو مورون في منزله. كانت تعتبر كل الناس الذين يعرفونها مثل أولادها. حتى بول، الذي يكبرها بسنوات، كانت تعامله كما لو كان ولداً لها في حاجة إلى أم تنصحه.

دخلنا أزقة ضيقة المنعطفات. كان أطفال مغاربة يحيوننا في ذلك الحيّ بصرخات الابتهاج وتلويحات أيديهم. قال تينسي:

ـ يا إلهي! ما أكثر الأطفال في هذا الحي!

قلت له:

ـ إنهم في عطلة الصيف المدرسية.

ـ إنني أفهم. وهل كلهم يدرسون؟

ـ أكثريتهم.

تينسي مسرور بتلك الابتهاجات التي يرسلها نحونا هؤلاء الأطفال الفقراء. باكسه كان جامداً مثل «تمثال الخلود» وتينسي لا ينسى أن يتنغم بكلمات أغنية. سألته مازحا:

ـ هل كانت مس ألما واينميلر ALMA WINEMILLER تغني جيدا لا غولوندرينا LA GOLONDRINA؟

ـ أووه! نعم. كانت تغني جيدا.

ـ ونيال، أكان هو أيضا يعزف جيدا على الغيتار عندما كان يغني أعشاب المساء؟

ـ أيضا كان رائعا في الغناء. إن كل من له أحلام حزينة يغني جيدا. إن نيال ومس واينميلر كانا حالمين.

أردت أن أسأله عما إذا كانت ألما واينميلر شخصية حقيقية عرفها في حياته، لكن هذا السؤال بدا لي غير مهمّ. إن الكتاب الكبار غالبا ما تكون الأماكن التي يصفونها والشخصيات التي يحللونها أروع مما هي في الواقع.

قلت له:

- إنني أحمل معي «صيف ودخان».

هزّ رأسه وابتسم بشرود. أضفت:

- في نهاية المسرحية هناك حوار قصير بالأسبانية بين ألما وذلك الشاب البائع المتجول. هل تعرف الأسبانية؟

قال باسترخاء:

- إنها مجرد كلمات. إنني لا أحسن الأسبانية.

كدت أقول له:

- إن مس ألما حفيدة لهستر برين في «الحرف القرمزي» لنثانيال هوثرن.

نزلنا طريقا شديدة الانحدار. كانت فيلا جميلة جدا في مواجهة الجبل الكبير (قرب مرقالة).

وعلى مرأى منا كان منزل كبير يبدو متصدعا، كالحا، مهجورا. فكرت: أن روح كريستيان طوني ما زالت تطوف هناك[1].

قال تينسي:

---

(1) الرسام الهولندي السوريالي الذي عاش في باريس. أقام في هذا المنزل سنة 1931 وكان يدفع لصاحبة المنزل الفرنسية، بين فترة وأخرى، لوحات كايجار للجناح المخصص له، وكانت هي تستلمها منه دون اكتراث، غير مؤمنة بأية قيمة فنية لما كان ينتجه هذا الرسام كما صرحت لبول بوولز بعد عشرين عاما وهي تخرج اللوحات من مكان مهمل ليراها طالبة منه أن يثمنها ويبحث لها عن مشتر لأنها كانت تعيش أزمة مادية في أواخر حياتها.

ـ أعتقد أني جئت إلى هذا المكان منذ سنوات. ما أروعه!

نزلنا من السيارة. اليعقوبي وصديقته سبقانا إلى الفيلا. نزل تينسي وباكسه ومشيا نحو الفيلا وتركاني مع السائق. كنت ما زلت أحتفظ بأربعة دراهم تَبَقَّتْ معي من ورقة العشرة. رآني تينسي أدخل يدي في جيبي فجاء مسرعاً وهو يقول: ـ أووه! لا. هذا لا. كم يجب أن أدفع له؟

ـ ادفع له ما تشاء.

أعطاه ورقة عشرة دراهم. أراد السائق أن يرد له الصرف. قال له تينسي:

ـ احتفظ بالباقي.

شكرني السائق الأسباني مبتسما. كنت أعرف أن سائقي سيارات الأجرة يكرهون من يتدخل من أهل البلد في تحديد ثمن الأجرة، خاصة عندما يتعلق الأمر بالأجانب الذين يبدو عليهم الثراء.

توقف تينسي على سدة درج الممر ناظراً إلى الجبل. منظر يلتقي فيه اخضرار الجبل بالشفق: سحب وردية ممزوجة بلون زهر أشجار اللوز. تذكرت منظراً لجزيرة «بالي» رأيته في كتاب: «عالم الإنسانية». بين خطوة وأخرى يتوقف لينظر إلى الجبل المشرف على مكاننا أو ينظر حوله. استنشق بعمق وقال:

ـ إن هذه السيدة تملك أزهاراً زكية في حديقتها. كم أحب هذا المنظر!

فكرت: لقد رأى العالم. لا بد أن يكون قد رأى آلاف المناظر أجمل من هذه. هو الذي رآها. أما أنا فيكفيني أن أزور ذات يوم «بالي» أو «جاوة».

استقبلتنا السيدة لويز وابنتها ببشاشة فياضة. كان اليعقوبي وصديقته

واقفين معهما. سألت السيدة لويز تينسي إن كان يفضل الجلوس في الحديقة أم في البهو الصيفي الصغير. قال:

ـ أنا أفضل الجلوس في البهو.

قبل أن نتجه إليه رجتنا أن يختار كل واحد منا ما سيشربه. ذكرت لنا أنواع الشراب التي عندها. طلب تينسي فودكا، طلبت أنا مثله، باكسه طلب مارتيني واليعقوبي وصديقته طلبا شايا أسود بالليمون. جلسنا فوق مضاجع واطئة مريحة. قال تينسي للسيدة لويز:

أعتقد أنني زرتك هنا من قبل.

قالت بمرح:

ـ طبعا. إنني أذكر جيدا، لكن كان ذلك منذ سنوات طويلة.

سألها عن سيدة روسية كانت مقيمة عندها. قالت:

ـ آ! سونيا كامالاكار Sonia Kamalakar. تلك الحمقاء. إنها الآن في الفردوس. لقد ماتت منذ سنوات.

انقبضت ملامح تينسي وتمتم:

ـ م م م..! وزوجها.

ـ أنت لا شك تعرفه. إنه صوفي. لقد أنهى حياته متجولا في قرى أسبانية.

تخيلته كأنه يشم رائحة نتنة تفوح من كلمات السيدة لويز. بعد لحظة انشرح مع جرعات الفودكا وصار يضحك وهي تحكي له عن جنون سونيا وتصرفاتها الغريبة. وكانت صديقة لجين بولز.

ـ كانت تفسد لي أفضل زهوري. تَصَوَّرْها وهي تدوس لي زهوري عمدا. مع ذلك فلم أشأ أن أطردها، لقد كانت وحيدة وفقيرة. مسكينة سونيا!

أحيانا يضع تينسي يده على فمه ليخفي ابتساماته أو يدوّر عينيه في

محجريهما متعجبا من قصتها مع سونيا. كنت، أنا أيضا، قد سمعت من صديق مغربي، يعرف السيدة لويز وسونيا، أنها كانت تتمشى عارية تماما في الحديقة، تغني وترقص غير عابئة بمن يراها.

أخذ تينسي والسيدة لويز يتحدثان عن بربارة هاتن ومرضها المزمن وأزواجها العديدين. سمعت تينسي يقول لها عنها:

ـ إن صحتها كانت دائما ضعيفة.

ذكرت السيدة لويز عقار نيمبوطال عدة مرات ثم قالت:

ـ مع ذلك فأنا أتناول هذا العقار منذ سنوات ولا أحس بأي خطر يهدد صحتي، لكني آخذ منه ما يكفي لأنام وليس لكي أتخدر.

كانت تخدمنا ابنتها وسيدتان مغربيتان أنيقتان وحذقتان في عملهما. نادت ابنتها على أطفالها الثلاثة. كانوا يلعبون في الحديقة. دخلوا وسلموا علينا بطريقة جد مهذبة متقنة. ذكرتني تحيتهم بأدب الصالونات الغربية في القرون الماضية. نادت السيدة لويز فجأة:

ـ أمادو! أمادو! فيان إيسي أمادو!

دخل شابان أسودان، أنيقان. لثما يد السيدة لويز ويد ابنتها ثم صافحانا وانسحبا بأدب بالغ.

كانا مغربيين. أدركت أن أمادو (اسم أحدهما) هو أحمد.

سأل تينسي السيدة لويز:

ـ هل أنت فرنسية؟

ـ كلا، إنني سويسرية ـ ألمانية.

ثم سمعتهما يتحدثان عن بول بوولز ووفاة زوجته جين بِوِدٍّ وحزن. قال لها تينسي بصوت مؤثر:

ـ لقد كانت كاتبة عظيمة.

كان تينسي قد قال عنها في نيويورك تايمز عندما كتب مقالا حول

الكاتب المسرحي «وليام إينج»: «لست أنا الوحيد، في اعتقادي، الذي يرى أن جين بوولز هي أكبر كاتبة نثر في القرن العشرين». طلبتُ من ابنة مضيفتنا مزيدا من الفودكا بالثلج وماء تونيك. أحسست باسترخاء شامل وأنا أشرب على مهل من كأسي. سمعت اليعقوبي يروي قصة شاب مغربي صحب أوربيا لوطيا إلى منزله. حين رفض الشاب مضاجعته قطع له عضوه التناسلي بسكين.

تقززت ملامح تينسي ثم سأل بقلق:

ـ من قطع للآخر؟

ـ الشاب المغربي قطعه له.

سأل تينسي بنفس القلق والامتعاض:

ـ وهل قطعه له كله؟

قال اليعقوبي ضاحكا:

ـ من حسن حظه أنه جرحه فقط.

استعاد وجه تينسي هدوءه ثم قال ضاحكا:

ـ كنت أظن أنه قطعه له كله. يا إلهي! إن بعض الشبان فظيعون.

نظر تينسي إلى ساعته وقال:

ـ أعتقد أننا سنذهب الآن. إننا مدعوان، أنا وباكسه، عند بول.

تطوعت ابنة السيدة لويز لتحملنا في سيارتها الكبيرة.

في الطريق بدأت ابنة السيدة لويز تروي حكايات أخرى عن أصدقاء أمها الغريبي الأطوار.

توقفت السيارة قرب العمارة. نزلت مع تينسي وصديقه. لم أكن مدعوا عند بول. فكرت: ماذا يمنع من أن أصحبهما؟ إن مرحي يجب أن يستمر. مزيدا من الشراب. تذكرت جون بوكانان في صيف ودخان. لا بدّ أن يكون بول قد اشترى خمرا لتينسي هذه الليلة.

فتح لنا الباب بول. دخلنا إلى غرفة الجلوس. سأله تينسي عن المرابط. قال له إنه يعد العشاء.

خلع تينسي سترته ووضعها بول فوق دولاب خشبي مغربي قديم. ظهر المرابط. صاح تينسي.

ـ هللو المرابط!

تعانقا بحرارة.

جلس تينسي على مضجع مغربي. صافحني المرابط وعاد إلى المطبخ. جلست قبالة تينسي على البساط. أخذ بول يحشو سيجارته بالتبغ الأخضر وتينسي يحدثه عن صعوبة العثور على فيلا جميلة ومريحة. سمعت تينسي يسأله عن دار البارون دو فافييه LE BARON DE FAVIER التي سكن فيها سنة 1926.

سمع جرس الباب. قال بول:

ـ أعتقد أنها كارول أردمان CAROL ARDMAN.

فتح لها المرابط. دخل صحبتها جافن لامبرت GAVIN LMBERT. كانا محملين بزجاجات نبيذ وماء معدني. وضعاها فوق الطيفور. نظرت إلى زجاجات الماء المعدني وفكرت في الضفادع البشرية. جلس جافن لامبرت قدام تينسي. بدا لي شكل لامبرت مثل طائر حاضن في عشه: وضع ساقا على ساق ومرفق يده اليمنى فوق ركبته. تمشيطة رأسه أيضا تشبه عرف طائر. كان المرابط وكارول يهيئان المائدة. وجه كارول متورد. عينا المرابط نائمتان كعادته عندما يدخن الكيف كثيرا. تينسي يتأمله بوجه مشرق. صبت لنا كارول النبيذ. بول يشرب شايه الأسود بالليمون. تذكرت الخيام:

تينسي وجافن يتحدثان عن بعض الأشخاص. بين فينة وأخرى يشاركهم بول. دخل المرابط حاملاً طاجين الدجاج مطبوخا بالخضار. استنشق تينسي رائحة الطاجين وقال:

ـ الطبخ المغربي لذيذ.

تذكرت أن العربي العياشي (صاحب كتاب حياة مليئة بالثقوب أو العيش الذليل، الذي نشره باسم ادريس الشرادي) كان يعمل طباخا عند تينسي حينما كان هنا سنة 1962 مقيما في دار البارون دو فافييه. قال لي المرابط وهو يغرف لي من الطاجين:

ـ حسنا فعلت إذ جئت. يسرني أن أكون مع مغربي في مأدبة كل مدعويها أجانب.

كان الطاجين لذيذا. كنت أعرف أن المرابط يفخر بكل ما يصنعه، لا أبالغ إذا قلت إنه لا يفرق بين قيمة طاجين جيد طبخه، وقصة نشرها في رولينغ سطون ROLING STONE، وسمكة كبيرة اصطادها في شاطئ مغاور هرقل أو المسيسيبي، وحزمة كيف نقاها جيدا وقصّها، وشرائه عصفورا يغني جيدا، والسرعة التي يقود بها سيارته ومشادة دامية ينتصر فيها على خصمه. إنه، في الغالب، يفضل مهارة يديه على موهبة خياله في سرد إحدى حكاياته على بول.

أراد المرابط أن يغرف مزيدا من الطعام لبول. قال له بول بالأسبانية:

ـ شكرا، أنت تعرف أنني لا أستطيع أن آكل كثيرا.

قال المرابط بالاسبانية:

ـ انك تأكل أقل مما يأكله أحد عصافيري.

المرابط أيضا يفخر بأكبر كمية يأكلها. إنه لا يتعامل مع التواضع في الحياة. المبالغة والتضخيم في كل شيء حتى ولو كان ذلك على حساب صحته.

قلت لكارول بالعربية:

ـ لا صحو الليلة، لا أبدا.

سألت:

ـ ماذا تقول؟

ـ إن نبيذ المغرب جيد.

ـ هذا صحيح.

ثم صبت لي.

بعد العشاء دخل تينسي إلى الحمام. حين خرج اتخذ وضع راقص الفلامنكو رافعا يديه إلى فوق ثم غنى بالأسبانية. فكرت في جون بوكانان وروزا غونزاليس في صيف ودخان. تخيلت أنغام الأكورديون. دار تينسي دورات رشيقة مقلدا رقصة الفلامنكو. فكّ زرّ ياقة قميصه وجلس. قلت له:

ـ إن شخصيتك تختلف تماما عما تكتبه.

ـ كيف تفهم ذلك؟

ـ إن أعمالك، خاصة مسرحياتك، جد حزينة وأنت تعيش في ديمومة من الفرح. كيف تشرح ذلك؟

ـ ليس ماتقول صحيحا. إن أعمالي ليست حزينة. أحزان أشخاص مسرحياتي جزء من حياتهم. إن الحزن، أحيانا، فرح. والفرح، أحيانا، حزن. ليس كل حزن هو حزن، ولا كل فرح هو فرح.

تمتمت:

ـ م م م. . . إني أرى.

فكرت: من أين استوحى إذن هموم ألما واينميلر؟ أضفت له:

ـ إني أيضا لا أفهم تحوّلك من البروتستانتية إلى الكاثوليكية بعد شفائك من مرضك البالغ الخطورة.

ـ إني أومن باللّه. هذا كل شيء.

ـ أليس أنك تعلن إيمانك باللّه لترضي المؤمنين المعجبين بأعمالك؟

ضحك وقال:

ـ لا علاقة تماما بين إيماني الديني وما أكتبه.

تأملت الصليب المرصّع بأحجار سوداء المتدلي على صدره وقلت:

لقد استغربت عندما رأيت الصليب في عنقك لأول مرة.

لمسه بأصابعه وقال بحزن:

ـ إن أمي مريضة. أتمنى في هذه اللحظة أن يشفيها اللّه.

استرخى إلى الوراء وقال:

ـ أعتقد أنك شاعر. ألا تكتب الشعر؟

ـ كتبت بعض المحاولات في الماضي، لكني لم أنشرها.

ـ إنك تملك مخيلة شاعر.

ـ ربما.

ـ لك وجه شاعر. وجه أسباني.

ضحكت وقلت له:

ـ وأنت لك وجه ألماني.

ـ ربما. أعقتد أن أحد أجدادي كان ألمانيا.

ثم تأمل المرابط وقال له:

ـ هللو المرابط! أما زلت قويا؟

كان قميص المرابط الأسود مفتوح الصدر. نهض. خلع قميصه بحركات وأوضاع رياضية مبرزا عضلاته. صفق تينسي هاتفا:

ـ برافو! إنك ما زلت محتفظا بقوتك.

لبس قميصه وجلس.

بعد لحظة قال لي:

ـ إنني أستضيفك إلى فلوريدا. عندي هناك شاليه في كي ويست KEY WEST. تعال إلى هناك لتقضي فترة تكتب فيها.

شكرته وقلت له إني سأفكر في الأمر.

شرب ثمالة كأسه وقال:

ـ أعتقد أني سأذهب لأنام.

تطوع المرابط ليحملنا في سيارته.

في الطريق إلى المدينة سأل تينسي المرابط بالإنجليزية:

ـ أما زلت تكتب باستمرار؟[1].

قال له المرابط بالفرنسية:

ـ نعم، لكني ما زلت فقيرا. إن كتبي لا تعطيني كفاية من المال لكي أعيش.

قال له تينسي:

ـ ولكنك تملك سيارة خاصة.

ليست سيارتي. بول هو الذي يعيرها لي.

قال تينسي ضاحكا:

ـ بول عنده سيارتان. موستانغ MOSTANG وكارمان جيا KARMAN GHIA.

أنا لا أملك أية سيارة. إنني أيضا ما زلت فقيرا.

تذكرت ما قاله لي بول من أن تينسي دائم الشكوى من الفقر رغم أنه غني. يقول دائمًا لأصدقائه إنه لا يملك أكثر من ثلاثين أو خمسة وثلاثين ألف دولار.

نزلنا قدام فندق المنزه. كان تينسي يبدو مرحا. عانقنا، المرابط وأنا، بحرارة. صافحنا باكسه ببروده المعتاد. ركبت مع المرابط وسألني

(1) المرابط لا يعرف الكتابة والقراءة إنما هو يسجل حكاياته بالدارجة وبوولز ينقلها إلى الإنجليزية.

عن المكان الذي سيوصلني إليه. طلبت منه أن يتركني قدام مرقص الميرادور EL MIRADOR.

عندما نزلت قال لي:

ـ إنك تقتل نفسك كل ليلة بالشراب.

قلت له ضاحكا:

ـ سأحاول ذات يوم أن أكف عن الشراب، لكن حاول أنت أيضا أن تتخلى عن تدخين الكيف وتناول معجون الحشيش.

تأملني بعينيه المخدرتين وقال:

ـ إن الشراب يضر أكثر مما يضر الكيف والمعجون.

لم تكن عندي رغبة في مناقشته عن أيهما أكثر ضررا. كان عطشي أقوى. ودعته وانصرفت إلى حانة: «ثقب في الجدار» THE HOLE IN THE WALL.

20 ـ 7 ـ 1973

التقيته مع صديقه باكسه في شارع محمد الخامس. يبدو منزعجا ابتسم لي بتعب.

21 ـ 7 ـ 1973

صباحا، 11,45 في مقهى باريس.

تحسنت حالته الصحية. له موعد مع طبيب مغربي. ذكر لي أنه في حاجة إلى شراء بعض الفيتامينات. أخبرني أنه أعجب بالفصول الثلاثة من سيرتي الذاتية For bread alone.

في المساء التقيت إدوار روديتي E. RODITI في مقهى باريس. وجدني أكتب مذكراتي مع تينسي. ذكرت له أني أنوي نشرها في كتيب. سألته عما إذا كان يعرفه شخصيا. قال:

ـ عرفته عندما كان شاعرا مغمورا. كنا ننشر معا بعض أشعارنا في دار نشر: NEW DIRECTIONS-ANUAL

لكننا لم نكن قط صديقين.

23 ـ 7 ـ 1973

صباحا 11,15 في مقهى باريس.

أكتب مذكراتي عنه. أراه واقفا خارج المقهى باحثا عن مقعد ليجلس. خرجت واقتربت منه. تصافحنا. ذهبنا بحثا عن الصحف الإنجليزية والأمريكية في الأكشاك. لم تكن قد وصلت بعد. حدثني بانزعاج عن صديقه باكسه.

ـ إنه غبي. لا يفكر إلا في نفسه. نرجسي. يهتم كثيرا بشراء البذلات والقفطانات الغالية مثل فتاة تافهة تغريها أية ملابس براقة.

ـ لا شك أن صديقك شقي. إنه لا يكاد يبتسم.

ـ صحيح. لهذا أفكر أن أعيده إلى أمه. إنه ابن أمه. لا بد لي من أن أبحث عن صديق آخر يتحمل مسؤولية العمل معي بجد.

دخلنا مكتبة «كولون». رأيت الآنسة إيفون منشغلة في مكتبها. أخذ صحيفة لوموند من حاملة الصحف. قلت له.

ـ انظر! هناك صحف أخرى فرنسية.

ـ إن ما تقوله لوموند يعادل كل ما في الصحف الفرنسية الأخرى.

دفع ثمن الجريدة للفتاة الإسبانية العاملة في المكتبة. التفت إلى رفّ الكتب الفرنسية. رأى أعمال رامبو الكاملة في مجلد واحد. كانت صورة جميلة له في صباه على الغلاف. لمس الكتاب دون أن يمسكه وقال:

ـ هذا شاعر كبير. أحبه كثيرا.

قلت له خارج المكتبة:

ـ أنا أيضا أحب رامبو. إنه من بين أعظم الشعراء الذين اكتشفوا أنّ الإنسان هو الذي يوحي لنفسه بالشعر وليس آلهة برناس.

ـ أوافقك. (أضاف): قرأت عنه كتابا رائعا كتبته عنه الكاتبة الإنجليزية (بذل مجهوداً ليتذكرها) اسمها إنيد ستاركي ENID STARKIE.

سألته:

ـ هل صديقك باكسه يساعدك في ضرب مسودات كتاباتك على الراقنة؟

ـ أحيانا. إنه يفضل أن يسترخي ويحلم أكثر مما يعمل. لا بدّ لي من أن أفتش عن رفيق آخر لأُتِمَّ رحلتي عبر أوروبا. إذا لم أجد رفيقا غيره فإني أفضل أن أكون وحيداً على أكون مع رفيق مثله. أنا أستطيع أن أعيش وحيدا. لا شك أنه شقي هنا في طنجة. سأعيده إلى أمه لتعنى به أفضل مني.

وصلنا إلى مقهى باريس. جلسنا في القاعة. كان الجو حاراً في رصيف المقهى. قلت له:

ـ لا شك أن صديقك ما زال شابا وليس له تجارب كثيرة ليفهمك.

ـ صحيح. إنه في حوالي الخامسة والعشرين.

طلب فرني ـ برانكا بالثلج وطلبت أنا قدح حليب بارداً.

قلت له بعد لحظة:

ـ لكن، أحيانا، يكون الإنسان ناضجا في الخامسة والعشرين أو قبل.

ـ صحيح، لكن ليس باكسه من هذا النوع.

فكرت: من الصعب أن يعثر على صديق آخر في مستوى فرانك

مرلو الذي كان ينظم كل أعماله الأدبية. ربما وفاته هي التي دفعته إلى الشراب بإفراط حتى أدخل إلى عيادة خاصة لعلاج المدمنين على الشراب. كان يعتبره أخاه الروحي. لم يكن يصدق أنه مريض بسرطان الرئة. كان يظن أنه يتمارض. سمعت من بول أن تينسي عانى كثيرا من تأنيب الضمير بعد وفاة مرلو. ربما لأنه كان يستطيع أن يعنى به أكثر مما فعل من أجله.

قلت له:

ـ يبدو أن صديقك باكسه ليس له أي تسامٍ أدبي أو فني.

ـ إنه لا يقرأ شيئا، لكنه يحب الموسيقى. إنها تجعله أكثر حلما بنفسه.

نظر إلى دفاتري وإلى كتاب LE COLOSSE DE MAROUSSI لهنري ميللر. سأل

ـ ماذا تكتب في هذه الأيام؟

أفكر في أن أكتب الجزء الثاني من سيرتي الذاتية بعد أن أنتهي من قصة اسميتها: «الخيمة».

ـ ألم تتخلصوا بعد من الخيام أنتم العرب؟

ـ لأن شمسنا ما زالت حارة.

أمسك كتاب ميللر وقال:

ـ هذا لم أقرأه بعد.

ـ بول قال لي إنه أحسن ما كتب ميللر. هل يعجبك ما يكتبه؟.

ـ أوه! نعم. إنه كاتب جيد. لقد عانى كثيرا ليصير كاتبا. إن حياته كانت قاسية جدا. ثم إنه جريء في كتاباته.

ـ هل تعرفه شخصيا؟

ـ قابلته منذ سنوات.

وضع لنا النادل المشروبين. شربت كأسي دفعة واحدة. سألني:

- يبدو أنك تحب الحليب.

- ليس كثيرا. استيقظت في الخامسة صباحا وأريد أن أستعيد حيويتي بعد أن كتبت كثيراً وشربت نبيذا رديئا.

كدت أقول له إنني أعتبر الحليب، أحياناً، شراب الأطفال والمرضى، وأنني، أحيانا، أحسني طفلا أو عجوزا عندما أشرب الحليب.

سألته:

- ألم تعثر بعد على فيلا؟

- آ، نعم، لقد عثر لي جون هابكنز[1] على فيلا جميلة في الجبل. صاحبها سيسافر إلى هونغ كونغ ليقضي هناك عطلته؟

- أليس هو سانش دورامون؟

- كلا. شخص آخر. الفيلا بعيدة عن البحر، لكن فيها تليفونا وأستطيع أن أطلب سيارة أجرة لأنزل إلى الشاطئ. إنني معتاد على السباحة.

- قال لي بول إنك تسبح أيضا في سائر الفصول.

- صحيح. إن السباحة تجدد حيويتي، وأنا متعود أيضا على العمل كل يوم. إنني أمرض إذا لم أشتغل في كتاباتي كل يوم.

فكرت: كذلك كان همنغواي. كان يحب السباحة ويعمل كل يوم. بعد لحظة سألته:

- هل قرأت فصولا أخرى من كتابي؟ أريد أن أعرف رأيك فيه.

- إنني أستمتع به كل يوم.

---

(1) كاتب أمريكي يقضي نصف السنة في المغرب ويقضي النصف الآخر في رحلات عبر العالم. حاليا مقيم في طنجة. من مؤلفاته: ذباب طنجة الصامت.

ـ إنه أول كتاب يصدر لي حتى الآن.

ـ هل تكتب بالعربية فقط؟

ـ نعم. لا أستطيع أن أكتب بلغة أخرى. إنها قضية أسلوب. لقد اكتسبت أسلوبي العربي منذ سنوات.

ـ إنني أفهم.

نظر إلى ساعته وقال:

ـ هل ممكن تناول وجبة غداء هنا؟

ـ ممكن، لكن من الأفضل أن تذهب إلى مطعم زاغورة أو مطعم كلاريدج.

ـ سأذهب لأسبح قليلا في الفندق قبل أن أتناول غدائي.

مساء 5,30 س.

أكتب مذكراتي عنه داخل مقهى باريس. رأيته جالسا في سطيحة المقهى. حملت فنجان قهوتي وذهبت لأجلس معه.

أعطيته مجلة أنتيوس المنشور فيها القسم الأول من مذكراتي عن «جان جنيه في طنجة».

طلب من النادل شراب كامباري بالثلج. سألته:

ـ هل شاهدت بعض مسرحيات جنيه تمثل بالإنجليزية في أمريكا.

ـ لم أشاهد سوى «الشرفة». كانت مسرحية غامضة عن الدعارة. لم أفهمها جيدا، لكن أسلوبها شاعري.

ـ هذه هي نفس المسرحية التي أهداها لي كاتبا الإهداء بالعربية والفرنسية.

ثم أريته إياها:

ـ أهو جنيه أيضا يعرف العربية؟

ـ يعرف الدارجة، ويستطيع أن يتهجأ الحروف العربية ويكتب بعض الكلمات بدون أخطاء.

ـ لم أكن أعرف هذا عنه. إنه غريب ورائع. قل لي، كيف كانت حياته هنا مع الشبان المغاربة السود؟ أكانوا يسمحون له أن يدخلهم معه إلى فندق المنزه أو غيره؟

ضحكت سائلا إياه قبل أن أجيبه:

ـ كيف عرفت أنه يحب الشبان السود؟

ردّ بمرح:

ـ أعرف أنه يحب السود. يحب أشخاصا مثل عيدي أمين.

ـ لقد رأيته هنا مرة مصحوبا بشاب أسود ومرة أخرى رأيت معه شابا أسمر. أعتقد أن حياته الجنسية كانت فاترة. كان يحب مداعبة الغلمان هنا ويعطيهم نقودا ليشتروا بها ثيابا دون أن يصحبوه إلى الفندق. كان إنسانيا جدا معهم. يشفق كثيرا على البائسين.

ثمّ قال ضاحكا:

ـ لقد كان له نفس جلدهم. لكن قل لي أما زال يسرق ولو مزاحا؟

ـ لم أسمعه قط يتحدث عن أنه ما زال يسرق، لكن الناس ما برحوا يتحدثون عنه كلص ظريف. أعتقد أن الذين يدعونه إلى حفلاتهم يروقهم أن يروه يختلس شوكة أو ملعقة من فضة ويضعها في جيبه دون أن يشعروه أنهم رأوه.

ضحك ضحكة صاخبة وقال:

ـ سأحكي لك ما حدث لي منذ سنوات. عندما كنت في بانكوك دعاني أمير إلى قصره للعشاء. كان شخصا جد مخنث. رأيت رسوماً لمؤخرات الرجال وأعضائهم التناسلية محفورة على جدران القاعة التي كنا فيها. قبل أن نتعشى كنت قد ثملت. كان قد أطلعني على مجموعة

جواهره التي يعتز باقتنائها. تركها هناك في القاعة فوق طاولة قربي. ذات لحظة ظننت أن أحدا لا يراني. أخذت بعض الجواهر ووضعتها في جيبي. أخذ المدعوون الذين رأوني أسرقها يضحكون. عندما لم أعدها إلى مكانها بعد أن انكشفت سرقتي ظن الأمير أني جاد في الاحتفاظ بها. ألح على بعض أصدقائه أن يطلبوا مني إرجاعها. كنت أدخل يدي في جيبي وأتحسسها وأعدها. لقد بلغ به الانزعاج أنه رفض تناول العشاء إلى جانبي.

ـ وهل أعدتها له؟

ـ طبعا. كنت ثملا، لكن لست أدري أكنت جادا في الاحتفاظ بها أم لا؟ من لا يتمنى أن تكون له جواهر؟

ـ حتى ولو كانت مسروقة.

ـ إن ذلك أجمل.

ـ لا شك أنك لم تكن ماهراً في اختلاسها.

ـ صحيح، لم أتدرب على ذلك في صباي مثل جنيه.

بعد لحظة سألني:

ـ أنا مدعو هذا المساء إلى قصر يورك، هل تعرف صاحبه؟

ـ لقد رأيته لكني لا أعرفه شخصيا.

25 ـ 7 ـ 73

صباحا. في مقهى باريس.

كنت جالسا مع أحمد اليعقوبي ومذيع يعمل في إذاعة طنجة. كان يريد أن يجري مقابلة مع تينسي للتلفزة المغربية. كان قد قام بنفس العمل مع اليعقوبي في مرسمه. رأينا تينسي يمر وحده قرب المقهى. قام اليعقوبي ودعاه ليجلس معنا. جرت محادثة بين تينسي والمذيع

واليعقوبي حول المقابلة. بدا الانزعاج على وجه تينسي. شرح تينسي لليعقوبي بالإنجليزية أنه لا يريد مثل هذه المقابلات الصحفية. كان يتكلم بتوتر. قال لليعقوبي:

ـ قل لصديقك المذيع أني ما زلت مشغولا في الانتقال إلى الفيللا التي اكتريتها في الجبل الكبير. عندما أستقر فيها فسوف نرى حينئذ إن كان ممكنا إجراء هذه المقابلة.

ثم اعتذر وانصرف.

30 ـ 7 ـ 73

كنت جالسا مع اليعقوبي في سطيحة مقهى باريس. مزاجه اليوم منزعج. ربما بسبب صديقته التي تركته وذهبت في رحلة إلى الجزائر وتونس. قال لي:

ـ لن أكلمها إذا هي عادت. (أضاف): لن أسمح لأحد بعد اليوم أن يدخل مرسمي. (أعرف أنه ليس جادا. إنه يقصد فقط الأشخاص الذين يضايقونه عندما تكون معه امرأة).

جاء تينسي. طلب من اليعقوبي أن يصحبه إلى البريد لسحب طرد أرسل له من أمريكا. قال له اليعقوبي إنه ينتظر النادل أن يرد له صرف ورقة مالية. كانت الثانية عشرة إلا خمس دقائق. طلب مني اليعقوبي أن أصحبه.

ركبنا سيارة أجرة. في الطريق قال لي:

ـ إن اليعقوبي يبدو عبسا هذا الصباح.

ـ صحيح. أعتقد أنه يحزن حينما لا تعيش معه امرأة. إن صديقته ذهبت في رحلة خارج المغرب.

قال ضاحكا:

ـ فليبحث عن غلام إذا لم يعثر على امرأة.

ـ إنه يجعل من الفتاة التي تعيش معه كاتبة. هو في حاجة دائما إلى من يقرأ له الرسائل التي يتسملها والإجابة عنها.

سألته عن صديقه باكسه الذي كان قد أصيب بمغص في معدته.

قال:

ـ إنه يتماثل للشفاء. (أضاف): إنه جد حالم. نرجسي. النرجسيون يحسون دائما بمرض ما في أجسامهم. إنه HYPOCONDRIAQUE (وَسْواسيّ المرض).

حينما نزلنا من السيارة قرب البريد قلت له:

ـ أظن أنهم أقفلوا.

في شباك المداومة طلب منا الموظف أن نعود في الرابعة مساء.

في انتظار مرور سيارة أجرة، قدام البريد، ليعود إلى فندقه، سألته:

ـ ألم تعثر بعد على غلام جميل؟

قال ضاحكا:

ـ ليس بعد. ذات مساء، عندما كنت ذاهبا لزيارة بول، رأيت في مقهى، قرب مكتب لا إيبيريا، كثيرا من الشبان الوسيمين.

ـ هل تنوي أن تغوي واحدا من هناك؟

ـ كلا. لقد قلت لك ذلك فقط. إنني أخشى الشبان الذين يجلسون في مقهى باريس. إنهم يبدون خطرين.

استقللنا سيارة أجرة. ودعته قدام مقهى باريس. وجدت اليعقوبي ما زال مكانه يتحدث مع فتاة أميركية. كنت أعرفها. لقد وجدها. لن تمانع في الذهاب معه. حييته بإشارة من يدي ودخلت المقهى.

التقيت تينسي صدفة في شارع محمد الخامس حوالي الرابعة. كان

ذاهبا إلى البريد لاستخلاص طرده. عرضت عليه أن أصحبه. رحب بالفكرة بسرور. ركبنا في تاكسي. إنه يفضل أن يركب في السيارة حتى ولو كانت المسافة التي يقصدها جد قصيرة.

في مكتب استلام الطرود سلم لهم استدعاء السحب. فحصت موظفة جواز سفره وقالت له:

ـ اسمك الشخصي هنا توماس وفي الطرد تينسي.

شرح لها أنه كاتب وله اسم مستعار ثم أراها إياه في أسفل الصفحة. كان طردا مليئا بالرسائل وقصاصات صحف ومجلة بلاي بوي. قال الجمركي فاحصا المجلة:

ـ أوه! كلا. هذه المجلة ممنوعة هنا في المغرب.

أخذ يتفحصها ويبدي اشمئزازه من صور الرجال والنساء العارية. جاء موظفان آخران وفتاة ذات وجه قلق. كان الجمركي يقلب صفحات المجلة ويقول للموظفين حوله.

ـ انظروا! هل هذا ممكن أن يدخل المغرب؟ إنها صورة قذرة. كلا، كلا، لا يمكن أن نسمح بتسليم هذه المجلة الخليعة.

قال لهم تينسي بالفرنسية غاضبا:

ـ لكن هذه المجلة تباع هنا في طنجة.

قال الجمركي:

ـ كلا، كلا، لقد منعت من الدخول إلى المغرب. انظر! انظر! إن هذا العدد فيه صور رجال ونساء عراة. حتى الرجال بدأوا يتعرون في هذه المجلة.

أخذ الجمركي ينظر في قصاصات الصحف. كان يحاول أن يقرأ عناوين المقالات بالإنجليزية ويفتح الرسائل ويتفحصها ورقة ورقة. صرخ تينسي بالإنجليزية ضاربا كفا بكف:

ـ أووه! لا. لا يمكن أن يحدث هذا هنا. سأغادر المغرب في أسرع ما يمكن.

قال للموظفة التي كانت تنظر إليه بعصبية وتحاول أن تفهم ما يقوله:

ـ إن هذا الإجراء لا يحدث في أي مكان من العالم.

ـ إنك تعتقد ذلك. اذهب إلى باريس، مثلا، وسترى كيف يفتشون الرسائل والطرود.

قال تينسي بالفرنسية للجمركي الذي كان يفحص الرسائل واحدة فواحدة:

ـ لكنها مجرد رسائل شخصية. ليس فيها أشياء خَطِرة. لا أعتقد أنهم أرسلوا لي قنبلة متفجرة.

قال لي الجمركي بالدارجة:

ـ قل له إن القانون الجديد يحتّم علينا أن نفتح كل الرسائل.

شرحت ذلك لتينسي بالإنجليزية. قال بصوت صارخ:

ـ نادوا إذن على البوليس إذا شئتم. نادوا على البوليس. ماذا تنتظرون؟

كان تينسي يتكلم أحيانا بالفرنسية وأحيانا بالإنجليزية. رأيت رسالة فتحوها ولم يفحصوها يطل منها طرف شيك بنكي. فجأة، كما هي عادة تينسي عندما يتأزم في موقف حرج، صار ينظر إلى ما يحدث بسخرية مرحة. أخذ يضحك من كلّ كلمة يقولها هو أو يسمعها من الجمركي أو من أحد الموظفين المساعدين. مل الجمركي من عملية فتح الرسائل وقال لي:

ـ اجمع الرسائل وضعها في الصندوق. إنني سأعمل معه معروفا. سأتجاوز عن فتح كل الرسائل. الواجب يقضي بفتح كل الرسائل.

كانت معي نسخة التجارب لكتابي: «من أجل الخبز وحده». خفت أن ينتبهوا للكتاب ويطلبوا مني أيضا فحصه. إن كل شيء جائز في مثل هذه الظروف. قال تينسي بالفرنسية:

ـ طيب. خذوا المجلة وأعطوني فقط الصفحات التي تحتوي على قصتي المنشورة فيها. إنني لا أريد تلك الصور العارية.

قال الجمركي:

ـ كلا. حتى هذا لا يجوز.

ثم قال لي بالدارجة:

ـ قل له أن ينتظر. سأذهب كي أرى إن كان الرئيس قد جاء.

شرحت ذلك لتينسي. قال:

ـ هذا لا يمكن. هذا لا يطاق هنا. طنجة لم تكن هكذا في يوم من الأيام.

عاد الجمركي بسرعة وقال:

ـ الرئيس لم يصل بعد. سيصل بين لحظة وأخرى.

ألحّ تينسي على الجمركي أنه لا بد أن يقتطع من المجلة قصته. قال له:

ـ موضوع قصتي ليس عن العراة.

أمسك المجلة وبيّن للجمركي الصحفات التي يريد أن يقتطعها. تسلم منه الجمركي المجلة وذهب بها عند موظف آخر يبدو أنه ينوب عن الرئيس في حالة تأخره أو غيابه. عاد وقال لتينسي بنفاد صبر.

ـ طيب، اقتطع الصفحات التي تحتوي عليها قصتك.

بينما كان تينسي يبتر صفحات قصته سألني الجمركي بالدارجة:

ـ هل هو مريض بذلك الشيء؟

قلت له متجاهلا ما يعنيه:

ـ ما هو ذلك الشيء؟

قال فاحصا هيأتي المهملة من أعلى إلى أسفل:

ـ هل هو «حساس»؟

شعرت بإهانة. قلت له بحدة:

ـ ليس شغلي. هذا يتعلق بحياته الخاصة. إنني أستاذ وهو صديقي. وأنا أنا لست لوطياً.

قال معتذراً:

ـ تشرفنا. إنني فقط أسألك.

قلت له باستهزاء:

ـ يمكنك أن تسأله إذا كان الأمر يهمك كثيرا.

ـ كلا، كلا. إنني أسألك أنت.

اقتطع تينسي صفحات قصته وأخذت أنا أربط صندوق الكرتون. جاء جمركي آخر أعلى رتبة من الجمركي الأول وقال:

ـ افسخ لنرى ما هناك.

قلت له:

ـ إنني أربط ولست أفسخ. (أشرت إلى الجمركي الآخر) لقد فتش كل الرسائل.

قال له الجمركي الأول:

ـ صحيح، فتشت كل الرسائل.

كان الجمركي الأول ما زال محتفظا بجواز سفر تينسي. سأله:

ـ أين جواز سفري؟

سلمه له الجمركي ووضعه في جيب سرواله الأسود بسرعة. كان بلا سترة.

في الخارج قال لي ضاحكا:

ـ إنها حكاية ظريفة لن أنساها أبدا. أعتقد أن الصور العارية أعجبتهم فأرادوا الاحتفاظ بها.

قلت له:

ـ إن ثمن البلاي بوي غال هنا.

ـ الجو حار. لنذهب إلى قاعة مدام بورت ونشرب شيئا باردا. (أضاف): من أين يمكن لنا أن نأخذ تاكسي؟

ـ إن قاعة مدام بورت قريبة منا.

ـ صحيح؟ لنمش إذن.

ردد ضاحكا عدة مرات:

ـ يا لها من حكاية مضحكة!

حيتنا مدام بورت لدى دخولنا. كانت جالسة قبالة المدخل. سألته:

ـ لا شك أنها تعرفك.

ـ ربما. كنت آتي إلى هنا كثيرا في السنوات الماضية.

سبعة أو ثمانية أشخاص في القاعة. جلسنا في الوسط. طلبنا من الخادمة قدحي مارتيني أبيض بارد. عرض علي أن أطلب الحلوى. قبلت شاكرا. كنت جائعا ومفلسا. لم أكن قد تناولت طوال اليوم سوى كوب من الحليب وقهوة بالحليب. فكرت: هذه هي مساوئ السكر يوميا في حانات البغايا. تفو على الفروج النتنة!

نادى تينسي على الخادمة الإسبانية التي تشبه بطة في مشيها وطلب منها الحلوى. جاءت حاملة صينية مليئة بأنواع كثيرة. اخترت نوعا لم أكن قد تذوقته من قبل. سألتها عن اسم تلك الحلوى فقالت:

ـ اسمها الراهبة.

أخرج صفحات قصته: «ساباثا والوحدة» SABATHA AND SOLITUDE ووضعها فوق الطاولة.

جاءت الخادمة بالمشروبين في كأسين رفيعتين. في داخل كل كأس قشرة ليمونة مقطوعة بشكل حلزوني ينتهي برأس صغير يشبه رأس أفعى صغيرة. رشف تينسي بلذة وقال:

ـ إنه جيد هذا الشراب هنا.

رشفت من كأسي وقلت له:

ـ صحيح. إنه بارد وطعمه لذيذ.

فكرت لنفسي: أولاد القحاب، كم يتمتع هؤلاء الذين يملكون كثيرا من الأموال!

نظرت إلى القشرة ـ الأفعى ونظرت إلى الكتاب الذي أحمله معي: (الثعبان ذو الريش) للورنس. أريته الكتاب. قال:

ـ لقد قرأته . إنه كتاب جيد عن المكسيك.

أمسك صفحات قصته وقال:

ـ هل تسمح؟ سأقرأ قصتي. إن ما ينشر لي أقرأه كما لو كنت أقرأه للمرة الأولى.

ـ إنك تقرأ إنتاجك المنشور إذن كقارئ وليس ككاتبه.

ـ إذا شئت فنعم.

أخذ يقرأ وأنا آكل الحلوى ـ الراهبة وأرشف من كأسي الباردة. أتأمل الأشياء وأحلم. كان يمد لي كل صفحة ينتهي من قراءتها. كنت أحيانا أقرأ بعض السطور كاملة وأحيانا أقرأ كلمة هنا وكلمة هناك. جو القصة إيطالي. كنت أقرأ وأرشف من كأسي وآكل الراهبة كطفل وأدخن. طعم الراهبة وطعم المارتيني يمتزج لذيذا في فمي. الجالسون في القاعة يتحدثون بهمس. موسيقى كلاسيكية هادئة. بين لحظة

وأخرى يسمع هدير سيارة أو دراجة نارية ثم يسود صمت. كل صفحة من قصة تينسي تتلاشى معها بضع دقائق. كل رشفة من كأسي أو مجة من سيجارتي أو قضمة من راهبتي الحلوى يموت معها جزء من حياة. تينسي يضحك أحيانا ضحكة خفيفة.

انتهى من قراءة قصته ووضع صفحاتها في جيبه. نظر إلى كتاب لورنس وسألني:

ـ هل يعجبك هذا الكتاب؟

ـ نعم. وتعجبني كل كتب لورنس. أنت أيضا يعجبك. لقد اقتبست إحدى مسرحياتك من قصة له: (أثرت عواطفي) You touched me.

ـ لورنس كاتب كبير.

سألته عما إذا كانت الحياة في طنجة ما زالت تعجبه.

ـ أووه! كلا. طنجة تغيرت كثيرا. من قبل كان هنا أصدقاء كثيرون. لم يعد لي فيها اليوم سوى بول بوولز.

ـ هل تعرف براين جيسن Brion Gysin؟

ـ آ! الأميركي. أين هو الآن؟

ـ سمعت أنه في لندن. يعمل مع وليام بروز في كتابة سيناريو عن أحد كتب بروز W Burroughs.

ـ براين شخص غريب الأطوار.

نهض وقال:

ـ سأذهب لأستريح قليلا. إنني مدعو مع بول وكارول أرْدمانْ للعشاء في الجبل عند أحد الأصدقاء. أُحسّ بالتعب. شربت أمس كثيرا في فندق رامبراند.

31 ـ 7 ـ 73

الخامسة والربع مساء.

قابلته قرب مقهى باريس. يبدو عليه التعب. قال:

ـ لا بد أن أزور طبيبا. لم أنم جيدا منذ يومين.

سلمت له العدد العاشر من مجلة أنتيوس المنشور فيه القسم الأول من ذكرياتي عن جنيه في طنجة.

1 ـ 8 ـ 1973

التقيته في شارع محمد الخامس صحبة باكسه. أعطاني تعليقه على سيرتي الذاتية: «وثيقة حقيقية عن اليأس الإنساني تستأثر بالنفس».

ـ أعتقد أن تعليقك هذا سيرفع من قيمة مبيعات الكتاب.

قال ضاحكا:

ـ وهل ستقتسم معي إذا بيع الكتاب جيدا؟

ـ سأفعل إذا بحثت لي عن ناشر في أميركا.

انزعج مما قاله عنه جنيه. كنا واقفين في رصيف شارع محمد الخامس قبالة سور الكسالى. قال:

ـ إن جنيه كذاب. أنا لم أكلمه في الهاتف كما قال لك. إن فرانسواز ساجان هي التي حاولت أن تجعل ذلك الاتصال يتم بيني وبينه.

ـ إنني أكتب مذكراتي عنك. فهل تريد أن أكتب ما قلته لي عن تكذيبك لما قاله عنك جنيه؟

ـ أوه. الأمر ليس مهما. لا شك أنه كان مريضا في ذلك اليوم. إنسان مريض. ربما هو يتناول كثيرا من أقراص نيمبوطال فلا يعود يذكر جيدا ما حدث له.

وجدت جافن لامبرت جالسا في رصيف مقهى باريس يتشمس. حدثته عن انزعاج تينسي مما قاله جنيه عنه. قال جافن:

ـ نعرف أن جنيه كذاب. أنا أعرف جيدا تينسي. إنه صريح. ليس مغرورا مثل جنيه. حاول أن توضح ذلك في مذكراتك التي تكتبها عن تينسي في طنجة.

زرت بول. سلمت له تعليق تينسي على كتابي ليبعث به إلى الناشر الإنجليزي بيتر أوين Peter Owen. ذكر لي أن تينسي سيسكن في فيلا جميلة في الجبل الكبير.

4 ـ 8 ـ 1973

كنت صحبة إدوار روديتي. كنا نبحث عن مكان مناسب في رصيف مقهى باريس. قلت له:

ـ ها هو ذا تينسي وصديقه الإنجليزي.

ـ كانا آتيين من شارع محمد الخامس. تبادلنا التحية. تحدث روديتي مع تينسي قليلا عن طنجة. التفت إليّ روديتي وقال لتينسي:

ـ أنا الذي قدمته إلى بول واقترحت عليه أن يترجم له كتاباته إلى الإنجليزية.

قال له تينسي باسما:

ـ غودْ جابْ. (أضاف): لقد قرأت كتابه من أجل الخبز وحده وأعجبني.

صافحانا وذهبنا في اتجاه فندق المنزه. قال لي روديتي عن تينسي:

ـ إننا غير منسجمين، لكن مثل هذه المجاملة ضرورية بين الكتاب. إنني أعرفه عندما كان شاعراً مغموراً كما قلت لك من قبل.

9 ـ 8 ـ 1973

11,5 صباحا.

كنت جالسا على رصيف مقهى باريس عندما وصل تينسي صحبة باكسه. جلسا وقال لي تينسي:

ـ غدا سأسافر إلى أوروبا.

قلت له:

ـ هكذا سريعا.

كان يبدو متضايقا قليلا. ربما بسبب باكسه الذي يبدو كتمثال جميل، لكن تينسي لم يرد أن يقوم بدور بيجماليون.

الحرارة خانقة. طلب تينسي كوكا باردة وكأسا من فرني ـ برانكا. صديقه طلب كوكا. كانت أمامي قهوتي بالحليب التي كرهت طعمها. لم يكن في جيبي أكثر من ثمنها. كنت راغبا أنا أيضا في تناول بيرة باردة، لكي أسكن غضبي على إفلاسي رحت أدخن بشراهة. كنت أحس بطعم التراب في فمي. قلت لتينسي:

ـ إنني سأكتب عن زيارتك لطنجة كما فعلت مع جنيه.

ـ عني أيضا؟ ماذا ستكتب؟

ـ مذكرات عن الأيام التي قابلتك فيها.

ضحك. مرت امرأة مغربية جبلية. التقط لها باكسه صورتين من الخلف. طلبت منه أن يأخذ لي صورة مع تينسي لأضعها في الكتاب الذي سأكتبه عن تينسي. قال لي بصوت رخو:

ـ أعتذر. لم يبق لي في الشريط إلا ثلاث أو أربع صور أخرى لبعض البدويين المغاربة.

وقف قدامنا شاب يهودي تصحبه فتاة فرنسية قصيرة. حيانا ثم أخذ يتكلم مع تينسي بالإنجليزية عن الموسيقى. يتكلم بسرعة ولا يتوقف إلا ليلتقط أنفاسه. تينسي يصغي إليه مندهشا. بين لحظة وأخرى يهز له تينسي رأسه متمتما:

ـ آهاه! إني أرى. إني أرى.

كنت أدخن بشراهة وأنظر إلى الشاب من خلال دخان سيجارتي.

كانا، هو ورفيقته، واقفين في سكون. لم يكن يتحرك في الشاب إلا شفتاه. رفيقته تبدو كشاهدة على ما يقوله دون أن تتفوه بكلمة. خيل لي أنهما ليسا من هذا العالم. فكرت: رجل وامرأة هبطا من عالم آخر. إنهما روبوطان. لم أفهم من الشاب سوى مثل هذه الكلمات: الجاز، البلوز، الشباب، حركة جديدة، تجارب جديدة، نريد مستقبلا آخر للموسيقى. نريد من يساعدنا.

قال له تينسي فجأة:

ـ أنا لا أفهم في الموسيقى. أعتقد أن بول بوولز، إذا كنت تعرفه، سيفيدك.

صافحه الشاب قائلا:

ـ إنني أعرف بول بوولز منذ سنوات. شكرا.. مع السلامة.

ثم انصرفا.

التفت إلي تينسي:

ـ هل تعرفه؟

سمعت أنه موسيقي ورفيقته تحاول أن ترسم.

قال:

ـ أنا لم أفهم منه شيئا، وأنت؟

ـ أنا أيضا.

ـ إنه شخص غريب.

صاح رجل مغربي بالإنجليزية كان جالسا عن يمين باكسه.

ـ هللو مستر تينسي! إنني أعرفك منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما. كنت تأتي إلى السوق الداخلي. هل تذكرني؟

قال له تينسي:

ـ أعتذر. لا أتذكرك. إنه زمن بعيد.

ـ صحيح، إنها خمسة وعشرون عاما. كانت الحياة رائعة في طنجة آنذاك، خاصة في السوق الداخلي.

سألني تينسي بصوت خفيض:

ـ هل تعرفه أنت؟

ـ نعم، يظل اليوم كله جالسا في هذا المقهى وفي الليل ينتقل بين الحانات.

ـ ماذا يشتغل؟

ـ كل شيء ولا شيء. قيل لي أنه يلحس فروج النساء.

قال ضاحكا:

ـ إنه شخص بليد.

صمتنا لحظة قال:

ـ العالم مليء بالتفاهة والبلادة. يفتش الإنسان اليوم عن صديق فلا يجده. الموت أفضل من العيش في عالم تافه.

فكرت: تينسي يحب أن يكون وحيدا، لكنه أيضا يخشى الوحدة.

كتب لي عنوانه في كتاب رامبو الذي كان معي. نهض ليذهب إلى فندقه. عانقني بحرارة قائلا:

ـ ربما نلتقي ذات يوم. استمر في الكتابة.

صافحت باكسه ببرود. رأيت تينسي يمشي بخفة وباكسه إلى جانبه مثل روبوط.

الفهرس

محمد شكري

الأعمال الكاملة

نزح محمد شكري، وكان طفلاً، مع عائلته من الريف إلى طنجة. عائلة نازحة تعاني الفقر وشظف العيش. حيث كان مجرّد ملء معدته حلماً.

وهو صغير عمل مع والدته في بيع الخضار ولمّا لم تستطع عائلته تأمين حتى الطعام، أُرْسِل إلى وهران في الجزائر ليعمل عند عائلة فرنسيّة كخادم. وهو شاب ذهب للمرة الأولى إلى المدرسة في تطوان في ظل ظروف قاسية. ولكن هذا التعليم أظهر شغفه بالقراءة ثم بالكتابة.

في تلك الفترة كانت طنجة التي انتقلت من الاحتلال الاسباني إلى "الحماية" الفرنسية ثم إلى الاستقلال، المدينة الحلم لعدد كبير من الأجانب، فهي على الحدّ ما بين المتوسط الأطلسي، وما بين أوروبا وأفريقيا، وتمثّل حلم الشرق لكثير من الكتاب والرحّالة والباحثين عن حياة خارجة عن كل تقليد.

كانت مدينة الحانات وبائعات الهوى، وكان الحشيش في كل مكان وتدخينه مباح. في هذه الأماكن عاش محمد شكري حياة الصعلكة، حياة بين البحث عن أقصى المتعة والتعوّد على أقسى الحرمان.

هذه هي سيرة محمد شكري التي كتبها على ثلاث مراحل مجموعة في هذا الكتاب.

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
www.ccaedition.com
markaz@wanadoo.net.ma

ISBN 978-9953-68-294-1

9 789953 682945